

# برق

نروي لرتوي

ثقافية فكرية أدبية

تحرير

عمر ماجد السنوي  
سلطان صلاح ماجد  
حسن ظلال الرضائي

العدد الثامن

1447هـ / 2026م

عدد خاص عن

بغداد

مدينة السلام





بغدادُ يا قلبَ العراقِ ووَعِيَهُ      وضميرُهُ، لا زعزَعَتِكَ رِيحُ

الجَوَاهِرِيُّ





   rawamag

 [www.rawamag.com](http://www.rawamag.com)

 [info@rawamag.com](mailto:info@rawamag.com)

 +9647706573652

تصميم وإخراج: عمر السنوي



نروي

نروي لـنروي

ثقافية فكرية أدبية

أسرة التحرير

رئيساً  
عمر ماجد السنوي

مديراً  
سلطان صلاح ماجد

مدققاً  
حسن طلال الرضائي

العدد الثامن 1447هـ / 2026م

عدد خاص عن

بغداد

مدينة السلام



## مع ملاحظة ما يلي:

- خضوع المشاركات المرسلة **للتقييم والتحرير** بما يوافق سياسة النشر في المجلة، وتُنشر المشاركات المقبولة في غضون أسبوعين من وُرودها.

- **حق الردّ** مكفول لكلّ مَنْ يرى أنّ في شيءٍ من المشاركات النقدية ما يخالف الصواب من وجهة نظره.

- **الآراء الواردة** في المشاركات تعكس رؤية أصحابها ولا تعكس بالضرورة رؤية المجلة.

- **عدد صفحات** المقال بين (1 - 5) وأما الدراسة فلا تقل عن (5) صفحات، والزيادة تكون بحسب طبيعة الدراسة.

**ترسل المشاركات بإسم مدير التحرير** عبر صفحات المجلة، أو عبر الواتساب:

+9647706573652

أو عبر البريد الإلكتروني:

[info@rawamag.com](mailto:info@rawamag.com)

**تُعنى** مجلة روى بنشر الدراسات والمقالات في مختلف العلوم الإنسانية، كما تفسح المجال للأدباء والهواة لنشر نصوصهم الإبداعية، في سائر الأجناس النثرية والشعرية.

**وتتميّز المشاركات المقبولة للنشر فيها** بأن تصبح مؤهلة للطباعة ضمن إصدارات المجلة، إما في أحد أعداد المجلة أو في أحد الأجزاء المنفردة.

## ويُشترط في المشاركات:

- أن لا تكون منشورة سابقاً في أي وعاء آخر.
- وأن تتصف بنوع من الجِدّة، والمعالجة الهادفة. وتناهى عن الاتصاف بالعبثية.
- وأن تتنزّه عن الاستلاب وعن التبعية والعنصرية وعن كلّ ما يخالف المبادئ الإسلامية وأصالة القيم العربية.



# فَهْرَسُ الْجَدِيدِ الثَّامِنُ

| الموضوع                                                                                 | الصفحة |
|-----------------------------------------------------------------------------------------|--------|
| الافتتاحية (بغداد.. مجمع الأمجاد وصلة الأحفاد بالأجداد)                                 | ٩      |
| القسم الأول (الدراسات)                                                                  |        |
| تاريخ الاستيطان في منطقة بغداد عبر العصور القديمة<br>أ.د. محمد طه الأعظمي               | ١٥     |
| بغداد.. مدينة في حقائب الرحالة<br>د. أحمد الحصاوي                                       | ٤٣     |
| بغداد.. حاضرة الفكر وروح تصوّف<br>أ.د. نظلة أحمد الجبوري                                | ٧١     |
| النفحات البغدادية على الديار الأندلسية<br>د. عامر معدوح خيرو                            | ٩٣     |
| الباروني في بغداد.. ذكريات وحكايات<br>محمّد عَكْرَة التَّوِيرِيّ                        | ١١٥    |
| وقائع بغداد في الرسالة البغدادية لأبي حيان التوحيدي<br>د. علي حداد                      | ١٣٩    |
| القراء البغداديّون ودورهم في تقعيد علم القراءات ونشره<br>أ.د. أسامة عبد الوهاب الحيّاني | ١٥١    |
| خزائن الكتب البغدادية<br>رياض زيد المختار                                               | ١٦١    |
| مصحف أماجور.. تاريخه ووصفه ومكانته<br>أحمد وسام شاكر                                    | ١٨٦    |
| بغداد.. الاسم والجذور الحضارية<br>معتصم المفتي                                          | ١٩٦    |
| بغداد.. من الحظر اللغوي إلى الرمز العربي<br>د. محمد جمعة الدربي                         | ٢١٧    |
| القسم الثاني (المقالات)                                                                 |        |
| المثقف البغدادي<br>سلطان صلاح                                                           | ٢٢٣    |
| الثقافة والهوية الوطنية<br>أ.د. محمود أحمد المعماري                                     | ٢٢٥    |

| الموضوع                                                                                  | الصفحة |
|------------------------------------------------------------------------------------------|--------|
| شارع المتنبي ذاك الثقافة الحية في بغداد أسامة فاضل                                       | ٢٢٧    |
| بغداد مدينة القانون والقصيدة مصطفى هشام هجرس                                             | ٢٢٩    |
| العمارة في بغداد أسلوب حياة إسماعيل كرم                                                  | ٢٣٢    |
| عند بوابة جامع مرجان د. عماد جاسم                                                        | ٢٣٦    |
| جامع الأحمدية في بغداد فلاح السامرائي                                                    | ٢٤٠    |
| "ترامواي" في شارع الرشيد عادل العرداوي                                                   | ٢٤٥    |
| الوجه الآخر لبغداد علاء الدين أحمد شهاب                                                  | ٢٤٨    |
| البساسيري.. حين اهتزت بغداد بين رايتين أحمد خضر                                          | ٢٥٣    |
| تاريخ اليهود في بغداد حسن جاسم                                                           | ٢٥٨    |
| خطوط علماء بغداد عبد القادر صبحي الجبوري                                                 | ٢٦١    |
| صراعات أعلام بغداد.. عباس العزاوي وبهجة الأثري نموذجًا عمر السنوي                        | ٢٧٧    |
| رفعت الجادرجي.. بين ضريح امرئ القيس ونصب الجندي المجهول صادق الطائي                      | ٢٨٣    |
| مصطفى جواد في رسائله إلى أنستاس ماري الكرمللي د. سعيد عدنان                              | ٢٨٩    |
| بغداد.. بين نازك والسيّاب عبد الله نصّار                                                 | ٢٩٥    |
| همسات بغداد في ذاكرة الأساتذة ( فهمي المدرّس ورحلة التعليم العالي في العراق ) ياسين محمد | ٣٠٠    |
| الشيخ المنشاوي.. نفحات القرآن في دار السلام إسماعيل سعدون                                | ٣٠٢    |
| أم كلثوم في بغداد أحمد صبري                                                              | ٣٠٧    |



| الموضوع                                                          | الصفحة                          |
|------------------------------------------------------------------|---------------------------------|
| مدرسة الأمير سعادة الرسائي البغدادية                             | طالب عيسى ٣١٨                   |
| ثانوية كلية بغداد.. تاريخها ومكانتها وخصائصها وأعلامها           | سعد باسم مخلف الحديثي ٣٣٢       |
| ذكريات في جامعة بغداد                                            | أ.د. أنمار نزار الحديثي ٣٣٧     |
| دور جامعة بغداد والمستنصرية في تدريس التاريخ الأوربي             | أ.م.د. قاسم عبد الأمير وسيم ٣٤١ |
| بيت الحكمة.. الوجه المضيء لبغداد الرشيد                          | د. عمار مرضي علاوي ٣٤٤          |
| بيت الحكمة المعاصر                                               | أ.د. سامي حمود الحاج جاسم ٣٤٩   |
| القسم الثالث (عالم الكتب)                                        |                                 |
| التراث الشعبي يكتبه المحبّون.. كتاب "بغداد في العشرينات" نموذجًا | أ.د. هيثم عبد السلام محمد ٣٧٧   |
| مولانا خالد البغدادي، أول إصدارات موروث العراق العلمي            | سلطان صلاح ٣٨٠                  |
| الجهود الرقمية المعاصرة في حفظ التراث                            | عبد القادر صبحي ٣٨٤             |
| من وحي الليالي الألف (عودة السندباد)                             | علاء الدين أحمد ٣٩٩             |
| القسم الرابع (النصوص الأدبية)                                    |                                 |
| الليلة المنسية من ألف ليلة وليلة                                 | د. عارف الساعدي ٤٠٥             |
| الاعتراف الأخير للسندباد                                         | عامر الرقبة ٤٠٧                 |
| بغداد المواسم                                                    | عمر السّوّي ٤٠٩                 |
| أيّا بغداد                                                       | عدنان آل ناصر ٤١٢               |
| نسيت بغداد؟! (قصة وقصيدة)                                        | سلام عبد الرزاق عبد الواحد ٤١٣  |





# افْتِتاحِيَّةُ الْعَدَدِ الثَّامِنِ

(بغداد.. مجمع الأَمْجاد وصِلَة الأَحْفاد بالأَجْداد)

الحمدُ لله الذي جعلَ للمدائنِ أعماراً كأعمارِ الرجال، فمنها ما يهرُمُ فيغيبُ ذكرُه، ومنها ما يخلدُ فيسري اسمُه في الآفاق كما يسري العطرُ في الهواء. وإنَّ من المُدنِ مدينةً إذا ذُكرتْ حضرتْ معها العصورُ، وإذا نُوديتْ استيقظتْ بها صفحاتُ التاريخ، وإذا نُطِقَ اسمها أحسَّ السامعُ كأنَّ الحضارةَ تتكلم بلسانها؛ وتلك هي بغداد، مدينةُ السلام، وسيِّدةُ المدائن، وعاصمةُ الدنيا، وحاضرةُ الثقافة، ومفترقُ طُرُق الفكر، ومَهوى أفئدة العلماء والأدباء، والخواص والعوام.

إنَّها مدينةٌ بُنيتْ بالعقول قبل الحِجارة، ورُفِعت أسفارُها مع أسوارِها لِتكون أساس الحضارة، فكم أخرجتْ من كتابٍ ملأ الدنيا علماً، وكم أنشأتْ من عالمٍ ملأ الآفاق ذِكْراً، وكم ولدتْ من شاعرٍ طار في الناس صيته، وكم صنعتْ من قائدٍ سار بالأمَّة إلى العلياء، حتى غدتْ بغداد في تاريخ الإسلام قلباً نابضاً، إذا نبضَ دَبَّت الحياةُ في أطراف البلاد جميعها.

وما كان اختيارُ بغداد عاصمةً للثقافة الإسلامية (لعام ٢٠٢٦م) إلا ردّاً لاعتبارٍ قديم، وتذكيراً بفضلٍ عميم، وتوثيقاً لصحوةِ أبناء الجيل الحاضر؛ إذ كانت بغدادُ في القرون الخالية سوقَ العلم، ومجلس الأدب، وميدان النظر، ومجمع العلماء.

ومن أجل ذلك جاء هذا العدد الثامن من مجلة «روى» الثقافية الفكرية الأدبية ليكون تحيةً علميةً وأدبيةً إلى هذه المدينة التي ما فتى التاريخ يكتب أخبارها، ولا تزال الثقافة تستعيد صورتها.

وقد اجتمع في هذا العدد طائفة من العلماء والباحثين والأدباء، فكتب كلُّ واحدٍ

منهم أسطرًا من كتابِ بغداد الكبير، حتى غدت صفحات العدد كأنها فسيفساء حضارية تعكس وجوه المدينة في التاريخ والفكر والنقد والأدب.

فقد غني القسم الأول (قسم الدراسات) بأحد عشر بحثًا؛ فكتب الأستاذ الدكتور محمد طه الأعظمي دراسته عن تاريخ الاستيطان في منطقة بغداد، مستعرضًا الجذور الحضارية للمدينة في العصور السحيقة، وكيف مهّد الموقع الجغرافي لقيام الحضارة العباسية لاحقًا.

ثمّ تناول الدكتور أحمد الحصناوي في دراسته صورةَ بغداد في أدب الرحلات عبر العصور وصولًا إلى العصر الحاضر.

وأما الأستاذة الدكتورة نائلة أحمد الجبوري فقد عالجت في بحثها موضوع الفكر الصوفي البغدادي ومدرسة التصوف البغدادية، ليكشف البحث عن ماهية الترابط الوثيق بين ازدهار الثقافي والواقع الحضاري وآفاقه الفلسفية بأبعادها الروحية.

وكتب الدكتور عامر ممدوح خيرو دراسةً حضارية عن الصّلات العلمية بين بغداد والأندلس، مبرزًا دور بغداد في إشعاع المعرفة وانتقالها إلى الحواضر الكبرى.

وكتب الأستاذ محمد عكرة النويري عن الصّلات التاريخية والعلمية والسياسية بين بغداد وطرابلس الغرب من خلال ذكريات الباروني، مع إبراز دور الرحلات والعلماء في توثيق هذه الروابط.

وكتب الدكتور علي حداد دراسة تاريخية عن وقائع بغداد من خلال رؤية أبي حيان التوحيدي في رسالته المهمة (الرسالة العراقية).

وكتب الأستاذ الدكتور أسامة عبد الوهاب الحيّاني عن قراء بغداد، وأثرهم في نشأة علوم القرآن والقراءات، مع بيان دور بغداد في ازدهار علم القراءات القرآنية ونشأة

مدارس الإقراء فيها.

وكتب الأستاذ رياض زيد المختار عن خزائن الكتب البغدادية الخاصة وكنوزها التراثية، فجاء بحثًا يوثق عددًا من المكتبات الشخصية البغدادية وما احتوته من مخطوطات ونفائس الكتب.

وكتب الأستاذ أحمد وسام شاكر بحثًا تاريخيًا وصفيًا استقصائيًا عن مصحف أماجور (والي العباسيين)، تعريفًا به وبصاحبه، وبأهميته، وبما وصل إلينا من أجزاءه المخطوطة.

وكتب الأستاذ معتصم المفتي دراسة تناول فيها بغداد والعراق في الوعي التاريخي واللغوي والجغرافي فجاءت دراسة ترصد مفهوم العراق واسم بغداد في النصوص القديمة والمصادر العربية والآثار المسمارية.

وكتب الدكتور محمد جمعة الدربي دراسة لغوية تاريخية عن اسم بغداد وأصوله في المصادر اللغوية والتاريخية، كاشفًا عن التراكم الحضاري الذي تشكّل منه اسم المدينة ومعناه وعن سبب امتناع بعض العلماء عن إطلاقه في فترة من الزمن.

ثم يأتي القسم الثاني (قسم المقالات) الذي اشتمل على خمسة وعشرين مقالة، تناولت بغداد من جوانب متعدّدة، بدءًا بثقافتها وثقافة أهلها وثقافة شوارعها، مرورًا بعمرانها وآثارها، ثم بأعلامها وزوّارها، وانتهاءً بمدارسها ومؤسساتها العلمية؛ فكانت مقالات تجمع بين تسليط الضوء على الماضي، وبين تدوين بعض الحاضر، كل ذلك جاء بعيون المؤرخين والنقاد والأدباء.

وفي القسم الثالث (عالم الكتب) نطالع أربع مقالات تسلط الضوء على مجموعة من المؤلفات المهمة ذات الصلة ببغداد وتاريخها وآدابها وأعلامها.



وأخيرًا يأتي القسم الرابع (النصوص الأدبية) محملاً بما تستحقه بغداد من تكريم شعري أدبي حافل خالداً، أبدعه شعراؤنا الكبار: د. عارف الساعدي، وعامر الرقيبة، وعدنان آل ناصر. وفي آخرها حكاية قصيدة كتبها متنبّي العصر الحديث (عبد الرزاق عبد الواحد) يرويها لنا نجله الكريم السيد سلام عبد الرزاق.

وهكذا تتجاوز في هذا العدد الدراسات التاريخية، والبحوث الفكرية، والمقالات الثقافية، والنصوص الأدبية، لتصوغ معاً صورة مدينة كانت -وما تزال- فكرةً في الحضارة، وذاكرةً في التاريخ، ورمزاً في الثقافة. فبغداد مدينةٌ يذكرها المؤرخ ليستعيد أمجاد العلم، ويذكرها الأديب ليستحضر أنفاس الشعر، ثم يذكرها القارئ ههنا ليفتح باب الحضارة على مصراعيه؛ فما هذا العدد إلا محاولةٌ لإضاءة بعض جوانبها.

ولا يسعنا في الختام إلا أن نزجي جزيل الشكر لكل من ساهم في هذا العدد، داعين أن تبقى أقلامهم موصولة بالعطاء، وأفكارهم مستنيرة بالحقيقة والجمال.

أسرة التحرير



The image features a highly decorative border in a traditional Islamic style. The border is composed of multiple layers of intricate patterns. The outermost layer is a repeating geometric star pattern in gold and blue. Inside this is a band of stylized floral and foliate motifs, also in gold and blue. The innermost part of the border is a wide, light-colored area with delicate, wispy floral patterns. The central text is written in a large, elegant, blue calligraphic script. The overall color palette is dominated by gold, blue, and white, with occasional touches of red and green in the floral details.

القِسْمُ الْأَوَّلُ:  
الدَّرَاسَاتُ





# تَارِيخُ الاسْتِيطَانِ فِي مَنْطَقَةِ بَغْدَادَ عَبْرَ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ

كـ هـ أ. د. محمد طه الأعظمي

أستاذ علم الآثار القديمة في جامعة بغداد – كلية الآداب  
أستاذ التاريخ القديم في الجامعة العراقية – كلية الآداب

## مقدمة:

شهد السهل الرسوبي لبلاد وادي الرافدين استيطاناً بشرياً مكثفاً منذ عصورٍ موعلةٍ في القدم، وقد جذبت وديان الأنهار المستوطنين للاستقرار على ضفافها، أو على ضفاف القنوات الإروائية الكثيرة المتفرعة منها.

ومع أن الحضارة بدأت في المنطقة الشماليّة من القطر، إلا أن تطورها وريقها كانا بسبب إبداعات أمّهات المدن السومريّة والأكديّة في المناطق الجنوبيّة من القطر. ولم تكن منطقة أواسط السهل الرسوبيّ بعيدة عن تلك المراكز الحضريّة ولا بأقل أهمية منها؛ فهي تميّز عن بقيّة مناطق العراق بميزة مهمّة، إذ تقع في نقطة هي الأضيق بين نهري دجلة والفرات، وعندها مَصَّبُ نهريْن آخرين مهمّين: أحدهما يصبُّ إلى الجنوب من بغداد وهو نهر دِيَالِي، والآخر يصبُّ شمالها وهو نهر العُظِيم، فضلاً عن عددٍ من القنوات الإروائية المتفرعة من تلك الأنهار.

هذا إلى جانب وقوعها بين مناطق النفوذ السومري والأكدّي والبابلي في الجنوب، والآشوري في الشمال، ومناطق أعالي الفرات في الغرب، والتي يتحتم على من ينتقل بينهما أن يمرّ عبرها. وقد أظهرت المسوحات والتنقيبات الأثرية في أواسط السهل الرسوبي وجود العشرات -إن لم نقل المئات- من التلول الأثرية، والتي يبدو من مساحات بعضها أنها كانت بقايا مدنٍ وقرى موسّعة، وهي شاهدة على سعة وأهمية الاستيطان في هذه المنطقة.

### الاستيطان في عصر فجر السلاّات:

وإذا ما بدأنا بتتبّع تاريخ الاستيطان في المنطقة المحيطة بمدينة بغداد منذ أقدم العصور -كما كشفتها التنقيبات الأثرية- فإننا نبدأ بعصر فجر السلاّات (عصر ازدهار الحضارة السومرية)؛ إذ نجد العديد من المراكز الحضرية السومرية المهمة المنتشرة شرقيّ بغداد، ولا سيّما عند حوض نهر دىالى، ومنها مدنٌ مثل: أشنونا (تل أسمر)، وتل أجرب، وخفاجي، والتي بلغت مساحات بعضها أكثر من ١٠ هكتارات.

ويبدو من ذلك أنّ المنطقة الممتدة شرقيّ بغداد حول حوض نهر دىالى كانت من المناطق الحضرية المهمة جدّاً في وسط العراق. علماً أنّ هناك دلائل تشير إلى أنّ نهر دىالى كانت له مجارٍ قديمة أخرى تصبّ في نهر دجلة إلى الشمال الغربيّ من مَصَبِّه الحاليّ بنحو ٢٠ كم تقريباً (أقرب إلى بغداد)، تأسّست حولها العديد من المراكز الحضرية والقروية<sup>(١)</sup>.

---

(١) حول الاستيطان عند حوض نهر دىالى في عصر فجر السلاّات. انظر: ادمز، روبرت، أطراف بغداد، تأريخ الاستيطان في سهول دىالى، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد ١٩٨٤ ص ١٢٨-١٣٢.

Lloyd, S. and Delougaz, P. PreSargonic Temples in The Diyala Region, OIP,58,U.S.A. 1942

أما على نهر الفرات شمال غربي بغداد، فإنَّ هناك -على الأغلب- مراكز حضاريَّة ترجع إلى العصرِ نفسه، أقربها إلى مدينة بغداد موقعاً تُعرفُ بقاياها حالياً باسم «تلّ جوخة»؛ مقابلَ موقع الأنبار الذي يمتدُّ قبالتّه عندَ الجهة الثانية لنهر الفرات.

ويبدو من حجم ذلك المستوطن ومن عمارة مبانيه أنّه كان موقعاً سومريّاً مهمّاً، يتوسّط المسافة بينَ مدينة سبار (تلّ أبو حبة في اليوسفيّة) جنوباً، وموقع «تلّ أسود» عندَ مدينة الرماديّ شمالاً<sup>(١)</sup>.

إنَّ وُجودَ تلك المواقع الأثريّة من عصر فجر السُّلالاتِ بهذه السّعة دليلٌ على أهميّة المنطقة وعلى ارتباطها وعلاقتها الوثقى بالمراكز الحضريّة المنتشرة جنوب العراق.

### الاستيطان في العصر الأكدي:

أما في العصر الأكديّ فقد شهدت المنطقة حولَ مدينة بغداد استيطاناً موسّعاً، ولا سيّما شرقيّ مدينة بغداد قرب حوض نهر ديالِي.

وبالرغم من عدم معرفتنا بموقع العاصمة «أكد»، إلّا أنّ أغلب الدراساتِ الآثارية تشيرُ إلى أنّ موقعها يتوسّط بلاد الرافدين في منطقة ما بينَ مدينة سبار جنوباً (٤٥ كم جنوب غرب مدينة بغداد) وإلى شماليّ مدينة بغداد تقريباً.

وطبقاً للمسوحات التي أجراها «روبرت آدمز» في أطراف بغداد، وعلى مساحةٍ تمتدُّ نحو ١٠٠٠ كم<sup>٢</sup> حوالي مدينة بغداد؛ فقد سجّل أكثر من ٢٨ موقعاً آثاريّاً يعودُ بشكلٍ مؤكّدٍ إلى العصر الأكديّ، كانَ منها سبعة مواقعٍ يمكنُ أن نعدّها بقايا مدنٍ كبيرة، وليست مجردَ قرى زراعيّة<sup>(٢)</sup>.

---

(١) رميض، صلاح سلمان، نتائج تنقيبات تل جوخة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد، ١٩٨٨، ص ١٠٢.

(٢) آدمز، روبرت، مصدر سابق الذكر، خارطة رقم ٢.



وهناك من الآراء الحديثة مَنْ يَرَجِّحُ أن يكونَ السكْنُ في موقعِ مدينةِ بغدادَ أو ما يجاورُها امتدادًا للاستيطانِ في العاصمةِ «أكد» التي يُرَجِّحُ أن تكونَ أسفلَ الطبقاتِ السكنيةِ لمدينةِ بغدادَ في الوقتِ الحاضرِ<sup>(١)</sup>.

ومن المواقعِ الأثريةِ المهمةِ التي ترجعُ إلى العصرِ الأكديِّ موقعُ مدينةِ «أشنونا» (تلُّ أَسْمَر)، الذي يبعدُ نحو ٣٥ كم شمالَ شرقيِّ بغدادَ، والذي عُثِرَ فيه على قصرينِ واسعينِ وعددٍ من المباني الإداريةِ وحاراتِ سكنيةِ واسعةٍ تشيرُ إلى استيطانٍ أكديٍّ مكثَّفٍ ومهمٍّ في المنطقة؛ بدلالةِ وجودِ هذينِ القصرينِ اللذينِ استُخدِما لسكنِ حكامٍ متنفذينَ كانت بيدهم مقاليدُ الحكمِ على منطقةٍ تلُّ أَسْمَر وما يجاورُها من المناطقِ<sup>(٢)</sup>.

ومهما يكنُ من أمرِ موقعِ مدينةِ «أكد» وعلاقتهِ بالاستيطانِ في مدينةِ بغدادَ، فإنَّه من المؤكَّدِ أنَّ الاستيطانَ في منطقةٍ وسطِ بلادِ الرافدينِ -بين نهري دجلة والفراتِ حولَ مدينةِ بغدادَ- قد شهدَ توسُّعًا كبيرًا بسببِ وجودِ العاصمةِ الأكديَّةِ، وبسببِ سعةِ ونفوذِ الدولةِ الأكديَّةِ التي وصلتْ تخومُها إلى مشارفِ البحرِ المتوسطِ.

### الاستيطان في العصر البابلي القديم:

أما في العصرِ البابليِّ القديمِ فقد أصبحتِ المنطقةُ المحيطةُ بمدينةِ بغدادَ -ولا سيَّما الأقسامُ الشرقيةُ منها- ضمنَ حدودِ مملكةِ «أشنونا»؛ المملكةِ التي بسطتْ نفوذَها حتَّى على بلادِ آشورَ وإلى أعالي الفراتِ في بعضِ الأحيان.

ومن أهمِّ المواقعِ العائدةِ لهذه المملكةِ والقريبةِ من بغدادَ، نشيرُ إلى موقعِ مدينةِ «بنايا» (تلُّ مُحَمَّدٍ)، ومدينةِ «شادوبوم» (تلُّ حَرْمِلٍ)، ومدينةِ «زارالو» (تلُّ الضباعيِّ) في منطقةِ بغدادَ الجديدة. علماً أنَّ هذه التلُّولَ تقعُ على امتدادٍ واحدٍ تتَّجِهُ إلى الشمالِ

(١) Wall- Romana, C. "An Areal Location of Agade" JNES 49, 1990 pp. 244-245

(٢) حول تنقيبات تل أسمر انظر : Lloyd, S. And Delougaz, P. Op- Cit

الشرقيّ نحو مواقع مثل: «تلّ العليمة» و«تلّ الشك» و«تلّ الفضيلية» القريب من نهر دىالى<sup>(١)</sup>، ومن الواضح من امتدادها هذا أنّها كانت تقع على مجرى مائيّ رئيس يأخذ مياهه من نهر دىالى ويصبّ في نهر دجلة. علماً أنّ المسوحات والدراسات الآثاريّة الحديثة أظهرت وجود العديد من المصبّات لنهر دىالى على نهر دجلة، وهي أقرب إلى مدينة بغداد من مصبّه في الوقت الحاضر كما أسلفنا. أمّا جنوب بغداد فنشير إلى مدن بابلية مهمّة مثل مدينة «سبار أمانوم» (تلّ الدير) ومدينة «سبار» (تلّ أبو حبة في اليوسفيّة) جنوبيّ بغداد، وهذه المدينة المهمّة يمكن عدّها العاصمة الثانية للمملكة البابليّة القديمة بعد مدينة بابل.

### الاستيطان في العصر البابلي الوسيط (الكشي):

أمّا في العصر البابلي الوسيط (الكشي) نحو ١٥٩٥-١١٦٢ ق.م، فتظهر أهميّة المنطقة واضحة جليّة بعد اتخاذ الكشيين عاصمة لهم شمال غربيّ بغداد بنحو ٣٠ كم، والتي أطلق عليها اسم «دوركوريكالزو»، والتي تُعرف بقاياها في الوقت الحاضر باسم «عكرگوف».

ومن غير المستبعد، بل من المرجح جدّاً، أن تزداد أهميّة منطقة أواسط بلاد الرافدين التي تقع عندها مدينة بغداد؛ بسبب قربها من العاصمة الكشيّة الجديدة، فضلاً عن وقوعها على مسار الطرق التجاريّة البريّة والنهريّة المارّة عبر مناطق بلاد الرافدين. وكان من المنطقيّ أن تنشأ القرى والمراكز الحضريّة على جانبي ذلك الطريق

(١) حول مدن حوض دىالى وأهميتها. انظر:

- محمود، إيمان جميل: نصوص مسمارية غير منشورة من العصر البابلي القديم / منطقة دىالى، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٨٣.
- حميد، أحمد مجيد: دراسات في نصوص مسمارية غير منشورة في فترة العهد البابلي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٩٠.

التجاريّ، ولا سيّما قرب العاصمة الكشيّة «دوركوريكالزو».

ومن هذا العصر يَرِدُ في عددٍ من النصوص المِسماريّة اسمُ مقاطعة (بغداد Bag-da-du)، أو كما يقرأها بعضُ الباحثين بلفظة (خُدادو hu-da-du)؛ وذلك بسبب اختلافهم على قراءة المقطع الأوّل من الكلمة، إذ يُقرأ بصيغتين هما: (Bag, Hu).

ولكن طبقاً لدراساتٍ حديثة لعلماء المِسماريّات -ومنها دراسةُ أجرتها المتخصصةُ بالكتاباتِ المِسماريّة من العصرِ البابليّ الوسيط (الكشيّ) «سوزان باولوس» من جامعة مُنستر، وقبلها الدكتورُ «برنكمان» الأستاذُ في جامعة شيكاغو المتخصصُ بالكتاباتِ المِسماريّة وغيرهما من الباحثين- فإنّ المقطع الأوّل الذي يَرِدُ في هذه الكلمة لا يمكنُ قراءتهُ إلّا بصيغة (Bag)؛ لذلك فإنّ اسمَ المدينة يجبُ أن يُقرأ بصيغة «بغداد» (Bagdadu) وليس بأيّ صيغةٍ أخرى كما يدّعي البعض. هذا إضافةً إلى شواهدٍ أخرى تعضدُ هذا الرأي سنتناولها لاحقاً.

مع ملاحظة أنّ بعضَ الباحثين يكتبُها بصيغة (بغدادو) بسببِ أنّ نهايةَ المقطع لاسمِ المدينة ينتهي بالصوت (du)، وهذه قراءةٌ غيرُ صحيحة؛ لأنّ الـ(u) في نهاية الكلمة هي من علاماتِ الإعرابِ في اللغة الأكدية التي تقابلُ الضمّة في اللغة العربيّة، لذلك فإنّ اللفظة الصحيحة للكلمة هي «بغداد» وليس «بغدادو».

ومن أقدم هذه النصوص التي وردَ فيها اسمُ مدينة بغداد، نصُّ مِسماريّ كُتِبَ على ما يُعرفُ لدى الباحثين باسم «أحجار الحدود» (كودورو)، يعودُ لزمانِ الملك الكشيّ «نازي ماروتاش» (١٣٢٣ - ١٢٩٨ ق.م.)، يَرِدُ فيه ذكرُ مقاطعةٍ باسم (Bag-da-du)<sup>(١)</sup>

١) Scheil, V. Memories, Textes Elamites-Semitiqes.(MDP) vol. 2, Paris, 1900 p.86 .ff)

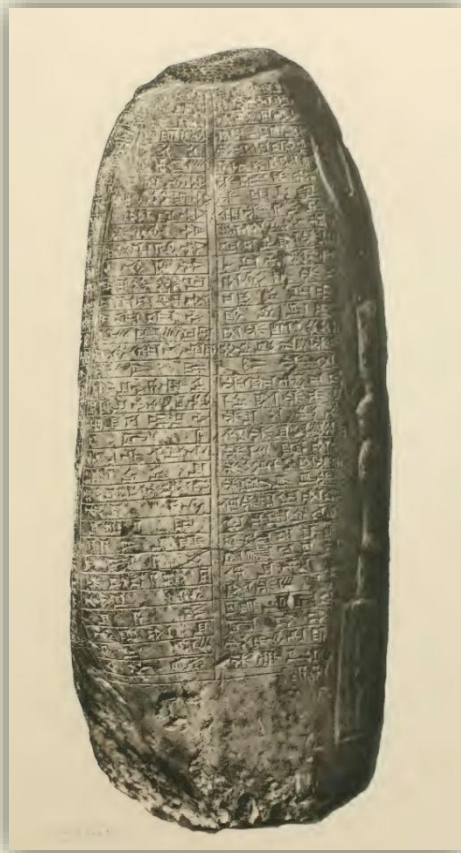
. Ebeling, E. Reallexikon der Assyriologie (RLA), Leipzig, 1957-1971, Band 1,p.391

Paulus, Susanne Die der babyionischen Kudurru –Inschriften von der Kassitischen

تقع على ضفة نهر «شري»، وذلك في معرض حديثه عن إعطائه أراضٍ واسعة تكريماً  
لمسؤول كبير في مملكته.

وقد وردت كلمة «بغداد» وهي مسبقةً بعلامة (أورو URU) بمعنى أنها كانت  
مقاطعةً كبيرةً مهمّةً وليست مجردَ مدينةٍ صغيرةٍ:

NAM KUR URU Bag-da-di GÚ I7.LUGAL (شكل ١)



[ شكل ١ : حجرة حدود الملك نازي ماروتاش ]

وهناك نصٌ مسماريٌّ آخرُ يعودُ إلى الملك «أدد شوما أوصر» (١٢١٨ – ١١٨٩ ق.م.)  
يَرِدُ فيه ذكرُ مدينةِ بغدادَ، إلّا أنّه ممّا يُؤسَفُ له أنّ النصّ كثيرُ التلفِ ممّا لا يسمحُ

bis zur fruhneubabylonischen Zeit Munster, 2014 p. 326–327



بمعرفة محتوياته بشكلٍ تامٍّ، إلّا أنّه يبدو من بقاياه أنّه يسردُ حملةً من حملاتِ الملكِ على بلادِ بابلٍ وفرض سيطرته عليها ومنها مقاطعةُ بغدادَ، وجاء فيه: «... من ... بغدادَ... إلى السهل... إيساكيلا. استولى...»<sup>(١)</sup>.

ومن حَجَرٍ حدودٍ أخرى (شكل ٢) كُتِبَتْ في زمن الملك (مردوخ أبلا أدينا) الأول (١١٧٣ - ١١٦١ ق.م.) يَرِدُ مرةً أخرى اسم هذه المقاطعة باللفظة نفسها في عدة فقرات؛ مثل: «حقل مدينة بغداد A. ŠÀ uru Bagdad» أو «مقاطعة بغداد Pihāt al Bag-da-du». والنصُّ يسردُ إقطاع أراضي ملكية في مقاطعة بغداد، وتمتد تلك الأراضي بالقرب من مجرى مائيٍّ ورد اسمه بهيئة «مي كَال كَال».



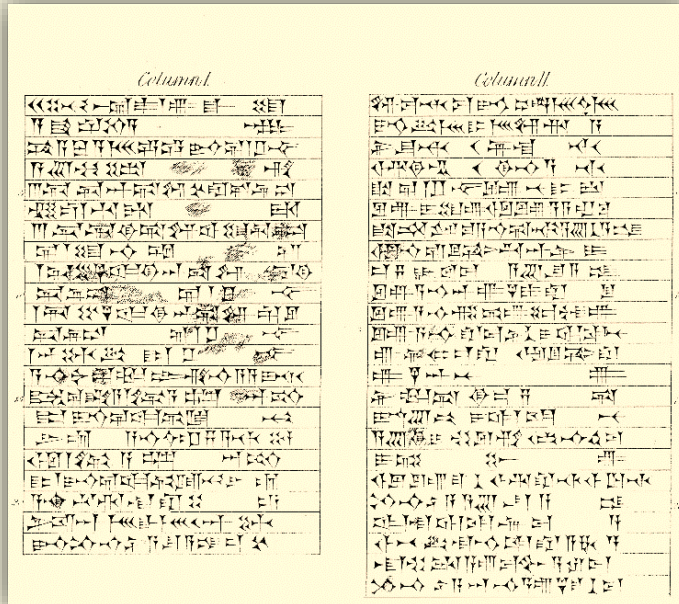
[ شكل ٢ : حجرة حدود الملك مردوخ أبلا أدينا ]

وتتوضح أهمية النص في مجال بحثنا هذا في ذكر أسماء عدد من كبار الموظفين الذين كانوا يقطنون مقاطعة بغداد، ومنهم حاكم المدينة والقاضي والمستشار وغيرهم

(١) Grayson, A. Babylonian Historical Literary Texts Toronto, p.77

من كبار الموظفين<sup>(١)</sup>؛ مما يؤكّد على تبوُّء مقاطعة بغداد مكاناً مرموقاً جدّاً ضمن المراكز الإدارية العديدة التابعة للملكة الكشية.

ومرّة أخرى يَرِدُ ذكرُ مقاطعة بغداد (Piḥat al Bag-da-du) على حَجَرَة حدودٍ تعود إلى الملك (مردوخ نادن أخي) (١٠٨٩-١٠٨١ ق.م.)، وهي المعروفة لدى علماء الآثار باسم «الحَجَرَة السوداء» أو «حَجَرَة ميشو» (شكل ٣، ٤). وفي حَجَرَة الحدود هذه ورد ذكر مقاطعة بغداد مع عدد من المقاطعات التي تقع ضمن مناطق نفوذ الملك (مردوخ نادن أخي) شمال بلاد بابل<sup>(٢)</sup>.



[شكل ٤ : النص المسماري على حجرة ميشو]

[شكل ٣ : حجرة ميشو]

(١) RLA. P.391/ Scheil, V. MPD. vol. 6, Paris, 1905, p.33

(٢) من النصوص المشهورة والمعروفة باسم حجرة ميشو نسبة إلى الفرنسي أندريه ميشو الذي اشتراها من تجار الآثار في منطقة بالقرب من طيسفون. انظر:

Rawlinson, H.C. The Cuneiform Inscriptions of Western Asia, vol. I, London 1861 pl.70. Brinkman, J. A. A political History of post- Kassite, Babylonia (An Or 40) Roma 1968, p.121

كذلك يَرِدُ الاسمُ نفسه (بغداد) في نصّين آخرين عُثِرَ على كِسَرٍ صغيرةٍ منهما، إلّا أنّ مما يُؤسّفُ له كثيرًا أنّ العلامات المسماريّة كانت تالفة في النصّين وينقصها الكثير من الأسطر، وتتعدّر معرفة الزمن الذي كُتِبَت فيه على وجه التحديد بشكلٍ دقيق.

### الاستيطان في العصر الآشوري الحديث:

ومرّة أخرى يَرِدُ اسمُ مدينة بغداد في نصّ مسماريّ يعودُ إلى الملك «أدد نيراري الثاني» (٩١١ – ٨٩١ ق.م.)؛ وذلك في معرض حديثه عن حملاته وحروبه مع الملك البابلي «نابو شوما إشكون»، والتي يذكرُ فيها انتصاره عليه وضَمَّ عددٍ من المدن الآرامية الواقعة على نهر دجلة جنوب «دور كوريكالزو» (عگرگوف)، ومنها مدينة بغداد.

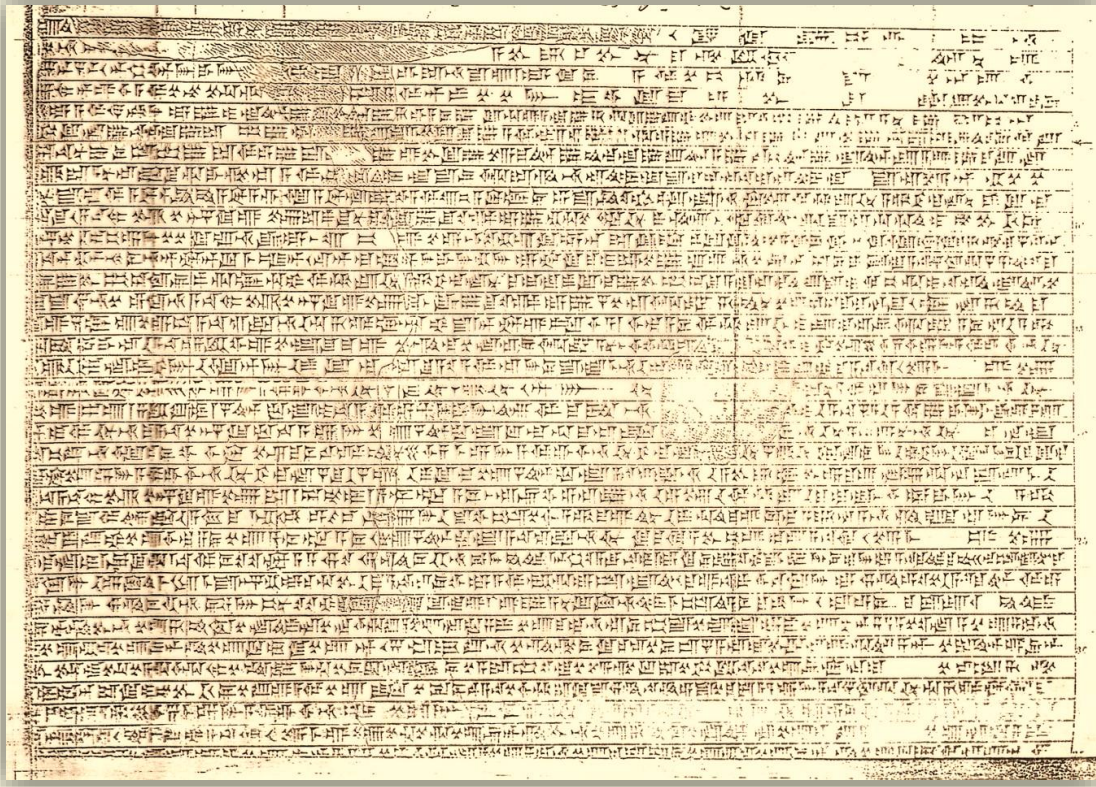
ومن نصّ مسماريّ يعودُ إلى عصر الملك «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٤ – ٧٢٧ ق.م.) (شكل ٥) يَرِدُ فيها اسمُ ستّ وثلاثين قبيلةً آراميّةً بسطَ عليها نفوذُه، ومنها قبائل آراميّة كانت تقطنُ على نهر دجلة جنوب «دور كوريكالزو»، ذُكِرَ واحدةٌ منها باسم قبيلة (Bagdad)<sup>(١)</sup>.

ومن المعروف أنّ الآراميين أدّوا دورًا مهمًّا في أحداث الشرق الأدنى بين الأعوام ١١٥٠ – ٧٠٠ ق.م.

(١) (Rawlinson, H.C. Op. Cit. vol. II, 1866, pl. 67:5-8.)

Brinkman, J. Op. Cit. p.271.





[شكل ٥ : نص مسماري يعود إلى الملك تجلات بلاسر الأول]

وعلى وَفْقِ هَذَا النَّصِّ فَإِنَّا يُمْكِنُ أَنْ نُحْمِنَ بِأَنَّ الْمَلِكَ «تجلات بلاسر الثالث» كَانَ يَقْصِدُ بِقَبِيلَةِ بَغْدَادَ أَيْ الْقَبِيلَةَ الَّتِي تَقْطُنُ فِي مَقَاطِعَةِ بَغْدَادَ؛ بِمَعْنَى أَنَّ تِلْكَ الْقَبِيلَةَ أَخَذَتْ اسْمَهَا بَعْدَ اسْتِيطَانِهَا فِي مَنطَقَةِ بَغْدَادَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَأَنَّ اسْمَ الْمَقَاطِعَةِ سَابِقٌ عَلَى اسْمِ الْقَبِيلَةِ.

وَيُفْهَمُ مِنْ مَجْمَلِ تِلْكَ النُّصُوصِ أَنَّ هُنَاكَ مَدِينَةً بِاسْمِ بَغْدَادَ كَانَتْ مَعْرُوفَةً مِنْذُ الْعَصْرِ الْبَابِلِيِّ الْوَسِيطِ، وَكَانَتْ هِيَ الْمَدِينَةُ الرَّئِيسَةُ أَوِ الْعَاصِمَةُ لِمَقَاطِعَةِ مُهِمَّةٍ وَاسِعَةٍ الْمَسَاحَةِ قَرِيبَةٍ مِنَ الْعَاصِمَةِ الْكُشِيَّةِ «دُور كُورِيكَالْزُ» (عُغْرُكُوف)<sup>(١)</sup>. عِلْمًا أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ الْمَقَاطِعَاتِ كَانَتْ بِإِمْرَةٍ حَاكِمٍ رَفِيعِ الْمَنْزَلَةِ بِمَرْتَبَةِ (šakin ṭemi)<sup>(٢)</sup>.

(١) Brinkman, J. Op. Cit. p.268

Ibid. p.308)٢(



أما موقع تلك المقاطعة فأعتقد أنه من الصعوبة بمكان البت فيه بشكل دقيق، ومع ذلك واستناداً إلى تلك النصوص فإنه يمكن تحديد موضعها في مكان ما بين جنوبي «دور كوريكالزو» (عكرغوف) وشمال مدينة «سبار» (أبو حبة في اليوسفية). ويفهم من النصوص أيضاً أن المنطقة يحدّها من الشمال نهرٌ واسع يُسمّى (nar šarri)، وهو من الأنهر الكبيرة التي توصل -على الأغلب- بين نهري دجلة والفرات<sup>(١)</sup>.

وعلى أغلب الظن، فإنّ من المحتمل أن يكون (نهر شري) هذا هو نفسه «نهر ملكا» المذكور في روايات المؤرخين والجغرافيين القدماء. و«نهر ملكا» هذا هو الجدول الكبير الثالث الذي اشتهر في العصور الغابرة بأرض الجزيرة. ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أنّ تسمية (نهر شري) باللغة الأكديّة تعني «نهر الملك»، أي أنّ الاسم تبدّل من لفظة (شري) في اللغة الأكديّة إلى لفظة (ملك) في اللغة الآراميّة بعد استيطانهم في المنطقة، ثمّ تغيّرت التسمية إلى «نهر الملك» بعد زوال النفوذ الآرامي واستيطان العرب في المنطقة.

ومن المعروف أنّ الجانب الغربي من مدينة بغداد كان يُروى من جدول يأخذ مياهه من نهر الفرات قرب الفلوجة، وبالقرب من صدر الجدول هذا تقع مدينة الأنبار عند الجانب الشرقي من النهر، ويمتدّ الجدول هذا بين دجلة والفرات ويصبّ في دجلة جنوب بغداد عند تلّول خشم الدورة. وربما كان هذا هو مجرى «نهر الصقلاوية» القديم (أي ليس المجرى الحالي)، وكان يقطع الأرض من الفرات ماراً بمنخفض عكرغوف ثمّ يصبّ في «نهر الحر» ومنه إلى نهر دجلة جنوب بغداد. وقد عُرف اسم هذا الجدول سابقاً باسم «حداقل» (أي دجلة) حيث اعتبره الأقدمون جزءاً من نهر دجلة أو صدره الرئيس.

وتشير الدلائل الأثريّة أنّ للجدول فرعاً يُسمّى بـ«نهر إنليل» حفر جنوب «دور كوريكالزو» لحمايتها. وقد سُمّي هذا المجرى المائي الكبير في العصور الإسلامية باسم

(١) Wall, Romana, Op. Cit. p.222-223

«نهر عيسى الأعظم» وله فروعٌ تُسمَّى باسم «نهر عيسى» أو «نهر الرفيل» وفرعٌ آخرٌ باسم «نهر الصراة» الذي تُعرفُ بقاياهُ في الوقتِ الحاضرِ باسم «نهر الصقلاوية»<sup>(١)</sup>.

إنَّ موقعَ مدينةِ بغدادَ (BAGDADU) جنوبيّ «دور كوريكالزو» وجنوبَ «نهر شري» أو على أحدِ فروعه -أي في منطقةٍ ما وسط بلادِ الرافدين- يُرجَّحُ أن تكونَ مدينةُ بغدادَ البابليَّةُ هي السَّلفُ الأقدمُ لمدينةِ بغدادَ الحاليَّةِ، وإنَّها كانت لا تبعدُ كثيرًا عن موقعِ مدينةِ بغدادَ في الوقتِ الحاضرِ إن لم تكن هي نفسها الطبقةُ الأقدمُ لمدينةِ بغدادَ. وممَّا يزيدُ في أهميَّةِ تلكِ المقاطعةِ ويُضفي عليها دلالةً خاصَّةً، أنَّها قد ذُكِرت في نصوصٍ أخرى مع مدينةِ «أكَّد» العاصمةِ الأكديَّةِ التي كانت تتمتعُ بمنزلةٍ مهمَّةٍ لغايةِ ذلكِ العصرِ، وهذه إشارةٌ أخرى يُفهمُ منها أنَّ العاصمةَ «أكَّد» كانت تقعُ في منطقةٍ ما بالقربِ من مدينةِ بغدادَ.

وممَّا يُرجَّحُ رأينا هذا بأنَّ بغدادَ البابليَّةَ تلكَ هي السَّلفُ الأقدمُ لمدينةِ بغدادَ الحاليَّةِ، أنَّ اسمَ أهمِّ جانبٍ من جانبي بغدادَ الحاليَّةِ وهو الجانبُ الغربيُّ المسمَّى «كَرْخُ» (الذي يُكتبُ بالفتح ثمَّ سكونٍ وخاءٍ معجمةٍ)، قد اختلفتِ المصادرُ العربيَّةُ في تبيانِ أصلِهِ ومعناه، وأقربُ تعريفٍ له ما ذكره «ياقوت الحموي» في كتابهِ (معجم البلدان)، حيثُ يذكرُ أنَّ كلمةَ (كرخ) ليست عربيَّةً وإنَّما هي نبطيَّةٌ<sup>(٢)</sup>، ويقصدُ بها لغةَ سكانِ العراقِ القدماءِ من النبطِ؛ أي من الفلاحين ذوي الأصولِ القديمةِ.

أمَّا «الفيروزآبادي» في كتابهِ (القاموس المحيط) فيذكرُ أنَّ أصلَ الكلمةِ سواديَّةٌ أي

---

(١) مصطفى جواد وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، بغداد، ١٩٥٨، ص ٤٨، ٧١-٧٤. شتريك مكسمليان، خطط بغداد وأنهار العراق القديمة، ترجمة خالد إسماعيل، بغداد ١٩٨٦ ص ٤٨. أحمد سوسة، وادي الفرات بغداد، ١٩٤٥، ص ٤.

(٢) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ط ٨، بيروت، ٢٠١٠، ج ٤، ص ٤٤٧.

من لغة أهل السواد<sup>(١)</sup> بمعنى سكان العراق القدماء. ولم يُقدّم تفسيراً لمعنى تلك الكلمة. وعلى أغلب الظنّ فإنّنا نعتقد أنّ كلمة (كرخ) من أصولٍ بابليةٍ قديمةٍ من كلمة (كرخ، كرخو kirhum، مع ملاحظة أنّ um في آخر الكلمة هي من علامات الإعراب الأكديّة التي تقابل الضمّة في اللغة العربيّة) بمعنى: قلعة المدينة أو القسم الإداريّ الدينيّ للمدينة، وبتعبيرٍ آخر: مركز المدينة، وبخاصّةٍ إنّ كان تصميمها على نمطٍ مستحكمٍ كأن يُحاط بسورٍ أو خندقٍ أو يُشيد فوق مرتفعٍ طبيعيٍّ أو اصطناعيٍّ، تجعله بمنأى عن خطر هجمات الأعداء<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أنّ هذه التسمية كانت تُطلق على المنطقة منذُ عصورها القديمة الأولى، وهي -أي كرخ- كانت القسم الرئيس أو المركز الحضريّ (السياسيّ الإداريّ) لمدينة بغداد البابليّة القديمة.

أمّا الجانب الشرقيّ من المدينة -أي جانب الرصافة- فيذكر «ياقوت الحموي» في معجمه أنّه لا يعرف اشتقاق تسمية الرصافة، ولكن ربما كانت من «الرصف» وهو ضمُّ الشيء إلى الشيء كما يرصف البناء الحجر<sup>(٣)</sup>.

ويبدو لنا أنّ كلمة (رصافة) هي الأخرى ذات أصلٍ بابليٍّ قديمٍ من الكلمة الأكديّة (رصابو raṣāpu) بمعنى: يُقيم، يُراكم، ينصب، المجاورة أو الملاصقة<sup>(٤)</sup>، وهي تتطابق لفظاً ومعنى مع الكلمة العربيّة (رصف)؛ فهي والحالة هذه بمعنى: الحيّ المرصّف أو المجاور لقلعة المدينة (كرخ kirhum).

(١) الفيروزآبادي، محمد الدين محمد بن يعقوب القاموس المحيط، بيروت، ١٩٥٢م، ج١، فصل الكاف باب الخاء.

(٢) الأعظمي، محمد طه المدينة العراقية بغداد، ٢٠٢٢ ص ٩٤، ٤٨٣.

(٣) ياقوت الحموي، المصدر السابق الذكر، ج ٣، ص ٤٦.

(٤) الجبوري، علي ياسين: قاموس اللغة الأكديّة - العربيّة، ٢٠٠٨، ص ٤٨٩.

كذلك نذكر أنَّ من مجاري الأنهار القديمة التي كانت تمرُّ ببغدادَ والمسمَّى بـ«نهر الخر»، قد اختلفَ هو الآخرُ في أصله وفي تفسيرِ مدلول تلك التسمية. ويبدو لنا أنَّ «نهر الخر» هو بقايا أحدِ المجاري المائية القديمة في المنطقة، والذي يعودُ بتاريخه إلى مدينة بغدادَ البابليَّة، وأنَّ اسمه مشتقٌّ من الكلمة البابليَّة (خر أو خريتو hirītum) والتي تُكتبُ وهي مسبوقَةٌ بعلامةٍ دالةٍ على النهرِ (id)، وهي بمعنى: المجرى المائيِّ المحيطُ بالمدينة أو أحياناً بمعنى خندقِ المدينة<sup>(١)</sup>؛ فربما كان هذا المجرى المائيُّ -وفقَ هذه التسمية- بقايا المجرى الرئيسِ لخندقِ المدينة أو أحدِ مجاري الأنهار التي كانت تُغذي مدينةَ بغدادَ البابليَّة القديمة.

### الاستيطان في العصر البابلي الحديث والعصور المتأخرة:

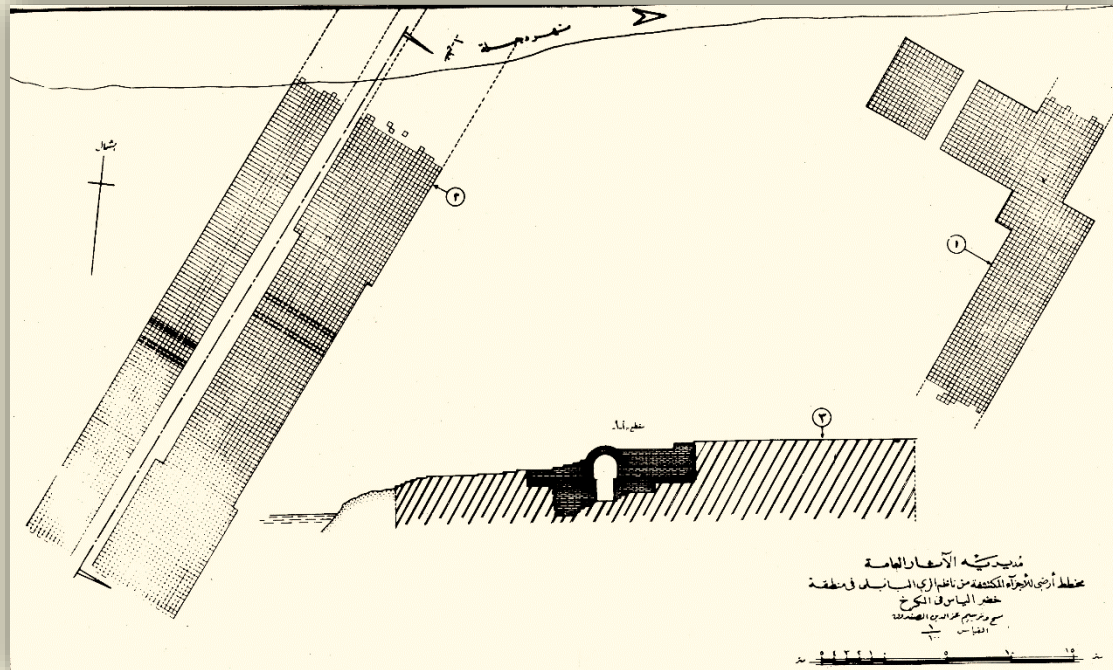
يبدو من توزيع التلول الأثريَّة أنَّ الاستيطانَ بالقربِ من مدينةَ بغدادَ (أي بغدادَ الحاليَّة) بدأ يزدادُ تدريجيًّا منذُ العصرِ البابليِّ الحديث. وهناك دلائلٌ على وجودِ مُنشآتٍ بنائيَّةٍ على نهرِ دجلة في المنطقةِ المقابلة لـ«بابِ المعظَّم» قربَ مزارِ خضرِ إلياس (محلة خضرِ إلياس)، تُرجعُ بزمَنِها إلى العصرِ البابليِّ الحديث.

وهذه المُنشآتُ عبارةٌ عن بقايا جدرانٍ ضخمةٍ مُشيَّدةٍ بالآجرِ والقيِر، أبعادُ الآجِرة (٣٣ - ٣٥ سم × ٧ - ٨ سم) (شكل ٦-٩)، عليها طُمُغاتُ الملكِ البابليِّ «نبوخذ نصر الثاني» (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م)، كُتِبَ عليها: «نبوخذ نصر ملكُ بابلَ حامي إيساكيلا وإيزدا، الابنُ البكرُ للملكِ نبو بلاسر ملكِ بابلَ».

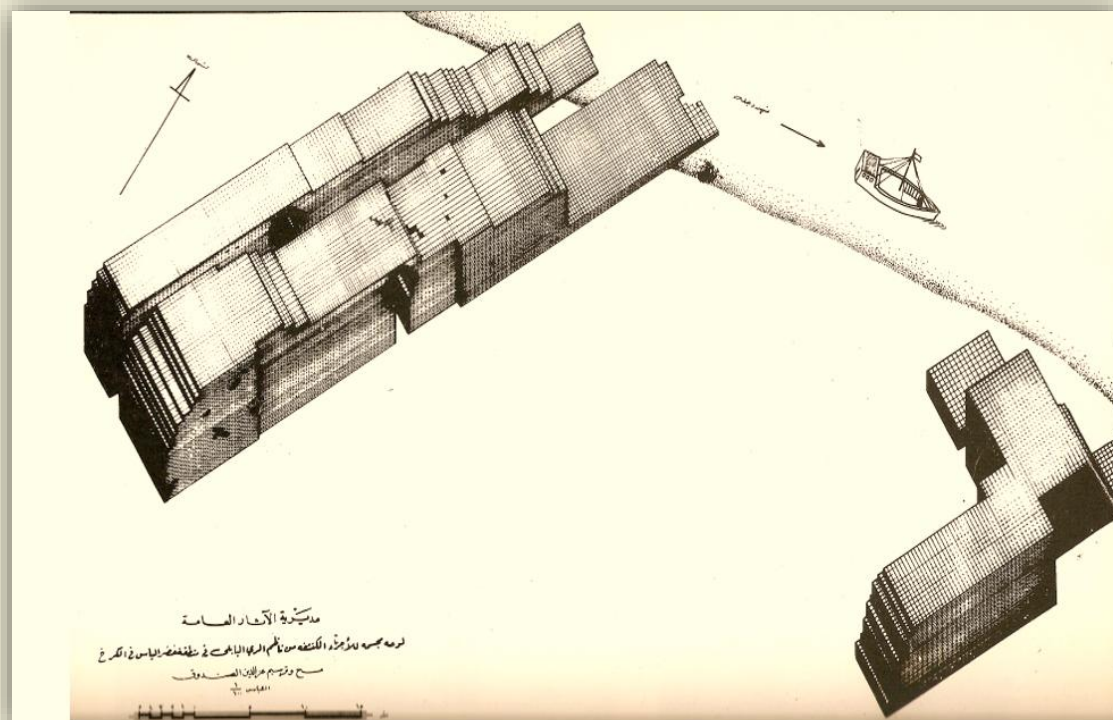
وكانت واحدةٌ من تلك البقايا عبارةً عن كُتلتينِ صلدتينِ تمتدُّ إحداهما داخلَ حوضِ نهرِ دجلة بمسافةٍ تقربُ من ٢٤ م وبعرض ١٧,٥ م، وربما تستمرُّ أكثرَ من ذلك، أمَّا الأخرى فقد كُشِفَ من طولها قرابةً ٤٢ م مُشيَّدةً بالآجرِ والقيِر أيضاً.

(١) الأعظمي، محمد طه، المصدر السابق الذكر، ص ٩٣، ٣٣٣.





[شكل ٦]

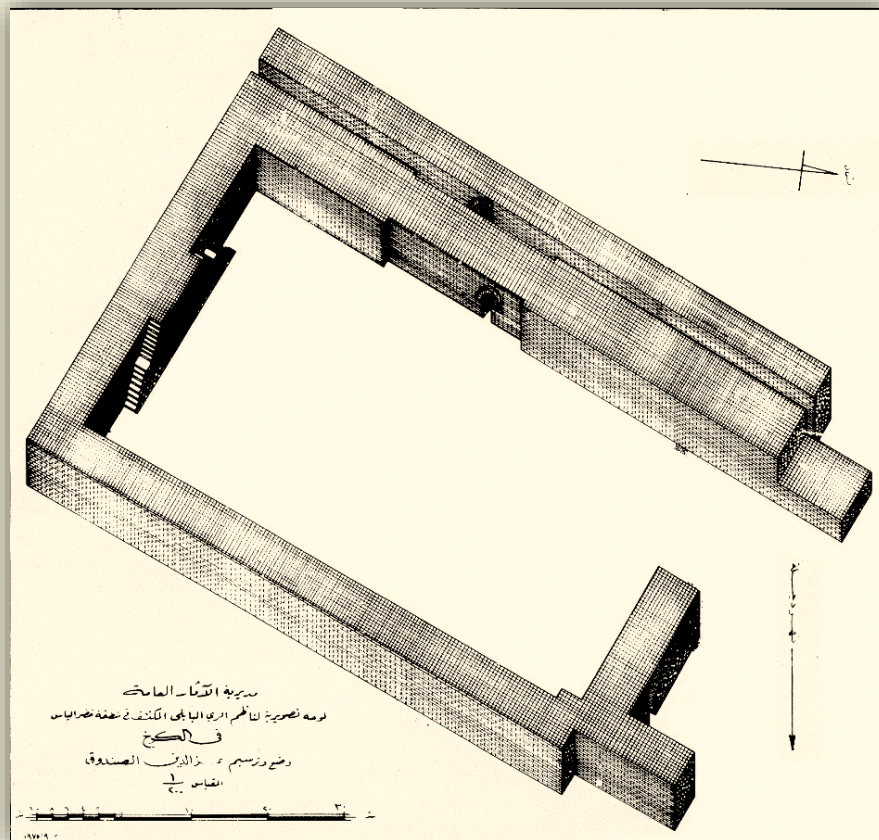


[شكل ٧]





[شکل ۸]



[شکل ۹]

وتتشابه هذه المنشآت مع أسلوب بناء أسوار ودفاعات مدينة بابل. ومع ذلك، فإنه من الصعوبة في الوقت الحاضر البتُّ في وظيفة واستخدام تلك المنشآت؛ إن كانت بمثابة شذروانٍ لرفع المياه وجعلها تنسابُ إلى جداولٍ فرعيةٍ، أو أنها بقايا مستنّةٍ أو ناظمٍ إروائيٍّ كبيرٍ<sup>(١)</sup>.

وتشير الدلائل الأثرية إلى أنَّ المنطقة بقيت مستوطنةً مهمّةً في العصور اللاحقة؛ إذ قام الفرثيون والساسانيون بتسوية أرض الموقع وبناء مقرّاتٍ سكنيةٍ فوقها<sup>(٢)</sup>. إلا أنّه ممّا يُؤسّفُ له أنّ أعمال التنقيب لم تُستكمل في المنطقة، وكانت محدودةً جدًّا بسببِ بناءٍ مقترباتٍ جسرٍ باب المعظم.

ومن المواقع المهمّة الأخرى التي تُرجعُ بزمنها إلى العصر البابلي الحديث وتقعُ على الضفة الغربية لنهر دجلة (جانب الكرخ): «تلُّ نصرت باشا» الذي تقعُ بقاياهُ في الوقت الحاضر في منطقة البيجية قرب ساحة سباق الخيل في المنصور، وهو من المواقع التي أُزيلت من داخل مدينة بغداد ولم يبقَ منها شيءٌ يُذكر في الوقت الحاضر.

وقد كشفت التحريات القليلة التي أُجريت فيه عن وجودِ سكنٍ مكثّفٍ يرجعُ إلى العصر الفرثي والساساني، أمّا الطبقات السفلى منه فقد عُثِرَ على جدرانٍ كبيرةٍ تعودُ لبقايا أبنيةٍ وتباليطٍ مُشيّدةٍ بالآجر وعليها طمغة «نبوخذ نصر الثاني»، وكان تحت تلك الطبقات بقايا أبنيةٍ وأنقاضٍ يعودُ زمنها إلى ما قبل العصر البابلي الحديث<sup>(٣)</sup>.

---

(١) أبو الصوف، بهنام ((اكتشاف منشآت بابلية محاذية لدجلة في جانب الكرخ من بغداد))، سومر مجلد ٣٢، ١٩٧٦ ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٣) من أرشيف دائرة الآثار والتراث - قسم التحريات الأثرية إضبارة رقم ٤٠/٤٠٦. يتألف موقع نصرت باشا من عدد من التلول بلغ ارتفاع أحدها قرابة ٥م ومحيطه ٥٠٠م. وتلّول نصرت باشا من المواقع المهمة الواسعة جدا أجريت فيه تحريات قليلة كشفت عن فخاريات تحوي على كتابات آرامية وطابوق يحمل طمغات

أما في الجانب الشرقي من نهر دجلة فهناك موقع أثري باسم «إيشان حاج عبد» في منطقة الزوية قرب محطة الحرية لتعبئة الوقود (محلة آل بو شجاع) في منطقة (الكرادة داخل)، وهي مجموعة تلوي أزيلت في الوقت الحاضر وشيّدت فوقها مبانٍ وشوارع رئيسة. ويبدو من التحريات القليلة التي قامت بها دائرة الآثار آنذاك أنّ المستوطنات كانت بمساحات واسعة تنتشر على سطحها كسر فخارية كثيرة، وقد عُثر أثناء حفر أسس لبعض المباني الملاصقة للتّل على آجرات من النوع المربع الكبير (٧ × ٣٣ × ٣٣ سم) وعليها طمغة الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني: «نبوخذ نصر ملك بابل ابن نبو بلاسر باني إيساكلا وإيزدا». ويبدو من البقايا الأثرية المكتشفة وجود عددٍ من الطبقات السكنية التي تدلّ على تتابع سكني مكثّف وعلى سعة ذلك الموقع وأهميته في مكان التفاف نهر دجلة، وتشير أغلب الدلائل التاريخية إلى أنّ ذلك المستوطن هو بقايا مدينة «كلواذي» المعروفة<sup>(١)</sup>.

أما الاستيطان في العصور البابلية المتأخرة في الزمن السلوقي والفرثي والساساني، فقد شهدت منطقة بغداد -ولا سيّما في الجهة الغربية من نهر دجلة- استيطاناً واسعاً ومكثّفاً، وسجلت المسوحات الأثرية العشرات من التلوي الأثرية ذات المساحات الواسعة التي تصل بمحدود عشرة هكتارات.

ويبدو أنّ زيادة عدد المستوطنات في المنطقة -فضلاً عما ذكرنا من خصوصية الموقع وأهميته- أنّ السلوقيين والساسانيين اتخذوا من تلك المنطقة أماكن لإقامة عواصمهم ومدنهم الرئيسية مثل «سلوقية» (تل عمر) و«طيسفون» (المدائن). وبسبب

---

الملك نبوخذ نصر وتعود طبقاته السفلى إلى ما قبل العصر البابلي الحديث حدث عليه تجاوزات كثيرة أزالته معالمه أثناء شق شارع دمشق وتسويات معسكر الوشاش سابقاً.  
(١) من أرشيف دائرة الآثار والتراث. إضبارة رقم ١٦٥/٤٠.



وجود تلك العواصم فقد استُغِلَّ حوض نهر دجلة لإنشاء مدنٍ وقرىٍ جديدةٍ، ولا سيَّما بعدَ حفرِ قنواتٍ إروائيةٍ إضافيةٍ أو كَرْيٍ وتوسيعِ القنواتِ القديمةِ. إنَّ وجودَ تلك العواصمِ دلالةٌ أخرى على أهميةِ حوضِ نهرِ دجلة ولا سيَّما في وسطِ بلادِ الرافدين، إن كان للاستغلالِ الزراعيِّ وإقامةِ المستوطناتِ السكنيةِ أو كطريقٍ تجاريٍّ أو حربيٍّ.

ونشيرُ إلى بعضِ المواقعِ التي تتميزُ بسعتها وأهميتها وقربها من موقعِ مدينةِ بغدادِ القديمةِ والتي ترجعُ إلى مرحلةِ قُبيلَ الإسلامِ، والتي يُحتملُ أن تعودَ طبقاتها السفلى إلى عصورٍ أقدمَ من ذلك بكثيرٍ؛ ومنها موقعُ «تل أسود» في منطقةِ السيدة<sup>(١)</sup>، وتلولُ «خيوط ربوعة» في الكرادةِ الشرقيةِ، و«إيشان حاج عبد الله»، و«سيد إدريس» في الزويةِ (المنطقة التي كانت تُعرفُ سابقًا باسم طسوج گلوازي).

يقابلُها على الضفةِ الأخرى لنهرِ دجلةِ تلولُ «خشم الدورة» وتلولُ «أبو صخير» و«هور رجب» في أطرافِ بغدادِ جنوبيِّ الدورةِ. وهناك مواقعٌ مهمةٌ أخرى نذكرُ منها «تل منيسيف»<sup>(٢)</sup>، ومجموعةُ «تلول السديرة»<sup>(٣)</sup> قربَ الشَّماعيةِ، والأخيرةُ مجموعةُ تلولٍ متقاربةٍ تعودُ إلى العصرِ البابليِّ الحديثِ وإلى العصورِ الإسلاميةِ المتأخرةِ.

ونذكرُ من التلولِ المهمةِ «تل الفضيلية» قربَ منطقةِ الفضيليةِ، ومجموعةُ «تلول الحبيبية» وهي بقايا مستوطنٍ كبيرٍ يتكوَّنُ من ١٦ تلاً أثرياً يمتدُّ على مسافةٍ تقربُ من ١٢٠٠ م، ويُظنُّ أنَّه قد أُقيمَ على مجرى نهرِ (يُن) الذي يأخذُ مياهه من النهرِوانِ ويصبُّها في دجلةِ قربَ گلوازي (منطقة الزوية).

وقد أسفرتِ التنقيباتُ فيه عن وجودِ سكنٍ مكثَّفٍ يرجعُ إلى العصرِ الفرثيِّ

(١) حول موقع تل أسود انظر: الفتیان، أحمد مالك ورجب، زهير سبع سنوات في تل أسود، بغداد ١٩٧٩.

(٢) من أرشيف دائرة الآثار والتراث. إضبارة رقم ٣٣٠/٤٠.

(٣) المصدر نفسه. إضبارة رقم ٣٣٣/٤٠.

وصولاً إلى العصور العباسية المتأخرة<sup>(١)</sup>.

ومن المواقع المهمة الأخرى نذكر «تل أبو ذر» في منطقة بغداد الجديدة (١ كم جنوب تل الضباعي) الذي يرجع بزمينه إلى العصر الفرثي أيضاً، وهو واحد من تلّول كثيرة منتشرة تمتدّ إلى الشمال الشرقي باتجاه نهر ديال<sup>(٢)</sup>. وفي المنطقة ذاتها نصادف «تلّول المشتل»، و«تلّول الألف دار» وهي من التلّول المهمة التي استمرّ الاستيطان فيها منذ العصر البابلي القديم وصولاً إلى العصور الإسلامية المتأخرة<sup>(٣)</sup>. وبالقرب منها أيضاً هناك تلّ يُعرف باسم «تل حيدر» وهو من التلّول الكبيرة التي لم يبقَ منها إلا قسم صغير بسبب التجاوزات التي حصلت عليه، وقد كُشِفَ فيه عن خمس طبقات بنائية ترجع جميعها إلى العصر الفرثي<sup>(٤)</sup>.

ومن المواقع المهمة الأخرى القريبة من بغداد موقع «بسماية» (٣٥ كم جنوب بغداد)، وهو مستوطن كبير (٣٠٠ × ١٥٠ م) كشفت التنقيبات الأثرية في الطبقات العليا منه عن مبانٍ إدارية واسعة مع وحدات بنائية مختلفة المساحة، وقد أحيط الموقع بسور دفاعي كبير مدعم بأبراج وفتحت فيه عدة بوابات، يرجع بزمينه إلى العصر الفرثي والساساني، أما الطبقات الأقدم في الموقع فهي تعود إلى العصر البابلي القديم<sup>(٥)</sup>.

ونذكر من التلّول الأثرية المهمة الأخرى في مدينة بغداد عند أراضي البيجية «تل الديراوي» و«أم الكلك»، التي تتألف من عدة روابٍ صغيرة متصلة الواحدة

(١) الأعظمي خالد خليل ((التنقيبات في تلّول الحبيبية، بغداد))، سومر مجلد ٣٧ ١٩٨١ ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) مظلوم، طارق ((حفريات تل أبو ذر بغداد الجديدة))، سومر مجلد ١٥، ١٩٥٩ ص ٨٥.

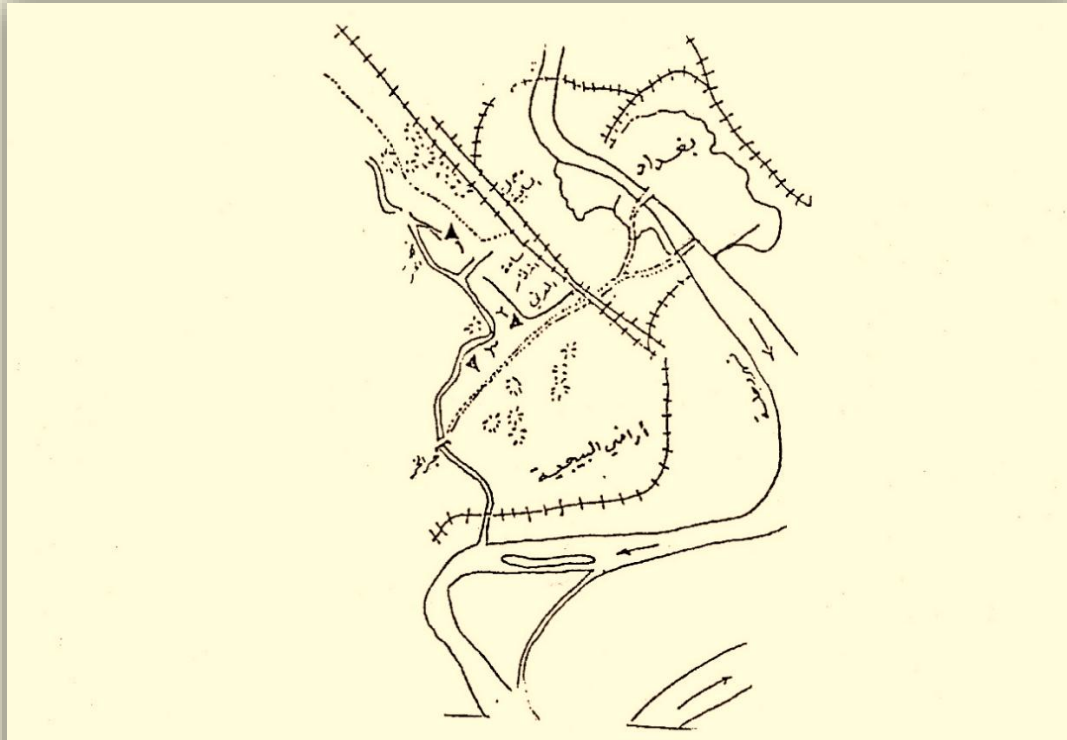
(٣) تقع تلّول المشتل في مقاطعة ٧/١٤ وزيرية وغزالية، من أرشيف دائرة الآثار والتراث. إضبارة رقم ٥٥٩/٤٠.

وتقع تلّول الألف دار في مقاطعة ١٣ نعيرية وكيارة، من أرشيف دائرة الآثار والتراث إضبارة رقم ٥٥٩/٤٠.

(٤) يقع تل حيدر في حي الأمين، انظر: رشيد معتمد، التنقيبات الأثرية في تل حيدر، سومر، مجلد ٣٤، ١٩٨٧، ص ٤٥.

(٥) خيرى، علي هاشم ((تقرير أولي عن تنقيبات بسماية الأثرية))، مجلة سومر مجلد ٤٥، ١٩٨٨ ص ٣٠-٣١.

بالأخرى يتوسطها تل كبير يعود إلى العصر الفرثي والساساني، أمّا طبقاته العليا فهي من الطبقات الإسلامية المهمة، التي يعتقد بعض الباحثين أنّها كانت مركز مدينة بغداد المدوّرة<sup>(١)</sup>. [شكل ١٠].



شكل 10

١. تل الديراوي (أم الكلّك) ، ٢. تلك الحسنية ، ٣. تل نصرت باشا

أمّا كتابات المؤرخين الخاصة بأحداث العصر الساساني، فيذكر الباحثان «مصطفى جواد» و«أحمد سوسة» أخباراً عن مدينة بغداد وردَ ذكرها في كتاب (الشاهنامه) للفردوسي (٩٧٧ - ١٠١٠ م) في معرض حديثه عن سيرة الملك «بهرام جور»

(١) من أرشيف دائرة الآثار والتراث - قسم التحريات الأثرية. إضبارة رقم ٤٠/٣٣٣.

(بهرام الخامس ٤٢٠ - ٤٣٨ م) أنّه توجه إلى بغداد بعد رحلة صيدٍ طويلةٍ وأقام فيها أسبوعين للترويح عن نفسه، ما يدلُّ على جمال الطبيعة فيها ومكانتها في المنطقة. كذلك يُذكر أنّ الملك «قُباد الأول بن فيروز» (٤٨٨ - ٥٣٦ م) قد مكث قليلاً في بغداد أثناء تجواله في المنطقة.

ومن الأحداث السياسية الأخرى التي ذكرها الفردوسي أنّ أحد قواد الساسانيين قد أعلن عصيانه في زمن الملك «هرمز الرابع» (٥٧٤ - ٥٩١ م)، وقام هذا المتمرّد بإرسال نقودٍ نُقش عليها اسمُ الملك «كسرى أبرويز» ابن الملك «هرمز الرابع» أرسلها بيد تجارٍ من بغداد لينشروها بين سكان طيسفون وبغداد من أجل إحداث فتنةٍ وخلافٍ بين الملك وابنه [١١]. [كلُّ ذلك فيه دلالةٌ على أنّ مدينة بغداد كانت معروفةً في ذلك العصر، وأنّها كانت تشتهرُ بأسواقها وإحاطتها بعددٍ من القرى والحقول الزراعية، ولا ننسى أنّها لم تكن ببعيدةٍ عن العاصمة الساسانية «طيسفون» (المدائن) سوى بضعة كيلومتراتٍ أو مسيرة يومٍ تقريباً.

### الاستيطان في العصور الإسلامية المبكرة:

يبدو من كتابات المؤرخين العرب أنّ اسمَ بغداد كان معروفاً منذُ أزمنةٍ مُبكرةٍ ترجعُ إلى نهايات العصر الساسانيّ، وأنّها كانت قريةً كبيرةً تقعُ على مَبعدةٍ يومٍ تقريباً من مدائن كسرى (طيسفون)، كما تبعدُ مسيرة يومٍ أو أقلّ عن مدينة الأنبار الواقعة على نهر الفرات. وكان يُقام فيها سوقٌ عظيمةٌ حيث يقصدها تجارٌ من مختلف الأصقاع.

وأقدمُ مَنْ ذكرها هو المؤرّخ ابن جرير الطبريّ (المتوفى عام ٣١٠هـ) أثناء حديثه عن معارك فتح العراق عام ١٢هـ، حيث يقول إنّهُ بعد وصول خالد بن الوليد إلى الأنبار أقام فيها قليلاً ثمّ توجهَ منها إلى سوقِ بغداد، وهناك تمكّن من الاستيلاء عليها وغنمَ مغانم كثيرةً، ثمّ وجّه المثنى بن حارثة فأغارَ على سوقٍ أخرى فيها جمعٌ من قضاة



وبكر، وهذا في سنة ١٢هـ<sup>(١)</sup>.

أما الخطيب البغدادي المتوفى عام (٤٦١هـ - ١٠٧١م) فيذكر ذلك الحدث مفصلاً عند حديثه عن فتح العراق على يد خالد بن الوليد، ويذكر أن الذي أغار على سوق بغداد هو المثنى بن حارثة الشيباني بأمر من قائد الجيوش خالد بن الوليد، ويقول: «إنَّ بغدادَ في أيام ملك العجم قريةً يجتمع فيها في رأس كلِّ سنةٍ التجارُ وتقوم فيها سوقٌ عظيمةٌ».

ويذكر أن المسلمين بعد أن فتحوا أرض السواد -أي مناطق جنوب ووسط العراق- ذكر الناس للقائد المثنى بن حارثة الشيباني عندما كان في الحيرة أمر سوق بغداد، وأنَّ فيها قريةً يأتيها التجار من كلِّ مكانٍ من بلاد فارس وتجار العراق، وتجتمع فيها في بداية كلِّ سنةٍ أموالٌ وبضائعٌ نفيسةٌ لا تُعدُّ ولا تُحصى، وأخبروه أنَّ تلك القرية تقع على مَبعدةٍ يومٍ عن المدائن (طيسفون)، ثمَّ نصحوه أن يذهبَ أوَّلاً إلى الأنبار (عند أعالي نهر الفرات) ومن هناك يأخذ الأدلاء ليرشدوه على الطريق.

وقد تمَّ للمثنى ما أرادَ حيث تابعَ سيره حتى وصلَ إلى مقربةٍ من قريةٍ بغدادَ قبل الفجرِ وانتظرَ حتى هجمَ عليهم صباحاً وغنمَ منهم مغانمَ كثيرةً ثمَّ قفلَ راجعاً إلى الأنبار. والمثنى بن حارثة الشيباني هو أوَّل من حاربَ الفرسَ في أيام الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>، كما يذكر الخطيب البغدادي في موضعٍ آخر قوله: «والمحفوظ أنَّ هذا الاسمَ (بغداد) كان يُعرفُ به الموضعُ قديماً قبل أبي جعفر المنصور»<sup>(٣)</sup>.

أما ياقوت الحموي (٦٢٦هـ - ١٢٢٥م) فيذكر: «أنَّ بغدادَ كانت من قبلَ سوقاً

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، ١٩٧٩ م، ط ٤، ج ٣، ص ٣٨٥.

(٢) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط ٤، مجلد ١، بيروت ٢٠٠٤، ص ٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٤.

يقصدُها تجارُ أهلِ الصينِ بتجارَتهم فيرجون الربحَ الواسعَ»<sup>(١)</sup>. ثمَّ فصلَ في أخبارِ فتحها بقوله: إِنَّ أَهْلَ الحيرةِ هم الذين أُرشدوا المثنى بنَ حارثةَ الشيبانيَّ إلى بغدادَ في عام ١٣هـ أثناء فتوحاتِ العراقِ، وأنَّ فيها سوقًا كبيرًا يجتمعُ فيه الناسُ بدايةً كلِّ شهرٍ ليعرضوا تجارَتهم وبضاعتهم هناك: «قال أهلُ الحيرة: إِنَّ بالقربِ منها قريةٌ تقومُ فيها سوقٌ عظيمةٌ في كلِّ شهرٍ مرَّةً فيأتيها تجارُ فارسَ والأهوازِ وسائرِ البلادِ يُقالُ لها بغدادُ»<sup>(٢)</sup>. وتمَّ للمثنى ما أرادَ حيث ذهبَ إلى الأنبارِ ومنها اصطحبَ معه أدلاءً حتَّى وافى سوقَ أهلِ بغدادَ في الضحى وغنمَ منهم مغانمَ كثيرةً سنة ١٣هـ.

أما ابنُ الجوزيَّ (٥٩٧هـ - ١٢٠٥م) فيُعيدُ ذِكرَ حادثةِ فتحِ المدينةِ من قِبَلِ المثنى بنِ حارثةَ، إلا أنَّه يذكرُ أنَّ موعدَ إقامةِ السوقِ فيها في كلِّ عامٍ وليس في رأسِ كلِّ شهرٍ، وأنَّ من أخبرَ المثنى عن ذلك هم أهلُ الحيرةِ، وكتبَ: «قيلَ إِنَّ هذا الاسمَ كان يُعرفُ به قديمًا قبل المنصورِ. وكانت بغدادُ في أيامِ ممالكِ الأعاجِمِ قريةً تقومُ بها للفريس في كلِّ سنةٍ سوقٌ عظيمةٌ»<sup>(٣)</sup>، وفعلًا تمَّ له ذلك واستولى على سوقِ بغدادَ ثمَّ قفلَ راجعًا نحو الأنبارِ.

كذلك يَرِدُ ذِكرُ بغدادَ وسوقِها في حوادثِ سنة ٧٦هـ، وذلك عند الحديثِ عن معاركِ الخوارجِ بقيادةِ شبيبِ بنِ يزيدَ وبين الجزلِ بنِ سعيدٍ في زمنِ الدولةِ الأمويةِ خلالَ حكمِ الحجاجِ بنِ يوسفَ الثقفيِّ، فيوردُ الطبريُّ ما نصُّه: «وأقبلَ شبيبٌ حتى قطعَ دجلةَ عند الكرخِ، وبعثَ إلى سوقِ بغدادَ فأمنَهم وكان ذلك اليومُ يومَ سوقِهم» فلم يتعرضَ للتجارِ في ذلك المكانِ<sup>(٤)</sup>.

(١) ياقوت الحموي، المصدر السابق الذكر، ص ٤٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥٧ .

(٣) ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ( ت ٥٩٧ ) : مناقب بغداد، تحقيق محمد بهجة الأثري ، بغداد ١٣٤٢ هـ، ص ٦ .

(٤) الطبري ، المصدر السابق الذكر ، جزء ٦ ، ص ٢٣٦ .

أما في زمن الدولة العباسية فيذكر المؤرخون أنَّ المنصور عندما أرادَ بناءَ مدينته (دار السلام) تجوَّلَ في المنطقة ثمَّ «استشارَ دهقانَ بغدادَ وكانت قريةً»<sup>(١)</sup>، وذكرَ له ذلك الدهقانُ أهميةَ موقعِها وتوسطِها للبلادِ، وتجري الأنهارُ حوالِها وتمرُّ عبرَها تجارةُ البلادِ، بالإضافة إلى موقعِها الحصينِ بين الأنهارِ. ويبدو من وصفِ هذا أنَّ بغدادَ القديمةَ كانت قائمةً آنذاك على نهرٍ يُعرفُ باسمِ نهرِ الصِراةِ<sup>(٢)</sup>.

ويبدو لنا من وصفِ المؤرخين لبغدادَ وما حولَها أنَّ المدينةَ قد فقدتَ بريقَها القديمَ بعد التبدلاتِ السياسية والاجتماعية التي حَلَّتْ بالبلادِ بعد سقوطِ الممالكِ القديمة وظهورِ ممالكَ وعواصمَ جديدةٍ في المنطقة، ومع ذلك وبسببِ موقعِها المتميزِ فقد أضحت قريةً واسعةً مهمةً تُقامُ فيها أسواقٌ يمكنُ أن نصفَها بأنَّها تجاوزتِ النشاطاتِ المحليةَ وأصبحتَ مركزًا تجاريًّا يَفِدُ إليها الناسُ من مختلفِ البلدانِ، فهي والحالةُ هذه لا يمكنُ عدُّها قريةً صغيرةً مثل باقي القرى، وإنَّما تمَّ تعريفُها بكونِها قريةً بسببِ نشاطاتها الزراعية التي غلبت على باقي فعاليتها الاقتصادية والسياسية.

كذلك يبدو من وصفِ المؤرخين أنَّ القسمَ الحيويَّ منها كان يقعُ عند الجانبِ الغربيِّ لنهرِ دجلة، ومع ذلك فإنَّ أراضيها وبساتينَها كانت تُسقى من جداولٍ تأخذُ مياهها من نهرِ الفراتِ؛ لأنَّ منسوبَ الأرضِ أعلى عند نهرِ الفراتِ وتنحدرُ الأرضُ نزولًا إلى الشرقِ باتجاهِ نهرِ دجلة. ومن بقايا الجداولِ والقنواتِ مما ذكره المؤرخون وجودُ نهرٍ كبيرٍ كان يأخذُ مياهه من الجانبِ الأيسرِ من نهرِ الفراتِ ويقعُ صدرُ هذا النهرِ جنوبَ مدينةِ الفلوجةِ وبالتحديدِ جنوبَ مدينةِ الصقلاويةِ قربَ موقعِ مدينةِ الأنبارِ القديمة، ويمتدُّ هذا النهرُ ليروي البساتينَ والمزارعَ عند مدينةِ بغدادَ ثمَّ يصبُّ مياهه

(١) الحموي، المصدر السابق الذكر، جزء ١، ص ٤٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥٨.

في نهر دجلة جنوب المدينة في منطقة الدورة الحالية، حيث التلؤل الأثرية المعروفة باسم «تلؤل خشم الدورة» الواقعة على الطريق القديم الواصل بين بغداد والمحمودية.

وكانت بقايا هذا النهر وتفرعاته باقية إلى خمسينيات القرن الماضي، وقد عُرف هذا النهر في العصور العباسية بعد بناء المنصور لمدينته (مدينة السلام) باسم نهر عيسى الأعظم نسبةً إلى عيسى بن عليّ عمّ الخليفة المنصور. وكان لهذا النهر عدة فروع من أكبرها جدول يُسمى (نهر عيسى) وهو الذي يمرّ شمال بغداد القديمة عند الجانب الغربي من بغداد الحالية ويصبُّ في نهر دجلة، وهذا الجدول أي (نهر عيسى) كان يُطلق عليه في العصور القديمة اسم نهر (الرفيل)<sup>(١)</sup>.

ومن الفروع الأخرى الكبيرة لنهر عيسى الأعظم هناك فرع يُسمى (نهر الصراة) أو (نهر الصراة العظيم) يمتدُّ مجراه إلى الشمال من نهر الرفيل، ويجريان بشكلٍ متوازٍ تقريباً ويصبّان في دجلة. وكانت قرية بغداد والمناطق المجاورة لها و(منطقة بغداد الغربية) فيما بعد تأخذ مياهها من هذين الفرعين ومن الجداول والقنوات المتفرعة منهما.

ويبدو من مسار تلك الأنهار أنّ قرية بغداد والمناطق الزراعية المحيطة بها كانت تنقسم إلى قسمين شماليّ وجنوبيّ، أطلق على القسم الشماليّ منها تسميةً (طسوج قطربل) أما القسم الجنوبيّ فقد أطلق عليه تسميةً (طسوج بادوريا)، والطسوج بمعنى المنطقة الزراعية أو الموضع الزراعيّ. وكان نهر الصراة المارّ ذكره هو الحدّ الفاصل بينهما، فما كان على يسار الصراة أي شماليّ منطقة بغداد (يسميه العرب غربيّ الصراة) فهو قطربل. أما على يمين نهر الصراة (يسميه العرب شرقيّ الصراة) فهو بادوريا، وكانت المنطقة التي تقع فيها سوق بغداد في منطقة طسوج بادوريا أي أسفل نهر الصراة، وكانت هذه المنطقة تمتدُّ بشكلٍ أقرب لمثلثٍ يحده من الغرب النهر الرئيسيّ المتفرع من الفرات

(١) مصطفى جواد وأحمد سوسة، المصدر السابق الذكر، ص ٦.



ويحدّه نهرُ الرّفيلِ من الشمالِ ونهرُ دجلةَ من الشرق<sup>(١)</sup>.

### الخاتمة:

ونستنتجُ مما تقدّمَ بأنّ اختيارَ موقعِ بغدادَ في هذه البقعةِ الجغرافيةِ لم يكن عشوائياً واعتباطياً، بل تمّ عن وعيٍ وإدراكٍ بأهميةِ هذا الموقعِ كما تنبّه له وأدرّكه المستوطنون الأوائلُ الذين شيّدوا مدنهم وحواضرهم في هذه البقعةِ من الأرض. لذلك يمكنُ القولُ: إنّ تشييدَ مدينةِ بغدادَ في العصورِ الإسلاميةِ هو تتابعٌ وتواصلٌ بلا انقطاعٍ لتاريخٍ طويلٍ من الاستيطانِ المكثّفِ في هذه البقعةِ من حوضِ نهرِ دجلةَ ترجعُ بزمنها إلى عصورٍ موعلةٍ في القَدَمِ.



---

(١) المصدر نفسه ص ٢١.

# بَغْدَادُ مَدِينَةٌ فِي حَقَائِبِ الرَّحَالِ

د. أحمد الحصناوي

المجمع العلمي العراقي - بغداد

يحتلُّ مفهومُ الرحلة مكانةً بارزةً في أدبِ الرحلات، إذ يتجاوزُ التنقّلَ الجغرافيَّ ليعكسَ تفاعلاتٍ ثقافيّةً وحضاريّةً عميقةً بين المدنِ والشعوبِ. ويمكنُ النظرُ إلى الرحلة في هذا الأدب من خلالِ اتجاهين متعاكسين، يتكاملان فيما بينهما ليشكّلا صورةً شاملةً للحركة الإنسانية عبر المكان.

يتمثّل الاتجاهُ الأوّل في الرحلة نحو المدينة المقصودة، حيث ينشدُ الرّحّالُ الوصولَ إليها بوصفها مركزاً حضاريّاً أو ثقافيّاً أو دينيّاً. في هذا السياق تكونُ المدينة محورَ الاهتمام، فيسعى الرّحّالُ إلى استكشافِ معالمها العمرانيّة، ووصفِ أسواقها ومساجدها وقصورها، ورصدِ أنماطِ العيش فيها، وعاداتِ أهلها وتقاليدهم، فضلاً عن مستوياتِ العلم والثقافة السائدة فيها. وتغدو الرحلة هنا فعلَ معاينةٍ وتوثيقٍ، يهدفُ إلى نقلِ صورةٍ دقيقةٍ عن المكانِ إلى القارئ، وإدخاله في تجربةٍ معرفيّةٍ تتجاوزُ حدودَ المشاهدةِ المباشرة.

أمّا الاتجاهُ الثاني فيقومُ على الرحلة العكسيّة، أي الانطلاقِ من المدينة نفسها نحو

الآفاق البعيدة. في هذا النوع من الرحلات يتحوّل الرّحالة إلى ابن للمدينة وسفير لها، يحمل معه رصيدها الثقافي والفكري، وينقل خبراتها الحضارية إلى أمة جديدة. وقد مثّلت بغداد نموذجاً بارزاً لهذا الاتجاه، إذ خرج منها عددٌ من الرّحالة الذين أسهموا في وصل الشرق بالغرب، مثل هارون بن يحيى في رحلته إلى (القسطنطينية) في حدود سنة (٢٨٨هـ/٩٠٠م)، وابن فضالّ (المتوفى بعد ٣١٠هـ/٩٢٢م) في رحلته الشهيرة إلى حوض الفولكا الأوسط وشعب البلغار (غادر بغداد سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م)، وعهدي البغداديّ (المتوفى: ١٠٠٢هـ/١٥٩٤م) الذي يُعدّ من أوائل البغداديين الذين زاروا تركيا سنة (٩٦٠هـ/١٥٥٣م)، فضلاً عن إلياس الموصليّ (كان حياً سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م) الذي سجّل اسمه بوصفه أوّل عراقيّ يصل إلى القارة الأمريكية سنة (١٠٧٩هـ/١٦٦٨م).

وبهذا المعنى يتحوّل أدب الرحلة إلى فضاء للتبادل الحضاريّ والفكريّ، تتلاقى فيه الثقافات وتتفاعل التجارب الإنسانية. فالسفر هو انتقال للمعرفة وحركة في المكان، وحوار بين المركز والأطراف، وبين المدن المستقبلية والمرسلة على حدّ سواء. ومن هنا تتجلّى بغداد بوصفها ملتقى للأسفار، وموتلاً للرحالة الوافدين، ومنطلقاً لرحلات أسهمت في إثراء الذاكرة الإنسانية المشتركة.

ولفهم طبيعة الرّحالة الذين قدّموا إلى بغداد، وغاياتهم ونتائج رحلاتهم، يمكن تقسيم هذه الرحلات إلى أربع حقَب زمنية رئيسية، تعكس التحوّلات التي شهدتها المدينة عبر تاريخها الطويل، وما رافق ذلك من ازدهار أو انحسار أو انفتاح على العالم. ومع ذلك، لا يمكن بحالٍ من الأحوال حصر جميع الرحلات إلى بغداد، إذ يُعتقد أنّ عددها كبير جدّاً، بين مطبوع ومخطوط، وهو ما لا يتناسب مع ما تُرجم منها وما حُقق ونُشر حتى اليوم. ويمكن تبين ذلك من خلال كتاب (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) لمؤلفه ستيفن هيمسلي لونكريك (المتوفى: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، الذي

اعتمدَ فيه على (٩٨) رحلةً. وكذلك من خلالِ الكشفِ الذي وضعَهُ الأستاذانِ كوركيس عوّاد (المتوفى: ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) وعبد الحميد العلوجي (المتوفى: ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) سنة (١٣٨١هـ / ١٩٦٢م) في كتاب (جمهرة المراجع البغدادية)، فضلاً عما أوردَهُ الأستاذُ كوركيس عواد في كشّافِهِ الخاصِّ بالرحلاتِ في مجلة (المورد) (م ١٨ / ٤٤ / سنة ١٩٨٩م)، حيث أحصى (٢٤٥) رحلةً، ومسرِد الرحالة الذي أوردَهُ المترجمُ جعفر الخياط (المتوفى: ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م) في مقدمته لكتاب (العراق في رسائل المس بيل).

ويُضافُ إلى ذلك ما جمعهُ المستشرقون في هذا المجال، مثل كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) (صدر سنة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) للمستشرق الروسي كراشكوفسكي (المتوفى: ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م)، وكتاب (تاريخ الأدب العربي) لـ كارل بروكلمان (المتوفى: ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م)، وما استدركَ عليه فؤاد سزكين (المتوفى: ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م) في (تاريخ التراث العربي)، وهي أعمالٌ تؤكدُ كثافةَ الحضورِ الرحلي لبغدادَ في المدوناتِ التاريخية والجغرافية.

يُرجَّحُ أنَّ أقدمَ ذكرٍ عربيٍّ لأخبارِ مدينةِ بغدادَ ما أوردَهُ الهيثمُ بنُ عديٍّ (المتوفى: ٢٠٧هـ / ٨٢٢م)، في سياقِ حديثه عن تأسيسِها في عهدِ الخليفةِ العباسيِّ أبي جعفر المنصور، غيرَ أنَّ كُتُبَهُ لم تصلنا، وإنَّما عُرفتْ مادتهُ من خلالِ ما نقلَ عنه مؤرِّخو العصورِ اللاحقة.

أمَّا أقدمُ مصدرٍ عربيٍّ محفوظٍ بأيدينا اليومَ يذكرُ بغدادَ صراحةً، فهو كتابُ (فتوح البلدان) للبلاذري (المتوفى: ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، الذي تناولَ فيه أخبارَ تأسيسِ المدينة، واختيارِ موقعِها، وتنظيمِها الإداريِّ في بداياتِ العصرِ العباسيِّ. ويأتي بعدَ ذلك كتابُ (تاريخ بغداد) لابنِ طيفورٍ (المتوفى: ٢٨٠هـ / ٨٩٣م)، الذي يُعدُّ أقدمَ مؤلِّفٍ مستقلٍّ خُصَّصَ لبغدادَ، إذ قدَّمَ صورةً ثقافيَّةً واجتماعيَّةً عن المدينة، ووصلَ منه جزءٌ واحدٌ فقط وهو الجزءُ السادسُ الخاصُّ بأخبارِ بغدادَ في عهدِ الخليفةِ المأمون.



ثمَّ كتابُ (البلدان) لليعقوبيّ (المتوفى بعد: ٢٩٢هـ/٩٠٥م)، الذي يُمثّل أوائلَ المحاولاتِ الجغرافيّةِ المنظّمةِ لوصفِ بغدادَ. وتشكّل هذه المؤلفاتُ مجتمعةً الأساسَ المبكّرَ للكتابةِ التاريخيّةِ والجغرافيّةِ عن بغدادَ قبلَ نضجِ أدبِ الرحلاتِ في القرونِ اللاحقةِ.

### الحقبةُ الأولى: الحقبةُ العبّاسيّةُ (١٤٥-٦٥٦هـ/٧٦٢-١٢٥٦م):

تُعَدُّ هذه الحقبةُ أزهى مراحلِ تاريخِ بغدادَ، حينَ غدتْ مركزَ الخلافةِ الإسلاميّةِ، وملتقى العلماءِ والمفكرينَ، ومحورَ الحركةِ العلميّةِ والثقافيّةِ في العالمِ الإسلاميّ. تميّزتِ الرحلاتُ إلى بغدادَ في هذه الفترةِ بطابعٍ علميّ وثقافيٍّ واضحٍ، إذ قصدها الجغرافيونَ الأوائلُ وطلّابُ العلمِ لرصدِ مظاهرِ حضارتها، وتوثيقِ مجالسها العلميّةِ، والاطّلاعِ على مناهجها الفكريةِ.

ويظهرُ هذا الاستقطابُ العلميُّ جليّاً في عددٍ من المؤلفاتِ والرحلاتِ المهمّةِ. فمن ذلك كتابُ (الرحلة في طلب الحديث) للخطيبِ البغداديّ (المتوفى: ٤٦٣هـ/١٠٧٢م)، الذي جمعَ فيه أخباراً عجيبةً ونوادرَ فريدةً عن رحلاتِ العلماءِ، ولا سيّما رحلاتهم الشاقّةَ من أجلِ حديثٍ واحدٍ فقط، ممّا يعكسُ المكانةَ العلميّةَ لبغدادَ في تلكَ الحقبةِ. وكذلك كتابُ (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابنِ أبي أصيبعةَ (المتوفى: ٦١٦هـ/١٢١٩م)، الذي يضمُّ إشاراتٍ إلى تطوّر العلومِ الطبيّةِ بما يدلُّ على ازدهارِ البحثِ العلميّ في بغدادَ.

ويُعَدُّ المقدسيّ (المتوفى نحو: ٣٨٠هـ/٩٩٠م) من أبرزِ الجغرافيينَ الذينَ زاروا بغدادَ، وقد صنّفَ كتابَهُ الشهيرَ (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، الذي أدخلَهُ دي غويّه (المتوفى: ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) ضمنَ (المكتبة الجغرافية العربية في ليدن). تميّزَ بمنهجِهِ النقديّ، إذ انتقدَ الجغرافيينَ والرحالةَ الذينَ سبقوه، واعتمدَ في كتابِهِ على الملاحظةِ المباشرةِ والمشاهدةِ الميدانيّةِ، إضافةً إلى ما سمِعَهُ من الثقاتِ. قالَ في وصفِها: «بغدادُ في مِصرِ الإسلامِ، وبها مدينةُ السلامِ، ولهم الخصائصُ والظرافةُ، والقرائحُ واللطافةُ، هواءُ

رقيق، وعلمٌ دقيق، كلٌ جيدٌ بها، وكلٌ حسنٌ فيها، وكلٌ حاذقٌ منها، وكلٌ ظرفٌ لها، وكلٌ قلبٌ إليها، وكلٌ حربٌ عليها، وكلٌ ذبٌّ عنها، هي أشهرٌ من أن تُوصَفَ وأحسنٌ من أن تُنَعَتَ وأعلى من أن تُمدَحَ...».

كما قدّم شرف الزمان طاهر المروزي (كان حيًّا سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م) في كتابه (طبائع الحيوان)، صورةً اجتماعيّةً غنيّةً لبغداد، مبتعدًا عن الشأن السياسي، ومركّزًا على طبائع الناس، والحياة اليوميّة وطقوسها، فضلًا عن العمارة من أبواب وقصور، واحتفالاتها الشعبيّة في مشاهد تعبّر عن حيويّة المجتمع البغداديّ.

ويبرز أيضًا ياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، الرّحالة والجغرافي الذي جمع بين الإقامة والترحال إلى بغداد، وقدّم واحدًا من أروع أوصافها في كتابه (معجم البلدان)، إذ افتتح حديثه عنها بقوله: «أمّ الدنيا وسيّدة البلاد»، في تعبير يعكس مكانتها في الوعي الحضاريّ الإسلاميّ.

أما ابن جبير (المتوفى: ٦١٤هـ/١٢١٧م)، الرّحالة الأندلسي، فقد زار بغداد عائدًا من الحجّ، واستهلّ حديثه عنها بوصفها (المدينة العتيقة) التي «ذهب أكثر رُسمها، ولم يبقَ منها إلا شهيرُ اسمها». وتحمل هذه العبارات نبرة صدمة وخيبة، إذ عاين بغداد في زمن أفولها، في أواخر الخلافة العبّاسيّة إبّان حكم الناصر لدين الله، فرأى فيها صورةً مغايرةً لما كانت عليه في عصر العبّاسيّين الأوائل، وهو ما يضيف على وصفه قيمةً تاريخيّةً ودلاليّةً مهمّةً.

### الحقبة الثانية: احتلال بغداد على يد المغول وسقوط الخلافة العبّاسيّة (٦٥٦-١٠٤٨هـ/ ١٢٥٨-١٦٣٩م):

تمتدُّ هذه الحقبة من غزو بغداد على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وما ترتّب عليه من انهيار الخلافة العبّاسيّة، إلى دخولها تحت الحكم العثمانيّ في عهد السلطان مراد الرابع سنة (١٠٤٨هـ/١٦٣٩م). وقد شهدت المدينة خلال هذه المدّة تحولاتٍ سياسيّةً

عميقة، إذ تعاقبت عليها قوى متعددة، من الإيلخانيين والجلائريين، إلى التيموريين والصفويين، وصولاً إلى العثمانيين.

ويُثارُ في هذا السياق سؤالٌ جوهريٌّ كان له أثرٌ بالغٌ في مسارِ مدينةِ بغدادَ وصورتها التاريخية: هل بدأ خرابُ المدينة فعلياً بغزوِ بغدادَ على يدِ المغولِ سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)؟ أم أنَّ الدمارَ الأشدَّ وقعَ مع الغزواتِ اللاحقة، ولا سيَّما حملاتِ تيمورلنك (المتوفى: ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، التي دمرتُ بغدادَ مرَّتين، سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) وسنة (٨٠٤هـ/١٤٠١م).

فُتْشِرُ هذه الوقائعُ إلى أنَّ الخرابَ الحقيقيَّ وتعطُّلَ الحياةِ الحضريَّةِ في بغدادَ إنّما ترسَّخا بعدَ نحو (١٣٩) سنةً من الغزوِ المغوليِّ الأوَّل، الأمرُ الذي عمَّقَ حالةَ الانحسارِ العمرانيِّ والحضاريِّ. وقد وردتْ إشاراتٌ واضحةٌ إلى ذلك في رواياتٍ عددٍ من المؤرِّخين الذين عاصروا مرحلةَ الغزوِ مثلَ ابنِ الفوطي (المتوفى: ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، وابنِ الساعي (المتوفى: ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، ومن بعدهم مثلَ ابنِ إياس (المتوفى نحو: ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، وغيرهم، الذين أكَّدوا أنَّ ما خلفتُه الغزواتُ التيموريَّةُ فاقَ في أثرِهِ ما أحدثتهُ الغزوُ المغوليُّ الأوَّل من دمارٍ.

وقد انعكستْ هذه التحوُّلاتُ بوضوحٍ على صورةِ بغدادَ في عيونِ الرحَّالة، إذ تحوَّلتْ من مدينةٍ مزدهرةٍ تُقصدُ لطلبِ العلمِ والمعرفة، إلى مدينةٍ مثقلةٍ بالخرابِ، غدتْ موضوعاً للثناءِ والمقارنةِ بينَ ماضيها المشرقِ وحاضرها المظلمِ. وغلبَ على الرحلاتِ في هذه المرحلةِ طابعُ تأمُّليٍّ وتاريخيٍّ، يهتمُّ بوصفِ ما تبقى من معالمِها القديمة، وآثارِ حضارتِها الزائلة، وتحوُّلِ الرحلةِ من المركزِ إلى الأطرافِ؛ ولذلك باتتِ الرحلةُ إلى بغدادَ تقعُ على هامشِ مراكزِ قوىٍ جديدةٍ مثلَ تبريزَ، وسمرقندَ، وإسطنبولَ، فضلاً عن التقربِ إلى الحكَّامِ والولاة، وتسجيلِ الأوصافِ العسكريَّة، والحملاتِ، والكشوفاتِ الجغرافيَّة.

ومن أبرز من زار بغدادَ في هذه المرحلة ابن بطوطة (المتوفى: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، الذي أملى أخبارَ رحلته على محمد بن جزي الكبي (المتوفى: ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) بمدينة فاس سنة (٧٥٦هـ/١٣٥٦م)، وجمعت في كتابه الشهير (تحفة التُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار). وقد وصف بغدادَ بقوله: «مدينة دار السلام، وحضرة الإسلام، ذاتُ القدر الشريف والفضل المنيف، مثوى الخلفاء، ومقر العلماء»، ومع أنَّ ابن بطوطة نقلَ ما كتبه ابن جبير عن بغدادَ لكنَّه فصلَ وأضاف الكثير على ما نقله عن ابن جبير، مشيرًا إلى ما بقي من عمرانها، ومكانة علمائها، على الرغم من آثار الخراب التي لحقت بها؛ يقول عن المراكز التعليمية: «... المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تُضرب بحسنها. وفي آخره [سوق الثلاثاء] المدرسة المستنصرية، ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر بن أمير المؤمنين الظاهر بن أمير المؤمنين الناصر، وبها المذاهب الأربعة، لكل مذهب إيوانٌ فيه المسجد...».

كما زارها الرحالة الإيطالي ماركو بولو (المتوفى: ٧٢٤هـ/١٣٢٤م)، وأطلق عليها (بلد اش) و(باجادت)، وتحدث في الفصل السابع من كتابه، واصفًا بغدادَ بأنها «مدينة كبيرة، كانت فيما سبق المقر الرسمي للخليفة، أو الحبر الأعظم لجميع المسلمين...». ويُرجَّح أنَّ زيارته لبغدادَ كانت نحو سنة (٦٧٠هـ/١٢٧٢م)، أي بعد سقوطها على يد المغول بنحو أربع عشرة سنة.

وقد أرجع ماركو بولو سقوطَ بغدادَ إلى ما عدّه انتقامًا إلهيًا، وفق تصوُّره، بسبب ما زعم من اضطهاد الخليفة للمسيحيين، وهو تفسير يعكس الخلفية الدينية والثقافية للرحالة أكثر مما يعكس الواقع التاريخي. وركّز في وصفه للمدينة على مكانتها التجارية، مبرزًا جوانبها الاقتصادية والاجتماعية، ولا سيَّما أسواقها، وتنوعها الثقافي، وثروتها، وأهميتها بوصفها مركزًا للتجارة الإقليمية. وعلى الرغم من أنَّ وصفَ ماركو بولو لبغدادَ



لم يكن معمّقاً مقارنةً بوصف بعض الرّحالة المسلمين، فإنّ رواياته عن دخول المغول إلى المدينة ومقتل الخليفة كانت على الأرجح متداولةً في عصره. ومع ذلك، أسهمت كتابات ماركو بولو إسهامًا مهمًا في تعريف أوروبا بالشرق الإسلاميّ في سياق الثقافة الأوروبيّة في العصور الوسطى.



[لوحة من الفسيفساء للرحالة الإيطالي ماركو بولو - قصر دوريا تورسي/ إيطاليا جنوة]

ومع تطوّر الكتابة الرحليّة، وُضعت هذه النصوص تدريجيًّا تحت محكّ المصادقيّة، ولم تعد تُستقبل بوصفها رواياتٍ سرديّةً محايدةً، بل غدت مادةً للفحص والنقد، تقوم على المقارنة بين المشاهدة المباشرة والروايات المنقولة سماعًا. وقد تبين في هذا السياق أنّ عددًا من الرّحالة الذين وصفوا بغداد لم يدخلوها فعليًّا، بل اعتمدوا في تصويرهم

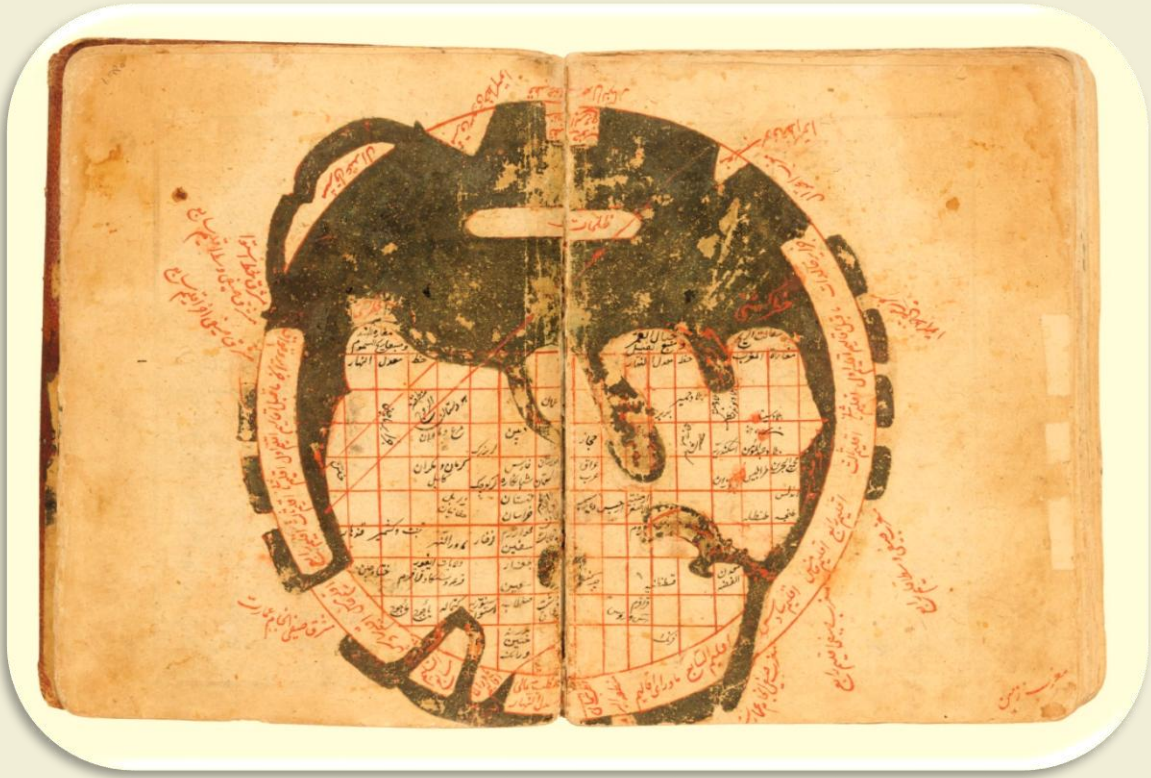
لها على أخبارٍ متداولةٍ ورواياتٍ سابقةٍ، وهو ما يفرضُ قراءةً نقديةً لهذه النصوص، وتمييزاً بين الوصفِ القائم على المعاينة، وذلك المبني على النقلِ والتخيّل.

وفي هذا السياق، ظهرَ في هذه الحقبة نمطٌ جديدٌ من الرحلات، تمثّل في الرحلاتِ المصوّرة، التي استعانتُ بالخرائطِ ورسومِ الأبنية والمعالِم، بوصفها وسيلةً داعمةً للوصفِ النصّي، وأسهمتْ في تعزيزِ الدقّةِ التوثيقية، وتقليصِ هامشِ المبالغةِ والانطباعِ الذاتيِّ في أدبِ الرحلة.

ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاهِ حمّدُ الله المستوفي (المتوفى: ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، وهو جغرافيٌّ ورحالةٌ وموسوعيٌّ فارسيٌّ. أنجزَ كتابَهُ الشهيرَ (نزهة القلوب) سنة (٧٤٠هـ/١٣٤٤م)، وهو مؤلّفٌ باللغةِ الفارسيّةِ يندرجُ في إطارِ كتبِ المسالكِ والممالكِ، ويقترُبُ في منهجِهِ من الجغرافيا الوصفية أكثرَ من كونه كتابَ رحلاتٍ يعتمدُ على المشاهدةِ المباشرة، كما هو الحالُ في مدوّناتِ الرحالة.

ويُعَدُّ كتابُ (نزهة القلوب) من أهمِّ المصادرِ التي وصفتِ الجغرافيا الطبيعيّةَ والبشريّةَ، والشؤونَ الإداريّةَ للإمبراطوريّةِ الإيلخانيّةِ المغوليّةِ، بل يُعَدُّ في كثيرٍ من جوانبِهِ مصدرًا شبهَ فريدٍ لتلكِ المرحلةِ التاريخيّةِ. وقد شغلتْ مادّتهُ الرئيسةُ مناطقَ آسيا الصغرى والعراق، وتناولَ المستوفي في القسمِ الثالثِ من المقالةِ الثالثةِ من كتابِهِ جغرافيةَ بغدادَ، إلى جانبِ غيرها من البلادِ التي كانتْ خاضعةً للنفوذِ الإيرانيِّ آنذاك.

أمّا الفصلُ الخاصُّ بجغرافيةَ بغدادَ، فقد استلّهَ المستشرقُ الألمانيُّ شارل شِفَر (المتوفى: ١٣٢٥هـ/١٩٠٨م)، وقامَ بنشرِهِ مستقلاً في باريسَ سنة (١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، في حين طُبِعَ بقيّةُ الكتابِ طباعةً حجريةً في مومباي سنة (١٣١١هـ/١٨٩٣م)، وهو ما أسهمَ في إتاحةِ هذا المصدرِ الجغرافيِّ المهمِّ للدراساتِ الحديثةِ.

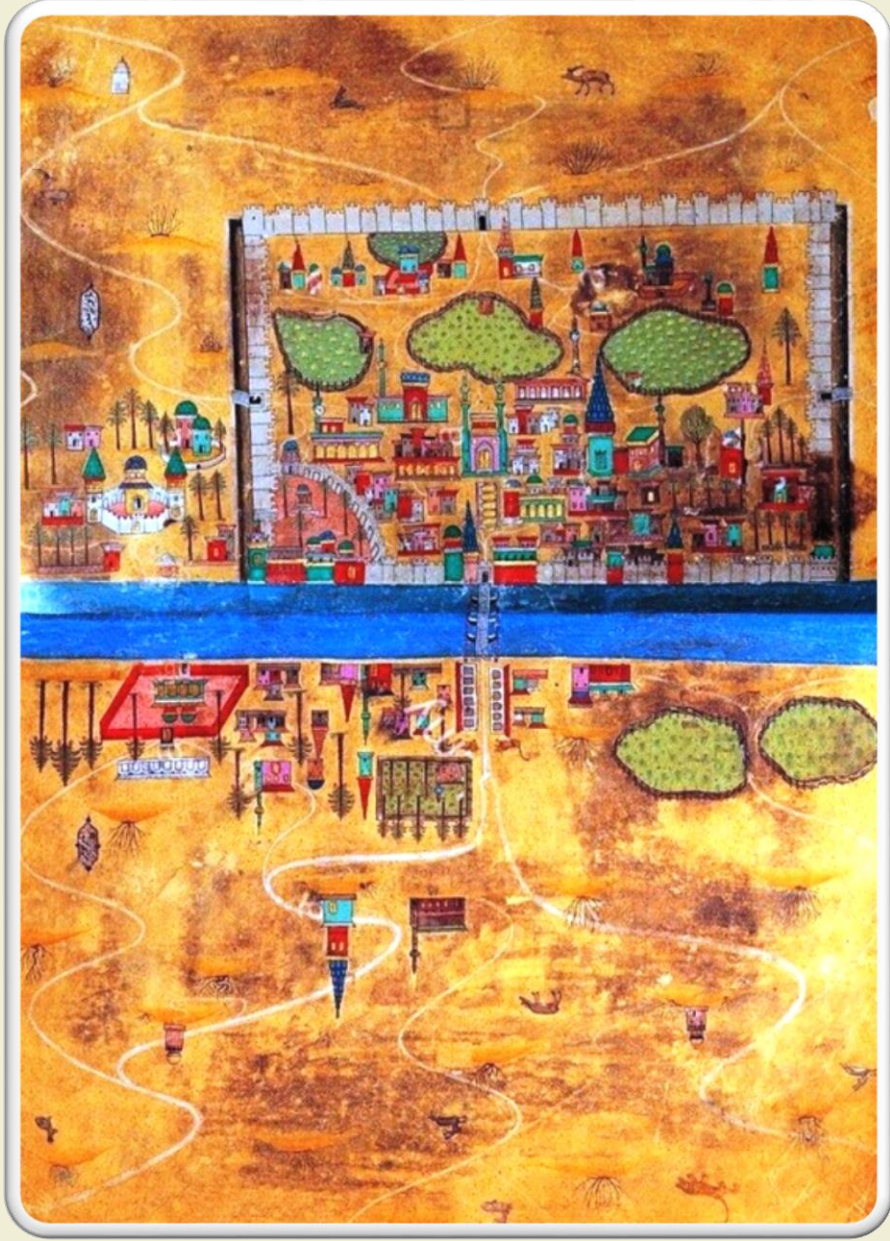


[خريطة العالم من كتاب (نزهة القلوب) لمؤلفه حمد الله المستوفي  
عن نسخة تعود لسنة (١٤ رجب ١٠٥١هـ / ١٨ تشرين الأول ١٦٤١م)]

كما يبرز المطراقي (المطرقجي) زاده نصوح أفندي السلاحي (المتوفى:  
٩٧١هـ/١٥٦٤م)، وهو كاتبٌ ومترجمٌ وشاعرٌ بليغٌ، ومؤرخٌ، ورياضيٌ، ومهندسٌ، ورسّامٌ،  
وجغرافيٌ. وقد رافق اثنين من أعظم سلاطين بني عثمان، هما: السلطان سليم الأول،  
والسلطان سليمان القانوني، وأسهم في توثيق حملاتهما العسكرية والإدارية.

زار المطراقي بغداد سنة (٩٤١هـ/١٥٣٤م)، وخلف رسوماً دقيقةً لمعالمها العمرانية،  
ضمن عمله المعروف (منازل العراقيين للسلطان سليمان خان) باللغة التركية  
العثمانية، وهي رسومٌ تُعدُّ من أهمّ الشهادات البصرية عن المدينة في القرن السادس  
عشر، إذ تكشف عن تحوّل لافٍ في نظرة الرحالة، من الاختصار على الوصف النصّي  
إلى اعتماد التوثيق البصري بوصفه وسيلةً مكّمةً للفهم والمعاينة.





[خريطة بغداد كما رسمها المؤرخ والرسام العثماني نصوح أفندي السلاحي،  
وتُعرف هذه الخريطة باسم (منازل العراقيين للسلطان سليمان خان)]

وتُختتم هذه الحقة برحلة الدبلوماسي الإنكليزي توماس هيربرت (Thomas Herbert) (المتوفى: ١٠٩٢هـ/١٦٨٢م)، وهو مؤرخ ومحاربٌ ورحالةٌ، وتاجرٌ بالكتبِ النادرة والتحف. وتأتي رحلته في سياق المحاولات الإنكليزية لإقامة تحالف إنكليزي-فارسي ضد الدولة العثمانية.



زار هربرت بغدادَ في طريقه إلى بلادِ فارسَ سنة (١٠٣٧هـ/١٦٢٨م)، وكانتِ المدينةُ آنذاك خاضعةً للحكمِ الصفويّ في دورتهِ الثانيةِ. وتكتسبُ رحلتهُ أهميّةً تاريخيّةً بالغةً، لما تضمّنته من معلوماتٍ نادرةٍ ومركّبةٍ عن بغدادَ، إذ وصفها بأنّها مدينةٌ (نهضتُ من تحتِ أنقاضِ بابلِ القديمة). وقد امتازَ سردهُ بتشابكٍ تاريخيّ وعمرانيّ، جعلَ ملاحظاتهِ مختلفةً عمّا وردَ في مصادرٍ أخرى، بل إنّ بعضَ معلوماته لا نجدُ لها نظيراً في كتبِ الرحلاتِ المعاصرةِ له. وقد نُشرتْ ملاحظاتهُ ومشاهداتهُ الرحليّةُ باللغةِ الإنكليزيّةِ سنة (١٠٤٣هـ/١٦٣٤م)، لتشكلَ إحدى الشهاداتِ الأوروبيّةِ المبكرةِ المهمّةِ عن بغدادَ في القرنِ السابعِ عشرَ.



[السير توماس هربرت]

وبذلك تمثّل رحلات هذه الحقبة سجلاً مركّباً، يجمع بين الرثاء، والتاريخ، والجغرافيا، والتوثيق، ويعكس تحوّل بغداد من مركزٍ حضاريٍّ عالميٍّ إلى مدينةٍ تعيش على ذاكرةٍ مجدها، وتقاوم الاندثار عبر ما حفظه الرّحالة في نصوصهم ورسومهم.

الحقبة الثالثة: وهي الحقبة العثمانية وحكم المماليك (الكُولات) ويعرفون بـ (الكوله من)، وتمتد حتى احتلال الإنكليز لبغداد (١٠٤٨-١٣٣٥هـ / ١٦٣٩-١٩١٧م):

اتَّخَذَت الرِّحَلَاتُ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ مَنْحَى اسْتِخْبَارَاتِيًّا وَاسْتِطْلَاعِيًّا وَتِجَارِيًّا وَسِيَاسِيًّا وَاضِحًا، مَعَ تَزَايِدِ تَوَجُّهِ الْمَصَالِحِ الْأُورُوبِيَّةِ نَحْوَ الشَّرْقِ، وَقَلَّ فِيهَا الرِّحَالَةُ الْعَرَبُ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، عَمِدَ الزَّائِرُونَ إِلَى تَوْثِيقِ أَحْوَالِ الْمَدِينَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَبَنِيَّتِهَا الْعِمْرَانِيَّةِ، وَوَقَّعَهَا الْاِقْتِصَادِيَّ، فَضْلًا عَنِ الْاهْتِمَامِ الْمَتَنَامِيِّ بِالْكَشْفِ عَنِ الْمُدُنِ التَّوْرَاتِيَّةِ، وَاقْتِنَاءِ الْأَثَارِ وَالْمَخْطُوطَاتِ، وَتَنْظِيمِ الْبَعَثَاتِ التَّنْقِيْبِيَّةِ. وَقَدْ أَسْهَمَتْ هَذِهِ النِّزْعَةُ فِي تَرَاجُعِ حُضُورِ اسْمِ مَدِينَةِ بَغْدَادِ فِي بَعْضِ الْمَدَوَّنَاتِ الْغَرْبِيَّةِ، لِصَالِحِ التَّرَكِيزِ عَلَى مَدِينَةِ بَابِلَ، بِوصفها رمزًا تاريخيًا ودينيًا أكثر جذبًا للخيال الأوروبي.



جامع الأحمدى المعروف بجامع الميدان، والجاذة التي صارت بعد ذلك شارع الرشيد في بغداد (١٢٩٩هـ/١٨٨٢م)، بريشة آرثر ميلفيل Arthur Melville (المتوفى: ١٣٢١هـ/١٩٠٤م)

وإلى جانب ذلك، تزامنت هذه المرحلة مع بدايات النهضة الثقافية والفنية في البلدان العربية، وكان لبغداد دورٌ بطيءٌ ومتدرّجٌ في هذا الحراك. وقد أسهم عددٌ من الرّحالة والمقيمين الأجانب في نقل المعارف والفنون والطرائق الحديثة إلى المدينة، ومن بينهم الضابط الفرنسي **مسيو ديفو (M. Defeau)**، الذي استقدمه الوالي داود باشا إلى بغداد خلال فترة حكمه (١٢٣٢-١٢٤٦هـ/١٨١٧-١٨٣١م). وكان من ضباط جيش نابليون بونابرت، وقد غادر فرنسا عقب سقوط قائده، شأنه في ذلك شأن عددٍ من الشخصيات الأوروبية التي وجدت في المشرق مجالاً جديداً للعمل والتأثير.

ومع ذلك، فإنّ الرّحالة الأوروبيين لم يُحدثوا نهضةً عراقيةً مباشرةً، على غرار ما جرى في مصر في تلك الحقبة، إلّا أنّهم أسهموا في إعادة اكتشاف تاريخ بغداد على الصعيد العالمي، وإدراجها ضمن الخريطة الثقافية الحديثة. كما مهّد حضورهم العلمي والثقافي لنشوء علم الآثار، وتطوّر البحث التاريخي، وإعادة قراءة الماضي بمنهج حديث. وقد كان تأثير هؤلاء الرّحالة خارجياً في المقام الأوّل، تمثّل في تعريف أوروبا ببغداد وتاريخها، ثم أخذ هذا التأثير يتسرّب تدريجياً إلى الداخل، ولا سيّما في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حين بدأت تتبلور ملامح الوعي الثقافي الحديث في بغداد.

ومن بين أبرز الرحلات التي تُمثّل هذا الاتجاه:

- **كارستن نيبور (Karsten Niebuhr)** (المتوفى: ١٢٣٠هـ/١٨١٥م): رّحالة ألماني الأصل، ومستكشفٌ وعالمٌ خرائط، ويُعدّ من أوائل الرّحالة الذين اختلف منهجهم عن أسلافهم من هواة الأسفار، إذ أولى اهتماماً خاصاً بدراسة الكتابات المسماة بالآثار القديمة. وقد عمل في خدمة الدولة الدنماركية، وزار بغداد سنة (١١٧٩هـ/١٧٦٦م) ضمن بعثة دنماركية إلى بلاد العرب، وهي أوّل بعثة علمية أوروبية نُظمت على نطاق واسع، إذ ضمت عدداً من العلماء المتخصّصين في فروع

متعدّدة من المعرفة. نُشرت رحلته باللغة الألمانية سنة (١١٨٥هـ/١٧٧٢م) تحت عنوان (وصف جزيرة العرب). وتُعَدُّ هذه الرحلة من أندر المصادر التي تناولت مدينة بغداد في تلك الحقبة، إذ كانت المدينة تمرُّ بإحدى أكثر مراحلها ظلمةً وغموضاً. فقد كانت خاضعةً آنذاك لحكم الباشوات المماليك، الذين شكّلوا نخبةً حاكمةً فريدةً من نوعها، واستمرَّ نفوذهم لعقودٍ طويلةٍ. وقد شهدت هذه المرحلة دوراً سياسياً لافتاً لامرأةٍ من هذه الأسرة الحاكمة، هي ابنة أحد الباشوات، التي استطاعت بدهائها أن ترسم ملامح مرحلةٍ كاملةٍ من تاريخ بغداد.

- **جيمس سيلك بكنغهام (James Silk Buckingham)** (المتوفى: ١٢٧١هـ/١٨٥٥م): كاتبٌ وصحفيٌّ ورّحالةٌ إنكليزيٌّ، يُعَدُّ من أبرز المستكشفين الذين زاروا منطقة الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر. بدأ رحلته إلى بلاد الرافدين ماراً بعدة مناطق، من بينها سهول سنجار، والموصل، وأربيل، وكركوك، قبل أن يصل إلى بغداد سنة (١٢٣١هـ/١٨١٦م). وخلال هذه الرحلة، دوّن بكنغهام ملاحظاتٍ قيّمةً عن مدينة بغداد، تناول فيها عمرانها، وبنيتها المعماريّة، وتركيبتها الاجتماعيّة، معتمداً في كثيرٍ من معلوماته على ما خلفه سلفه كارستن نيبور، فضلاً عما جمعه من رواياتٍ ومصادرٍ أخرى. وقد أشار في مقدّمة ذكره لمدينة بغداد: «ومن خلال هذه الجولة، ومن المعلومات التي حصلتُ عليها من مصادرٍ أخرى خلال الأيام القلائل التي أمضيْتُها في بغداد، استطعتُ أن أجمع بعناية المعلومات الآتية، وهي وإن لم تكن كاملةً، فإنّها صحيحةٌ، أو إنني استطعتُ أن أجعلها كذلك على الأقلّ...». وقد أصدر بكنغهام مجلّدين عن رحلته إلى العراق، نُشرا سنة (١٢٤٢هـ/١٨٢٧م) تحت عنوان (رحلة في بلاد الرافدين)، ثمّ أتبعها برحلة ثانية مكّملة لها بعنوان (رحلات عبر آشور وماذي وإيران)، شكّلت مجتمعةً مصدراً مهماً لفهم صورة بغداد والعراق في بدايات القرن التاسع عشر.



• أوستن هنري لا يارد (Austen Henry Layard) (المتوفى: ١٣١١هـ/١٨٩٤م):

وهو رحالةٌ ومستكشفٌ وعالمٌ آشوريّاتٍ وسياسيٌّ بريطانيٌّ، اشتهرَ باكتشافاته الأثريّة في مواقع النمرود، ونيوى، وبابل، وبغداد، وعگرگوف، خلال القرن التاسع عشر. وقد ترأّس سنة (١٢٦٩هـ/١٨٥٣م) أعمال التنقيب في بعثته الثانية، التي شملت نينوى، وبغداد، وبابل، وعگرگوف، ونفر، وأسهمت إسهامًا حاسمًا في تأسيس علم الآشوريّات الحديث. وتناول لا يارد أوضاع بغداد وآثارها وأعمال التنقيب فيها في الفصول الحادي والعشرين، والرابع والعشرين، والخامس والعشرين من كتابه (اكتشافات بين آثار نينوى وبابل)، حيث قدّم وصفًا مكثفًا للمدينة في منتصف القرن التاسع عشر. ويقول في سياق حديثه عنها إنّ بغداد «كثيرًا ما وُصفت بأسواقها الطويلة المقببة، الغنيّة بمختلف أنواع السلع والبضائع، وبسكانها المختلطين من الأتراك، والعرب، والفريس، والهنود، ورجالٍ من شتى البلدان الشرقية، فضلًا عن بساتين النخيل، والحدائق، وقصورها المطلية، وأكوأخها البائسة، التي تجسّد في آنٍ واحدٍ بؤس حاضرها وعظمة ماضيها». ويضيف لا يارد: أنّه أثرٌ ألاّ يُثقل القارئ بوصفٍ تفصيليّ لهذه المدينة الشهيرة، التي عانت -في نظره- من الاستبداد، والأوبئة، والفيضانات، مشيرًا إلى أنّ ما يقربُ من نصفِ المساحة داخل أسوارها كانت آنذاك مغطاةً بأكوامٍ من الأنقاض، وأنّ عددَ سكّانها أخذَ في التناقص يومًا بعدَ يومٍ، من دون أملٍ قريبٍ في التغيير. كما يذكر أنّه، خلال إقامته في بغداد، لم يكن في مقدور أحدٍ أن يتجاوزَ بواباتها من غير التعرّض لخطر الوقوع في قبضة القبائل العربيّة المتجولة في السهول المحيطة، الأمر الذي جعل المدينة تبدو وكأنّها في حالة حصارٍ دائم. وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة، يؤكّد لا يارد أنّ أهميّة موقع بغداد الجغرافي ظلّت كبيرةً إلى حدٍّ يجعلها مؤهّلةً، في جميع الأحوال، للاضطلاع

بدورٍ تجاريٍّ محوريٍّ. فهي، في نظره، حلقةُ الوصلِ بين الشرق والغرب، ومستودعُ التزوُّد الذي تعتمدُ عليه قبائلُ الصحراءِ في الملبسِ والتجهيزاتِ، فضلاً عن كونها مفتاحاً للمزاراتِ المقدَّسة، التي يقصدها سنوياً آلافُ الزُّوَّارِ الفرسِ من الطائفةِ الشيعيةِ.

• ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim) (المتوفى: ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م):

وهو رحالةٌ وعالمُ آثارٍ ودبلوماسيٌّ ألمانيٌّ، يُعدُّ من أكثرِ الشخصياتِ الأوروبيةِ إثارةً للجدلِ في تاريخِ الرحلاتِ إلى الشرق. بدأ اهتمامُهُ بالعالمِ الشرقيِّ في سنٍّ مبكرةٍ، متأثراً بقراءتهِ (ألف ليلة وليلة)، قبل أن يتحوَّلَ هذا الاهتمامُ الأدبيُّ إلى مشروعٍ سياسيٍّ وعلميٍّ منظمٍ. كُلفَ أوبنهايم بمهامٍ ميدانيةٍ شملتْ مسحَ الأراضي المرتبطةِ بمشروعِ سكةِ حديدِ برلين-بغداد، فضلاً عن قيامه بأدوارِ استخباراتيةٍ لصالحِ الدولةِ الألمانيةِ. وقد وصلَ إلى بغدادَ ضمنَ رحلتهِ التي نُشرتْ في جزأين تحتَ عنوانِ (من البحرِ المتوسطِ إلى الخليجِ الفارسي) (١٣١٦-١٣١٧هـ/١٨٩٩-١٩٠٠م)، وسردَ فيها وقائعَ رحلتهِ التي بدأها سنة (١٣١٠هـ/١٨٩٣م)، وشملتْ بلادَ الشام، والعراقَ، والخليجَ العربيَّ، واستغرقتْ نحو سنتين. وقد تُرجمتْ هذه الرحلةُ إلى العربيةِ بعنوانِ (من البحرِ المتوسطِ إلى الخليج)، فيما دوَّنَ مذكراتِ زيارتهِ إلى بغدادَ في الجزءِ الثاني من الكتاب. قدَّمَ أوبنهايم وصفاً دقيقاً للحياةِ الاجتماعيةِ في بغدادَ، تناولَ فيه الأسواقَ القديمةَ، وأنماطَ العيشِ، والعلاقاتِ بينَ الفئاتِ الاجتماعيةِ، فضلاً عن ملاحظاتهِ بشأنِ أوضاعِ القبائلِ، وتسجيلهِ تفاصيلٍ نادرةٍ عن المدينةِ في أواخرِ القرنِ التاسعِ عشر، وهي مرحلةٌ تشهدُ تحولاتٍ عميقةً قبيلَ انهيارِ الدولةِ العثمانيةِ. ولا يمكنُ قراءةُ رحلةِ أوبنهايم بوصفها مجردَ مدوَّنةٍ رحليةٍ أو وصفٍ إثنوغرافيٍّ محايدٍ، إذ إنَّها ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بالسياقِ السياسيِّ والاستخباراتيِّ الألمانيِّ في أواخرِ القرنِ التاسعِ عشرِ وبداياتِ القرنِ العشرين. ومن

هنا، فإنَّ القيمةَ المعرفيةَ لوصفه لبغدادَ تكمنُ في دقّة ملاحظاته الميدانية غير البريئة، ما يجعلها مصدرًا بالغ الأهميّة، لكنّه يتطلّب قراءة نقدية واعية تُميّز بين المعلومة، والغاية التي كُتبت من أجلها.

### الحقبة الرابعة: الحقبة الحديثة (القرن العشرون)، وتبدأ من سنة (١٣٣٥هـ/١٩١٧م):

مع مطلع القرن العشرين، ولا سيّما بعد التحوّلات الكبرى التي شهدتها المنطقة عقب الحرب العالمية الأولى، أصبحت بغداد مقصدًا للباحثين العرب والغربيين، والرحالة، والدبلوماسيين، والصحفيين، والسياح. ولم تعد الرحلة إلى بغداد مجرد فعل اكتشاف جغرافيٍّ، كما في العصور السابقة، بل غدت جزءًا من مشروع معرفيٍّ وسياسيٍّ وثقافيٍّ متكامل، ارتبط بتشكّل الدولة الحديثة، وبإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط.

تميّزت الرحلات في هذه المرحلة بطابع سياسيٍّ وثقافيٍّ واضح، إذ تزايد الاهتمام بالآثار والتاريخ القديم، ولا سيّما الإرث الرافديني، الذي أسهم في تكوين صورة بغداد والعراق عمومًا في الوعي الغربي الحديث. كما رافق ذلك حضور لافت للبعثات الأثرية، والمؤرخين، والأنثروبولوجيين، الذين نظروا إلى بغداد بوصفها بوابة الماضي العريق، ومختبرًا حيًا لتحوّلات المجتمع الشرقي. ومن أبرز من زار بغداد في هذه الحقبة عددٌ من المستشرقين والآثاريين، مثل غيرترود بيل (Gertrude Bell) (المتوفاة: ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م)، التي لعبت دورًا سياسيًا وثقافيًا محوريًا في العراق الحديث، ودوّنت ملاحظات دقيقة عن بغداد ومجتمعها، والسير تشارليز ليونارد وولي (Charles Leonard Woolley) (المتوفى: ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م)، الذي ارتبط اسمه بالتنقيبات الأثرية في أور، وأسهم في ترسيخ صورة العراق بوصفه مهد الحضارات الأولى. كما زارها عددٌ من الدبلوماسيين والصحفيين الغربيين، الذين كتبوا عن الحياة السياسية والاجتماعية في المدينة، في ظلّ الانتداب البريطاني وما تلاه.

وفي المقابل، شهدت هذه المرحلة بروز الرحلة العربيّة الحديثة إلى بغداد، حيثُ قصّدها مفكّرون وأدباءُ عرب، نظروا إليها بوصفها مركزاً ثقافياً ناشئاً، وفضاءً للتحديث والنهضة، ودوّنوا انطباعاتهم عن تحولاتها العمرانيّة، وحياتها الثقافيّة، وصحافتها، ومؤسّساتها التعليميّة. وتتميّز رحلات هذه الحقبة بخصائص عدّة، من أبرزها: تداخل الرحلة بالبحث العلميّ، ولا سيّما في مجالي الآثار والتاريخ، فضلاً عن حضور البعد السياسيّ والاستراتيجيّ بوصفه خلفيّة ملازمة للسفر، وتزايد الاعتماد على الصور الفوتوغرافيّة والفيلم الوثائقيّ والخرائط الحديثة في التوثيق، وانحسار صورة (المدينة الأسطوريّة) لصالح صورة المدينة الواقعيّة المتحوّلة. وبذلك، تمثّل الرحلات في الحقبة الحديثة مرحلةً جديدةً في كتابة صورة بغداد، لم تعد فيها المدينة موضوعاً للثناء أو للحنين وحده، بل فضاءً في التحوّل، والبحث في إشكاليّات الحداثة، وبناء الدولة، واستمرار الذاكرة الحضاريّة في عالم متغيّر.

ومن الرحلات المهمّة التي تكشفُ تداخل أدب الرحلة بخفايا السياسة وتقلباتها في مرحلة حرجة من التحوّلات المصيريّة، رحلة غيرترود بيل (المس بيل)، المعنونة (من مراد إلى مراد) سنة (١٣٢٧هـ/١٩١٠م). وقد اتّخذت بيل من هذا العنوان رمزاً لانتقال السلطة داخل الدولة العثمانيّة من سلطانٍ إلى آخر، معبرةً عن إدراكها العميق لما كان يعمل في بنية الإمبراطوريّة من تصدّع وانحلال. بدأت رحلتها من مدينة حلب، واتّجهت إلى قونية في جنوب الأناضول، مروراً بعددٍ من المدن والقرى السوريّة، قبل أن تصل إلى الحدود العراقيّة، حيثُ زارت هيت، وعانة، ثم حصن الأخيضر، الذي أفردت له دراسةً مستقلّةً مفصّلةً، أرفقتها برسومٍ وخرائطٍ دقيقةٍ لطوابقه الثلاثة، وبواباته، ومرافقه المعماريّة كافة. ثمّ واصلت رحلتها إلى كربلاء، وبابل، والمدائن، وبغداد، وسامراء، التي خصّتها بفصلٍ كاملٍ، كما كتبت عن الموصل، والإيزيديّة في سنجار، قبل



أن تختتم رحلتها في قونية. وقد وصفت بيل هدف رحلتها بقولها إنها تسعى إلى «تسجيل الحياة اليومية، وطريقة الكلام لأولئك الناس الذين ورثوا هذه الأرض الخالية، وعلام ازدهرت تلك الحضارات، ثم اندثرت». ويزخر الكتاب بتحليلات سياسية وأنثروبولوجية عميقة، تُضيء مرحلة سقوط الإمبراطورية العثمانية، وبدايات تشكّل الدولة التركية الحديثة، وأحوال المنطقة في لحظة تحوّل تاريخي حاسمة.



[غيرترود بيل (المس بيل) في الثلاثينات من عمرها]

وقد شغلت بغداد الفصل الخامس من الرحلة، فضلاً عن حضور بغداد الواضح في كتابيها (رسائل بيل الشخصية)، الصادر في لندن سنة (١٣٨٠هـ/١٩٦١م) في مجلدين، وفي تقريرها الشامل المعنون (استعراض الإدارة الملكية في ما بين النهرين)، الذي طبع في وزارة الهند سنة (١٣٣٨هـ/١٩٢٠م)، وعُرف في ترجمته العربية بطبعته الأولى سنة (١٣٦٨هـ/١٩٤٩م) بعنوان (فصول من تاريخ العراق القريب).

حيث تناولت بيل بغداد بوصفها مدينة تحاول استكشافها وإعادة تشكيل صورتها الذهنية، باعتبارها حاضرة ظلّت قرابة خمسة قرون عاصمة للخلافة العباسية. وترى

أَنَّ تلكَ المرحلةَ التاريخيّةَ شهدتْ، في آنٍ واحدٍ، فخامةً في البناءِ، وإسرافاً متهوراً في الهدم والتخريبِ في مراحلٍ لاحقةٍ، على نحوٍ يشبه ما أصابَ مدناً أخرى في صفحاتِ التاريخ. ويعكسُ هذا الوصفُ نظرَها النقديّةَ إلى مسارِ التحوّلاتِ العمرانيّةِ والحضاريّةِ التي عرفتها بغدادُ عبرَ تاريخها الطويلِ.

وفي مذكراتِ الروائيّةِ الإنكليزيّةِ أجاثا كريستي (**Agatha Christie**) (المتوفّاة: ١٩٧٦م/١٣٩٦هـ) المعنونة (تعالَ قلْ لي كيفَ تعيشُ؟)، الصادرة سنة (١٩٤٦م/١٣٦٥هـ)، تذكرُ الكاتبةُ أنّها بدأتْ كتابةَ هذهِ اليومياتِ في الثاني من نيسانَ سنة (١٩٥٠م/١٣٦٩هـ) في دارِ بعثةِ التنقيباتِ في نمرودَ، وأنهتْها في إنكلترا في الحادي عشرَ من تشرينِ الأوّلِ سنة (١٩٦٥م/١٣٨٤هـ).

ويأتي عنوانُ الكتابِ بوصفه سؤالاً يوجّههُ علمُ الآثارِ إلى الماضي. والكتابُ في الأصلِ مذكراتٌ عن حياتها معَ زوجها عالمِ الآثارِ ماكس مالوان (**Max Mallowan**) (المتوفى: ١٩٧٨م/١٣٩٨هـ) خلالَ إقامتهما في سورية والعراقِ في ثلاثينياتِ القرنِ العشرين. وقد وردَ ذكرُ بغدادَ في هذهِ المذكراتِ في سياقٍ يرتبطُ بوظيفتها بوصفها محطةً للعبورِ ومركزاً إدارياً للبعثاتِ الأثريّةِ البريطانيّةِ في العراقِ إبّانَ فترةِ الانتدابِ، إذ أشارتْ إليها أحياناً عندَ الحديثِ عن الفنادقِ، والمراسلاتِ، والتنقّلِ، وبعضِ الانطباعاتِ العابرة عن الحياةِ الحضريّةِ.

واستُحضرتِ المدينةُ أساساً في سياقِ تنظيمِ السفرِ، والتزوّدِ بالمؤنِ، ولقاءِ موظفي دائرةِ الآثارِ، من غيرِ أنْ تتجهَ الكاتبةُ إلى رسمِ صورةٍ تاريخيّةٍ أو عمرانيّةٍ متكاملةٍ لها، على خلافِ ما فعلتهُ المس بيل في كتاباتها. ويكشفُ هذا الحضورُ المحدودُ عن تحوّلٍ في طبيعةِ الكتابةِ الرحليّةِ في النصفِ الأوّلِ من القرنِ العشرين، إذ لم تعدِ المدينةُ التاريخيّةُ غايةً في ذاتها، بل غدتْ إطاراً وظيفيّاً يخدمُ سرداً أثرياً يركّزُ على مواقعِ التنقيبِ والحياةِ اليوميّةِ للبعثاتِ العلميّةِ.

ومن ثمّ تبدو بغدادُ في هذا النصّ مدينةً حديثة الطابع، إداريّةً أكثرَ منها تراثيّةً، تحضّرُ بوصفها خلفيّةً تنظيميّةً لا موضوعًا للتّمثيل السرديّ، وهو ما يعكسُ زاويةَ نظرٍ أجاثا كريستي التي انصرفتُ إلى الذاكرة الأثريّة لبلاد الرافدين أكثرَ من انشغالها بصورة حاضرتها المعاصرة. ولم تخصّص كريستي فصولاً مستقلّةً لوصفِ بغدادَ في هذا الكتاب، الذي تقولُ عنه: «بدأتُ هذه اليوميات غير المتسلسلة قبل الحرب، ثمّ وضعْتُها جانباً، أمّا الآن، بعد أربع سنواتٍ من الحرب، فقد وجدتُ أفكارٍ تحملني شيئاً فشيئاً...».

غير أنّ حضورَ بغدادَ تجلّى بوضوح أكبرَ في أعمالها الروائيّة ذات الصلة بالعراق، مثل رواية (جريمة في قطار الشرق السريع) (١٣٥١هـ/١٩٣٣م)، و(جريمة في بلاد الرافدين) (١٣٥٤هـ/١٩٣٦م)، التي كتبتها بعدَ زيارتها لتنقيبات مقبرة أور الملكية بإشراف ليونارد وولي، وجاءت الرواية حافلةً بوصفِ أماكنٍ عراقية، ثمّ رواية (اللقاء "موعد" في بغداد) (١٣٧٠هـ/١٩٥١م)، التي صدرت بعدَ عامين من مشاركتها في تنقيبات نمرود مع زوجها مالوان.



[الكاتبة العالمية أجاثا كريستي في بغداد منتصف القرن الماضي]

بينما عكس جبرا إبراهيم جبرا (المتوفى: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) في كتابه (شارع الأميرات) (١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م)، في الفصل الرابع (حكايتي مع أجاثا كريستي)، إذ قدّم فيه استقراءً ومرآةً من زاويةٍ أخرى تسردُ حياةَ أجاثا كريستي في بغدادَ سنة (١٣٦٧هـ/١٩٤٨م).

تميّزت هذه الحقبةُ بقُدومِ الرحّالة العرب، وكان من أبرزهم: أمينُ الريحانيّ (المتوفى: ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)، وهو مفكّرٌ وأديبٌ، وروائيٌّ ومؤرّخٌ ورحّالةٌ ورسّامٌ لبنانيٌّ، وكانت كتاباته رائدةً في حركة الأدب العربيّ الحديث، الذي لعبَ دورًا رائدًا في النهضة العربيّة والفكر العربيّ المعاصر. بدأ سنة (١٣٤٠هـ/١٩٢٢م) رحلته للبلاد العربيّة، فزار الحجازَ واليمنَ والكويتَ والبحرينَ والعراق. وفي سنة (١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) كتبَ مذكراته عن مشاهداته في كتابه الشهير (ملوك العرب).

وقد دعاهُ الملكُ فيصلُ الأوّلُ لزيارة العراقِ فلبّي الدعوة وقصدَ بغدادَ في (١٥ شوال ١٣٤٠هـ/ ١٠ من حزيران ١٩٢٢م)، فقدمَ من مومباي إلى البصرة إلى بغداد. وشغلتَ بغدادَ في كتاب (ملوك العرب) موقعًا دالًّا في سياقِ رحلته السياسيّة-الأدبيّة التي دوّنَ فيها مشاهداته خلالَ جولاته في المشرق العربيّ في العقدِ الثاني من القرنِ العشرين.

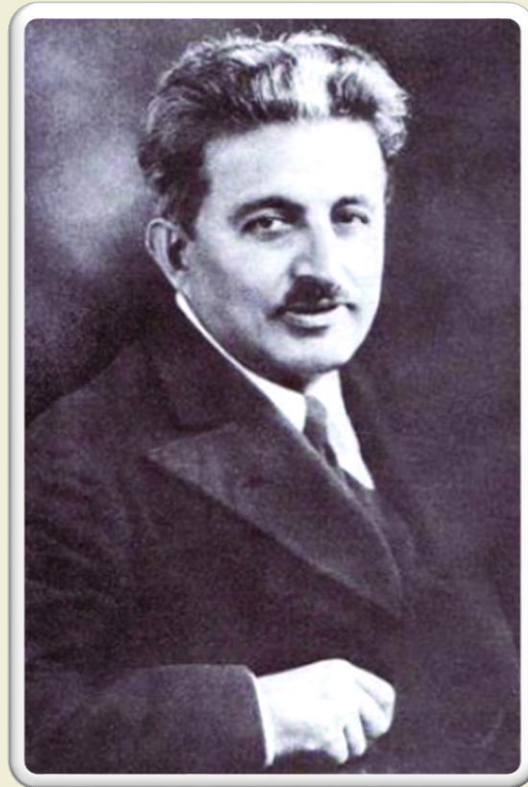
فالريحانيّ لا يتناولُ بغدادَ بوصفها أثرًا تاريخيًا ساكنًا، إنّما يقدّمُها مدينةً حيّةً تعيشُ لحظةَ انتقالٍ كبرى بينَ زمنين: زمنِ الدولة العثمانيّة الآفلة، وزمنِ التشكّلِ السياسيّ الحديثِ في ظلّ الاحتلالِ البريطانيّ وبداياتِ الدولة العراقيّة. ويركّزُ الريحانيّ في وصفه لبغدادَ على بُعدها السياسيّ والإداريّ أكثرَ من اهتمامه بالوصفِ العمرانيّ التفصيليّ، إذ يراها مركزًا للحكمِ الجديدِ ومسرحًا لصراعِ النفوذِ بينَ القوى المحليّة والهيمنة الأجنبية.

ويصفُ المدينةَ بأنّها حاضرةٌ شرقيّة ذات تاريخٍ مجيدٍ، غيرَ أنّها في الحاضرِ تعاني آثارَ الإهمالِ، واختلالِ الإدارة، وتناقضَ مظاهرِ الحداثة الوافدة مع البنية الاجتماعيّة



التقليدية. ويرزُ في نصّه إحساسٌ واضحٌ بالمفارقة بينَ بغدادَ العباسيّة التي استقرّت في  
الذاكرة العربيّة رمزًا للعلم والسلطان، وبغدادَ المعاصرة التي يحاولُ أن يرصدَ نهضتها  
المتعثّرة في مطلع القرن العشرين.

كما يولي الريحانيّ عنايةً خاصّةً بالحياة الاجتماعية والنخبة الحاكمة والطبقة  
المتعلّمة، مسجّلاً انطباعاته عن المجالس السياسيّة، وأحاديث المسؤولين، وأحوال  
المثقفين، في إطار رؤيته الإصلاحية القوميّة التي تسعى إلى استشراف مستقبل العرب  
بعد انهيار السلطنة العثمانيّة. ولا يغيبُ عن وصفه الحسّ النقديّ، إذ يقفُ عند  
مظاهر الفقر، واضطراب الأمن، وبطء التحديث؛ حيث يقول الريحانيّ: «يوم وصلتُ  
إلى العراقِ كانَ بركانُ السياسة قد انفجرَ من كلّ جانبٍ...»، في مقابلِ إشاراتٍ متفائلةٍ  
إلى حيويّة المجتمع البغداديّ وقدرته الكامنة على النهوض.



[أمين الريحاني]

فضلاً عن أنَّ الريحانيَّ أفردَ مبحثاً لبدايةِ التعليم في بغدادَ التي بدأها الأديبُ ثابتُ عبدُ النورِ (المتوفى: ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) ومحاولتهِ في ترسيخِ محورِ الأُمِّيَّة، ويُعدُّ ثابتٌ من أهمِّ مَنْ خاضَ في هذا المجالِ وإنَّ سبقتهُ إلى ذلكَ المسَّ بيل في تقريرها.

وتكشفُ صورةُ بغدادَ في (ملوك العرب) عن تحوُّلٍ مهمٍّ في أدبِ الرحلةِ العربيِّ الحديثِ؛ إذ غدتِ الرحلةُ فيه فضاءً سياسياً حياً تُقرأ من خلاله تحولاتُ السلطةِ والهويَّةِ وبداياتُ الدولةِ الوطنيَّة. ومن ثمَّ تمثِّلُ شهادةُ الريحانيِّ واحدةً من أوائلِ القراءاتِ العربيَّةِ الحديثةِ التي قدَّمتْ بغدادَ بوصفها مدينةً في طورِ التشكُّلِ ضمنَ مشروعِ النهضةِ العربيَّةِ المعاصرة.

وفي نموذجٍ خاصٍّ من أدبِ الرحلةِ الحديثِ، إذ كُتِبَ من داخلِ سياقٍ استثنائيٍّ هو الاحتلالُ الأميركيُّ للعراقِ سنة (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م). فلمؤلِّفٌ ليسَ رحالةً تقليدياً ولا عالمَ طبيعةٍ محترفاً، بل هو جنديٌّ أميركيٌّ شاركَ في العملياتِ العسكريَّة، وأنَّخذَ من مراقبةِ الطيورِ والطبيعةِ مدوَّنةً له.

خدمَ جانشُنُ ترورن - ترند (Jonathan Troueren-Trend) - من ولايةِ كونِّكتيكت (Connecticut) الأمريكيَّة - برتبةِ رقيبٍ أوَّلٍ [رئيسِ عُرفاء] في الحرسِ القوميِّ معَ كتيبةِ الدعمِ الطبيِّ في العراقِ، شمالَ بغدادَ. استغرقتْ خدمتهُ هناكَ ثمانيةَ عشرَ شهراً، وانتهتْ في شباط (١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م).

سجَّلَ جانشُنُ على الشبكةِ العنكبوتيَّةِ في مدوَّنته مشاهداته للطيِّر في منطقةِ الحربِ، جذبتْ آلافَ القراءِ ونُشرتْ مقتطفاتٌ منها في الصحافة، ولا يزالُ يواصلُ ملاحظاته عن الطبيعةِ في الولاياتِ المتَّحدةِ وأينما سافر.

جمعَ بعضُ أبرزِ ما كتبهُ في مدوَّنته بعنوان (طيورُ بابل - يومياتُ جنديٍّ من العراقِ) في كتابٍ صغيرٍ نُشرَ على غرارِ مذكراتِ الرحالةِ سنة (١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م). ونُشرَ

الكتاب بنسخته العربيّة بعنوان: (طيرُ العراق - سجلُ جنديٍّ من العراق) (١٤٣٢هـ/٢٠١١م). استهلَّ جاثنُّ وصفِ رحلته على نحوٍ مغايرٍ لأدبِ الحروبِ إذ يقول: «دائمًا ما يثيرُني كيف يرى الناسُ نفسَ المكانِ بطرقٍ مختلفةٍ، فالمصوِّرُ يرى العالمَ من خلالِ التباينِ والتكوينِ، والمُعْمارُ يراه من خلالِ الفضاءِ والبناء. في العراقِ هنالك عشراتُ الآلافِ من الطرقِ لرؤية العالمِ. أنا أعتبرُ نفسي محظوظًا لتمكّني من رؤية العالمِ من خلالِ عيونِ باحثٍ محبٍ للطبيعة».

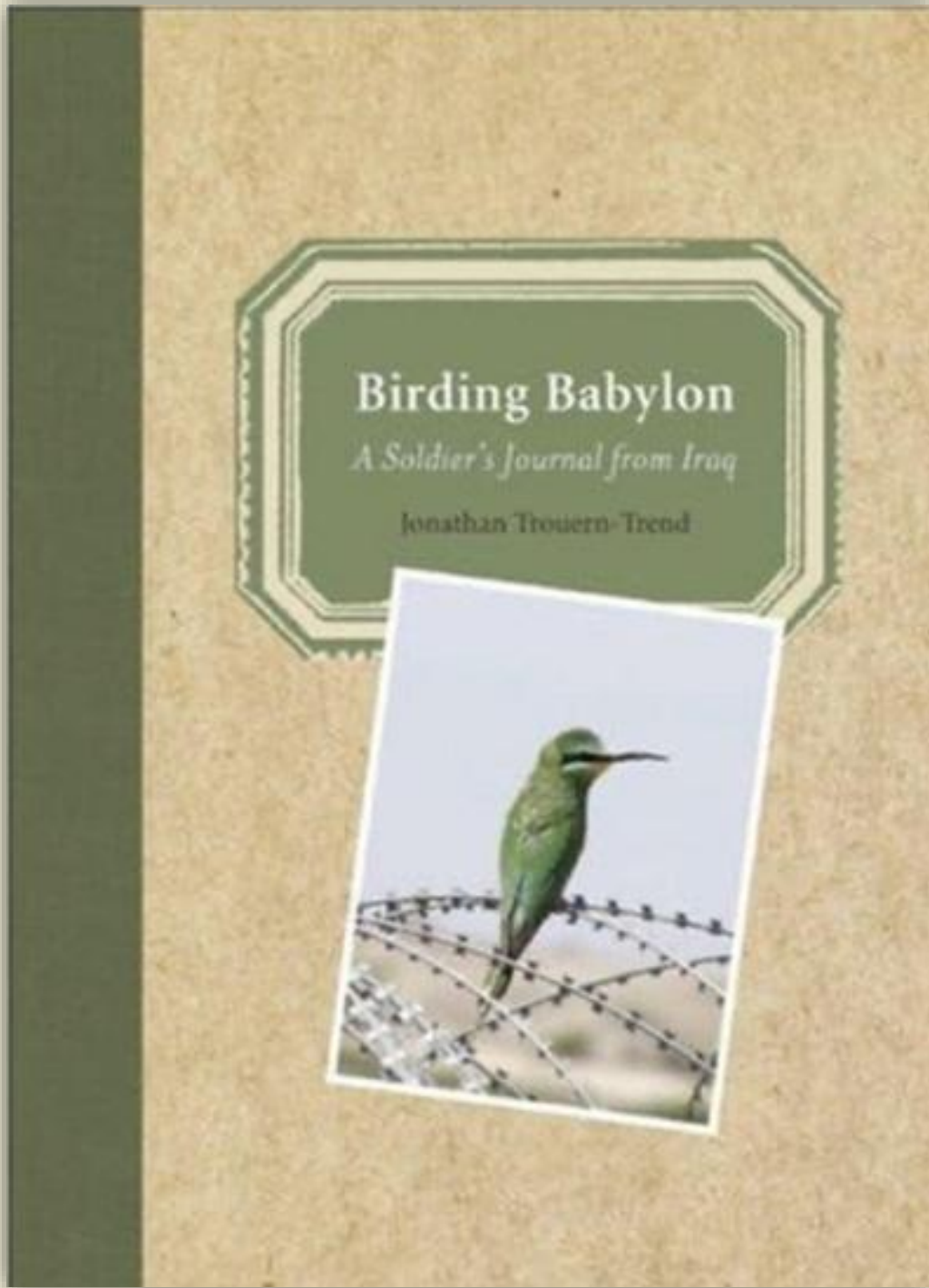
وتحضرُ بغدادُ في نصِّ هذا الكتابِ لا بوصفها مدينةً تاريخيّةً أو مركزًا حضاريًا، بل مدينةً مُحاصَرةً بالحربِ، تُرى من خلالِ أسطحِ الشكّاتِ، ونقاطِ الحراسةِ، وضافِ النهرِ، والفراغاتِ العمرانيّةِ التي خلّفها القصفُ والخرابُ. ويلاحظُ المؤلّفُ استمرارَ الحياةِ الطبيعيّةِ - هجرةُ الطيورِ، تعشيشُها، أصواتها الصباحيّة - على الرغمِ من دويِّ أصواتِ الانفجاراتِ والدباباتِ، في مفارقةٍ سرديّةٍ لافتةٍ بينَ ديمومةِ الطبيعةِ وهشاشةِ العمرانِ والسياسةِ.

ولم تكنْ انطباعاتُ جاثنُّ عن بغدادَ مباشرةً في معظمها، بل جاءتْ عبرَ حديثه معَ السكّانِ المحليّينَ الذينَ عملوا في المعسكراتِ، وكتبَ مدوّناته في القصورِ التابعة للرئيسِ السابقِ، والتي اتّخذتها القوّاتُ الأمريكيّةُ قواعدَ عسكريّةً.

وتكمنُ أهميّةُ رحلةِ (طيرِ العراقِ) في كونها كتابًا يضيفُ زاويةً جديدةً إلى صورةِ بغدادَ في أدبِ الرحلةِ الغربيِّ. لا يقدّمُ الكتابُ تصنيفًا علميًا صارمًا للطيورِ بقدرِ ما يقدّمُ سردًا انطباعيًا مشوبًا بالتأمّلِ، يمزجُ بينَ الوصفِ البيئيِّ، واليومياتِ العسكريّةِ، والانعكاساتِ النفسيّةِ للجنديِّ في أرضٍ غريبةٍ. ومن ثمّ فهو أقربُ إلى أدبِ الرحلةِ الذاتيِّ منه إلى الكتابةِ العلميّةِ الطبيعيّةِ.

زاويةُ الجنديِّ-الراصدِ للطبيعةِ، لا المستكشفِ الاستشراقيِّ ولا الدبلوماسيّ ولا

عالم الآثار. وبذلك يعكس تحوُّلاً عميقاً في أنماط الكتابة عن بغداد في القرن الحادي والعشرين، حيث لم تعد الرحلة فعل اكتشاف حضاريٍّ أو أثريٍّ، بل تجربة وجودية داخل فضاء حربٍ، يُعاد فيه اكتشاف المكان عبر الطبيعة لا عبر التاريخ.





وفي مطلع القرن الحادي والعشرين شهدت الرحلة إلى بغداد تحوُّلاً نوعياً في وسائل تمثيلها، إذ انتقل وصف المدينة من نصوص الرحالة التقليديين إلى فضاءات المدونات الرقمية ومواقع التواصل الاجتماعي. فلم يعد الرحالة فرداً معزولاً يدوّن تجربته بعد العودة، بل شاهداً فورياً ينقل صور المدينة ويوميّاتها لحظة بلحظة. وبذلك غدت الرحلة ممارسة رقمية عابرة للحدود، تتشكّل فيها صورة بغداد عبر سرديات متعدّدة ومتزامنة، تجمع بين الشخصي واليومي والإعلامي. وهذا التحوّل يعلن انحسار نموذج الرحلة الكلاسيكية، وبداية عصر الرحلة الرقمية بوصفها الشكل الغالب لتمثيل المدينة في الوعي المعاصر.



# بَغْدَادُ حَاضِرَةُ الْفِكْرِ وَرُوحِ التَّصَوُّفِ

د. د. نظلة أحمد الجبوري

أستاذة الفلسفة والتصوّف والفكر المقارن والدراسات العليا - بغداد

## — ١ —

عُرفت بغدادُ في تاريخها التّليد حاضرةَ الفكرِ وحضورَ الروح، حاضرةَ الحكمة وحضورَ الحقيقة، حاضرةَ التّفلسفِ وحضورَ التّصوّف، وحيث التّساؤلُ والبحثُ في الوجودِ وسرّ العقلِ والروح، معنىً ودلالةً؛ فبالعقلِ كَوْنُ الفكرِ (يتفكرون)، وبالروح كَوْنُ المعرفةِ (ليعرفون)، وبين (يتفكرون) و(ليعرفون) تحضرُ بغدادُ عينَ جَمْعِ الفكرِ والروح (التّفلسف) و(التّصوّف). وهذه حقيقةٌ لا يمكن إهمالها أو تجاوزها، لا في المسارِ التاريخيِّ ولا الفكريِّ ولا المنهجيِّ.

وليس أدلُّ على ما حظيت به بغدادُ، دارُ السلام، وطنُ الرّوح والروح، و(قرّة العين)<sup>(١)</sup> منذ تأسيسها على يد أبي جعفر المنصور العبّاسيّ في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) (١٤٥هـ / ٧٦٢م)، ممّا كتب عنها المؤرخون القدامى والمعاصرون

(١) وهو الوصف الذي أطلقه عليها الشاعر عمرو بن عبد الملك الوراق من شعراء العصر العبّاسي، في مطلع قصيدته التي مطلعها: مَنْ ذَا أَصَابَكَ يَا بَغْدَادُ بِالْعَيْنِ \*\*\* أَلَمْ تَكُونِي زَمَانًا قُرَّةَ الْعَيْنِ

انظر: عمرو الوراق، بوابة الشعراء، <https://poetsgate.com>

ورجال الفكر والتراث عن حضارتها العريقة ودورها الحضاريّ وريادتها الفكرية؛ فما زالت مؤلفاتهم مرجعاً هاماً للباحث في دوائر الفكر والمعرفة والروح.

فكتب عنها من القدامى: أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغداديّ (ت ٤٦٣هـ) في كتابه (تاريخ بغداد)، وجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمد الجوزيّ (ت ٥٩٧هـ) في كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، وأبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ (ت ٧٤٨هـ) في كتابه (سير أعلام النبلاء)، وابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقيّ (ت ٧٧٤هـ) في كتابه (البداية والنهاية).

بينما كتب عنها من المعاصرين: إبراهيم عبد الغنيّ الدرويّ (١٨٩٤ - ١٩٥٩م) في كتابه (البغداديون أخبارهم ومجالسهم)<sup>(١)</sup>، وطه بن صالح الفضيل الراوي (١٨٩٠ - ١٩٤٦م) في كتابه (بغداد مدينة السلام)<sup>(٢)</sup>، وعبد الرزاق الحسنيّ (١٩٠٣ - ١٩٩٧م)، وعبد العزيز الدوريّ (١٩١٩ - ٢٠١٠م)، في كتابهما (بغداد)<sup>(٣)</sup>. حتى توافد إليها المفكرُ والعالمُ والعارفُ والأديبُ والشاعرُ من كلّ حدبٍ وصوبٍ للاستنارة بمعارفها المتعددة، المتباينة، المتنوعة، على مرّ الحقب التاريخية.

كما كانت بغدادُ حاضرةً في كتابات المستشرقين، ومنهم: المستشرق البريطانيّ ريتشارد كوك في كتابه (بغداد مدينة السلام)<sup>(٤)</sup>، والمستشرق البريطانيّ روبين ليفي في كتابه (تاريخ بغداد)<sup>(٥)</sup>.

(١) ط١، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٨م؛ ط٢، بغداد ٢٠٠١م.

(٢) ط١، بغداد ١٩٤٥م؛ نسخة إلكترونية، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٥م.

(٣) دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٤م.

(٤) ترجمة: مصطفى جواد، فؤاد جميل، ١٩٦٢م.

(٥) ترجمة: حسين سنبل، دار شهياري للنشر والترجمة، ٢٠٢٤م؛ ونسخة إلكترونية، دار أبجد، ٢٠٢٥م،

<https://www.abjjad.com>.

إلى جانب ما كتب الباحثون القدامى والمعاصرون عن روح بغداد، عن زُهادها ومتصوفتيها وأعلامها، تكايلها وطرقها؛ فَمِمَّنْ تطرَّق إلى روح بغداد من القدامى: أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ (ت ٤١٢هـ) في كتابه (طبقات الصوفية)، وأبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) في كتابه (حلية الأولياء في طبقات الأصفياء)، ومحمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ) في كتابه (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية).

بينما تطرَّق إلى روح بغداد من المعاصرين: جميل إبراهيم حبيب في كتابه (تاريخ متصوفة بغداد)<sup>(١)</sup>، وعزيز السيد جاسم في كتابه (متصوفة بغداد)<sup>(٢)</sup>، وطارق حرب في كتابه (تصوف أهل بغداد)<sup>(٣)</sup>، وعمر سليم عبد القادر التل في كتابه (متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري)<sup>(٤)</sup>.

في الوقت الذي تطرَّق فيه المستشرقون إلى روح بغداد زهدًا وتصوفًا، أعلامًا وطرقًا، كالمستشرق السويسري الألمانيّ آدم متز (١٨٦٩ - ١٩١٧م) في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)<sup>(٥)</sup>، والمستشرق الإنكليزيّ رينولد ألين نيكلسون (١٨٦٨ - ١٩٤٥م) في كتابه (الصوفية في الإسلام)<sup>(٦)</sup>، وكتابه (في التصوف الإسلامي وتاريخه)<sup>(٧)</sup>، والمستشرق الألمانيّ كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي)<sup>(٨)</sup>.

(١) مطبعة أسعد، بغداد ١٩٨٨م.

(٢) ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٧م.

(٣) ط١، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٤م.

(٤) دار المأمون للنشر، عمان ٢٠٠٩م.

(٥) ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، ط٣، القاهرة ١٩٥٧م.

(٦) ترجمة: نور الدين شريعة، القاهرة ١٩٥١م.

(٧) ترجمة: أبو العلا عفيفي، القاهرة ١٩٤٧م.

(٨) ترجمة: محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.



إذ يكشفُ البحثُ المعمقُ ماهيةَ الترابطِ الوثيقِ بينِ الازدهارِ الثقافيِّ والواقعِ الحضاريِّ وآفاقهِ الفكريةِ ودوائِرهِ المعرفيةِ وأبعادِها الروحيةِ - الصوفيةِ، المتحقّقِ بشكلٍ واضحٍ لا لبس فيه، في بغدادَ العصرِ العباسيِّ، العصرِ الذهبيِّ للفكرِ والمعرفةِ والثقافةِ والروحِ والسلوكِ والصوفيةِ.

## — ٢ —

لقد حظيت الحركةُ الفكريةُ والثقافيةُ في ماضي بغدادَ باهتمامِ كبارِ خلفاءِ بني العباسِ؛ إذ أسهمت هذه الحركةُ الجادةُ والواسعةُ في تشكيلِ الإطارِ الفكريِّ للعقلِ العربيِّ، مما أدى إلى توسيعِ نطاقِ حدودِ المعرفةِ، مؤسسين بذلك نهجهم المتميزَ الذي استمرَّ زمنًا طويلاً. وهو ما سجّله ويسجّله الباحثون عن دورِ بني العباس في هذه الحركةِ وآفاقها الفكريةِ ودوائِرها المعرفيةِ، في دلالةٍ واضحةٍ عن كونِ ما يتحقّقُ من نشاطٍ فكريٍّ إنما يتمُّ برعايةِ خلفاءِ بني العباس في بغدادَ رعايةً فاقت الإدراكَ. لِمَ لا وبغدادُ آنذاك مقرُّ السلطةِ المركزيةِ العباسيةِ والمحورِ الفكريِّ لتلاقي الثقافاتِ؟

وما تحقّقُ من حركةٍ فكريةٍ معرفيةٍ ثقافيةٍ إنما تحقّقُ مع تأسيسِ (بيتِ الحكمةِ) العباسيِّ البغداديِّ الذي فتح دفاترَ علمهِ وفكرهِ ومعرفتهِ وخزائنه للباحثين والدارسين والراغبين في التعلّمِ وتلقي العلمِ والمعرفةِ، بما تركه من إرثٍ لا يقدرُ بثمنٍ، ومن تراثٍ علميٍّ وطبيٍّ ورياضيٍّ وفلكيٍّ وفلسفيٍّ وفكريٍّ باهرٍ لم يخفِ رغم القرونِ. فتشكّلَ المشهدُ الفكريُّ والمعرفيُّ والفلسفيُّ والثقافيُّ في العصرِ العباسيِّ (١٣٢هـ / ٧٥٠م - ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، وشهد حركةً فكريةً تنويريةً جعلت منه صرحاً معرفياً وثقافياً وفكرياً وفلسفياً وعلمياً وأدبياً، ومركزاً للترجمةِ والتأليفِ والمناظرةِ والنسخِ، ومجلساً للنقاشِ والجدلِ، ومنبراً للتنويرِ العقليِّ والتفاعلِ الحضاريِّ والحوارِ الجديِّ بين الحضاراتِ.

بدءاً من عصرِ الخليفةِ أبي جعفرِ المنصورِ (ت ١٥٨هـ / ٧٧٥م)، مروراً بالخليفةِ

هارون الرشيد (ت ١٩٢هـ / ٨٠٧م)، وصولاً إلى أوج الحركة الفكرية في عهد الخليفة عبد الله المأمون (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، لما عُرف عنه من ميلٍ إلى الفلسفة والحكمة والاهتمام بهما، وتشجيع للعلماء والمفكرين والفلاسفة ضمن بيت الحكمة أو خارجَه<sup>(١)</sup>. ولم لا وهو الذي وُصف بـ "حكيم بني العباس"<sup>(٢)</sup>؟ فليس من المستغرب إذاً قيام "دولة الحكمة في أيامه، إذ أطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة"<sup>(٣)</sup>، وهو الذي قال: "لا نزهة أكثر من النظر في عقول الرجال"<sup>(٤)</sup>.

ليتحول (بيت الحكمة العباسي البغدادي) إلى مشروعٍ فكريٍّ لتبادل المعارف والفكر والعلوم والفنون والثقافات والآداب فيما بين حضارات عصره والحضارة العربية الإسلامية، بعدما تمَّ اختيارُ خيرة المترجمين والعلماء والأطباء والأدباء والمناطقية والفلاسفة ومن يتميز بالعلمية والدقة والنزاهة والكفاءة والإتقان للعمل فيه<sup>(٥)</sup>.

ولم يتحقق هذا لو لم يدرك مؤسسو بيت الحكمة العباسي رسالته الإنسانية، بما أتاح لعلمائه ومفكره ومترجميه وباحثيه من حرية الفعل والأداء بغض النظر عن المعتقد والحضارة أو الملة والنحلة، ولم تُفرض أيُّ ضغوطٍ على ثقافة بعينها، ولم تحاول ثقافة احتواء أخرى، مما ميّز بيت الحكمة بالموضوعية والعلمية والعقلانية والهدوء واحترام فكر الآخر.

---

(١) انظر: القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة، نشرة: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت ١٩٧٨م، ج١، ص ٣٢٨.

(٢) التنوخي، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٠٥.

(٣) التنوخي، المصدر نفسه، ج١، ص ٣٢٨.

(٤) الحافظ جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٣٧٨.

(٥) انظر: مقال (بيت الحكمة رمز للحوار بين الحضارات)، <http://www.iraqihome.com>، ص ١-٢.

وليُشكّل نتاج بيت الحكمة العباسي، كما أرى، حوارًا حضاريًا ورصيدًا فكريًا وتنويرًا فلسفيًا لا يستهان به للحضارة الإنسانية<sup>(١)</sup>، وإضافات معرفية حقيقية في الوقت نفسه إلى علماء العرب والمسلمين في الفلسفة والعلم والأدب واللغة والفنون، وليُشكّل منطلقًا لانتقال الأفكار والمعارف شيئًا فشيئًا إلى أوروبا، ولا سيما إلى ما يُعرف بالشرق اللاتيني.

فيكشفُ البحثُ المعمقُ ما قدّمته الترجمةُ في بُعدها التاريخي في بغدادَ العصرِ العباسيِّ، العصرِ الذهبيِّ للترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية؛ كما أرى، فاتسع نطاقها وعُرفت في بواكيرها الأولى بـ(حركة الترجمة) في الوقت الذي عُدت فيه التمهيد التاريخي لتأسيس (مدرسة بغداد للترجمة)، وهو العنوان الذي أطلقته على حركة الترجمة في العصر العباسي، بوصفها الأساس المعرفي لانطلاق العقل البغدادي في إسهاماته الفكرية وإبداعاته اللاحقة في الترجمة، ولا سيما بعد تأسيس بيت الحكمة البغدادي، هذا الصرح الفكري الذي ضمّ أعلام المترجمين من شتى أصقاع المعمورة وحضاراتها ودياناتها ممن كان لهم الإسهام الترجمي في العصر العباسي من خلال الانفتاح على فكر الآخر؛ وما ترجموه من نصوص ومؤلفات يونانية وفارسية وهندية وغيرها، ك: حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م)، وقسطا بن لوقا البعلبيكي (ت ٢٨٨هـ / ٩٠٠م)، وثابت بن قُرّة الحراني (ت ٢٨٩هـ / ٩٠١م)، ويحيى (يوحنا) بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ / ٨٥٧م)، وأبو بشر متى بن يونس القنائي (ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠م)، والحجاج بن يوسف بن مطر (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، ويحيى بن البطريق (ت ٢٠٠هـ / ٨١٥م)، وعبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي (ت ٢٢٠هـ / ٨٣٥م)، وإسحاق بن حنين (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م)، وحبيش بن الأعسم (ت ٣٠١هـ / ٩١٣م)، والفضل بن نوبخت (ت ٢٠٣هـ / ٨١٨م)، وسهل بن هارون (ت ٢١٥هـ / ٨٣٠م).

(١) انظر: موضوع (نبذة عن مؤسسات المعلومات عند العرب المسلمين)، <http://www.alyaseer.net>

مما أسهم بشكل مباشر في التأسيس الفكري والتجذير المعرفي لمقاربات الفكر الأخرى من منطق وعلم كلام وفلسفة وتصوف في بغداد، وظهور مدارسها الفكرية لاحقاً. وللدلالة في الوقت نفسه على الارتباط الوثيق بين تأسيس (مدرسة بغداد للترجمة) و(بيت الحكمة العباسي البغدادي).

وكان عصر المأمون بحق العصر الذهبي لحركة الترجمة؛ فلم تنتكس هذه الحركة في عهده، ولن تتراجع على الإطلاق، بل تمّ في عهده رصد الاختلاف في أساليب الترجمة والتنوع في فحوى الترجمات؛ من الحرفية الخالية من الإبداع إلى الترجمة بالمعنى.

ولمّا أثار الفكر الفلسفي في مسيره الطويل من تساؤلات وما ارتبط بها من إشكاليات رافقت العقل الإنساني وطروحاته حول الوجود ومتضمناته (الله، العالم، الإنسان)، (الفاعل، الخلق، الحياة) من جانب؛ وما تمّ من إجابات وفقاً لتباين الثقافات واللغات والألسن، الأمر الذي حفّز الفكر على ترجمة تلك التساؤلات والإشكاليات وفقاً لتلك التباينات ثقافياً ولغوياً ولسانياً لمعرفة أفكار الآخر المختلف مهما كان وأينما كان، من جانب آخر. مما عزّز حركة الترجمة ودور بيت الحكمة العباسي البغدادي في الترجمات الفلسفية.

ولم تكن اللغة بمعزل عن دور بيت الحكمة الذي حقّق إغناءً للمصطلح العلمي والفلسفي عبر بحث المترجم عن بديل لغوي في العربية لما أشكل من ترجمة هذا المصطلح أو ذاك، مما أتاح للغة العربية صياغة ووضع مصطلحات علمية وفلسفية لم تكن قد تكوّنت من قبل؛ إلى جانب استيعاب التراث اليوناني وتجاوزه بنقده وإعادة شرحه وتفسيره وتنقيحه وتصحيحه وعلى وفق مقتضيات فكرهم وثقافتهم ومعرفتهم وعقيدتهم. وهو ما فعله يعقوب بن إسحاق الكندي (ت ٢٥٢هـ / ٨٦٦م) فيلسوف العرب<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دار القلم، بيروت ١٩٧٩م، ص ٩٧ و ١٢٩ و ١٥٤.



فكان بيت الحكمة العباسي البغداديّ الوريث الحقيقيّ والجدير بتراث اليونان والفرس والهند، جامعًا ومستوعبًا لنتاجات حضارات العالم الفكرية والمعرفية والعلمية والفلسفية، وطيلة "١٥٠ عامًا، ترجم العربُ كلَّ كتب العلم والفلسفة اليونانية، وحلّت العربية محلَّ اليونانية كلغة عالمية للبحث العلمي"<sup>(١)</sup>. وقد استمرت (مدرسة بغداد للترجمة) تؤدي دورها في بيت الحكمة العباسي الذي "ظلّ قائمًا حتى اجتاحت المغولُ بغدادَ عام (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، إذ تمّ تدميرُ معظمِ محتوياته" وقتذاك فغدا أثرًا بعد عين<sup>(٢)</sup>.

وتوثيقًا في الوقت نفسه لما بين الترجمة والفلسفة من ترابطٍ كما في حركة الترجمة الفلسفية في بيت الحكمة العباسي البغدادي، للتأكيد على أنّ ما تحقق من نشر الفلسفة إنما تمّ من خلال الفعل الترجمي، والانفتاح على الآخر وتحقيق مكن الإبداع وتوسيع أفق العقل، مما يسهم في سمو وعي المتلقي للنص الفلسفي الذي يستوعب تنوع اللغات وتباين التفكير وصولاً لمستوى تفكير الفيلسوف.

الأمر الذي أدى إلى تسمية الحركة الفكرية المحقّقة للترابط بين الفلسفة والترجمة في العصر العباسي بـ(مدرسة بغداد الفلسفية) بوصفها إحدى إبداعات الفكر البغدادي، إذ يُعدُّ الفيلسوف الكنديّ، فيلسوف العرب الأول، أبرز روادها ومؤسّسها، وما أبدع من منهج رياضيّ من جانب، وما أرسى من نزعة توفيقية بين الفلسفة

---

(١) جوناثان ليونز، بيت الحكمة: كيف أسس العرب لحضارة الغرب، ترجمة: مازن جندلي، ط٢، الدار العربية للعلوم ناشرون، وبيت الحكمة، بيروت - بغداد ٢٠١١م، ص ٩٣.

(٢) انظر: مقال (بيت الحكمة)، <http://ar.wikipedia.org>، ص ١؛ ولمزيد من التفاصيل، انظر: د. نظلة أحمد الجبوري، بحثها (قراءة في الطروحات الفلسفية للحضارة العربية ومقاربات النهضة الفلسفية الغربية في العصر الوسيط)، ضمن كتاب (بيت الحكمة العباسي عراقة الماضي ورؤية الحاضر)، المجلد الثاني، ص ٢٣٩ و ٢٥٦؛ وللتفاصيل، انظر: ليونز، بيت الحكمة، ص ٨٣ - ١٠٧.

والشريعة بوصفها المقدمة للفكر الفلسفي من جانب آخر. فتجاوز بذلك الفلسفة اليونانية ليصوغ مفاهيم وموضوعات فلسفة عربية إسلامية، شكّلت ملامح هذه المدرسة فيما بعد؛ إذ جمع بين الترجمة والفلسفة وعلم الكلام.

وأرى، إلى جانب الفيلسوف الكندي، عددًا من أعلام بغداد ممّن جمع بين الفلسفة والمنطق وكتب فيهما، حضورًا في هذه المدرسة الفلسفية وفقًا لما يذكر أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ / ١٠٢٣م) في كتابه (المقابسات)<sup>(١)</sup>، كأبي الخير الحسن بن سوار بابا بن بهنام بن الخمار (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م) الذي يقول عنه التوحيدي: "كان فيلسوفًا مبرزًا"، "كتب في الفلسفة"، و"نقل إلى العربية عن السريانية عدّة مؤلفات في الفلسفة"<sup>(٢)</sup>. وابن زرعة، أبو علي بن إسحاق بن زرعة بن مرقس (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٨م) "البغدادى، الفيلسوف المنطقي المشهور" و"كان من أساطين المترجمين إلى العربية"<sup>(٣)</sup>.

ولم يقف الأمر هنا فحسب، بل كان للفعل الترجمي في بيت الحكمة العباسي ومدرسته (مدرسة بغداد للترجمة) إسهامٌ واضحٌ، كما أرى، في تأسيس (مدرسة بغداد المنطقية) من خلال ما تمّت ترجمته من مؤلفات أرسطو في المقولات والعبارات والتحليلات الأولى وصناعة الشعر، إلى جانب (إيساغوجي) فرفوريوس<sup>(٤)</sup>، بوصفها المقدمة الفكرية والمنهجية العقلية للمعرفة المنطقية وأشهر أعلامها وما وصل منهم من نصوص ومؤلفات. إذ أسهمت هذه المدرسة في نشر الفكر المنطقي قياسًا وجدلاً وبرهانًا من خلال تفعيل الحوار والمناظرة.

(١) تحقيق: د. عبد الأمير الأعسم، ط ٣، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد ١٩٨٦م.

(٢) التوحيدي، المقابسات، ص ٢٤٩.

(٣) التوحيدي، المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

(٤) انظر: نظلة أحمد الجبوري، الفلسفة الإسلامية، ط ١، مطبعة الجامعة، بغداد ١٩٩٠م، ص ١٤٥ - ١٤٩.

وللمقارنة، انظر: مريم سلامة كار، الترجمة في العصر العباسي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٨م.

وتوثيق حضورها من خلال أعلامها، إذ تصدّروهم: أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤م) "الذي انتهت إليه رئاسة المنطقة في المنطق في بغداد"<sup>(١)</sup>. في الوقت الذي ذكر فيه التوحيديُّ أبا الخير الحسن بن سوار بن الخمار بأنه "يُعتبر في تاريخ المنطق العربي واحداً من أبرز المشتغلين فيه في القرن الرابع الهجري بعد يحيى بن عدي"<sup>(٢)</sup>.

وأبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي السجستاني (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) وهو "عالم الحكمة والمنطق. كان من أساطين المفكرين في القرن الرابع الهجري"<sup>(٣)</sup>. وأبو القاسم عيسى بن علي بن داود بن الجراح (ت ٣٩١هـ / ١٠٠١م) "كان بغدادياً، من علماء المنطق المبرزين"<sup>(٤)</sup>. وابن زرعة، أبو علي بن إسحاق بن زرعة بن مرقس (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٨م) "البغدادي، الفيلسوف المنطقي المشهور" و"كان من أساطين المترجمين إلى العربية"<sup>(٥)</sup>. ومعهم ابن السمع "البغدادي، المنطقي" الذي "تميزت إنجازاته بالمنطق" وفي الوقت نفسه يُعدُّ "من أفاضل المشتغلين بالفلسفة والمنطق في مدرسة بغداد خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري"<sup>(٦)</sup>.

ومما هو جدير بالذكر فإنَّ الحركة الفكرية في بغداد في العصر العباسي أسهمت في تأسيس (مدرسة بغداد الكلامية)، التي مثَّلت التفكير العقلي الذي طرَّحه الفكر المعتزلي على وجه الخصوص، فأغنت حركة الفكر الجدلي ووسَّعت أدلة الحجاج

(١) التوحيدي، المقابسات، ص ٢٤٨.

(٢) التوحيدي، المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

(٣) التوحيدي، المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

(٤) التوحيدي، المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

(٥) التوحيدي، المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

(٦) التوحيدي، المصدر نفسه، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

ومقارعة البرهان بالبرهان، وفي ممارسة الحوار والمناظرة مع أتباع الديانات المختلفة في بلاد الإسلام؛ فتفرّدت في أعلامها وطروحاتهم وأفكارهم ومفاهيمهم كما أرى. إذ بدأت ملامحها في عهد الخليفة المأمون في مسألة (خلق القرآن) وما دار حولها من مناقشات ومناظرات ومساجلات بين مفكري وفلاسفة ومتكلمي عصره، تفعيلاً للفكر المعتزلي. ويُعد الفيلسوف الكندي من بين أعلامها لأنه كان متكلمًا معتزليًا<sup>(١)</sup>.

ولم يقتصر الفكر المعتزلي على علم الكلام فحسب، بل كان تيارًا فكريًا في بغداد في العصر العباسي تبناه العديد من مفكريه وأدبائه ونحاته، كأبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت ٣٦٨هـ / ٩٧٩م) النحوي، الذي "كان معتزليًا"<sup>(٢)</sup>. وأبي الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرّمّاني النحوي (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م) الذي "كان من متكلمي المعتزلة" حتى "غلب على مباحثه الاعتزال" فيما ألّف لغةً ونحوًا وتفسيرًا<sup>(٣)</sup>.

هكذا أغنت بغداد الماضي الحركة الفكرية واغتنت بها، هذه الحركة التي لم تتم كيفما اتفق، بل كانت فعلاً منظماً مدروساً لتفهم دور الفكر: ترجمياً وفلسفياً ومنطقيّاً وكلامياً في ماهية الفعل الحضاري والموقف الثقافي للأمة والمجتمع، وتأكيداً في الوقت نفسه على التنوع والتعدد والتنوير والعقلانية والحرية الفكرية، فيما لو عرفنا أنّ ماهية هذه الحركة قد تحققت ضمن نسقٍ ينتمي إلى إطار تاريخي وثقافي ولغوي ومنهجي.

### — ٣ —

حظي الفكر الصوفي البغدادي، مفاهيمًا ومصطلحاتٍ، أعلامًا وشخصياتٍ، مضمونًا وتوجهاتٍ، في البحث الأكاديمي - وما زال منذ زمن ليس بالقريب - بدراسات

(١) انظر: نظلة أحمد الجبوري، الفلسفة الإسلامية، ص ١٧٠.

(٢) التوحيدي، المقابسات، ص ٢٤٩.

(٣) التوحيدي، المصدر نفسه، ص ٢٥١.



وبحوث جادة ومهمة، سواء في المكتبة الصوفية العراقية أم في المكتبة الصوفية العربية والإسلامية أم في المكتبة الصوفية الاستشراقية، تناولته تارة بالدرس والعرض، وتارة بالمقارنة والمقاربة والمفارقة، وتارة بالتدقيق والنقد. فتوقف الباحثون العراقيون والعرب والمستشرقون، هنا وهناك يبحثون في نصوصه، ويطوون صفحاته، ويبحرون في سطورهِ، في قراءات عامة ومتخصصة؛ حيث تركّزت دراساتهم وبحوثهم على أبعاد تاريخية وأخلاقية وثقافية وتربوية وأدبية ولغوية واصطلاحية ومقارنة، وعلى ما ترك أعلامه من نصوص ومؤلفات تشكّل ملامح مقارنة بغيره مما ظهر في الفكر الصوفي، ممن سبقه وما لحقه، توثيقاً - وتوكيداً على تفرد التصوف البغدادي وحضوره في الفكر الصوفي في الإسلام منذ نشوئه. وما زال يمدُّ الفكر الصوفي ومريديه وسالكيه وباحثيه ودارسيه ومحبيه إلى حاضرنّا، بأفكاره وآرائه وما أثار من طروحات وإشكاليات مهدت لقراءات معاصرة جدية وجادة.

ولم تتأثّر تلك الحظوة للفكر الصوفي البغدادي لدى الباحثين العراقيين والعرب والمستشرقين، إلّا لما مثّلت الحياة الروحية لأعلام صوفية بغداد من مظاهر العبادة والتقوى الدينية المنبثقة من أصدق ترابط بين الله والصوفي، أو بين الصوفي والله، تطبيقاً لقوله (صلى الله عليه وسلّم): "مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه"<sup>(١)</sup>؛ إذ جمعت حياة صوفية بغداد بين الشريعة والحقيقة والطريقة.

ففي بغداد أول مَنْ لُقّب بالصوفي، وهو عثمان بن شريك الكوفي الذي اقترن هذا اللفظ باسمه فصار يُعرف بأبي هاشم الصوفي (ت ١٥٠هـ / ٧٦٧م) والذي سكن بغداد بعد تأسيسها، وعلى وفق ما أشارت إليه كتب القدامى في التواريخ والأعلام وتراجم

---

(١) أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، القاهرة (د.ت)، ص ٣؛ ومحيي الدين بن عربي، كتاب التراجم، ضمن رسائل ابن عربي، حيدرآباد ١٩٤٨م، ج ٢، ص ٢٦.

الرجال وكتب المحدثين من الباحثين والدارسين والمختصين في الفكر الصوفي في الإسلام، بوصفه من قدماء صوفية بغداد<sup>(١)</sup>. وعبدك الصوفي أو عبد الكريم، وكان زاهدًا كوفيًا توفي في بغداد في حدود (٢١٠هـ / ٨٢٥ - ٨٢٦م)، ويُعدُّ من كبار المشايخ ومن قدمائهم. ويذكر الأستاذ الدكتور كامل مصطفى الشبي (رحمه الله) أنَّ عبدك أول كوفيٍّ أطلق عليه اسم الصوفي بعد انتقاله إلى بغداد<sup>(٢)</sup>.

وتفرَّدت بغداد بمدرستها الصوفية المقترنة باسمها، المعروفة بـ(مدرسة بغداد الصوفية) وأعلامها، من حضورٍ في الفكر الصوفي منذ نشوئها، وما زالت تمدُّ الفكر الصوفيَّ ومريديه وسالكيه وباحثيه ودارسيه ومحبيه إلى حاضرنَا، بأفكارها وآرائها وما أثارت من طروحات وإشكاليات مهدت لقراءات معاصرة جدية وجادة، مقارنةً تارة، وتاريخيةً تارة، وتوفيقيَّةً تارة، ونقديةً تارة؛ فتؤسس لبعْدٍ بحثيٍّ تُشكِّلُ المقاربات والمقارنات والمفارقات فيما بين فكر أعلامها الروحي والفكري والمعرفي والسلوكي والتربوي والقيمي والاصطلاحي واللغوي مضمونه من جانب؛ وما تركه أعلامها من نصوص ومؤلفات لتشكل ملامحها، مقارنةً بغيرها مما ظهر في الفكر الصوفي من مدارس صوفية، ممن سبقها وما لحقها، من جانب آخر.

وأما أعلامُ مدرسة بغداد الصوفية ومؤسِّسوها ومنظرو فكرها الصوفي فهم: معروف الكرخي، والحارث المحاسبي، والجنيد البغدادي الذي أرسى دعائم مدرسة

---

(١) لمزيد من التفصيلات، انظر: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ٣٨٦ - ٣٩١؛ وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط. بالأوفسيت، ط. ليدن (د.ت)، ج١٥، ص ٢٥٢١؛ والدكتور كامل مصطفى الشبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ط٣، دار الأندلس للطباعة والنشر، ج٢، بيروت ١٩٨٢م، ج١، ص ٢٩٠ - ٢٩٢.

(٢) انظر: د. كامل مصطفى الشبي، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، ط١، دار المناهل، بيروت ١٩٩٧م، ص ٥٥.

بغداد الصوفية والتصوف البغدادي والإسلامي معًا.

أما معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ / ٨١٦ م) فأسس حياته الصوفية على فكرة الحب الإلهي، إذ قاده إلى الفكر وتجريد النفس من العلائق، والانشغال في سرّه ونفسه بذكر الله، فحرّر بذلك فكرة الحبّ من عامل الخوف المقترنة به في تجارب غيره من المتصوفة. لذا أقول: إنّ الحياة الروحية للكرخي منطوية على جانبٍ مشرقٍ مضيءٍ يتمثل بالحب الإلهي بكل ما يتضمنه من تفاؤل وحياة روحية مطمئنة<sup>(١)</sup>.

بينما انطلق الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م) من محاسبة النفس مبدأً، ومن الحب الإلهي قاعدةً، ومن الورع سبباً، ومن تصفية القلب مما سوى الله نهجاً، ومن الشعور الداخلي في الإيمان مبتغىً، للوصول إلى حالٍ دائمٍ من الحب يناسب الإيمان بالله والطاعة له والتفاني من أجله مضموناً<sup>(٢)</sup>.

في حين أقام أبو القاسم الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م) حياته الروحية على التوحيد القائم في صلب مذهبه في الفناء الصوفي، الهادف فيه إلى أن يكون كما كان قبل أن يكون، وأن يبقى الله كما لم يزل. والمتخذ من الحب الإلهي طريقاً إلى فناءه عن نفسه، وشهود قلبه لله. وكأن الحب الإلهي يؤدي بالجنيد تارة إلى وحدة شهودية، وتارة إلى فناء صوفي تنعدم فيه أنيئته، ليصبح شبحاً بين يدي الله، فيدبر الله له في أحكام قدرته من بحار توحيده عبر فناءه عن نفسه وعن الخلق في ما أراد منه، منتهياً في فناءه إلى عودته إلى أوله؛ فيكون كما كان قبل أن يكون<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: د. نظلة أحمد نائل الجبوري، خصائص التجربة الصوفية في الإسلام - دراسة ونقد، ط١، بيت الحكمة، بغداد ٢٠٠١ م، ص ٥٧.

(٢) نظلة، المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٣) نظلة، المصدر نفسه، ص ٥٩ - ٦٠.

إلى جانب هؤلاء الأعلام الصوفية لا بد من ذكر مَنْ كان لهم الحضور الصوفي في مدرسة بغداد، الذين ما زالت بغداد تحتضن قبورهم، ومنهم: بشر الحافي (ت ٢٢٥هـ / ٨٣٩م) الذي تُعدُّ فكرة الخوف مضمون حياته الروحية، حتى تحقق بمقام الخوف فُعرف به؛ وإن حاول مزج الحب معه<sup>(١)</sup>. وأبو الحسين الثوري (ت ٢٩٥هـ / ٩٠٧م) الذي تُعدُّ وحدة الشهود مضمون حياته الروحية، الظاهرة في حال جمعه بالله وفنائه فيه، كصفتين دائمتين للثوري لا مرحلة زائلة. يحقق بهما القرب إليه ومنه سبحانه، بعد انقطاعه عن كل ما سوى الله وخمود بشريته بغيبته عن الحس؛ وعندها لا يكون الوجود إلا وجود الحق وهو غاية الثوري النهائية في حياته الروحية بدلالة كونه مع الحق معدوم الصفة وفي وحدة شهودية<sup>(٢)</sup>.

ومن صوفية بغداد إلى جانب مَنْ ذُكروا آنفاً: البهلؤل بن عمرو الكوفي (ت ١٩٠هـ / ٨٠٥م)، ومنصور بن عمار (ت ٢٢٥هـ / ٨٣٩م)، وسمنون بن حمزة الصوفي (ت ٢٩٨هـ / ٩١٠م)، ورؤيم بن أحمد البغدادي (ت ٣٠٣هـ / ٩١٥م)، وعمر السهروردي (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) وغيرهم.

ولعلَّ ما عُرف بالأمس عن بغداد بوصفها حاضرة الدين وقبلة الدنيا، الأمر الذي جعلها في الوقت نفسه قبلة الصوفية؛ فقدم إليها العديد منهم، حتى حفل تاريخها بهم عبر ما سجّله مؤرخوها عنهم، ومن أبرزهم الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) عموماً، وفي سير أعلام الصوفية فيها في كتاب أبي الفرج بن الجوزي (صفة الصفوة)

---

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: أ.د. نظلة أحمد الجبوري، بحثها (بشر بن الحارث الحافي العارف الصوفي)، المقدم في ندوة ملتقى التصوف البغدادي (الصوفي البغدادي بشر بن الحارث الحافي)، الجمعة ٥ / تشرين الأول - أكتوبر ٢٠١٨م - المركز الثقافي البغدادي.

(٢) لمزيد من التفاصيل، انظر: أ.د. نظلة أحمد الجبوري، قراءة في الفكر الصوفي في الإسلام، ط ١، دار كفاءة المعرفة، عمّان ٢٠٢٢م، ص ٤٨ - ٧٠.



خصوصًا. فمن الصوفية من وُلد ونشأ فيها، ومنهم من درس وتعلّم فيها، ومنهم من نال الشهرة والحظوة فيها، ومنهم من توفي فيها.

فما زالت بغدادُ معينًا لا ينضب لمن يريد الاطلاع على الحياة الروحية العرفانية والتعمق فيها، وليس ذلك بمستغرب، فما احتضن ثراها وبين حناياه من أعلام شيوخ الفكر الصوفي في العالم، من الذين ما زالت قبورهم شاخص دهرٍ مضى، ومنارة مسجدٍ باقٍ، ومقام سالكٍ مُحَبٍّ، ومثوى صوفيٍّ راحلٍ، ومزارات لسالكي الطريق الصوفي، ودعاة المعرفة والعرفان، ومحبي الصوفية من مريدين وسالكين. فقبر الجنيد البغدادي (ت ٢٩٨هـ / ٩١١م) بقرب قبر البهلول بن عمرو الكوفي المجنون (ت ١٩٠هـ / ٨٠٦م)، وليس منهما ببعيد جامع وضريح شهاب الدين عمر السهروردي (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م)، الموجود في منطقة الشيخ عمر في الجزء الشرقي من بغداد، شمال منطقة باب الشيخ، وعلى قبره منارة لا تزال شاخصة إلى يومنا هذا، والتي يوجد فيها قبر الشيخ عبد القادر الكيلاني، الذي تحوّل قبره إلى مزار مشهور في بغداد يُعرف بالحضرة القادرية، وهو مقصد مريدي الطريقة القادرية في العراق والعالم. والحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ / ٩٢١م) في منطقة سكنية في بغداد القديمة، وما زالت إلى يومنا هذا، وهي محلة منصورية الحلاج نسبة له. وليس قبر أبي بكر الشبلي (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٦م) ببعيد الذي يوجد في قصبة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في منطقة الأعظمية وهو مزار لمريديه، بينما رقد على ضفاف دجلة الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣هـ / ٨٥٧م)، وآثر أن يضمّ معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ / ٨١٦م) معه في قبره أجساد مريديه ومحبيه في مقبرته المشهورة في جانب الكرخ، دونما إغفالٍ لبشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٧هـ / ٨٤٢م) وأبي الحسين النوري (ت ٢٩٥هـ / ٩٠٨م).<sup>(١)</sup>

(١) لمزيد من التفصيلات، انظر: أ.د. نائلة أحمد الجبوري، ورقتها الموسومة (مشروع الملتقى الصوفي البغدادي)، المركز الثقافي البغدادي بالتعاون مع منتدى فيض للثقافة، الجمعة ١٩ / ٥ / ٢٠١٧م.

وفي بغداد كان تأطير السلوك الصوفي وتباين مناهجه وطرقه من قبل أعلام المشايخ الصوفية، فظهرت الطريقة الصوفية بوصفها اتجاهًا روحيًا، ذات منهج تربوي تطبيقي، يُتبع من الصوفية أو المريدين تحت توجيه شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويحيون حياة جماعية، ويعقدون مجالس علم وذكر منتظمة؛ فنشأت في القرن السادس الهجري وفي بغداد، الطريقة القادرية نسبة إلى مؤسسها وشيخها عبد القادر الكيلاني (ت ٥٦١هـ / ١١٦٦م) كأول طريقة صوفية<sup>(١)</sup>، بل وأكبر وأوسع الطرق الصوفية التي انتشرت في جميع دول العالم الإسلامي. والطريقة الرفاعية نسبة إلى مؤسسها وشيخها السيد أحمد الرفاعي (ت ٥٧٠هـ / ١١٧٣م) وتُعدُّ ثاني أكبر الطرق الصوفية في بغداد، فمازال مقامه في قرية أم عبيدة في واسط مزارًا لأتباع الطريقة لحد الآن<sup>(٢)</sup>. إلى جانب الطريقة المولوية نسبة إلى مؤسسها الشاعر الفارسي مولانا جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)<sup>(٣)</sup>، والطريقة النقشبندية نسبة إلى مؤسسها وشيخها الشيخ بهاء الدين محمد بن البخاري الملقب بشاه نقشبند (ت ٧٩١هـ / ١٣٨٩م)، إذ يُقيم مريدوه هذه الطريقة حلقات الذكر في بغداد في مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني وفي مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان<sup>(٤)</sup>. فهما من الطرق الصوفية الرئيسة في بغداد

(١) انظر: د. كامل مصطفى الشبيبي، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، ط١، دار المناهل، بيروت ١٩٩٧م، ص ٩٩ و ١٠٣ و ١٧٣.

(٢) انظر: الشبيبي، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، ص ١٧٢ - ١٧٣. وللتفصيلات، انظر: د. نظلة الجبوري، بحثها (قراءة نقدية لطرق عراقية: الرفاعية والإبراهيمية والكاكائية)، ضمن كتاب (التصوف في العراق)، الكتاب (٧٢)، ط١، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي ٢٠١٢م، ص ٢٥٤ - ٢٥٠.

(٣) لمزيد من التفصيلات، انظر: أ.د. نظلة أحمد الجبوري، بحثها (قراءة في الطريقة المولوية الصوفية في العراق)، مجلة الثقافة التركمانية، العدد الرابع لسنة ٢٠٢٤م، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠٢٤م، ص ٣٦ - ٤٩.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن الطريقة النقشبندية، انظر: مجموعة باحثين عراقيين، كتاب (التصوف في العراق)، الكتاب (٧٢)، ط١، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي ٢٠١٢م، ص ٤٠ و ٨٢ - ٨٣ و ١١٤ و ١١٥ و ١٨٥.

اليوم، على الرغم من انتشارهما في فترة حكم الدولة العثمانية. وما زال لكل طريقة من هذه الطرق الصوفية في بغداد تكايا صوفية أو مساجد يمارس فيها مريدوها أذكارتهم الصوفية وممارساتهم السلوكية التعبيرية.

وفي بغداد أُشّرت دلالات الحفر المعرفي للفكر الصوفي في الإسلام، على ماهيته ومضمونه، منطلقه وغايته، عرفانًا وفكرًا وسلوكًا. في الوقت الذي يمثل فيه التوجه الروحي في الإسلام، أو عُدَّ التيار الروحي في الإسلام، لكون مضمونه الحقيقة، ووعي هذه الحقيقة وهي غاية الصوفي؛ لذا صيغ الترادف المعرفي بين التصوف والحقيقة، فعُدَّ التصوف هو الحقيقة، وعُدَّت معرفة الحقيقة هي التصوف، وسلوك الطريق الصوفي هو الذي يؤدي إلى معرفة الحقيقة وهي معرفة قلبية بمعنى هي "حكمة القلب". مرتكزها صفاء النفس وسموها، وفقًا لقول أبي بكرٍ (محمد بن علي بن جعفر) الكتاني البغدادي الصوفي (ت ٣٢٢هـ): "التصوف: صفاء ومشاهدة"، المنطلق من الحب، حب الحقيقة (الله)، الذي يُمكن السالك للطريق الصوفي تحمل صعاب الطريق وآلامه؛ فبالحب يصل "قلب الصوفي إلى الحضرة الإلهية"، والمؤدي إلى المعرفة، معرفة الحقيقة (الله)، وهي معرفة روحية ترفع عنها الحُجُب بصفاء القلب<sup>(١)</sup>.

ويتحدد المضمون الدلالي للفكر الصوفي البغدادي بما يلي:

- المضمون الدلالي الأخلاقي للتصوف والصوفي معًا، هو ما يتفق عليه الصوفية، فعليه يرتكز الطريق الصوفي ومنه ينطلق في الترقى الروحي إليه سبحانه. وما عبّر عنه أبو القاسم الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧هـ) بقوله: "التصوف خُلُق؛ فمن زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في التصوف"<sup>(٢)</sup>. في ترابط واضح ووثيق بين

(١) أبو نصر السراج، اللمع، نشرة: د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، القاهرة ١٩٦٠م، ص ١٣٧؛ ونظلة،

خصائص التجربة الصوفية في الإسلام، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) الشيباني، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، ص ١٧.

التصوف والأخلاق، عبر ربط الأخلاق بالتصوف تارة، وتارة ربط التصوف بالأخلاق لدى الصوفية. وعلى وفق ما قال أبو الحسين الثوري: "التصوف كله أخلاق" حينما سُئل عنه: "ليس التصوف رسوم ولا علوم، ولكنه أخلاق"<sup>(١)</sup>.

• والمضمون الدلالي الفلسفي الظاهر في قول معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) الذي يُعدُّ أول من أشار إليها في سلوكه الصوفي، ومضمونه المعرفي: "التصوّف الأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق"<sup>(٢)</sup>.

• والمضمون الدلالي التوحيدي للتصوف وهي الدلالة الجامعة للمضمون الديني التوحيدي، أي الجامعة للحقيقة والشرعية، وفقًا لقول أبي عليّ الرُّوذباريّ (أحمد بن محمد بن القاسم) (ت ٣٢٢ هـ): "الصوفي مَن لبس الصوف على الصفا، وأطعم نفسه على الجفا، ونبذ الدنيا وراء القفا، وسلك سبيل المصطفى"<sup>(٣)</sup>.

ولو لم يكن للتصوف البغدادي حضوره في الحياة الروحية للسالك والمريد والمحب لما وُجد على امتداد ثرى بغداد أعلامُ كبار الصوفية، ولما كتب عنه وفيه أعلامٌ من مفكري الإسلام، قدامى ومعاصرين، تاريخًا ورجالًا وطبقات، لغة ومصطلحًا، حقيقة ومعاني ودلالات، ومنزلته في الفكر الإسلامي ومعارفه، أذكر: كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، وكتاب (الأنساب) لعبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢ هـ)، وكتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان

---

(١) عيسى صفاء الدين البندنجي القادري، جامع الأنوار في مناقب الأخيار تراجم الوجوه والأعيان المدفونين في بغداد وما جاورها من البلاد، نشرة: د. أسامة ناصر النقشبندى ومهدي عبد الحسين النجم، وزارة الثقافة، بغداد ٢٠١٣ م، ص ٣٦٣.

(٢) الشيبى، المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٣) الشيبى، المصدر نفسه، ص ١٩.



(ت ٦٨١هـ)، وكتاب (البداية والنهاية) لابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، وكتاب (نفحات الأنس من حضرات القدس) للملا نور الدين عبد الرحمن الجامي (ت ٨٩٨هـ)، وكتاب (الطبقات الكبرى) (= لوائح الأنوار في طبقات الأخيار) لعبد الوهاب الشعراني (ت ٩٧٣هـ)، وكتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) لعبد الحي بن أحمد بن محمد بن العِماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)، وكتاب (جامع الأنوار في مناقب الأخيار تراجم الوجوه والأعيان المدفونين في بغداد وما جاورها من البلاد) لعيسى صفاء الدين البندنيجي القادري (ت ١٢٨٣هـ).

وفي التصوف البغدادي وُصِفَ العارف عبر مفردات النطق والصمت، بوصفها دلالة لغوية تعبيرية عما يصدر عنه من معرفة، وأثر هذه المفردات الوصفية عليه، فأقرَّ بعضهم النطق وأقرَّ بعضهم الآخر الصمت، ولكل تبريره الخاص؛ إذ أثر أبو سعيد الخِرَازي (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) وأبو الحسين النوري (ت ٢٩٥هـ / ٩٠٧م) وأبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ / ١٠٢٣م) النطق عن الحقيقة. في حين أقرَّ أبو العباس بن عطاء الأديمي البغدادي (ت ٣١١هـ / ٩٢٣م) وأبو بكر الشَّبلي (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٦م) وعبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ / ١١٦٥م) الصمت بعدما عرف الحقيقة.

ومما هو جدير بالذكر فإنَّ تلاميذ الجنيد البغدادي نقلوا الفكر الصوفي البغدادي إلى غيرهم شرقًا وغربًا، فنقل موسى الأنصاري (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) أفكار صوفية بغداد إلى خراسان، في حين نقل أبو عليٍّ أحمد بن محمد الروذباري (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) أفكار صوفية بغداد إلى مصر، بينما نقل أبو زيدٍ أحمد بن محمد الأديمي (ت ٣٤١هـ / ٩٥١م) أفكار صوفية بغداد إلى جزيرة العرب، لينتشر فيما بعد طلابهم ومريدوهم في أصقاع المعمورة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

(١) لمزيد من التفصيلات، انظر: أبو الفرج بن الجوزي، صفة الصفوة؛ وأبو عبد الرحمن السَّلَبي، طبقات الصوفية، في ذكر أبي القاسم الجنيد البغدادي شيخ الطائفة الصوفية في بغداد.

وتوثيقاً لدور التصوف البغدادي وتأثير أعلام صوفية بغداد، وفقاً لمصطلح (الاستيقاظ الروحي)<sup>(١)</sup> في المفهوم الغربي، المتحقق من خلال مفهوم (الذات المحاسبية) أي السلوكية الصوفية المحاسبية في الإسلام<sup>(٢)</sup>؛ في مواجهة ما وصلت إليه المجتمعات من تحلل وفوضى وتفكك، وفي بحث عن سعادة الحياة "بلا شك وبلا تصدع معرفي، وبلا تشتت عقلي" المتحققة من خلال الروح الصوفية سلوكاً تربوياً، تديناً وقيماً، ولغة أدبية: شعراً وسماعاً، ذكراً وإنشاداً<sup>(٣)</sup>.

وتوثيقاً من جانب آخر لدور الطرق الصوفية في بغداد في تعزيز التصوف البغدادي في الحياة الروحية البغدادية تمّ "تأسيس المجلس المركزي للطرق الصوفية في العراق" تحقيقاً لمبتغى الشيخ محمد الكسنزان في تحقيق التقارب الذي يشكل "الحقيقة الثابتة في جوهر الطريقة الصوفية"<sup>(٤)</sup>. وبموجب ما تقدم تم تأسيس الاتحاد العالمي للطرق الصوفية في باريس<sup>(٥)</sup>.

لهذا فإنّ قراءة تراثنا الصوفي البغدادي، الذي يشكل جزءاً هاماً من حضارتنا العربية الإسلامية، قراءة موضوعية بوصفه جهداً إنسانياً؛ يمكن الحكم عليه بالخطأ

(١) طرح التساؤلات الروحية عن: الله وعن الإنسان ومساره في الحياة.

(٢) هو منهج الصوفي الحارث بن أسد المحاسبي، من أقطاب مدرسة بغداد الصوفية في محاسبة النفس.

(٣) انظر: الباحث منصور حمادة، مقالته (موسم الهجرة الأوروبي والعربي نحو التصوف)، ٢٠١٨م، <https://www.hafryat.com>.

(٤) انظر: موسوعة الكسنزان لأهل التصوف والعرفان، ج١، المقدمة، ص (ز)؛ ومحمد فاضل إبراهيم حمادي، بحثه (في عيون أهلها: الطريقة الكسنزانية - مشيختها ومؤسساتها)، ضمن كتاب (التصوف في العراق) (الكتاب ٧٢)، ط١، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، ديسمبر - كانون الأول ٢٠١٢م، ص ٦ و ٢٨ و ٢٩ - ٣٠؛ وعبد السلام بديوي الحديثي، بحثه (الرُّبُط الصوفية ومحاولات تجديد الطرق في العراق)، ضمن كتاب (التصوف في العراق)، ص ١٥٨.

(٥) الاتحاد العالمي للطرق الصوفية، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، <https://ar.wikipedia.org>.

والصواب، أو بالتعديل والاستدراك، وليس الحكم عليه جزافاً أو قلة فهم له، لكي لا يفقد الباحث فيه منهجيته بالتعميم أحياناً وبالغموض أحياناً دون تحديد أو وضوح؛ ولكي لا يضيع في الوقت نفسه تراثاً روحياً له ما له وعليه ما عليه بأحكام مسبقة غير دقيقة أو منصفة بحق القوم<sup>(١)</sup>.

فما زال خزين روح التصوف البغدادي يشكل قيمة في البحث الصوفي إلى يومنا هذا، وما زالت موضوعاته مفتوحة ما بين النص الصوفي التراثي والقراءة المعاصرة له، فأثّرت وما زالت في حضورها في تشكيل الوعي الصوفي المشدود إلى الموروث النصي من جانب، وإلى القراءة المعاصرة لهذا الموروث من جانب آخر. ولربما تجد هذه القراءة من يتابعها ويفتح آفاق البحث والدرس، أو الحوار والنقد حولها. فما أحوجنا إلى روح هادئة ونفس مطمئنة في زمان الضجيج والهوس والفوضى والصراع.

وهكذا كان تاريخ بغداد، وهكذا هي بغداد وما زالت، قبلة الفكر ومنازة الروح، تراثاً فكرياً وروحياً وحضارياً ما زال فيه ما لم يُكشف وما لم يُبحث وما لم يُقرأ بعد. فما أحوجنا إلى قراءة ما في صحائف بغداد وما تتضمنه من فكر ومعرفة، تاريخ وأعلام؛ صحائف لم تُطو بعد ولن تُطوى أبداً إذ مازال القول فيها مفتوحاً للبحث والدرس والتعمق والتجدد.



---

(١) انظر: هشام خالدي، التصوف ومنزلته من الفكر الإسلامي - قراءة في مذاهب الصوفيين، المركز الجامعي بالمدينة، مجلة حوليات التراث - العدد ١، الجزائر ٢٠٠٤م، ص ٩١ - ١٠٤.

# النَّفَحَاتُ الْبَغْدَادِيَّةُ عَلَى الدِّيَارِ الْأَنْدَلُسِيِّ

د. عامر ممدوح خيرو

أستاذ التاريخ الأندلسي في الجامعة العراقية - كلية الآداب

التاريخ الإسلامي هوية أمة، وسجلٌ مفاخر؛ امتداده واحدٌ، وأرضه الشاسعة تذوبُ إزاءها كلُّ الحدود والعناوين. وإذا كان التاريخ السياسي ساحة حراكٍ وحرابٍ، وتدافعٍ وتصالحٍ، وصعودٍ وهبوطٍ؛ فإنَّ التاريخ الحضاري والعلمي روابطه الأشدُّ والأقوى، وأمواجه دومًا كانت هي العالية، وشهادته على الدوام الزاهية، وصفحاته نديةً، ومنجزاته ثريةً.

وهنا يمكننا وصفُ الحديث عن التمازج الحضاري، والتأثير المتبادل بين موقعين متميزين على الخارطة، لكنهما منصهران من حيث الانتماء، بأنه حديث نفحات خيرٍ ولفحات عزمٍ، ورياح طيبٍ، نمت بعدها العلوم وأينعت، ووقفات إبهارٍ للحظات إعجابٍ وإمدادٍ لم ينقطع.

وهذا كان مقصدنا؛ إذ خصصنا هذه الأسطر لبيان التأثير الإيجابي لبغداد "دار السلام" أيام عزّها ومجدها على الأندلس "جوهرة الوجود الإسلامي في أوروبا"؛ فهو تخصيصٌ لجانبٍ محددٍ من موضوعٍ كُله يشعُّ ضياءاتٍ وأنوارًا.

## أولاً: تقارب وتلاقح

ظَلَّتِ الأندلسُ عنصرًا جاذبًا للشرقِ المسلم؛ ربما بحكم الانتماءِ الدينيِّ أو المجتمعيِّ أو الانجذابِ الحضاريِّ، أو لكونها - كما نصَّ المؤرخون -: «دارَ جهادٍ وموطنَ رباطٍ قد أحاطَ بـشَرْقيِّها وشمالِها وبعضَ غربيِّها أصنافُ أهلِ الكفرِ»<sup>(١)</sup>، فيؤجِّرُ من يقيمُ فيها ويدافعُ عنها، أو لمزاياها الأخرى التي لم تحطُ بها اللغةُ، ذلك أنَّ «محاسنَ الأندلسِ لا تستوفي بعبارةٍ، ومجاري فضلِها لا يشقُّ غبارُها، وأتَى تجارى وهي الحائزةُ قصبَ السَّبْقِ في أقطارِ الغربِ والشرقِ»<sup>(٢)</sup>.

بل لعلَّها تحوَّلتُ إلى أرضٍ تعويضٍ انكسارٍ لاحقٍ مع تراجعِ الخلافةِ العباسيةِ وتدهورِ واقعِها وانهارِها، فكأنَّها غدتِ البديلَ، رغم اختلافِ الشكلِ السياسيِّ الذي ظهرَ جليًّا أنه غيرُ معوِّقٍ للارتباطِ الحضاريِّ، وذلك قبل أن تدخلَ الأندلسُ ذاتُها نفقَها المظلمَ الطويلَ سياسيًا.

وبالمقابل، برزتُ دارُ السلامِ لتكونَ على الضفةِ الأخرى منبعَ توهجٍ، ونقطةَ التقاءٍ، وساحةَ إبداعٍ؛ فهذه «بغدادُ حاضرةُ الدنيا، ومعدنُ كلِّ فضيلةٍ، والمحلَّةُ التي سبقَ أهلُها إلى حملِ أُلويةِ المعارفِ، والتدقيقِ في تصريفِ العلومِ، ورقةِ الأخلاقِ والنباهةِ والذكاءِ وحادَّةِ الأفكارِ ونفاذِ الخواطرِ»<sup>(٣)</sup>؛ فكأننا نتحدثُ عن لقاءٍ بين ركنين أساسيين، ثم تعميقٍ للأواصرِ، ثم تبادلٍ، ثم انصهارٍ!

---

(١) الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، (بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠)، ص ٣٣.

(٢) المقرئ التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨)، ج ١، ص ٣٢٧.

(٣) ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ)، رسائل ابن حزم الأندلسي: رسالة في فضائل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧)، ج ٢، ص ١٧٦.



والدارس للتأريخ الحضاري الإسلامي يجد الترابط العميق والوثيق بين أجزاء العالم الإسلامي كافة واضحًا لا يمكن إخفاؤه؛ فلم يكن يقطعُه عنوانٌ، ولا يوقفُه انتماءٌ، وهو أمرٌ مفهومٌ للغاية إذا ما استحضرنَا علوَّ مقام العنوانِ الأسمى وهو الإسلامُ، ثم ما يتعلقُ به من سلوكٍ وفرائضٍ يتقدمُها الحجُّ الذي كان وما يزال بمثابة بقعةٍ جذبٍ لازماً لكلَّ المسلمين، ولقاءٍ بنيةٍ إحلالِ النقاءِ، وساحةٍ ذوبانِ الألوانِ والعناوينِ والمسمياتِ.

لقد «كانتِ الأندلسُ والمشرقُ أشبهَ برقعةٍ واحدةٍ يسيرُ فيها النملُ ذهابًا وجيئةً... علماءٌ يضيقُ بهم الشرقُ من الفاقةِ فيرحلون إلى الغربِ، وعلماءٌ من الغربِ يعوزُهم العلمُ فيرحلون إلى الشرقِ؛ منهم من تقصُرُ رحلتهُ فيكتفي بالرحلةِ إلى المغربِ، فإذا زاد شيئًا رحل إلى مصرَ، ومنهم من له جرأةٌ ومقدرةٌ على الرحلةِ الطويلةِ، فيرحلون إلى المغربِ، ومصرَ، والشامِ، والعراقِ وما إلى ذلك»<sup>(١)</sup>.

إنَّ «العالمَ الإسلاميَّ كلَّه كان معتبرًا دارًا واحدةً، ودارَ الإسلامِ كلُّها مشرقًا ومغربًا، دارَ حربٍ ودارَ إسلامٍ؛ فالعالمُ كلُّه كما قال الفقهاءُ معتبرٌ وطنًا واحدًا للعلماءِ، فإذا رحل الأندلسيون إلى المشرقِ، أو رحل المشارقةُ إلى الأندلسِ فإنما يرحلون في دارِهِم، وتحتَ جوٍّ واحدٍ مشبعٍ بالروحِ الإسلامية. وسواءٌ مَنْ دخلَ من الفرسِ والهندِ في الإسلامِ ومن دخلَ من الإِسبانِ في الإسلامِ فهم إنما يستنشقون هواءَ إسلاميًا واحدًا، ويتكلمون تحتَ تأثيرِ لغةٍ عربيةٍ واحدةٍ... وما دام المؤذنون يؤذنون في المساجدِ بألفاظٍ واحدةٍ، فالصدي يكون واحدًا، وكذلك العلمُ والأدبُ»<sup>(٢)</sup>.

ثم لا ننسى عاملَ التجارةِ الذي يتطلعُ لكلِّ البيئاتِ المحفزةِ، والأسواقِ العامرةِ، والثرواتِ البكرِ التي تنتظرُ الاكتشافَ والاستجلاءَ، وقد كان؛ بل هل ثمةَ أرضٍ مثلُ

(١) أمين، أحمد، ظهر الإسلام، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣)، ص ٤٨٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٩٠ - ٤٩١.

بغدادَ والأندلس كانت تنادي كل من يبتغي النماء والثراء!؟

وإذ كان الحافز الديني، والباعث الاقتصادي، لهما السبق في هذا الاتصال الوثيق، فإنَّ للعلم والكتاب الحيز الذي لا يقلُّ أثرًا وفاعليَّة؛ إذ غدت قوافل المعرفة تجوب الوديان والفيافي، وتبحثُ عن يشبع ذلك التَّهم المتصاعد في ظلِّ حضارة كانت تنبضُ بالازدهار وقتها، إذ باتت الرحلات العلمية لوحدها ملفًا ضخماً لا يدانيه أيُّ ملفٍ آخر، وسجلًا يوثق قصةً وحكايةً باهرةً ليس لها مثيل، بحثًا عن حرفٍ وكلمةٍ وكاتبٍ وعالمٍ وناسخ، حتى لو كان الطريقُ إليه طويلًا ومشاقه في ذلك الزمانِ شديدةً!<sup>(١)</sup>

ويبدو التاريخُ عجيبًا إذ يمنحنا تلك الإشاراتِ واللمحاتِ الخفيفة التي يمكن من خلالها القياسُ عليها لبناء حالةٍ من المعلوم بالضرورة، وتشكيل صورةٍ شاملةٍ لموضوع عميقٍ كالذي نتحدثُ عنه؛ مثل نخلة الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) كما تبدَّتْ له يومًا، فهاجثُ شجنه، وتذكَّرَ وطنه، فقال<sup>(٢)</sup>:

تَبَدَّتْ لَنَا وَسْطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ      تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنْ بَلَدِ التَّخْلِ  
فَقُلْتُ: شَيْهِي فِي التَّغْرِبِ وَالتَّوَى      وَطُولِ انْتِنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي  
فإذا كانت قد أثارت في نفسه الشجونَ والحنينَ للبلاد، فإنها كانت أعظمَ مثالٍ على ذلك الارتباطِ الروحيِّ والنفسيِّ الذي نَقَصْدُه، والتأثيرِ الذي نرومُه، مثلما هي الآن آثارُ البلادِ الحزينةِ الباقيةُ إلى يومنا هذا تحكي لنا أَلْفَ حكايةٍ إسلاميةٍ لن تموتَ أبدًا.

(١) عن بواعث الرحلات المتبادلة بين المشرق والأندلس عامة والعلمية منها خاصة: يراجع: مريقي، حمزة، الرحلات العلمية في الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، دورية كان التاريخية، ع ٣٢، س ٩، (حزيران، ٢٠١٦)؛ شكر، هدى نوري، رحلة الكتب المشرقية وأثرها العلمي في الأندلس، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، ع ٧٦، ايلول، ٢٠٢٠، ص ٥٤٨.

(٢) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي وآخرون، ط ٣، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م)، ج ٨، ص ٢٤٧؛ المقرئ، نفح الطيب، ج ٣، ص ٦٦.

وعلى الرغم من تثبيت البعد الزمني للتأثير الحضاري العراقي على الأندلس بعصر الإمارة الأموية بشكل أساسي، وتحديدًا عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وذلك عقب التأثيرات الشامية والحجازية التي رافقت سنوات الفتح وعهد الولاة، إلا أننا لا يمكننا وضع تحديد صارم لذلك الدخول الذي جاء أول الأمر دون شكٍّ بجهود فردية وانجذابٍ عامٍّ قائم على المعاني التي أوردناها أعلاه، ثم أسند لا شكٍّ بالرغبة الرسمية والجهود الجماعي المنظم والذي كان يجري بيسرٍ وسلاسةٍ فريدةٍ بعيدًا عن فضاءات السياسة الصماء<sup>(١)</sup>.

### ثانيًا: الرحلات العلمية.. مسارات وامتداد

إذا كانت طبيعة مراحل التأسيس دومًا تحمل فكرة الانجذاب نحو الطرف الأقوى والأكثر تقدمًا، فقد كان من الطبيعي أن تقع الأندلس تحت ظلال التأثير المشرقيّ أول أمرها، وتلك حقيقة علمية لا يمكن إنكارها حتى على مستوى التركيبة البشرية التي وطأتها أول فتحها وكانت مادتها من تلك الديار.

ذلك أن «نشأة العلوم في البيئات كلها كانت متشابهة أو متقاربة؛ فتبدأ الأرض جرداء لا نبات فيها، ثم تمهد الأرض، ثم توضع البذرة، وتسمد بالغذاء الصالح، وتتعاهد بالسقي حتى تنمو، وبعد ذلك تثمر؛ هذا ما حدث للعلم في المشرق، وهذا بعينه ما حدث للعلم في الأندلس»<sup>(٢)</sup>.

ويشير التطور الطبيعي للتواريخ إلى تحقق حالة التأثير المتبادل، بل والانجذاب

---

(١) الدكتور خليل إبراهيم السامرائي، أثر العراق الحضاري على الأندلس في القرنين الثاني والثالث للهجرة (١٠١ - ٣٠٠ هـ / ٧٢٠ - ٩١٢ م)، مجلة المؤرخ العربي، م ١٢، ع ٢٧، ١٩٨٦، ص ١٢٣.

(٢) أمين، ظهر الإسلام، ج ٣، ص ٤٨٦؛ وعن هذه المعاني يراجع: طه، عبد الواحد ذنون، دراسات أندلسية، (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٤)، ص ١٩٠ - ١٩٩.

العكسيّ لاحقاً مع نموّ الشكّل والسمت الحضاريّ الخاصّ، وتكوّن الهوية المتميزة والمميزة لها، وهو ما تحقّق بوجود الإنسان (الأندلسيّ) انتماءً واقتفاءً!

وذلك إنجازاً فريداً، وبراءة ابتكار حضاريّة أندلسيّة بامتياز، يصدّقها النظر إلى حال البلاد قبل الفتح الإسلاميّ لها وبعدها بل وما خلفته من آثار، «ففي الأندلس لم يجد العرب شيئاً بالمرّة يتعلّمونه ويهضمونه ليترجموه أو يقلّدوه ثم يقدموه؛ فالحضارة الأندلسيّة التي كانت أجمل وأعظم من أن تُقارن بغيرها، لم تكن قائمة على أساس فارسيّ أو إغريقيّ، لقد كانت عربيّة صرفة أكثر من الحضارة العربيّة في أيّ مكانٍ آخر»<sup>(١)</sup>.

ولقد لعبت عوامل عدّة في إيجاد حالة الانجذاب الأندلسيّ للحضارة العراقيّة، ومنها: رغبة الأمراء الأمويين في هذه الفترة - وبخاصّة الأمير عبد الرحمن الأوسط المذكور سابقاً - في ترك سياسة الانعزال عن العراق التي سار عليها آباؤه، وأن يساير حركة الازدهار الحضاريّ التي اشتهرت بها بغداد، وظهور بوادر الترف والغنى الأندلسيّ انعكاساً للازدهار الاقتصاديّ الذي فتح أبواب البلاد نحو أسواق العراق، وإقبال أهلها على الحياة الفكرية، ودور التجار في نقل كتب العلم إليها، وهجرة العلماء وبعض فئات المجتمع من العراق نحوها لأسباب سياسيّة وتطلّعاً إلى أجوائها الآمنة والمتطورة<sup>(٢)</sup>.

وصفوة القول: إنّ الأندلس انتقلت من مرحلة التقليد والإتباع والتأثير الحضاريّ الشاميّ والحجازيّ إلى استيعاب التأثير الحضاريّ العراقيّ، وتمثّله أحسن تمثيل وجعله قاعدة لبناء الشخصية الأندلسيّة الثقافية التي بدأت بالنمو والتكوين في القرن الثاني والثالث للهجرة، ومن ثمّ ازدهرت في عصر الخلافة الأندلسيّة/ القرن الرابع الهجريّ

(١) هونكة، زيفريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط ٨، (بيروت: دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٣)، ص ٤٧٤ - ٤٧٥.

(٢) السامرائي، أثر العراق الحضاري على الأندلس، ص ١٢٨ - ١٣٠؛ وكذلك السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٠)، ص ٣٢٠ - ٣٢٥.

كما هو معروف<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: في ظلال التراجم: أنوار وأضواء

سارت الرحلات العلمية بين بغداد والأندلس بوتيرة متصاعدة، فكأن الكفة كانت تميل -مع إعادة تثبيت مواقع كلٍّ منها على الساحة الحضارية- لصالح الأندلس، الأمر الذي انعكس على جانبين مهمين:

الأول: رحلة الكتب.

الثاني: انتقال العلماء.

ففيما يتعلق بـ(التأثير الأول) يمكننا القول إنَّ الكتابَ المشرقيَّ وجدَ له سوقاً رائجةً في الأندلس، فقد «اعتمدَ الأندلسيون على المؤلفاتِ المشرقية خاصةً التي تصدرُ في مدنِ العراق، التي كانوا يحرصون على الحصولِ على نسخٍ منها، وما حظيتَ به بغدادُ من تقديمِ علميٍّ جذبَ الكثيرَ من أهلِ الأندلس للاطلاع على خزائنِ المعرفة والالتقاء بالعلماء والانتهال من علمهم الغزير، فكان لذلك تأثيراتٌ على النتاج الأندلسي... لقد شهدَ العصرُ العباسيُّ حركةً واسعةً في انتقالِ الكتبِ المؤلفة والمستنسخة من بغداد إلى الأندلس وبالعكس أيضاً، وقد شجعَ هذه الظاهرةُ الأمراءُ والعلماءُ والحكماءُ على حدٍ سواءٍ، ودفعوا من أجلِ الحصولِ عليها وتوفيرِها مبالغَ طائلةً في اقتنائها، خاصةً في عهدِ أمرائها الأعلام»<sup>(٢)</sup>.

وحظيتِ الكتبُ المشرقيةُ الوافدةُ بعنايةِ أهلِ الأندلس لأنهم وجدوا فيها من علمٍ ومعرفةٍ وحكمةٍ وأدبٍ هم بحاجةٌ إليها؛ لذلك استقبلوها استقبالاً كريماً،

(١) السامرائي، أثر العراق الحضاري على الأندلس، ص ١٣٣.

(٢) شكر، رحلة الكتب المشرقية، ص ٥٤٣.



واعتنوا بها سماعًا والجلوس في ذلك إلى روايتها، والإقبال على حفظ بعضها وتجويد ذلك وإتقانه، وجمعها وإعارتها، وشدة الحرص عليها، والأهم وضع التأليف عليها بشرح الغامض المستغلق أو اختصار المطول منها أو دراسة جزئية مخصوصة من كتاب معين وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

ومحاولة استقصاء هذا الموضوع تستلزم مساحةً مكانيةً أكبر من هذه الصفحات، وهو يملأ الكثير من المصادر والمراجع التي تتبعته ودونت أبرز العناوين وفي مختلف فروع العلوم والمعرفة<sup>(٢)</sup>.

أما (التأثير الثاني) الذي يمثل واحدًا من أبرز نتائج التواصل الحضاري الذي نقصده، فهو يتجلى بتتبع كلمة (البغدادية) الصفة والعنوان والانتماء بين صفحات كتب التراجم الأندلسية التي فيها توثيق طيبٌ لذلك الحضور الإيجابي الفاعل لأبناء دار السلام في أرض الفردوس المفقود.. الموجود!

ومن أولئك على سبيل النموذج والمثال لا الحصر:

• صاعدُ المقرئ، من أهل بغداد، يكنى أبا نصر: قدم الأندلس نحو سنة خمسين وسبعين، وقرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد، وسمع منه كتاب (السبعة) وسمع من أبي بكر بن مقسم، وكان له نصيبٌ من علم العربية، وتوفي في بعض ثغور الأندلس الشرقية فيما بلغني سنة ست وسبعين أو نحوها<sup>(٣)</sup>.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٤٦ - ٥٤٧، وبخصوص تأثير الحضارة العراقية ينظر: العلوان، اثير عبد الكريم صادق، مظاهر الحضارة العراقية وأثرها في المجتمع الأندلسي (٢٠٦ - ٣٦٦ هـ / ٨٢١ - ٩٧٦ م) مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة/ مركز دراسات البصرة والخليج العربي، م ٤٩، ع ٤٤، ٢٠٢١.

(٢) للاطلاع على احصائية مهمة لهذه الكتب والمؤلفات يمكن مراجعة: شكر، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥٠ - ٥٥٩.

(٣) ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣هـ)، تأريخ علماء الأندلس، حققه وضبط نصّه وعلق بشار عواد معروف، (تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٨)، ج ١، ص ٢٧٩؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد

• **طاهر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن موسى بن إبراهيم المعروف بالمهنيّ،** من أهل بغداد، يكنى أبا العباس، وصل إلى الأندلس في جمادى الأولى سنة أربعين وثلاثمائة، وكان شاعراً مفلحاً، مدح الخلفاء، وكسب المال بالأدب، وكان قد نesk في آخر أمره، وقال في الزهد، وله رسائل عجيبة ومقالات في معاني الزهد على مذاهب المتصوفة، وكان قد لزم ضيعته ببلد، وكانت واسعة مغلة، فكان قليل الشهود بقرطبة. ولد ببغداد في شهر رمضان سنة خمس عشرة وثلاثمائة، وتوفي - رحمه الله - بقرطبة يوم الجمعة، يوم عاشوراء، سنة تسعين وثلاثمائة، ودفن بمقبرة الربض<sup>(١)</sup>.

• **عبيد الله بن عمر بن أحمد بن جعفر القيسي الشافعي:** من أهل بغداد... قدّم الأندلس في المحرم سنة سبع وأربعين وثلاثمائة... وكان فقيهاً على مذهب الشافعي، إماماً فيه، بصيراً به، عالماً بالأصول والفتوى، حسن النظر والقياس... وكانت وفاته بقرطبة ليلة الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة سنة ستين وثلاثمائة، وكان مولده ببغداد في ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومئتين<sup>(٢)</sup>.

• **علي بن شيبان الدقاق،** من أهل بغداد، من أصحاب ابن مجاهد، كان عالماً

---

بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حققه وضبط نصه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م)، ج ٨، ص ٤٩٠.

(١) عنه ينظر: الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (ت ٤٨٨ هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف، ومحمد بشار عواد، (تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٨)، ص ٣٥٤ - ٣٥٥؛ الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر (ت ٥٩٩ هـ)، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٩٦٧)، ص ٣٢٦؛ ابن الفرضي، تأريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٢٨٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٨، ص ٦٦٢.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٣٤٠ - ٣٤١؛ الضبي، بغية الملتبس، ص ٣٥٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٨، ص ١٤٩.

بالقرآن، بصيرًا بالقراءات، دخل الأندلس نحو سنة خمس وسبعين وثلاثمئة<sup>(١)</sup>.

■ محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبي بردة الشافعي البغدادي، يكنى أبا الطيب، سمع الحديث ببغداد، وتفقه للشافعي، ووصل أبو الطيب إلى الأندلس سنة إحدى وستين وثلاثمئة فأكرمه أمير المؤمنين المستنصر بالله، وأمر بإجراء النزل عليه، وكان من أعلم الناس بمذهب الشافعي، وأحسنهم قيامًا به، لم يصل إلى الأندلس أفهم منه بالمذهب... وكان مولده في حدود الثلاثمئة<sup>(٢)</sup>.

• ظفر البغدادي، سكن قرطبة وكان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط كعباس بن عمرو الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتهما، واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوراقية ذكره ابن حبان<sup>(٣)</sup>.

• عبد اللطيف بن أبي الطاهر أحمد بن محمد بن هبة الله الهاشمي الصوفي من أهل بغداد يعرف بالذهبي ويكنى أبا محمد دخل الأندلس... وله تأليف سماه بالدليل في الطريق من أقاويل أهل التحقيق أخذ عنه وسمع منه ذكره أبو عبد الله محمد بن سعيد الطراز وضعفه بعدما سمع منه هو وأبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم المغيلي وغيرهما، وقال ورد علينا غرناطة قريبًا من سنة ٦١٣ وتوفي -عفا الله عنه- بإشبيلية قريبًا من هذا التاريخ... وله تواليف في التصوف منها تأليف في إباحة السماع قرأت عليه أكثره وقرأت عليه عوالي النقيب بمنزله بإشبيلية

(١) ابن الفري، تاريخ علماء الأندلس، ج١، ص٤١٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٨، ص٤١٧.

(٢) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، ٢٠٠٠)، ج٢، ص٣٨؛ ابن الفري، تاريخ علماء الأندلس، ج٢، ص١٤٩ - ١٥٠؛ الذهبي تاريخ الإسلام، ج٨، ص٣٩٣ - ٣٩٤.

(٣) ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام المهراس، (بيروت: دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥)، ج١، ص٢٧٨.

- بحومة القصر المبارك عام خمسة عشر وستمئة وكان قد قارب التسعين<sup>(١)</sup>.
- محمد بن الحسين الفهرّي وراق أبي عليّ البغداديّ من أهل قرطبة يكنى أبا بكر وأبا عبد الله وكناه بعضهم أبا القاسم، روى عن أبي عليّ ولازمه وتقدم في حفظ الآداب والعلم باللغات<sup>(٢)</sup>.
  - الفرّج بن إبراهيم البغداديّ الكاتب، يكنى أبا ياسر... صنف مجموعاً حسناً في الطبّ والتطبيب جعله كالرسالة ووسمه باسم المقتدر بالله أبي جعفر أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة وكان أديباً كاتباً حافلاً شاعراً...<sup>(٣)</sup>.
  - عليّ بن إبراهيم التبرّي البغداديّ، فقيه محدّث، يروى عن أبي الحسين محمد بن أحمد بن أحمد بن القاسم بن إسماعيل الضبيّ المعروف بابن المحامليّ القاضي البغداديّ وغيره، قال حاتم بن محمد لقيته بطليطلة دخلها مجتازاً سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة<sup>(٤)</sup>.
  - إسماعيل بن القاسم، أبو عليّ القائيّ اللغويّ، ولد بمنازجرد، من ديار بكر، فنشأ بها، ورحل منها إلى العراق في طلب العلم، فدخل بغداد في سنة ثلاث وثلاثمئة... وأقام ببغداد خمساً وعشرين سنة، ثم خرج منها قاصداً إلى المغرب في سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة، ووصل إلى الأندلس في سنة ثلاثين وثلاثمئة، في أيام عبد الرحمن الناصر، وكان ابنه الأمير أبو العاص الحكم بن عبد الرحمن من أحبّ ملوك الأندلس للعلم، وأكثرهم اشتغالا به، وحرصاً عليه، فتلقاه

(١) ابن الأبار، التكملة، ج ٣، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٥ - ٦٦.

(٤) الضبي، بغية الملتبس، ص ٤٢٠.

بالجميل، وحظي عنده، وقرب منه، وبالغ في إكرامه، ويقال: إنّه هو كان قد كتب إليه ورعّبّه في الوفود عليه. واستوطن قرطبة، ونشر علمه بها، وكان إمامًا في علم اللغة، متقدمًا فيها، متقنًا لها، فاستفاد الناس منه، وعولوا عليه، واتخذوه حجة فيما نقله، وكانت كتبه على غاية التقييد والضبط والاتقان، وقد ألف في علمه الذي اختص به تواليف مشهورة، تدلّ على سعة روايته، وكثرة إشرافه، وأمل كتابًا سماه (النوادر) يشتمل على أخبار وأشعار ولغة... ومات أبو عليّ بقرطبة في أيام الحكم المستنصر بالله، في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة... وأكثر من يحدث عنه بالمغرب، أو يحكي عنه، يقول: أبو عليّ إسماعيل بن القاسم البغداديّ، نسبوه إليها لطول مقامه بها، ووصوله إليهم منها<sup>(١)</sup>.

• صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغداديّ اللغويّ، يكنى أبا العلاء... ذكره الحميديّ، وقال: ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم وولاية المنصور محمد بن أبي عامر في حدود الثمانين والثلاثمائة، وأظنّ أصله من ديار الموصل، دخل بغداد. وكان عالمًا باللغة والآداب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة، فكة المجالسة ممتعًا فأكرمه المنصور وزاد في الإحسان إليه والإفضال عليه... خرج من الأندلس في الفتنة وقصد صقلية فمات بها قريبًا من سنة عشر وأربعمائة... قال ابن حيان: وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبي عامر كتابًا سمّاه: (الفصوص

---

(١) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٣١ - ٢٣٤؛ وللمزيد من أخباره ينظر: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ١٢٠؛ الضبي، بغية الملتبس، ص ٥٤٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٨، ص ٩٦؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٤٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١٩٠ وغيرهم؛ ومن المراجع الحديثة يستفاد من: الكبيسي، خليل إبراهيم، أبو علي القالي البغدادي وأثره بالفكر الأندلسي، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٥، (بغداد: ١٩٨٤)؛ الدقاق، عمر، أبو علي القالي وكتابه الأمالي، مجلة التراث العربي، ع ١٢٣-١٢٤، (دمشق: ٢٠١١).



في الآداب والأشعار والأخبار)...<sup>(١)</sup>، وهو (البغدادِيُّ تربةً، والطبريُّ أصلاً،  
والربيعيُّ نسباً)...<sup>(٢)</sup>.

ولنا أن نسجل هنا على هذه النماذج من العلماء الداخلين إلى أرض الأندلس عدداً  
من الملاحظات الأساسية فيما يخص سيرتهم ومسيرتهم، وفي مقدمتها:

- سرعة الاندماج في المجتمع الأندلسي.
- استقرار أغلبهم فيها حتى الوفاة.
- المشاركة في الحياة العامة وبفاعلية.
- توليهم وظائف تدل على كفاءتهم رغم أن انشغالهم العلمي كان أكثر بروزاً.
- احتضان الحكام لهم رعاية واهتماماً وحظوة.
- الثراء والإثراء العلمي، تدريساً وروايةً وتأليفاً.
- تركيز معظمهم في حضرة قرطبة لتكون الموطن والملاذ والمثوى الأخير، وليس  
هذا بغريب؛ فقرطبة: «منذ استُفتحت الجزيرة، هي كانت منتهى الغاية، ومركز

---

(١) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم  
ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم تحقيق بشار عواد معروف، (تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٠)، ج ١، ص ٣٢١ -  
٣٢٢، وللمزيد عنه يراجع: الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٥١٠؛ ابن بسام، الذخيرة، الضبي، بغية الملمس، ص ٨٥٢؛  
الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٩، ص ٢٨١؛ المقري، نفح الطيب، ج ٣، ص ٧٧.

(٢) ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي (ت ٥٤٢هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس،  
(ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨١) ق ٤، م ١، ص ٨، ويستطرد في ترجمته والاتيان بنماذج من نثره وآثاره  
وتراثه؛ عن الأثر المعرفي والعلمي العام لصاعد البغدادي يراجع: المقري، نفح الطيب، ج ٣، ص ٧٥ وما بعده؛  
بالنثيا، أنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، (القاهرة: الهيئة المصرية العام للكتاب،  
٢٠١١)، ص ٨٨ - ٨٩؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم، ص ٣٣٤؛ وترجمته ترد في عديد من المصادر  
وكتب التراجم.

الراية، وأمّ القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهي، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر درر القرائح؛ ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها انتشأت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة، والسبب في ذلك، وتبريز القوم قديماً وحديثاً هنالك على من سواهم، أنّ أفقهم القرطبيّ لم يشتمل قطّ إلا على أهل البحث والطلب، لأنواع العلم والأدب، وبالجمله فأكثر أهل بلاد هذا الأفق أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسل فيها بكلّ إقليم على عرق كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر»<sup>(١)</sup>.

ويبقى هذا الموضوع يثير دوافع الدارس لتأريخ الأندلس، فيحفزه إليه بحثاً واستقصاءً وتحليلاً.

#### رابعاً: شيخ بغداديّ وتلميذ قرطبيّ!

رأينا في الفقرة السابقة، كيف أنّ علماء بغداد (ولادة وانتساباً) حين وطئوا الأندلس عمّت خيراّتهم، وبان أثرهم، ولا سيما الكبار منهم.

ولعلّ من جميل ما لفتت مطالعة تلك السير البديعة إليه، ترسيخ المشيخة البغدادية والتلمذة القرطبية، في صورة فريدة من تكامل الأعمال، والتزام المسار، ومقصداً ذلك النموذج البارع، والعلاقة الوثيقة بين صاعد البغداديّ الذي ختمنا به تراجمنا وبين شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيّان القرطبيّ (ت ٤٦٩هـ)؛ «صاحب لواء

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، م ١، ص ٣٣.

التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه، وأحسنهم نظمًا له»<sup>(١)</sup>.

وصاعدُ الذي شدَّ الرحالَ إلى هذه الديارِ انجذابًا أندلسيًا<sup>(٢)</sup>، واضطرارًا مشرقياً، غدا ثالثَ شيوخِ ابنِ حيانَ الذي صارَ هو الآخرُ التلميذَ البارَّ له بالتزامِ درسه والتقييدِ برسمه ونشرِ علمه.

لقد كان خلفُ بن حسينٍ (والدُ ابنِ حيانَ) من الجاهِ والثروة بحيثُ عرفَ كيف يختارُ لابنه حيانَ عددًا من الأساتذة يتلقى عنهم العلمَ لا كما يتلقاه غيره، فيحضرُ حلقاتهم ومجالسهم العامة، وإنما كان ينفردُ بالشيخ منهم لكي يختصَّ بدروسه إما في داره أو دارِ الشيخ، كما نرى في هذا النصِّ الذي يتحدثُ فيه ابنُ حيانَ عن قراءته لكتابِ (الفصوص) لصاعدِ البغداديِّ فيقولُ: «وجمعَ أبو العلاءِ للمنصورِ محمدَ بن أبي عامرٍ كتابًا سماه (الفصوص) في الآدابِ والأشعارِ والأخبارِ... وأمره أن يسمعه الناسُ بالمسجدِ الجامعِ بالزاهرةِ في عقبِ سنةٍ خميسٍ وثمانين وثلاثمئة، واحتشدَ له من جماعةِ أهلِ الأدبِ ووجوهِ الناسِ أمةً. قال ابنُ حيانَ: وقرأته عليه منفردًا في داره سنةٍ تسعٍ وتسعين وثلاثمئة»<sup>(٣)</sup>.

ويرى أحدُ كبارِ دارسي تراثِ ابنِ حيانَ أنَّ «صاعدًا وهو ما هو من علوِّ المكانةِ والحظوةِ من المنصورِ بن أبي عامرٍ ما كان ليستقبلَ في داره تلميذًا من تلاميذه لكي يقرأَ عليه كتابًا سبقَ أن أسمعَه عامةُ الناسِ في المسجدِ الجامعِ إلا إذا كان ذلك لقاءً

(١) ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص٢١٦.

(٢) كان انتقال صاعد إلى الأندلس رغبة في ترويض بضاعته العلمية، إذ: (بلغه أن اللغة بالأندلس مطلوبة، والآداب هناك مرغوب فيها من ملوكها ورعياتها) القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، بيروت، دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٢)، ج٢، ص ٨٥ - ٨٦؛ سعود، عبد الوهاب التازي، صاعد البغدادي حياته وآثاره، (المغرب: ١٩٩٣)، ص ١٠٣.

(٣) ابن بشكوال، الصلة، ج١، ص ٣٢٢، وينظر كذلك: ص ٢١٦.

مالٍ كثيرٍ لا يتوسّع في إنفاقه إلا المقتدرون الوجهاء»<sup>(١)</sup>، أي أنّه «كان أستاذًا خصوصيًا بلغة عصرنا»<sup>(٢)</sup>.

وهذه التلمذة ذات الطابع البغداديّ الخاصّ ألقّت بظلالها الإيجابية على تكوين ابن حيان وأسلوبه الأدبيّ الفريد؛ فأخذ منذ صباه عن أساتذته من طبقة ابن أبي الحباب صاحب أبي عليّ القالي وصاعد البغداديّ هو الذي أعانته -فضلاً عن الملكة الطبيعية- على امتلاك زمام اللغة على نحوٍ لا نعرفه أتيح لمؤرخ عربيّ قبله؛ فقد كانت كتابة ابن حيان -إلى جانب قيمتها التاريخية- من أرقى نماذج النثر الفنيّ، ومتأمل صفحات تاريخ ابن حيان يمكنه أن يفتن لأول وهلة أنه تمثّل الأدب العربيّ قديمه وحديثه، شعره ونثره، تمثلاً لا يتهياً إلا لمن اقتصر عليه واتخذ حرفته وبضاعته<sup>(٣)</sup>.

لقد «أمدت هذه الثقافة ابن حيان بثروة لغوية كبيرة تجلّت في كتابته التاريخية، وفي ولعه بتقصي أخبار الأدباء والشعراء، واستكثاره من نصوصهم، وتتبعه لأخبارهم، حتى إنّ ما بقي من مؤلفاته يمكن أن يسلك في عداد كتب المختارات الأدبية»<sup>(٤)</sup>.

ولم يقتصر تأثير صاعد على ابن حيان في ناحية التلقي وتطوير المهارات اللغوية وتقوية قلمه الأدبيّ فحسب، وإنما من ناحية الإفادة من مؤلفه (الفصوص) في إغناء مادة مؤلفاته العلمية؛ إذ كان من أقدم من أفاد منه، وروى عنه، واقتطف منه بعض

---

(١) ابن حيان القرطبي، حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٤، من مقدمة المحقق ص ١٧.

(٢) الشكعة، مصطفى، أبو مروان بن حيان بين الأدب الإبداعي وأدب كتابة التاريخ، مجلة المناهل، الرباط، السنة ١١، العدد ٢٩، ١٩٨٤، ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٣) من مقدمة المقتبس، تحقيق مكي، ص ٢٠.

(٤) من مقدمة الدكتور محمود علي مكي، لتحقيق السفر الثاني من كتاب المقتبس لابن حيان القرطبي (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٣)، ص ٧٥ - ٧٦.

الحكايات التي أتى على ذكرها<sup>(١)</sup>.

وعلى الطرف الآخر، كان لتلميذ ابن حيان على يد صاعد وبشكل مباشر أثر كبير في نشر كتاب (الفصوص) وإفادته من جوانب عدة؛ فإليه «يعود فضل ذكر تاريخ بداية إملاء (الفصوص) ونهايته، وذكر كثير من أخبار شيخه التي نقلها ابن بسام، وابن بشكوال، وابن عذاري»<sup>(٢)</sup>.

ورواية ابن حيان كفلت له مكاناً بارزاً بين رواة اللغة والأخبار، ولعل ذلك يرجع إلى ندرة كتاب (الفصوص) بعد أن ألح في نقده والهجوم عليه كثير من أدباء قرطبة؛ فالذين لم يصدقوا ما وصف به خصوم صاعد كتاب (الفصوص)، كانوا يجدون في الرواية المنفردة عنه أو عن تلامذته ما يعوضهم عن مجالس الإملاء العامة؛ فابن حيان الذي قرأ (الفصوص) على صاعد منفرداً، يروي تلميذه ابن عتاب منفرداً، ليرويه ابن عتاب هذا بعد ذلك تلميذه ابن خير منفرداً، كما يتضح من قول ابن خير متحدثاً عن كتاب (الفصوص)<sup>(٣)</sup>.

وتتجمع الشواهد التي تشير إلى دور ابن حيان القرطبي في رواية كتاب (الفصوص) لصاعد البغدادي؛ ففي ترجمة الفقيه الأجل صاحب الشورى أبي محمد عبد

---

(١) ابن حيان القرطبي، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ)، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، القسم الثالث، تحقيق ملشور م. أنطونية، (باريس: ١٩٣٧)، ص ١٤؛ البغدادي، أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي (ت ٤١٧هـ) كتاب الفصوص، تحقيق عبد الوهاب التازي سعود، (المغرب: ١٩٩٤). الفصل (٣٧٣)، ج ٤، ص ٨٣ - ٨٤؛ وينظر كذلك: ابن بسام، الذخيرة، ق ١ ج ١، ص ٧١ - ٧٢؛ سعود، صاعد البغدادي، ص ٦٨.

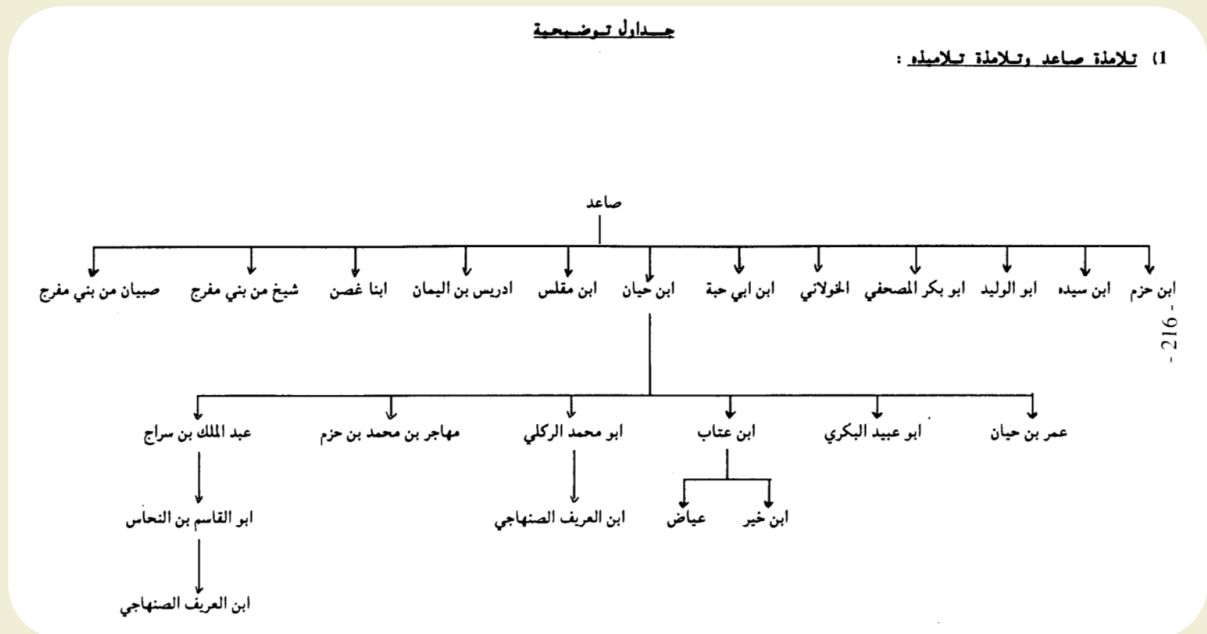
(٢) سعود، صاعد البغدادي، ص ٢٠٣ - ٢٠٤؛ مقدمة مكي للمقتبس ص ٤٦ - ٤٧، وينظر في الصفحات ذاتها التلاميذ الذين رَووا الفصوص عن ابن حيان؛ ويراجع كذلك ص ٢١٣ وما بعدها.

(٣) الأشبيلي، ابن خير (ت ٥٧٥هـ)، فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، (تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٩)، ص ٤٠٤؛ ورأي محمود علي مكي أن النسختين المخطوطتين للكتاب في المغرب الأقصى (من رواية ابن حيان الذي لم يعد في الأندلس من يقرئ هذا الكتاب سواه) من مقدمة المقتبس، ص ٤٦ - ٤٧؛ وكلامه قد طباعة كتاب الفصوص بطبيعة الحال.



الرحمن بن محمد بن عتاب بن محسن الأموي يرد القول: «وكلُّهم أجازَ له حاشي أبي مروان بن حيان التاريخي فإنه إنما أجازَ له كتاب (الفصوص) لصاعد بن الحسن اللغوي حدثه به عن صاعد»<sup>(١)</sup>.

أما إملاء (الفصوص)، فيظهر لابن حيان كذلك دورٌ في هذا المجال؛ فعلى الرغم من شهرة هذا الكتاب وتعدد المصادر التي ذكرته، نلاحظ أن المصادر التي تحدثت عن إملاء صاعد لمؤلفه هذا جدٌ قليلة؛ فالحديث عن هذا الإملاء لم يرد إلا عند ابن حيان وابن بسام، وتعد معلومات ابن حيان أهم من ابن بسام لدقتها وصراحة دلالتها<sup>(٢)</sup>.



(١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام المحاربي الأندلسي، فهرس ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجنان، محمد الزاهي، ط ٢، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣)، ص ١٠٧ - ١٠٨؛ وينظر في الموضوع ذاته: ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ)، معجم أصحاب القاضي أبي علي الصديقي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٠، ص ١٦.

(٢) سعود، صاعد البغدادي، ص ٧٤ وما بعدها، والجدول ص ٢١٦؛ ومن المهم الإشارة إلى إن تأثير صاعد البغدادي على أهل الأندلس لم يقتصر على ابن حيان، وإنما أفردنا له اهتمامنا نظراً لخصوصية الدور وطبيعة العلاقة بين الاثنين، ويمكن الاهتمام بما أورده مؤلف كتاب صاعد البغدادي حياته وآثاره عبد الوهاب التازي سعود من أثره على ابن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، وأبي عبيدة البكري (ت ٤٨٧هـ)، ص ٢٠٤ وما بعدها.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر الأولية

- ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ):
- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، بيروت، دار الفكر للطباعة، ١٩٩٥.
  - معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٠.
  - الأشبيلي، ابن خير (ت ٥٧٥هـ)، فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، تونس، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٩.
  - ابن عطية، أبو محمد عبد عطية المحاربي الأندلسي، فهرس ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان، محمد الزاهي، ط ٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣.
  - ابن بسلام الشنتريني، أبو الحسن علي (ت ٥٤٢هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١.
  - ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم تحقيق بشار عواد معروف، تونس، دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٠.
  - البغدادي، أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي (ت ٤١٧هـ) كتاب الفصوص، تحقيق عبد الوهاب التازي سعود، المغرب، ١٩٩٤.
  - ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ)، رسائل ابن حزم الأندلسي: رسالة في فضائل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧.

■ الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (ت ٤٨٨هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف، ومحمد بشار عواد، تونس، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٨.

■ الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠.

ابن حيان القرطبي، حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ):

■ المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٤.

■ السفر الثاني من كتاب المقتبس، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٣.

■ المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، القسم الثالث، تحقيق ملشور م. أنطونية، باريس، ١٩٣٧.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ):

■ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حققه وضبط نصه وعلق عليه: د. بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣.

■ سير أعلام النبلاء، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي وآخرون، ط ٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.

■ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ٢٠٠٠.

- الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر (ت ٥٩٩هـ)، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧.
- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣هـ)، تأريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف، تونس، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٨.
- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، بيروت، دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٢.
- المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨.

### ثانيًا: المراجع الثانوية

- أمين، أحمد، ظهر الإسلام، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣.
- بالنثيا، أنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، الهيئة المصرية العام للكتاب، ٢٠١١.
- السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٠.
- سعود، عبد الوهاب التازي، صاعد البغدادي حياته وآثاره، المغرب، ١٩٩٣.
- طه، عبد الواحد ذنون، دراسات أندلسية، بيروت، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٤.
- هونكة، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال

دسوقي، ط ٨، بيروت، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٣.

### ثالثًا: المجلات والدوريات

- الدقاق، عمر، أبو علي القالي وكتابه الأمالي، مجلة التراث العربي، ع ١٢٣-١٢٤، دمشق، ٢٠١١.
- السامرائي، خليل إبراهيم، أثر العراق الحضاري على الأندلس في القرنين الثاني والثالث للهجرة (١٠١ - ٣٠٠هـ / ٧٢٠ - ٩١٢ م)، مجلة المؤرخ العربي، م ١٢، ع ٢٧، بغداد، ١٩٨٦.
- شكر، هدى نوري، رحلة الكتب المشرقية وأثرها العلمي في الأندلس، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، كلية الآداب، جامعة بغداد، م ١، ع ٧٦، ٢٠٢٠.
- الشكعة، مصطفى، أبو مروان بن حيان بين الأدب الإبداعي وأدب كتابة التاريخ، مجلة المناهل، الرباط، س ١١، ع ٢٩، ١٩٨٤.
- العلوان، أثير عبد الكريم صادق، مظاهر الحضارة العراقية وأثرها في المجتمع الأندلسي (٢٠٦ — ٣٦٦هـ / ٨٢١ — ٩٧٦ م) مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة / مركز دراسات البصرة والخليج العربي، م ٤٩، ع ٤٤، ٢٠٢١.
- الكبيسي، خليل إبراهيم، أبو علي القالي البغدادي وأثره بالفكر الأندلسي، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٥، بغداد، ١٩٨٤.
- مريقي، حمزة، الرحلات العلمية في الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، دورية كان التاريخية، ع ٣٢، س ٩، حزيران، ٢٠١٦.



# البَّارُونِي فِي بَغْدَادَ ذِكْرِيَّاتٌ وَحِكَايَاتٌ - بَيْنَ الْحَرْبَيْنِ الْعَالَمِيَّتَيْنِ -

محمد عَكْرَةَ النُّورِي  
باحث وكاتب ليبي

## تمهيد:

كانت الحملة الرومانية على ولاية طرابلس الغرب العثمانية في مطلع القرن العشرين (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) نازلة لم تعرف البلاد مثلها منذ أن دخلتها جيوش الفاتحين بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة ٢٣هـ، ولكنها ككل مصيبة يكتبها الله على عباده: لا تكون شرًّا محضًا، ولا بلاءً خالصًا، بل يجعل فيها سبحانه من المِنَح ما يربو على العَدِّ والحصر!

وكانت طرابلس الغرب طيلة قرون يفصلها عن المشرق والمغرب بيداء شاسعة موحشة، ودروب مخيفة خطيرة، إلى توالي فتنٍ وحروبٍ ونزاعاتٍ لم تبق مُلْكًا ولا ثراءً، فطواها التاريخ من أجل ذلك في غيابهاته، ولم يعرف الناس عنها مثل ما عرفوا عن جارتها الغربية تونس فضلًا عن جارتها الشرقية مصر، حتى جاءت هذه الحرب فسارت بأنبائها الرُّكبان، وسمع بها العالم، وشاع ذكر الطرابلسيين في كل محفل، وجرت

بمآثرهم الألسن، وصارت حربهم مضرب المثل في شجاعة العرب وبسالتهم، وإرهاب الأوربيين وسفالتهم.

ولما انقطع مدد العثمانيين، وأُبرمت اتفاقية الانسحاب في لوزان، وبُطل على إثرها الجهاد = تفرّق الطرابلسيون أيادي سبأ في العالم العربي والإسلامي، وحينها رأت الأقطار - التي استوطنوها - من كريم شمائلهم وطيب أرومتهم وسعة علمهم ما غاب عنها قروناً، وهكذا حفظت لنا كتب السير والتراجم في القرن الماضي عدداً ليس باليسير من أعلام طرابلس الغرب في العلم والأدب والسياسة، وما كان أكثرهم ليشتهر لولا هذا الشتات الذي عمّ شذاه عالمنا العربي طرّاً!

وكانت مدينة بغداد قد مسّتها نفحاتٌ من هذا الشتات، بيد أنه كان يسيراً، ولكنه - كما يُقال - قليل الكمّ كثير الكيف، فلم ينزل فيها عامة الطرابلسيين وإنما نفذ إليها وسكن في كنفها رجالاتهم الأكابر وقادتهم الأفذاذ، مثل: الأستاذ الفنّان محمد علي الحداد، والدكتور محمد كامل عياد عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، والزعيم سليمان باشا الباروني والي وقومندان طرابلس الغرب ومندوبها في مجلس المبعوثان العثماني<sup>(١)</sup>، وغيرهم من الأفاضل والأعيان، ولو أردنا تقصّي أخبارهم في بغداد، وضممنا إليهم كل الطرابلسيين الذين نزلوا في حاضرة العباسيين، ثم استطرّدنا في ذكر الصّلات العلمية بين القطرين = لجاء ذلك في سفرٍ ممتع، بدءاً من الإمام علي بن زياد الطرابلسي التونسي تلميذ الإمام مالك وخليفته وناشر مذهبه في المغرب الكبير<sup>(٢)</sup>، ولكني سأرجئ - مضطراً - هذا العمل

---

(١) سليمان باشا ابن الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني، ولد في جبل نفوسة بطرابلس الغرب سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م، من أسرة عريقة في العلم والإمارة والدين، تعاقبت على إمارة الإباضية في طرابلس الغرب طيلة ألف عام، وهو أمازيغي، وأصوله عربية، جدّه الأول من إباضية عُمان نزل بجبل نفوسة في القرن الرابع الهجري. وتأتي بقيّة ترجمته في مقالتنا هذه، وانظر إن أحببت سائر مصادر ترجمته في حاشية كتاب: "الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية" لزيكي مجاهد (٢٤٠/٢).

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض، (٣ / ٨٠) ط المغربية.

إلى حينه، وأعجل بكلمة عن "ذكريات الباروني في بغداد وحكاياته عنها" بين الحريين العالميتين، بمناسبة اختيار بغداد عاصمة للثقافة العربية لسنة ٢٠٢٦م.

وقبل الشروع لا بد لي من توفية الشكر الجزيل ونشر الشناء العطر للأستاذ عُمر السِنويّ على هذه الدعوة الكريمة للكتابة في مجلته عن مدينته، وعلى ما يبذله في خدمة علمائها وتنويهه بهم، شكر الله أياديه وأنجح مساعيه.

وهذا أوان الشروع في المقصود، ومن الله أستمّد العون:

### هجرة الباروني الأولى والثانية:

كان سليمان باشا الباروني قد تزعم ثلّة من قادة الجهاد في طرابلس الغرب الذين آثروا استمرار الحرب ورفضوا السلم أو الهجرة عقب انسحاب جيوش الدولة العثمانية من الولاية بموجب اتفاقية لوزان المُبرمة في آخر سنة ١٩١٢م، ولكن ما لبثوا أن هزمتهم الجيوش الإيطالية لنقص العتاد وقلة الزاد.

وهكذا أُجبر الباروني ورفاقه على الهجرة، ولم تكن هذه النهاية.. فبعدها بسنتين نشبت الحرب العالمية الأولى، وشاء العثمانيون استرداد ولاية طرابلس التي كانت آخر معاقلهم في شمال أفريقيا، فأرسلوا الباروني والياً على طرابلس الغرب، وكانت جولة ثانية من الجهاد الطرابلسي أُجبرت فيه جيوش روما على الانسحاب من جميع المدن التي أحرزوها سوى العاصمة طرابلس ومدينتين ساحليتين.

وأثمر هذا التقهقر للعدو قيام الجمهورية الطرابلسية سنة ١٩١٩م، ولكن كشأن العرب فقد دبّ الخلاف بين القادة، ونشبت الفتنة بينهم، حتى حصدتهم الجيوش الإيطالية حصداً، وتمّ لها بسط نفوذها على كامل الولاية من جديد في مطلع سنة ١٩٢٤م.

ولم يطق الباروني البقاء في ساحة الفتنة وردغة التنازع، فهاجر هجرته الثانية قبل الهزيمة الأكيدة إلى إستانبول وأنقرة، ولكنه دهش من التغير الشنيع الذي طرأ في عهد أتاتورك، فلم يطب له المقام في تركيا، وعزم الهجرة إلى الشام أو مصر أو تونس ولكنه وجد فرنسا وإنكلترا قد امتنعتا أشد الامتناع من دخوله مستعمراتهما، وهكذا ساح في أوروبا من طريق رومانيا، ثم سافر إلى باريس، وهناك وجدت فرنسا ضالتها، وألقى الباروني نفسه أسيراً.

وانقضت نحو سنتين وزعيم طرابلس لابت في عاصمة الفرنجة ومُحَلَّاً عن ورود أي قطر من الأقطار العربية<sup>(١)</sup>، وهي آنذاك -أكثرها- تحت وطأة الاحتلال الفرنسي والبريطاني، حتى سمع بمحنه أخيراً أمير الحجاز الشريف حسين الهاشمي، فمنحه رخصة السفر إلى الحجاز للحج سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م، وعارضته دول الحلفاء ولكنه أصرّ على استقدامه وافتكاك أسرهِ حتى تَمَّت على يديه هذه المَكْرُمة<sup>(٢)</sup>.

### الباروني في الحجاز وعُمان:

وفي يوم ٢٨ من ذي القعدة سنة ١٣٤٢هـ وطئ الباروني أرض الحجاز المقدسة، ولم يُطل المقام فيها، فبعد الحج يَمَّ وجهه تلقاء سلطنة عُمان.

وهناك في عُمان استُقبل الباروني استقبال الملوك الفاتحين، ونال من الحكومة والشعب الحظوة التامة، وكان ذلك لِيُخَفِّفَ عنه وطأة الوحشة والغربة لولا حُمى الملايا التي فتكت بالباروني وأهله، وفي ذلك يقول الباروني لصديقه أبي اليقظان: "طردت من المغرب إلى المشرق، والآن أُطرد بالملايا من المشرق .. فإلى أين؟!"<sup>(٣)</sup>.

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ص ١ / ١٨٥.

(٢) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ص ١ / ١٩٥.

(٣) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ص ٢ / ٨٠.

## الرحلة الأولى إلى بغداد:

كان الباروني قد قدم عُمان بعد أدائه الحج كما مرّ معنا، وما هي إلا بضعة أسابيع حتى تعاورته أسقام حُمى الملاريا، وبقي مُترنّحًا بين أنياب هذا المرض العُضال، يفتّر عنه حينًا ويلازمه أحيانًا، منذ مطلع سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م إلى أن اختاره الله إليه في أوائل سنة ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م.

وبعد خمس سنوات قضاها الباروني في أرض عُمان مُستشارًا لأمرائها ونديمًا لعلمائها، والمرض لا يَبرح يُعاوده = أشار عليه الأطباء بالخروج من عُمان حتى ترجع إليه عافيته، ويصحّ بدنه.

وكما لم يجد الباروني من قبل منفذًا يُخلّصه من أسر فرنسا إلا بوساطة الشريف حسين أمير الحجاز، فإنه لم يجد الآن منتجعا يُبلّ فيه من حُمى الملاريا إلا بشفاعة فيصل ابن الشريف حسين ملك العراق، وفي ذلك كتب أبو شبيب تقي الدين الهلالي قاصًا مكرمة فيصل ومحنة الباروني، يقول: "فلم يرَ أمامه أرضًا أليقَ بغرضه من العراق، فأجمع التوجّه إليها، ولكن حاكم الخليج امتنع عن الترخيص له في ذلك؛ لأنّ الزميلتين فرنسا وإيطاليا كانتا تمقتانه؛ لإخلاصه إلى قومه... فلجأ إلى فقيد العرب جلالة الملك فيصل الهاشمي، وأبرق إليه ذاكرًا له الحال، فبادرَ الملك فيصل إلى تلبية طلبه، ورأسلَ حاكم الخليج الفارسي -الإنكليزي طبعًا- في ذلك، فرخّص له بالسفر إلى بغداد، وكان في ذلك تفريج كربة هذا الزعيم، وشاء الله أن تُضمَّ هذه المكرمة إلى مكارم فقيد العرب التي لا تُحصى"<sup>(١)</sup>.

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر الله المحرم سنة ١٣٤٨هـ = ٣ تموز ١٩٢٩م،

---

(١) مقالٌ للهلالي، عنوانه: "من مناقب المغفور له فيصل الأول"، منشورٌ في "جريدة الجامعة الإسلامية"، يافا، السنة الثانية، العدد (٤٩٠)، الاثنين: ٢٧ ذي القعدة ١٣٥٢هـ = ١٢ آذار ١٩٣١م، (ص ٨).



بعث الباروني إلى صديقه أبي اليقظان رسالةً من بغداد، جاء فيها: "سيفحص كيمياوي المستشفى الملوكي اليوم دي ليتحقق العلة (وما هي إلا الملاريا والطحال)، وغداً أباشر استعمال الدواء، أما صحّتي بعد خروجي من مسقط ففي تقدّم سريع، وكأنني اليوم ما بي شيء ولا مرضت والحمد لله (لله هواء وحر عُمان، ما أشدها وأقساها على الغريب). والله إني إذا افكرت أنّي سأعود إلى عُمان أندesh وكأنني أرى نفسي قادمًا على يوم المحشر؛ لِمَا كنت أقاسيه من ألم مستمر وتقهر في صحي يومًا فيومًا، وعدم تلذذي بأي شيء من أكل وشرب ونوم، أما الآن فأجد والحمد لله كل شيء لذيذًا!"<sup>(١)</sup>.

وفي رسالة ثانية له إلى أحد أصدقائه واصفًا الحفاوة التي حظي بها في رحلته: "وصلت البحرين والبصرة ورأيت من رجالهما حفاوةً زائدةً، ثم وصلت بغداد فلقيت من أعيانها وعلمائها ورجال حكومتها إجلالًا واحترامًا وإكرامًا لا يُوصف، واستقبلني جلالة الملك ثاني يوم وصولي استقبالًا فائقًا في مجلسه الرسمي"<sup>(٢)</sup>.

وكانت هذه الرحلة الأولى رحلة علاجية سريعة لم تدم سوى شهرين، "وقد عادت إلّي صحّتي والحمد لله، إلا أن الأطباء حذروني من الرجوع إلى مسقط وعُمان"<sup>(٣)</sup>.

ولكن الباروني اضطر إلى مخالفة نصيحتهم، فعاد إلى عُمان عن طريق البصرة، وقد كتب وهو في البصرة لصديق له: "أحرّر هذا والسيارة واقفة لأقصد الباخرة المتوجهة إلى مسقط. صحي الآن في غاية ما يرام والحمد لله، وسأنظر هذه المرة: فيما الإقامة الدائمة في عُمان إذا دامت صحّتي، وإما هجرها بتائنًا إذا عاد ما كان بي!"<sup>(٤)</sup>.

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٧٨.

(٢) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٩٨.

(٣) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٧٩.

(٤) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٧٩.

## العودة إلى عُمان:

وما إن عاد الباروني إلى عُمان حتى عاوده المرض ... وبعدها بعامين في منتصف سنة ١٣٥٠هـ التأم شمل الباروني بابنه إبراهيم الذي كان مقيمًا في الإسكندرية، وبعائلته التي كانت ممنوعة من السفر في طرابلس الغرب، وما كادوا يصلون إليه حتى أصيب جميعهم بحمى الملاريا، واشتدّ عليهم المرض حتى اختلّ عقل إحدى بناته، فحينها أشار عليه الأطباء بوجوب الخروج بهم سريعًا من عُمان، فبعث بهم الباروني إلى بغداد وتحلّف هو عنهم، ثم لحقهم في شهر صفر سنة ١٣٥١هـ = حزيران ١٩٣٢م.

## زيارة بغداد الثانية:



المرحوم سليمان الباروني باشا باوصته الرسمية خلال إقامته ببغداد سنة ١٣٥٦

وفور وصول أسرة الباروني إلى بغداد بدأت صحتهم تتحسن، فأرسل الباروني ابنه إبراهيم إلى عُمان ينوب عنه، وبقي هو مع أسرته في بغداد صحيحًا مُستأنسًا.

ومرّ عامٌ بتمامه والباروني مُقيمٌ في بغداد، فجاءته من بعض أصدقائه رسالة يسأله فيها عن صلاته بعُمان، وعن سبب طُول مكثه في بغداد، فأجابه بقوله: "سألت عن علاقتي

بعُمان؟ هي باقية، وإني أعدهم بالرجوع عند الفرصة، والحقيقة أنني لا أقدر في الوقت القريب ما دمت في هذه الوضعية، فإنّي دُقت لذة الصحة والحمد لله، فلم يطرقني ألمٌ منذ دخلت بغداد، وكنت في عُمان أُلزم الفراش أسبوعًا على الأقل في

كل شهر من أشهر الصحة، أما أشهر المرض فقد تتوالى إلى ثلاثة أشهر حتى لا يبقى بي إلا العظم والجلد!"<sup>(١)</sup>.

ويتحدث الباروني عن بغداد هذه المرة أيضًا فيقول: "والحرُّ في بغداد وإن كان شديدًا لكنَّ وسائل الراحة متوفِّرة، والعنب والتفاح والبطيخ بأنواعه وغير ذلك كثيرٌ ورخيص، وهواء الليل البارد اللين قد يُنسي حرَّ النهار!"<sup>(٢)</sup>.

وتأبى البلايا إلا أن تتعاور هذا الزعيم الطرابلسي، وأن تقطع عنه لذة الراحة وطعم السكينة، فبعد عام ونصف من إقامته في بغداد آب الباروني إلى عُمان من أجل استقدام ابنه إبراهيم الذي عاوده المرض، وقد كتب في شهر رجب ١٣٥٢هـ وهو في البصرة قادمًا من عُمان إلى بغداد: "وقد تحقَّقنا أنَّ هذه البلاد (عُمان) ستقضي على أجسامنا وعقولنا معًا، والأمر لله ما شاء كان!"<sup>(٣)</sup>.

وفي بغداد سريعًا ما شُفي ابنه إبراهيم، "وذلك بواسطة دكتور طرابلسي رئيس المستشفى العسكري في بغداد، فإنه لما بلغه خبر وصولنا من مسقط، وما طرأ على إبراهيم من تغير المزاج والعقل؛ جاء وقَدَّم نفسه لمداواته مُتبرِّعًا لذلك، بارك الله فيه، فنجح علاجه والمنة لله!"<sup>(٤)</sup>.

ومكث الباروني هذه المرة في بغداد أربع سنوات، حتى سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م، فهاجر حينها بأهله إلى سلطنة عُمان وقد اشتدَّ به المرض، وهناك عيَّنه السلطان سعيد بن تيمور مستشارًا له.

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٨٥.

(٢) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٨٤.

(٣) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٨٧.

(٤) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٨٧.

وفي شهر ربيع الأول من سنة ١٣٥٩هـ = نيسان ١٩٤٠م، سافر الباروني برفقة السلطان إلى الهند، وهناك اشتدّ به المرض ولم يُمهله، فتوفي ودُفن في بُمباي<sup>(١)</sup>، وفي صباح يوم الأربعاء ٢٣ من ربيع الأول ١٣٥٩هـ = ١ أيار ١٩٤٠م جاء نعيه برقيًا إلى مقرّ الحكومة السلطانية بمسقط<sup>(٢)</sup>، وقد فاضت روحه الشريفة عن سبعين عامًا قضاهما في طلب العلم، ونشره، والذبّ عن أمته، والجهاد في سبيل الله.

### طرائف الباروني في بغداد:

كان يحوم حول الباروني أزمة اقتصادية خانقة من جراء التنقلات والأسفار والمداواة، وكان يستغني أثناء ذلك ويتجمل ويصبر صبرًا جميلًا، وكان بارعًا في التلطف وابتكار الحيل لاقتناء ألبسة القناعة والتعفف، وكان مثلاً بارزًا لأولئك {الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا}.

وقد قصّ الباروني على خواص إخوانه قصصًا من هذا القبيل، جمعت بين الفكاهة والعبرة، وفيما يلي نماذج منها:

"فكاهة حقيقة تحفظ للتاريخ:

١ - وصلتني ثلاث دعوات: ١/ لرفع الستار عن تمثال الملك. ٢/ عن تمثال السعدون. ٣/ لافتتاح حديقة الغازي (ولي العهد) في ٢٥ محرم، وأخرى لازمة بدون دعوة، لحضور استعراض الملك للجيش، وتقديم التهنئة له بيوم ولادته.

ولكون حضور الجميع مع بُعد الأمكنة يستدعي مصروفًا لا أقل من ٤٠ فرانك

---

(١) ثم نُقل رفاته من الهند ورفات الزعيم بشير بك السعداوي من لبنان إلى طرابلس الغرب سنة ١٩٧٣م، وأقيمت لهما جنازة عظيمة، ودُفنا متجاورين في مقبرة سيدي منيدر رضي الله عنه.

(٢) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٢٤٤.

أصبحت مُتمارضًا، ولما وصلت دعوة المأدبة وجبت الإجابة لأنها كانت لأخص الخواص لا حسب العادة، وكان الموجود الباقي من أجره البيت ربع دينار وروبية واحدة (٣٠ فرانك تقريبًا) حفظتها للطوارئ إلى أن يصل من إبراهيم ما يرسله آخر الشهر، فعزمت على المخاطرة بها في أجره السيارة، ومن حسن الحظ مرّ بي قصداً وزير الاقتصاد والمفتي في سيارته قبل الموعد بربع ساعة، فركبت معهما وربحت أجره الذهاب.

لكن - ونحن فوق المائدة - أفكر في كيفية الرجوع، فلما ودّعنا الملك خرج الجميع إلى بهوٍ يدخنون ويستعدّون لركوب سياراتهم، فخرجت إلى جهة السيارات، ومنها أطلقت العنان لرجلي في طريق الحديقة إلى الباب، وقطعت الجادة العمومية ووقفت حيث لا يصلني نور سراج سياراتهم، حتى مرت سيارة عمومية كالترام فركبتها، وحمدت الله على الريح. هذه حيلة مشروعة مستورة فيها ربح ولكنها لم تنجح في اليوم الثاني.

٢ - جاء إليّ في البيت عضو الأعيان الرئيس الكبير مولود باشا، ودعاني لحضور العشاء مع الوفد وبعض النواب ورئيسهم، فاحتلّْتُ: ركبنا السيارة العمومية إلى بغداد، وهناك ركبنا عربة فاخرة إلى البيت بأجرة زهيدة؛ لأنه قريب وفي أثناء الأكل صرت أفكر في كيفية الرجوع؛ لأن صاحب العربة ذهب لسبيله، وإذا كلفت خادم الباشا بالإتيان بعربة سيأتي بها على نيّة الوصول إلى الأعظمية وبدون أن يقول صاحبها، وبمناسبة الليل وعدم وجود عربات من الأعظمية ستكون الأجرة لا أقل من ربع الدينار المحافظ عليه، فرجحت أن أركب مع المفتي بوسيلة محادثته فيما كان يحدثني به وعند وصولنا الجادة الكبرى أودعه على أنني سأركب سيارة أو عربة، وكان ذلك، لكن عند خروجنا تحركت زوبعة أثارت التراب حتى أصبح الإنسان لا يرى يديه من الظلام، كما يجري كثيرًا في هذا الوقت في بغداد، فحاول أن يقنعني بأن يوصلوني إلى الأعظمية ويعودوا فلم أقبل، ونزلت، وظل التراب ينهال، والكسوة بيضاء محدّدة، وهي الوحيدة



وغيرها أسود.

فجاءت سيارة عمومية فركبتها على ما فيها من الازدحام، وبمناسبة الغبار والظلام طلب صاحبها الأجرة مضاعفةً فقبلنا، وهناك وجدت صديقاً من الموظفين سبقني فسبقته لأداء الأجرة عني وعنه، فصارت الأجرة الواحدة أربعاً، فقلت: لم تفلح الحيلة كالأمس.

وصلت البيت، ولما قمت في الصباح لألبس الكسوة وأخرج وجدت ظهرها أحمر بالاحتكاك بكروسي السيارة المملوء بالتراب، فاحتجت إلى ملازمة البيت هذا اليوم لتغسل وتحدد، فتضاعفت الخسارة ولم تفد الحيلة، ولُبس الأسود في الحرِّ غير مقبول<sup>(١)</sup>.

وبعد سماع هذه القصص الطريفة من الباروني كأني به وهو في ضيقه وشدّته يسير في شوارع بغداد وهو يتمثل بالأبيات الطريفة المشهورة للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي:

بغداد دارٌ لأهل المال طيبةٌ وللمفاليس دار الضنك والضيق  
ظلت حيران أمشي في أزقتها كأني مصحفٌ في بيت زنديق  
بيد أنها كربة لم تدم طويلاً، وكان للأسرة الهاشمية المالكة اليد الطولى في انفراجها.

### الباروني والأسرة الهاشمية:

كان للشريف حسين أمير الحجاز، وابنه الملك فيصل وحفيده الملك غازي ملكا العراق، أيادٍ بيضاء وصنائع جمّة على الباروني قد حفظها لهم ولم ينس شكرها.. فمن ذلك ما جاء في إحدى رسائله إلى أصدقائه في الجزائر، بعنوان: "مزايآ آل الحسين نحو آل الباروني"، وهذا نصّها:

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ١٠٠.

١ - إنّ الملك حسيناً كان السبب الوحيد في إنقاضي من البقاء في باريس، إذ سدّت الدول أمامي أبواب البلاد الإسلامية كلها، ففتح الملك حسين طريق مكة لما بلغه ذلك، فمررت من مرسيليا بثغور مصر فمُنعتُ من النزول فيها ووصلت مكة، وبعد الحج قصدتُ مسقط بتسهيل سلطانها السابق السيد «تيمور» وكان أنزلني ضيفاً مُكرماً عنده.

٢ - ولما أصبت بالملاريا وأردت الذهاب إلى كراتشي أو بُمباي للتداوي عارضتُ بريطانيا، فكتبتُ إلى جلالة الملك فيصل فأرسل في الحال الإذن بدخولي العراق، فجئتُ بغداد فنلت منه ومن حاشيته التّفاتا، وبعد التداوي رجعت لمكاني إلى عُمان فكان السبب الثاني لإنقاضي من الملاريا.

٣ - ولما جاءت العائلة من طرابلس وإبراهيم من إسكندرية وأصيبوا بالملاريا أعدتُهم إلى بغداد، ولما شُفي إبراهيم عاد إلى مسقط، وتكرّم السلطان الحالي السيد سعيد فعينّه في العُدلية.

٤ - ولما عاودته الملاريا بشدّة أذنتُ له الحكومة في الرجوع إلى بغداد للتداوي، وكان بحالة سيّئة اضطرّرتني إلى مصاحبته إلى بغداد.

٥ - ولما بلغ رجال الملك غازي خبر ذلك اهتمّوا بالمسألة فتكرّم الملك بتعيينه في دائرته الخاصة، فكان السبب الخامس في إنقاضي أنا من التعب، وفي إنقاذ إبراهيم من خطر الملاريا لو عاد مرّةً أخرى إلى مسقط. اهـ<sup>(١)</sup>.

وكان هذا كله، مع استبشار الباروني بقدم حفيده البكر من ابنه إبراهيم = مُقدّمات وإرهاصات لقرب حلول زمن الرخاء ورغد العيش، بعد طول المحل وشدة الفاقة. ويحكي لنا الباروني قصة انفراج أزمته، فيقول:

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ١٠٥.

"فعدتُ إلى البيت مساءً... ونفسي تُحدّثني بأن الشدة بلغت منتهاها؛ ولعل الفرج قريب، ولما دخلت البيت، قيل لي: إن على المكتب رسالة جاءتك من البلاط، فظننت أنها دعوة إلى حفلة أو ضيافة رسمية، وقد مللت هذه الدعوات لِمَا يترتب عليها من نفقة البيت أحوج إليها، كأجرة سيارة ذهابًا وإيابًا، وغير ذلك مما لا طاقة لي على الدوام عليه.

لكن وجدتها من ناظر الخزانة الخاصة، يقول فيها: إنه تلقى من جلالة الملك إرادة في تخصيص ١٥ دينارًا (١٥٠٠ فرنك تقريبًا) مرتبًا شهريًا لنا، فحمدت الله على فتحه باب خيرٍ ما كان يخطر ببالي قط، في وقتٍ شدّةٍ ما كنت أظن أنها تهون بسهولة، ولكن الذي أمره بين الكاف والنون قال كن فيكون في لحظة، سبحان الفعال لما يريد...

أما رئيس الوزارة فهو حكمة سليمان، الذي كان السبب في هذا، وهو أخو محمود شوكت باشا الصدر الأعظم ووزير الحرية العثماني، وكان يُجلّني كثيرًا، وكان أخوه هذا يسمع منه الثناء عليّ كثيرًا فلم يُقصر هنا في إظهار احترامي في كل مناسبة، ولما وقع هذا الانقلاب ووُيِّئ رئاسة الوزارة بادر باقتراحه هذا على الملك، والمأمول غيره إن شاء الله.

ونحن هنا لا ندّخر وسعًا لأن نسجل ثناءنا العاطر على أريحية جلالة الملك العربي الإسلامي، وعلى مروءة وشهامة رئيس وزارته، ووزير الحرية، ورئيس أركان الحرب بكر صدقي باشا قائد هذا الانقلاب وعضد رئيس الوزارة القوي، خلد الله ملكهم لإعزاز الإسلام وإعلاء كلمة الله. ونعدُّ هذه سادسة مبرّات آل الحسين لآل بارون كما تقدم<sup>(١)</sup>.

### أعمال الباروني في بغداد:

لما اجتمع الباروني بأهله في بغداد، وانفرجت عنه الضائقة، وصار عنده فضلة مال، أرسل إلى عُمان مَنْ يأتي له بصناديقه الأربعة المحتوية على أوراق حرب طرابلس، وكان في نيته أن يصنف كتابًا في تاريخ الحرب الطرابلسية الإيطالية، وفي ذلك يقول الباروني

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ١١٢.

في إحدى رسائله: "أسافر إلى عُمان بعد سفر إبراهيم لآتي ببقية الكتب، وأصفي أموري التي هناك، وأعود لأستأجر على ترجمة رسائل ومقالات فرنسية وإيطالية وإنكليزية تتعلق بحرب طرابلس، لأنقل منها المهم في التاريخ، وكان فراغ اليد معطّلاً ترجمتها والشروع في التدوين، أما ما يمكن الحصول عليه من ثمن بقية الكتب<sup>(١)</sup> فسأخصه لطبع التاريخ، والله المعين"<sup>(٢)</sup>.

ويقول في موضع آخر: "وأتمنى أن يمن الله عليّ باستراحة البدن والقلب، فأكتب تاريخ حرب طرابلس من سنة ١٩١١ إلى ١٩١٩م، مدللاً بالحجج الرسمية، حتى ينكشف الغطاء عن كل ما كتبه أصحاب المقاصد أو زادوه مما لا أصل له ... ما أخّرني عن المباشرة في جمع التاريخ إلا وجود وثائق الحرب الأولى ١١ - ١٣ ووثائق ما جرى في السلموم في أوائل الحرب الكبرى في صندوق بقي في إستانبول، ولا يمكن جلبه بسهولة، ويحتاج إلى مصروف كبير ... وعلى كل حال فكأنّ عقد الصدمات قد انتهى، وسقطت حبّته الأخيرة بقضية الصناديق الواردة من مسقط في الأسبوع الماضي، وهي أنه قبل أن يصل إبراهيم المستشفى رأيت أنّ حالته في ازدياد، وأنه لا تمكّني مفارقة بغداد، فأرسلت في طلب الصناديق الأربعة المحتوية على أوراق حرب طرابلس في الحرب العامة، فأرسلت ... ووصلت أمس البيت، وقد اجتمعت الآن مواد التاريخ الأصلية، ولولا اشتغالي بإبراهيم لباشرت التدوين"<sup>(٣)</sup>.

وقد شرع الباروني في هذا العمل الجليل ولم يتمّه؛ ليتوالى أسفاره، ومرض ابنه إبراهيم. ثم لعذر آخر أيضاً، شرّحه الباروني في رسالة له إلى صديقه الحميم أبي اليقظان، مؤرخة في ٦ جمادى الثانية ١٣٥٥هـ = ٢٣ آب ١٩٣٦م، قال: "فإذا قدّر الله لي الاستراحة عملت

(١) بقية كتب مطبعته "الأزهار البارونية" في مصر.

(٢) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ١١٣.

(٣) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ١١٤ - ١١٥.

ما بقي من عمري إن شاء الله، حيث أجد راحتي ويسهل عليّ إتمام التاريخ الذي عرقل الشروع فيه ترجمة ما يلزمي للاستشهاد به ممّا كتبه مخبرو الصحف الإنكليزية والفرنسية والإيطالية، وهذا إنما يتأتّى لي في تونس أو الجزائر أو مصر لوجود المترجمين، أما هنا فلا يوجد إلا بعض من يترجم الإنكليزية ترجمةً لا أعتمد عليها في التاريخ خوف التكذيب والانتقاد<sup>(١)</sup>.

وفي بغداد ساند الباروني (جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بدمشق) برئاسة الزعيم بشير بك السعداوي في معاركها القلمية ضد الاحتلال الإيطالي، بما كان يكتبه في جرائد العراق والشام ومصر وتونس والجزائر من نصرة قضية وطنه المغتصب، والدعوة لمقاطعة الدولة الإيطالية التي كانت لها قناصل قائمة وتجارة رائجة في عواصم العالم العربي والإسلامي.

### الباروني وأعلام العرب في بغداد:

صِلَاتُ الباروني بأعلام العرب قديمة، فهو صاحب جريدة "الأسد الإسلامي" ومطبعة "الأزهار البارونية" اللتان كانتا تصدران في القاهرة قبيل الاحتلال الإيطالي، وهو عضو مجلس المبعوثان العثماني ١٩٠٨م، وكانت وظيفته الرفيعة هذه في إستانبول، وإقامته من قبل في القاهرة محرراً لجريدته ومُديرًا لمطبعته = قد صنعت له شهرةً وصِلاتٍ واسعةٍ مع أعلام عصره، ثم ازدادت مع جهاده المشهود، ورحلاته المتعدّدة، وهجراته المتكرّرة، ومقالاته الذائعة.

ولما نزل الباروني مدينة بغداد اجتمع بأعلام كبار من العراق وغيرها:

[١] ولعل أول عَلمٍ اجتمع به الباروني في رحلته الأولى إلى بغداد سنة ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م: الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، ويحكي لنا الباروني قصة هذا اللقاء في

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ١١٥ - ١١٦.



إحدى رسائله، فيقول: "ورأيت من عناية صديقي الأستاذ الثعالبي بي ما لا يُقدَّر، فقد كان على سفر من مدة شهر وما تأخر إلى اليوم إلا لأجلي، وسيسافر اليوم إلى طهران لتبديل الهواء، وكانت الضيافة عنده ثاني يوم وصولي، حضرها جملة من أكابر ورجال حكومة وعلماء بغداد، وكانت بعده عند رئيس ديوان الملك، وبعده عند سفير مصر، وبعده عند مفتي بغداد وإمام مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني"<sup>(١)</sup>.

[٢] ومفتي بغداد وإمام مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني آنذاك هو الشيخ الفقيه قاسم القيسي (١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م)، صاحب كتاب: "الزهر اللطيف في مسالك التأليف"، وغيره من المصنفات الفريدة النافعة، وكان من أصدقاء الباروني وندمائه في بغداد كما تُفصح لنا بعض رسائله المتقدمة.

[٣] أما سفير مصر فهو الزعيم العربي والمجاهد الفذ: عبد الرحمن عزّام، وقد كان ضمن جند الإمام أحمد الشريف السنوسي في حملته على العساكر الإنكليزية في غربي مصر سنة ١٩١٥م، ثم هاجر إلى طرابلس الغرب وشارك زعماءها في جهادهم بالتدبير والمشورة، فكان مستشار زعيم مصراتة: رمضان السويحلي (ت: ١٩٢٠)، ومستشار الجمهورية الطرابلسية، ولما خمد الجهاد وتغلّب العدو رجع إلى مصر، وعُيّن بعدها سفيراً لدولته في عواصم عربية وإسلامية مختلفة، ولما أنشئت جامعة الدول العربية اختير عبد الرحمن عزّام أول أمين لها.

وكانت بينه وبين بعض زعماء طرابلس الغرب وبرقة خلاف وخصومة وتنافس، ومنهم الباروني الذي كتب عنه عدة مقالات في الجرائد آنذاك، ولكنه ما إن نزل بغداد حتى تبدّد خلافهما العارض وحلّ مكانه الوداد والألفة. يقول الباروني في إحدى رسائله: "قد تجددت المساعي للحصول على الإذن إلى مصر بواسطة وزير مصر هنا (عزّام بك)

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٩٩.

الذي عاد صديقًا بعدما جرى بيننا ما قرأتموه!"<sup>(١)</sup>.

[٤] وكما شهدت بغداد لقاء الباروني وعزّام، وذهاب الخلاف العارض بينهما، فإنها كذلك شاهدت نضوب المحبة واستحكام الجفاء بين سليمان باشا الباروني والأمير شكيب أرسلان، ففي أخريات إقامة الباروني ببغداد وقعت مساجلاتٌ سياسية بينهما، بسبب حديث شكيب عن إنجازات موسوليني، وسياسة روما، وموقف المشاركة اللازم من احتلال فرنسا وإيطاليا بلدان المغاربة، حديثًا ظنّه الباروني خيانةً وطعنةً في الظهر ورجوعًا لشكيب عن مواقفه الشريفة السابقة، وكان الباروني قد اتخذ مجلة "الرابطة العربية" لأمين سعيد منبرًا له، أما شكيب فكان منبره جريدة "الشباب" التي يديرها ويحرّرها يومئذٍ صديقه المقرب محمد علي الطاهر، وقد طال تراشقهما بالمقالات اللاذعة أكثر من نصف عام (١٣٥٦ - ١٣٥٧هـ / ١٩٣٧ - ١٩٣٨م)، ودخل بينهما أكثر من وسيط ومُصلح حتى هدأت العاصفة، وتسامح الطرفان.

وفي خضمّ هذه المعركة انهمرت على الباروني سيول من الزيارات واللقاءات بسبب مقالاته، وفي ذلك يقول لصديقه الجزائري أبي اليقظان: "بعد المقالات والمحاضرات كثر زوّارنا من عليّة القوم الذين لم يسبق التعرف بهم"<sup>(٢)</sup>.

[٥] وصادف وجود الباروني في مدينة بغداد لقاءه (في شهر محرم سنة ١٣٥٢هـ) بوفد المؤتمر الإسلامي وهو في طريقه إلى الهند لجمع التبرعات لكلية القدس، وعلى رأس الوفد السيد أمين الحسيني مفتي القدس، "وقد نال وفد المؤتمر من جلالة الملك إذ ذاك حفاوةً فائقةً وإكرامًا عربيًا، وكان من بين ضيوف البلاط الملكي الكرماء سعادة الباروني باشا. فقد نوّهت جريدة (الأهالي) الغراء الصادرة في ٢٦ محرم ١٣٥٢ بهذه المأدبة

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٩٧ / ٢.

(٢) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ١١٨ / ٢.

الفاخرة، تحت عنوان (في البلاط) قائلة: "جاءنا من ملاحظة المطبوعات للنشر: تناول مساء أمس طعام العشاء على المائدة الملكية في البلاط الملكي العامر أعضاء وفد المؤتمر الإسلامي العام، وقد حضر المأدبة فخامة رئيس الوزراء، وأرباب المعالي زملاؤه، وسماحة رئيس مجلس الأعيان، ومعالي رئيس مجلس النواب، وبعض الشخصيات البارزة، منهم: معالي الحاج جعفر جلبي أبو التمن، وسعادة سليمان باشا الباروني، وكان أعضاء وفد المؤتمر الإسلامي موضع التفات صاحب الجلالة ورعايته الكريمة"<sup>(١)</sup>.

[٦] وفي بغداد أيضًا يتلقّى الباروني رسالةً من أحد أحفاد السلاطين العثمانيين، فتثير كوامن أحزانه وتجدد عليه حسراته، يقول الباروني في رسالة مؤرخة يوم ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣هـ: "تلقيت رسالةً من أحد أمراء آل عثمان الساكنين في الشام، يصف لي ما هم فيه من البؤس والشقاء، وأنه عَزَمَ على التوجّه إلى الشرق والزنجبار لاستجداء ما يسدُّ به رمق عائلته، وطلب منّي كتاب توصيةٍ وتعريفٍ به إلى سلطان زنجبار وغيره ممن أعرفهم، فذكرني أيّامًا تناسيتها ورثيت لحالهم، والأمر لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا رادّ لقضائه، والسلام"<sup>(٢)</sup>.

### الباروني وشيعة بغداد:

كان الباروني ينتسب إلى مذهب الإباضية كسلفه منذ القِدَم، بيد أنه كان رجلًا حكيمًا بصيرًا بواجبات عصره وواقع زمانه، فلم يشغل نفسه بالخلافات المذهبية، ولم يتعصّب لجماعته، بل كان وكده دائمًا الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وقد شغله جهاد المحتلين ومقارعة الصليبيين عن الخصومات والنزاعات الطائفية.

ولهذا نجده يغشى بعض مجالس الشيعة في بغداد ولا يتحاشى حضورها مع خلافه

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٩٩.

(٢) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، أبي اليقظان الحاج إبراهيم، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، ٢ / ٨٨.

العميق معهم، وهذا نصّ نفيس للباروني أحببت أن أختم به البحث، وهو قيدٌ لما شاهده في محلة الكاظمية بالكرخ في بغداد، من تمثيل رواية مقتل الحسين رضي الله عنه وعن أهل بيته الطاهرين الطيّبين، وكان ذلك في يوم عاشوراء سنة ١٣٥٢هـ = ٤ أيار ١٩٣٣م، وقد قارن الباروني بين ما مثّلته المسرحية من البلاء الذي نزل على السبط الشهيد في كربلاء، وبين ما شاهده الباروني عياناً من أهوال وقائع الحرب الطرابلسية، وحديث الباروني هذا من بواكير ما كُتب في هذا العصر عن الحسينيّات الشيعية.

وقد مزج الباروني في مقالته هذه بين ما شاهده في تمثيلية بغداد، وبين ما شاهده حقيقةً في طرابلس من أهوال الحرب، ورأيتُ أن أقصر على الجانب الأوّل خشية الإطالة. وهذا نصّه:

#### وقفة في الكاظمية يوم ١٠ محرم سنة ١٣٥٢هـ<sup>(١)</sup>

لم أشاهد تمثيل رواية استشهاد الإمام الحسين سبط رسول الله عليه السلام إلا مرّة واحدة في مصر، كنتُ واقفاً فيها عند مرور الموكب بشارع الموسكي قبل نحو ثلاثين عاماً، وإذ بلغني أنّ التمثيل يكون تاماً ومؤثراً في الكاظمية أكثر منه في مصر قصدتُ جامع الكاظمية العظيم صباح يوم ١٠ محرم، وكانت المواكب تتجمّع من الجهات، فاندمجتُ في موكب الأعظمية إلى أن دخلتُ ساحة جامع الكاظمية الواسعة الأرجاء، وبقيت أدور مع الموكب في دورانه حول الجامع، وهنالك شاهدت مناظر غريبة، وأشكالاً

---

(١) كتبها الباروني وأرسلها إلى جريدة "الجهاد" ولا أدري أنشرتها الجريدة أم لا؟ وقد أرسل الباروني صورة منها إلى صديقه الجزائري أبي اليقظان الحاج إبراهيم، فأثبتها في كتابه "الباروني في أطوار حياته" (١ / ١١٥) وأنا نقلتها عنه، وتوجد نسخة أخرى من هذا المقال في "ملف الباروني" في المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، ضمن أوراقٍ مرقومةٍ بالآلة الكاتبة.

وفي بعض ما شاهده وذكره الباروني إسفاف، وتدجيل، وتزوير للتاريخ، وبثٌ للأحقاد، لم أشأ نقضه كما لم يشأ الباروني، ولكل مقام مقال.

مؤثرة، وأنواعاً من التمثيل نُفِثَت الأُكباد كأنّها حقيقية.

ظَلَّت أبواب ساحة الجامع تتدفّق بالناس حتى غدت السطوح مرصّعةً بآلاف النساء، واكتظت الساحة بالرجال حتى قَدَّرَ بعض المخمّنين عدد الحاضرين بأكثر من خمس وعشرين ألف نسمة، وعادت الساحة على سَعة أرجائها كرمانة أو صندوق كبريت تلاصقت أعواده ينتظرون ساعة تمثيل المجزرة الشنيعة، وقد صوّبت الشمس أشعتها على الرؤوس كالسّهام والجميع واقعون كأنهم في جبل عرفات؛ لأني لم أشاهد مثل هذا الاجتماع حول الكعبة المشرفة في أيام الحج؛ لأنّ الحجاج غير مقيّدين بساعة معلومة للطواف، وقد اشتدت حماسة المواكب الدائرة بأنواعها، وامتلاً الجوُّ بالأعلام الكبيرة البيضاء والسوداء والحمراء والخضراء والصفراء، وفي ذلك الأثناء دارت فوق الجامع (وساحته كما وصفنا تموج كالبحر المضطرب) طائرة كبيرة، ولاشك في أنّها التقطت صورة ذلك المجتمع العظيم بآلة التصوير ليطلع عليها من لم يشاهده!



[جامع الكاظمية سنة ١٩٣٥م]



وكنْتُ قد دُعيت إلى الغرفة من طرف سعادة السيد باقر تشريفاتي جلالة الملك،  
إذ رآني واقفًا.

ولما دَقَّت الساعة المنتظرة ظهرت من وراء الجامع طلائع الجيوش على خيل عربية،  
لباس عربي أحمر وعمائم فوق خوذ حديدية، وعليهم الدروع الحديدية العتيقة،  
متقلدين السيوف، وبأيدي بعضهم دبابيس الحديد أو التروس، ووراءهم جند المشاة  
ببزة حمراء بقسيهم ونبالهم وسيوفهم، تتقدمهم الأبواق الطويلة والطبول ذات الصدى  
القوي، فشَقُّوا لأنفسهم طريقًا بين تلك الجماهير المترابطة إلى أن وصلوا المنبر، فارتجَّ  
المكان بأهله، وصعد ممثل القائد السِّفَّاك المنبر واستل سيفه وصاح مهددًا قائلاً ما  
خُلاصته: "إنه إنما جاء ليسقي سيفه هذا من دم الحسين، وأنه وأتباعه الذين جاؤوا  
ليعيشوا بالملك، وأنه وإن كان يعلم أنه سيقُتل ابن بنت رسول الله فإنه يستسهل ذلك في  
جنب رضا أميره وتنفيذ رغبة سيده ومولاه". فعلا عند ذلك الضجيج والبكاء من كل  
الأطراف خصوصًا طرف النساء.

ولما نزل، وصل مُمثِّل الحسين في طائفة من آله، لابسين خوذًا حديدية ودروعًا كذلك،  
مُتعمِّمين بعمائم خضراء فوق خيل عربية، مُتقلِّدين سيوفهم وعلى وجوههم الوقار  
والكآبة معًا فتضاعف الضجيج، وما كادوا يقفون فوق المنبر حتى انهالت عليهم النبال  
من طَرَفِ العدو، فأذِنَ المؤذِّن وتقدَّم مُمثِّل الحسين فصلَّى بجماعته، وواحدٌ من أتباعه  
واقفٌ أمامه يتلقَّى النبال بصدرة ومجبته التي نشرها يمينًا وشمالًا بيديه، ثم قاموا يُودِّع  
بعضهم بعضًا الوداع الأخير، وكان المنظر مؤثرًا يذيب الجُماد، فامتطوا خيولهم وجردوا  
سيوفهم وتقدَّموا واحدًا واحدًا إلى ميدان المعركة، واشتبك الجمعان، وجالت الخيل،  
ووقع التصادم، والسيوف تلمع والسَّهام تتناثر في الجو كالجراد المنتشر (لكنها لا تضرُّ  
كأنها من ورق)، وأصوات الأبواق والطبول وصراخ الباكين بكاءً حقيقيًا تصمُّ الأذان،

وظَلَّ الفريقان بين كرٍّ وفرٍّ برهة من الزمن إلى أن تَرَدَّى مُثَلَّ الحسين وأعوانه وقُضي عليهم أجمعين.

فعاد القائد السَّفَّاء ووراءه الفُرسان والرجال والطبول والأبواق، فصعد المنبر وأعلن انتصاره وقتله الحسين وآله وسَبَّيه للذراري والنساء، وأنه راضٍ بأن يكون من أهل الجحيم بهذا العمل في مُقابلة رضا أميره وسيّده عليه.

لا يسأل القارئ عَمَّا جرى إذ ذاك من البُكاء والتَّحبيب من كُلِّ الجِهات، فلا يسمع إلا: "وا إماماه.. وا حُزناه.. إلخ".

عند مشاهدي هذا المنظر الرهيب خطر ببالي ما كنت قرأته من وصف الواقعة المشؤومة في التاريخ المطابق لما جرى من التمثيل تقريبًا، وتذكرت وقائع المجاهدين في وطننا طرابلس الغرب مع الإيطاليين...

ثم بلغ خبر الفاجعة إلى آل الحسين الباقيين في مُحْيَمهم الذي تمثله خيمة نُصبت في الساحة وحولها الجمال والهواذج، فقامت المناحة الكبرى، وكان مئات من جنودِ عُرّة الصُّدور حول الخيمة، فصَبُّوا عليها وعلى من فيها وما حولها نَفْطًا، وأوقدوا فيها النار فالتهمت وصعد دُخانها الأسود إلى عَنان السماء كأنَّ بُرْكانًا انفجر، وعلت ألسنة النار فانهالت جُموع الناديين عليها، وظلُّوا يطوفون بها وهم يدقُّون صدورهم، ويلطمون وجوههم، ويحُثُّون التراب والرماد على رؤوسهم، ويدوسون النار بأرجلهم كأنهم لا يشعرون، وعمَّ الهرج والمرج المكان، فكأنَّ القيامة قد قامت أو نُفخ في الصُّور وبُعث مَنْ في القبور!!

أما النساء فكدن يسقطن من فوق السطوح لاضطرابهنَّ من هول المنظر المخيف، وقد ارتفعت أصواتهنَّ بالبكاء.

فعند مشاهدتي ذلك خطرْتُ ببالي وقائعٌ كثيرةٌ كبيرةٌ كانت للمجاهدين مع الإيطاليين في عين زارة وسوق الجمعة حول مدينة طرابلس، وفي صرمان وقصر بوكماش عند حدود تونس، في حرب ١٩١١ - ١٩١٢م، وفي المشاشطة والزاوية وسواني ابن آدم والعجيلات وغيرها في حرب ١٩١٦م وما بعدها.

فإن الإيطاليين كانوا في بعض هذه الوقائع إذا زحزحونا عن مراكزنا يوقدون النار فيما نتركه من الخيم ومساكن الخشب والحطب؛ لإرهابنا وإدخال الرعب في المنهزمين حتى لا يفكروا في الكَرَّة عليهم، لكنهم طالما انهزموا ثم أعادوا الكَرَّة عليهم بإذن الله.

وبعد أن احترقت خيمة مُثِّل الحسين أتي بالأولاد الصغار مُصَفِّدين بالحبال إلى القائد السَّفَاك، وهو على المنبر، فبطش بهم، وكان يقبض الواحد منهم من ذراعه ويرفعه في الهواء كالريشة ويضرب به الأرض، فيخيّل للناظر أن رقبة الطفل قد اندقت وأن ظهره قد قصم، ثم مَثَّل ذبحهم بالخنجر وتركهم يتخبّطون في دمائهم، وكانت نار الخيمة إذ ذاك قد خمدت، فأمر أن تُعرض عليه الأسارى والسَّبايا فسيقت الهوادجُ على الحِمال مارَّةً أمام المنبر، وتبعتها جثث القتلى محمولةً على الأكتاف تُمثِّل الحسين والشهداء، ولا يشك الناظر في أنها جثث موتى حقيقية لإحكام المُمَثِّلين عملهم فيها، إذ يشاهد رجلي الجثة مكشوفتين مُحَضَّبَتين بالدماء (صبغ أحمر)، وباقي الجثة مُغَطَّى بثوب أبيض مُحَضَّب أيضًا بالدم، وعند الرأس عنق شاة أو شيء عمل على شكلها ظاهر من تحت الثوب كأن الرأس قد قطع بدون شك .

فمرّ هذا الموكب المرعب بمنظره البشع -الذي يجعل الفؤاد يتفطر دمًا- بين نخيبٍ وعويلٍ وشقٍّ جيوبٍ ولطمٍ وجوهٍ وجرحٍ خدودٍ، وصياحٍ بـ(وا إماماه، وا حسينا، وا حزناه، وا ويلاه)، حتى من بعض الذين كانوا معنا في الغرفة ومن لا بسي السدارة والبنطلون، ومن مخلوق الأذقان إلا السيّد باقر بك تشريفاتي جلالة الملك، والسيّد أحمد المُتَعَمَّم أحد

أعضاء مجلس النواب، فإنني لم أسمع لهما حسًا، وكانا على يميني وشمالي، كأنهما ألقا هذه المناظر فلم يبق لها تأثيرٌ عليهما.

أما أنا -والحق يقال- فقد امتلأت عيناى دموعًا -رغمًا عن كوني لا أعلم أنى بكيت عند وفاة أقاربي، من والدي إلى أولادي، ولا نزلت منى دمعَةً واحدةً فى أشد المَحَن التى لاقيتها فى الانهزامات الشنيعة والدقائق الحرجة- وذلك لبشاعة المنظر، ولجَولان فكرى إذ ذاك فى كثير من الوقائع الطرابلسية الإيطالية...

على هذه الصورة خُتِمت رواية استشهاد حفيد المصطفى عليه السلام.

وعلى تلك الصورة المشابهة لها خُتِمت الحرب الطرابلسية الأولى سنة ١٩١٣م، لكنها تجددت فى سنة ١٩١٤م، وأخذ الطرابلسيون ثأرهم تامًّا، وإن انتقم الطليان لأنفسهم أيضًا بعد ذلك، والحرب سجال، وما طَلَّ دَمٌ وراءه رجال.

أما سبط الرسول فقد هُدرَ دَمُهُ، ولم يبق بعده إلا لطم الخدود وشقّ الجيوب على غير جدوى. والله الأمر من قبل ومن بعد.

١٢ محرم ١٣٥٢هـ

سليمان البارونى



# وَقَائِعُ بَغْدَادٍ

فِي "الرَّسَالَةِ الْبَغْدَادِيَّةِ" لِأَبِي حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ

د. علي حداد

باحث عراقي، مهتم بتاريخ بغداد

— ١ —

يَتَرَدَّدُ -عند الحديث عن (أبي حَيَّان التَّوْحِيدِيِّ)- في المُولَفَات التي استوقفتها سيرته اتفاقاً على أَنَّ اسمَهُ (عليُّ بنُ محمدٍ بنِ العباس)، غير أنَّها تتباينُ في تحديدِ ولادته، ومثلها وفاته؛ فيُقالُ في الأولى أَنَّهُ وُلِدَ بين سنتي ٣١٠ و ٣٢٠هـ، وإن رَجَّحَ أَكْثَرُ الدارسين أَنَّها كانت عند سنة ٣١٠هـ، أو بعدها بقليل.

وَيَتَكَرَّرُ الأمرُ مع وفاته التي امتدَّت سنواتُ الخلافِ عليها بين ٣٨٠هـ و ٤١٤هـ، وإن قطعَ البعضُ أَنَّهُ كان حيًّا بعد ٤٠٠هـ، تلك السَّنة التي أحرقَ فيها كُتُبُهُ احتجاجاً وغضباً وياساً، وقد نصَّ على أَنَّهُ كان في التسعيناتِ من عُمرِهِ.

و(أبو حيان التوحيدى) بغدادى النشأة والصبا والكهولة والشيخوخة، فقد ورد عنه أَنَّهُ كان يُقيمُ في "درب بين السورين" من جانب الكرخ في بغداد. وتذكرُ المصادرُ أَنَّ أباهُ كان بَقَالاً يبيعُ التمرَ في إحدى أسواقِ بغداد، وكان من بين أنواع ذلك التمرِ ما سُمي بـ"التوحيد"، ومنه أخذَ أبو حيان لقبَهُ الذي عُرِفَ به [ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥: ١١٣].



وفي ذلك ما يدلُّ على أنَّه قد "نبع من عائلة ليس بينها والثقافة نسب، وأنَّه كان عصامياً أنشأ نفسه وبنائها بوافر ذكائه وعظيم حرصه على نيل المعرفة" [الرسالة البغدادية، مقدمة المحقق الأستاذ عبود الشالجي، ص ١٦]. ولعلَّ تلك النزعة الشعبيَّة المترسِّخة في تكوين شخصيَّته، وتلمُّس وجودها في السلوك والموقف والتداول اللغوي، من بين الدوافع التي أخذت به إلى تأليف (الرسالة البغدادية).

## — ٢ —

من اسمها، فإنَّ (الرسالة البغدادية) عن بغداد، ولمؤلِّفٍ مُحَبٍّ لهذه المدينة، منتِمٍ إليها بوعيه وأحاسيسه ووجدانه حدَّ الانشدادِ إلى كلِّ ما ينضجُه وجودها المكانيُّ وتكشُّفاتُ الحضورِ الإنسانيِّ فيها بمختلف أمثليته وصوره.

كان المستشرق الألمانيُّ وأستاذ اللغات الشرقيَّة في جامعة "بال" بسويسرا (آدم ميثز) أوَّل من عثرَ على هذه الرِّسالة ونشرها في العام ١٩٠٢م، وتخيَّر لها عنوانَ (حكايات أبي القاسم البغدادي). وقبل ذلك بزمنٍ أبعد، فقد كانت هناك إشاراتٌ سبقت جديرةً بالتأمل، أبرزها ما أورده (ياقوت الحموي) عن وجود مؤلِّفٍ للتوحيدي تحت عنوان (الرسالة البغدادية) ولكنَّه مفقودٌ؛ ليردِّد بعضُ دارسي أدب التوحيدي في العصر الحديث القولَ بعدم معرفة أيِّ شيءٍ عن ذلك الكتابِ يُزيلُ الغموضَ ويؤكدُ نسبتهُ إلى التوحيدي.

غير أنَّ وجهةَ قرائيةٍ راصدةً مغايرةً كانت قد أخذت بالتجلي، تربط بين حكاية (أبي القاسم البغدادي) و(الرسالة البغدادية) لتقول بأنَّهما كتابٌ واحدٌ، وتؤكدُ نسبتهما إلى أبي حيان التوحيدي، كان العلامةُ (مصطفى جواد) من أبرز القائلين بها؛ حيثُ أوردَ رأيه في دراستين له عن هذه الحكاية، كان عنوانُ أولاهما: (مقال عن حكاية أبي القاسم

البغدادي) نشرها في مجلة (العرفان) اللبنانية، العدد ٥ - ٦، المجلد ٤٢، صيدا ١٩٥٥م. أمّا الأخرى فكانت: (حكاية أبي القاسم البغدادي، هل هي لأبي حيان التوحيدي؟)، ونُشرت في مجلة (الأستاذ) الصادرة عن كلية التربية بجامعة بغداد، المجلد الثاني عشر، بغداد، ١٩٦٣ - ١٩٦٤ م.

وقد تلقّف الباحث الأستاذ (عبد الواحد ذنون طه) رأي الدكتور (مصطفى جواد)، فنشر في مجلة (المورد) العراقية المعنية بالتراث دراسته: (عن حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي حيان التوحيدي)، [المورد، المجلد الثالث، العدد الرابع، بغداد، ١٩٧٣م]. وفي العام ١٩٨٠م قام الباحث العراقي الأستاذ (عبود الشالجي) بتحقيق تلك الرسالة ثانية فوسمها بـ (الرسالة البغدادية) مؤكداً بالأدلة واليقين الذي لا يُساورُ الشكُّ عنده نسبتهَا إلى أبي حيان التوحيدي [ينظر: الرسالة البغدادية، مقدمة المحقق، ص ٩ وما بعدها]. وقد أشار (الشالجي) إلى أنّه عرضَ تحقيقه على الدكتور (إحسان عباس) الذي راجعَ مسودّتها وأثبتَ فيها تصحيحاته، ولعلّ في ذلك ما يوحى بتبني الدكتور (إحسان عباس) الوجهة ذاتها التي أقرّها المحقّق في نسبة الرسالة إلى التوحيدي.

غير أنّ هناك من الدارسين من لا يزال يُساورُهُ الشكُّ في نسبة هذه الرسالة إلى التوحيدي، من قناعاته "أنّ نهج هذه (الرسالة) أو (الحكاية) نهجٌ عامٌّ عابثٌ دارجٌ يبتعدُ كلّ الابتعادِ عن نهج أبي حيان الفصيح العالي" [د. إبراهيم السامرائي، مع المصادر في اللغة والأدب، ٢: ١٥٣]. وبقدرٍ ما يحملُ هذا الرأي من تصوّرٍ لا يريدُ لأدب التوحيدي إلّا أن يظلّ في المكانة التعبيريّة والانشغالاتِ الجادّة التي توافرت عليها كُتُبُه الأخرى، فإنّ ما يمكنُ مجادلته فيه هو ما سبقَ لنا ذكره من تكوينٍ بعيدِ التأثيرِ في شخصيّة التوحيدي تُعلنُهُ نزعتُهُ الشعبيّة التي ما برحت العلاماتُ المؤشّرة لقيمتها تندّدُ عنده، وفي أكثر من كتابٍ، لتتكاملَ جليّةً في (الرسالة البغدادية) التي نعدّها وثيقةً اجتماعيّةً

مهمّة ألفها التوحيدي بذات النزوع العلميّ والجديّة والحرص المعهودين في كتاباته.

### — ٣ —

يقول التوحيديّ على لسان راوي رسالته (أبي المطهر الأزدّي) موجزاً مضمونها بأنّها: "حكايةٌ مقدّرةٌ على أحوالٍ يومٍ واحدٍ من أوّلِهِ إلى آخرِهِ ولبيلِهِ كذلك". وبطلُ هذه الحكاية والشخصيّة المهيمنة على مسارٍ وقائعها وانشغالاتها التعبيريّة شيخٌ: "يُعرفُ بأبي القاسمِ أحمدَ بنِ عليّ التميميِّ البغداديّ، شخصٌ بلحية بيضاء تلمعُ من حمرة وجهه يكادُ يقطرُ منه الخمرُ الصّرفُ، وله عينانِ كأنّهُ ينظرُ بهما من زجاجٍ أخضر، تبصّانِ كأنّهما تدورانِ على زئبقٍ" [الرسالة البغدادية، ص ٤٦].

يقتحمُ هذا الشيخُ -القادمُ من بغداد- مجلسَ أحدِ أكابرِ أصفهان من دون دعوة، فيشغلُ حُضارَهُ بتدافعِ أحاديثه، وبفرضِ سطوته الثقافيّة على من في المجلس، عبر اتساعِ محفوظاته الشعريّة ومعلوماته ومقدرته اللفظيّة التي تجبرُ كلّ من في المجلس على الصمتِ والإصغاء إليه وحده. وهو يتكلّمُ هاجياً وممازحاً على نحوٍ شديد التعسّف، ليتجاوزَ بعد ذلك السخرية من الشخصياتِ إلى ذمّ مدينتهم (أصفهان) من خلالِ مقارنتها ببغداد التي لا يتركُ ملمحاً من ملامح وجودها الحضاريّ والإنسانيّ والعمرانيّ إلا وذكره، معبراً عن حنينٍ واشتياقٍ لا حدودَ لهما نحو مدينته (بغداد)، ومؤشراً سعةِ اطلاعِهِ ومعرفته الدقيقة بكلّ ما يتعلقُ بها، وما يتحرّكُ على مساحةِ وجودها المكانيّ والإنسانيّ.

يَرِدُ ذلك كلّهُ مفعماً بمسحةٍ عاطفيّةٍ مؤثّرة، تُبرزُها ألفاظُ ذاتُ قيمةٍ عاليةٍ التحسّس، فبغدادُ عنده: "مدينةُ السّلام، وقبّةُ الإسلام، ومعدنُ الخلافة، ومثوى الرّحمة والرّأفة، ومحلُّ السّماحة واللّطافة، ومستمتعُ الأنس والطّرافة" [الرسالة البغدادية، ص ١١٠].

يبدأ (البغداديّ) استذكّاره معالمَ مدينته من خارجها، فيمرُّ على المدنِ والقرى المحيطة بها، ذاكرًا أسماءها المتداولة في حينها، تلك التي ما يزال بعضها متداولًا مثل: (النهران، باعقوبا، شهربان)، ثم يدلُّف إلى بغداد فيستوقفه مشهدُ دجلتها: "المشحونة بالمراكب والزوارق، المحفوفة بالقصور والجواسق، ترتفع ما بينها أصوات الأغاني، وخفقات النايات والسواني وأصوات الملاحين، وزعقات المؤذنين، فتري والله جمالًا وكمالًا، وتسمع من ألحانها الشجية سحرًا حلالًا" [الرسالة البغدادية، ص ١٢٨].

أمّا حديثه عن المدينة ذاتها، فيُخبرُ به عن طيبِ مناخها وجمالِ طبيعتها، وما فيها من العمران والمباني والقصور والمساجد والحارات والشوارع التي يذكرُ منها ما يتجاوز الثلاثين سوقًا بين جانبي الكرخ والرصافة [الرسالة البغدادية، ص ٩٤ وما بعدها]. حتى إذا انتقل إلى ذكر أهلها البغداديين، أبرزَ تأثُّقَهُم في لباسهم ومساكنهم وعطورهم وموائدهم ومجالس شربهم وغنائهم. وهو في رصده لذلك كلّهُ إنّما يؤسس لمعجم (سوسولوجيّ) يعكس ما وصلت إليه بغدادُ وأهلُها من التمدّن والرقّي، والسلوك الحضاريّ الباهر [الرسالة البغدادية، ص ١٧٦].

وحين يأتي إلى حديث (البيت البغداديّ) يصفُ -في ما يقاربُ العشر من الصفحات- طبيعة البناء وأقسام بيوتهم، وما تحويه من الأثاث النفيس الآتي إلى مدينتهم من مختلف أقطار الدنيا [الرسالة البغدادية، ص ١٣٥]. أمّا ما يتأنقُ به البغداديّ من الثياب وملحقاتها فقد استعادَ منه ذكر ما تجاوزَ العشرين نوعًا [الرسالة البغدادية، ص ١٣٣]. ويتعطرُ البغداديّ، ويُعطرُ بيتهُ معه بأكثر من ثلاثة وثمانين نوعًا من الطيب والعطور وأنواع الروائح الزكيّة التي يُفعمُ بها كلّ ما حوله [الرسالة البغدادية، ص ١٣٩].

ويُطيلُ الشيخُ الوقوفَ عند مجالس الطعام لدى البغداديين، وأنواع أكالاتهم وأطعمتهم، وأدوات طبخهم وأنواع خبزهم وفواكههم وحلواهم، لينالَ ذلك من حديثه

ما تخطى في ذكره المائة نوع، وتجاوز في توصيفه العشرين من الصفحات [الرسالة البغدادية، ص ١٥١ وما بعدها]. أمّا مجالس أنسهم ولهوهم فهي من التعدد في أنواع أشربتها وخبورها ما زاد عن ستة عشر نوعاً، تنعقد معها مجالس الطرب والغناء التي يُبدع فيها المغنون من الرجال والنساء، وقد أخذ ذلك من الرسالة حيزاً كبيراً تجاوز التسعين من صفحاتها، كان نصفها تقريباً في استذكر أسماء المغنين والمغنيات، وأخبارهم مع من يحضر مجالس غنائهم [الرسالة البغدادية، ص ١٧٦ وما بعدها].

ولعل في تلك الصفحات ما يدعم القول بنسبة الرسالة البغدادية إلى التوحيدي؛ فقد أورد الأخبار ذاتها في كتابه (الإمتاع والمؤانسة)، خاتماً إياها بالقول: "ولعهدي بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة، وقد أحصيت أنا وجماعة في الكرخ أربعمائة وستين جارية في الجانبين، ومائة وعشرين حرة، وخمسة وسبعين من الصبيان البدور، يجمعون من الحُسْن والطَّرْف ما يفوت حدود الوصف، هذا سوى من كنا لا نظفر بهم ولا نصل إليهم" [الإمتاع والمؤانسة، ٢: ١٨٣].

وإذا كان هذا الشيخ (البغدادِي) قد تداول في وصفه لشمائل مدينته (بغداد) وأهلها معجماً عربيّة فصيحّة، فإنّه لم يفته تداول كثير من المفردات العامية التي تدور على ألسنة البغداديين بوصفها بعضاً من خصوصيات لهجتهم، والتي ما يزال بعضها شائعاً في كلامهم حتى يومنا الراهن مثل: (إشّه) كناية عن الإحساس بالبرد، (هم) بمعنى أيضاً، (البستج) نوع من اللبان، (الشلجم) الشلغم، (الملش) الشد، (والك) بمعنى ويل لك، (الخرعوبة) المرأة الجميلة، (الرزّة) مقبض الباب، (الفشخ) الضرب، (التوث) التوث، (أفيه) كناية عن الفرج.

وكان (البغدادِي) حين يجد أنّ الكلام المنشور لا يفي بالتعبير عن مساحة الإلحاح الشعوريّ عنده يلجأ إلى الشعر الذي ازدحمت أبياتُه وقوافيه في الرسالة، حتى لتكاد



تأخذ نصفها، وهو شعرٌ كان التوحيدِيُّ قد أشارَ إلى طبيعته على لسانِ راويه (الأزدِيّ) في مقدمة الرسالة، فقال: "هذا الذي أحصلُهُ من أدبِ غيري وأقتنيه وأتحلّي به وأدعيه وأرويه من مُلِح ما تنفّسوا به وتنافسوا فيه، ويصدقُ شاهدي عليه أشعارُ لنفسي دونتها، ورسائلُ سيرتها، ومقاماتُ حضرتها" [الرسالة البغدادية، ص ٤٢]. وكان في تلك الأشعارِ التي أوردتها التوحيدِيُّ على لسانِ بطله البغدادِيّ كثيرٌ من الأبياتِ التي يحُنُّ فيها إلى بغداد ويتشوّقُ لذكرياته هناك، من مثلِ قوله:

يا أهلَ بغدادَ فُرقتي لكم ... يا سادتي غُربتي من الناسِ  
تهنيكُمُ لذّةُ النعيمِ على ... دجلةَ بينَ السماعِ والكاسِ

[الرسالة البغدادية، ص ١٠٩]

ليتَ ليلاً بأصبهانَ طويلاً ... ليليالي من العراقِ فدى  
أينَ مسكٌ من حمأةٍ، ومخوّرٌ ... من بُخارٍ، وصفوةٌ من قذى

[الرسالة البغدادية، ص ١١٠]

#### — ٤ —

يَتَلَمَّسُ الباحثُ الذي يتأملُ النسقَ المضمَرُ البعيدَ في (الرسالة البغدادية) سرديّةً لها تعلّقُها بجانبٍ من حياة (أبي حيان التوحيدِي) الذي أجبرته ظروفُ عيشه وطماحه واعتداده بما يتوافرُ عليه من إمكانيّاتٍ معرفيّةٍ أن يغادرَ بغدادَ نحو (أصفهان) قاصداً هناك (الصاحبَ بن عبادٍ). لقد عاشَ التوحيدِيُّ في بغدادَ مشغولاً بتلقّي المعارفِ من علمائها، ومنكبّاً على نسخِ الكتبِ ثم التوجّهِ نحو ما استقرّته عنده إمكانيّاته العلميّة، فراحَ يؤلّفُ عدداً من كُتبه ورسائله العلميّة وتأملاته الفكريّة.

غير أن ذلك لم يُنلّه مراده في المكانة التي يتمناها، والحياة الكريمة التي كان يأمل أن ثقافته ستهيئ له أسبابها، ممّا حدا به أن يغادر مدينته الأثيرة (بغداد) قاصداً (أصفهان)، لعلّه يجد عند (الصاحب بن عباد) وهو على ما وصفه به كثير من مؤرخي عصره: الوزير، الشاعر، الأديب، المتكلم. ومن قال عنه الثعالبي: "هو صدرُ المشرق، وتاريخُ المجد، وغرّة الزمان، وينبوعُ العدل والإحسان. وكانت حضرته محط رحال العلماء والأدباء والشعراء، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، أمواله مصروفة إليهم، وصنائعُه مقصورة عليهم، وهمته في مجدٍ يُشيدُه، وإنعامٍ يُجددُه" [ينظر: الثعالبي، يتيمة الدهر، ٣: ١٩٢].

ولكنّ الصاحب هذا لم يأبه لأبي حيان، ولم يقربُه منه، خلال مدة السنوات الثلاث التي قضاها مقيماً في أصفهان؛ فلم يكن له إلا أن يعودَ إلى بغداد مفارقاً الصاحب، وهو -طبقاً لما وصف به حاله-: "بغير زادٍ ولا راحلةٍ، ولم يُعطِه لمدة ثلاث سنواتٍ درهماً ولا ما قيمته درهمٌ" [الرسالة البغدادية، مقدمة المحقق، ص ١٨].

ويبدو أن التوحيدي -حين إيابه إلى بغداد- أمسى ممتليئ النفس غيظاً، ليس على الصاحب وحده، بل على أهل أصفهان جميعاً، أولئك الذين نالوا حصتهم الهجائية المناسبة من (الرسالة البغدادية)، مثلما نال (الصاحب) ما ناله من التوحيدي في كتابه (مثالب الوزيرين)، الذي خصّ به (ابن العميد) و(الصاحب بن عباد).

## — ٥ —

أسند بعض الدارسين (الرسالة البغدادية) بمسماها الأول (حكاية أبي القاسم البغدادي) إلى (أبي المطهر محمد بن أحمد الأزدي)، من دون أن يورد أية معلومات عن هذا المؤلف: من يكون؟ ومتى عاش؟ وماذا كتب غير هذه الحكاية؟

ونحن نشارك القائلين بنسبة الرسالة للتوحيدي منطلقين في ذلك من تأمل

للمتحقق من النثر الفني العربي في القرن الرابع الهجري، وهي الفترة التي عاش فيها التوحيدي، حيث ظهرت أنواع إبداعية جديدة كان أكثرها خصوبة وإثارة ما صنعه بديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨هـ) من فنّ (المقامات). وإذا ما أدركنا أنّ بديع الزمان معاصرٌ للتوحيدي، ولعلّه توفيّ قبله بسنواتٍ قليلة، ذهب بنا الظنُّ إلى أنّ التوحيدي على بينة من الذي أنجزه الهمداني، أو أنّ قدرته الإبداعية كانت قد وصلت -في نزوعها الكتابي- إلى مثلٍ فنيٍّ مشابهٍ للمقامات، ومتطابقٍ مع انشغالاتها الفكرية، واشترطات بنيتها التعبيرية.

ولعلّ شخصية البطل في (الرسالة البغدادية) تتبّنى -في ممارساتها وسلوكها وكلامها- الوجهة ذاتها، لتصبح تلك الرسالة مساحةً إبداعٍ أخرى يمكن وضعها بإزاء فنّ المقامات أو الانضواء في مساحةٍ قريبة من مظلّتها التعبيرية والفنية. تبرز -على مستوى خاص من تلقّي الشخصية التي يُبدىها (فن المقامات) ومثلها (الرسالة البغدادية)- تراثُها في ثلاث شخصيات، وذلك ما يمكن تبيانه في الجدول الآتي:

| وجه المقارنة | مقامات الهمداني      | الرسالة البغدادية   |
|--------------|----------------------|---------------------|
| المؤلف       | بديع الزمان الهمداني | أبو حيان التوحيدي   |
| الراوي       | عيسى بن هشام         | أبو المطهر الأزدي   |
| البطل        | أبو الفتح الإسكندري  | أبو القاسم البغدادی |

ومن خلال هذه التراتبية في المسمّى، نستطيع القول بأنّ (الأزدي) لم يكن إلا شخصيةً اجترَحها المؤلف (التوحيدي) لتكونَ (راويًا علميًا) يرصدُ أفعالَ البطل (البغدادی) وأقواله ويوثّقها، مثلما الحال في المقامات الهمدانية. فالراوي يبدأ بثّها الحكائي بالطريقة ذاتها التي تبنتها المقامات، وبلاستهلال نفسه: "قال الشيخ الأديبُ

أبو المطهر محمد بن أحمد الأزدي رحمه الله عليه، بعد حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على سيدنا محمد وآله وسلم.... [التوحيدي، الرسالة البغدادية، ص ٤٢] لتصبح هذه الشخصية بمثابة (القناع الفني) الذي حدد التوحيدي دوره راوية لوقائع الحكاية وشاهدًا على شخصية البطل فيها، مشيرًا - كما هو الراوي في المقامات - عن حدود صلتها ببطل الرسالة، فهذه: "حكاية عن رجلٍ بغداديّ كنتُ أعاشره برهةً من الدهر، فتفتق منه ألفاظٌ مستحسنةٌ ومستخشنةٌ، وعباراتٌ لأهل بلده مستفصحةٌ ومستفصحةٌ" [الرسالة البغدادية، ص ٤٢].

## — ٦ —

خلاصة القول: كان (أبو حيان التوحيدي) أديبًا متفلسفًا رائيًا وراصدًا لكثير من شؤون الفكر والأدب والتاريخ والوقائع الإنسانية التي اشتجرت بها مؤلفاته وتزاحمت عند بابها البحوث والدراسات منذ أزمنة بعيدة وحتى وقتنا الراهن. لقد تهيا له أن يكون شخصية متسعة الثقافة غزيرة الإنتاج المعرفي؛ فقد عدّ له الدارسون ما تجاوز الخمسين مؤلفًا بين كتابٍ ورسالة، هيأته أن ينال الوصف لدى الكتاب العرب القدامى بأنه "فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين وإمام البلغاء، وفرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومُكنة، واسعٌ للدراية والرواية" [ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٥: ٣٨٠].

وفي حدود تعلقه بمدينة (بغداد)، فلعله من بين كثير من العلماء والأدباء أولئك الذين ما إن تُذكر (بغداد) -مدينة وموئلًا مكانيًا- حتى تنثال على الخاطر أسماؤهم، مكرسة هويتها البغدادية، مُعلنة عنها، مثلما تتخلق صورة (بغداد) الباهرة مع أية إشارة تخص وجودهم الإنساني: نشأة ومواقف وعطاء في الزمان والمكان اللذين كانت (بغداد) حاضنتهما وهوية الإشارة المؤكدة لأولئك المبدعين الكبار.

لقد جاءت (الرسالة البغدادية) تجسيداً لتلك الوجهة من الانتماء، وتواصلًا مع البيئة الشعبية البغدادية التي عايشها التوحيدي ونال لقبه (البغداديّ) فيها، جاعلاً من ذلك - بحسب قوله - "كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالأنموذج المأخوذ من عاداتهم، كأنما قد نظمتمهم في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على حدّ واحد، بحيث لا يختلفون إلا باختلاف المراتب، وتفاوت المنازل" [الرسالة البغدادية، ص ٤٢].

أمّا ما بدا فيها ممّا رآه البعض بعيداً عن التّهج الذي اختطّه التوحيدي لمؤلّفاته الأخرى في جدية المقاصد وعميق الأفكار، والتخير اللفظي، فلعله غادره عن قصد، مستجيباً لوجهة اشتغالٍ وتعبيرٍ أرادها لها، برّرها في الرسالة ذاتها - شعراً ونثراً - حين قال: "فمن نشط لسماعها، ولم يعدّ تطويل فصولها وفصولها كلفةً على قلبه، ولم يرَ فيها من عباراتهم قصورَ معرفة يُعيرني بها... تكلفَ له من البسطِ جهده المُتعبَ عليّ، وغيرَ الممتعَ له... هذا حين أبدأُ الرسالة بعد اعتذاري عنها بقولِ القائل:

في انقباضٍ وحِشمةٍ، فإذا ... صادفتُ أهلَ الوفاءِ والكرمِ  
أرسلتُ نفسي على سجيّتها ... وقلتُ ما قلتُ غيرَ محتشمٍ

[الرسالة البغدادية، ص ٤٤]

لقد استعان التوحيدي للتعبير عن ذلك كلّهُ بشخصيةٍ اجترَحَها، وأنطقها بكلّ ما يمكنُ للسلوك الإنسانيّ السائد في بيئتها الشعبية أن يتداوله، مشخصاً فيها بعض ما في داخله من غيظٍ مكبوتٍ تراكمَ بتأثير ما لاقاه في السنوات الثلاث التي قضاها في (أصفهان)، وكأنّه أرادَ في ذلك أن يُشخّص حالة التناقض بين ما يحمله المثقف الواعي من حساسيةٍ وإدراكٍ، وما يحاصره الواقعُ به من سلوكيات الأثرة والأنانية والانكسار القيميّ، نتيجةً لفواعلٍ سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ وبيئيّةٍ ضاغطةٍ. ولعلّ شخصية



(أبي القاسم البغداديّ) انعكسُ لذلك الواقع ومهيمناته المعيشية، وهو ما ختم التوحيدُ رسالته مؤكِّداً عليه، قائلاً: "هذه حكايةُ أبي القاسمِ البغداديّ وأحواله التي توضحُ لك أنَّه كان عرةَ الزمانِ وعديلَ الشيطانِ، ومجمعَ المحاسنِ والمقاييسِ، متجاوزاً للغاية والحدِّ، متكاملًا في الهزلِ والجِدِّ، موفورًا من الإخلاصِ والنفاقِ، متخلقًا منهما بأخلاقِ أهلِ العراقِ" [الرسالة البغدادية، ص ٣٩١].



# الْقُرَاءُ الْبَغْدَادِيُّونَ

## وَدَوْرُهُمْ فِي تَقْعِيدِ عِلْمِ الْقِرَاءَاتِ وَنَشْرِهِ

د. أسامة عبد الوهاب الحّياني

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في الجامعة العراقية - كلية التربية

### بغداد دار الخلافة:

عندما يُستعاد الحديث عن بغداد لا يُستعاد ذكر مدينة في التاريخ، وإنما يستعاد الحديث عن العلم والحضارة، حيث دار الملك والخلافة، وفدت لها مختلف العلوم، وتشكلت وتطورت حتى اكتملت.

وإذا كان علم القراءات من أشرف العلوم اتصالاً بالقرآن الكريم أداءً وتلقيًا، فإن بغداد كانت أحد أعظم ميادينها؛ فيها اجتمعت الروايات، وتآلفت الأسانيد، وتكوّنت معالم هذا العلم في صورته التي استقرّت عبر القرون.

ومنذ أن غدت بغداد عاصمة الخلافة وفد لها العلماء من شتى البقاع، فأسهموا في بنائها العلمي وتقدمها الحضاري، واجتمع فيه القراء والشعراء والأدباء، إلى جانب المؤرّخين والمحدّثين وغيرهم من أهل الصناعات.

لم تكن بغداد يوم أنشأها المنصور مدينة يتيمة، فكان إلى جنوبها أختان هما الكوفة والبصرة، سبقتاها بالتكوين العلمي والحضري، فقد وفد لهما جمع من الصحابة والتابعين، لنشر العلم والدين، مما ساعد في نقل العلوم إليها فيما بعد.

ولما كانت بغداد بَعْدُ مركزَ الخلافة، ومعدن الفضائل واللطافة، امتدحها العلماء والقراء والشعراء، قال أبو بكر بن عياش الأسدي المقرئ: "الإسلام ببغداد، وإنها لصيادة تصيد الرجال، ومَن لم يرها لم ير الدنيا" [تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي: ١: ٣٤٩]. وقال يونس بن عبد الأعلى: "قال لي محمد بن إدريس الشافعي: يا يونس دخلت بغداد؟ قلت: لا، قال: يا يونس ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس" [تاريخ بغداد: ١: ٣٤٧].

### الرحلة إلى بغداد:

ولأجل ذلك رحل العلماء إليها فهي بحق حاضرة الدولة الإسلامية ومدينة الخلفاء والأمراء، ومن أبرز الأسباب التي أدت إلى رحلة العلماء إلى بغداد تشجيع الخلفاء العباسيين للحركة الفكرية والعلمية فيها. فكان أن استقدموا القراء معلمين ومؤدبين لأبنائهم، فأول قارئ وفد إلى بغداد من الكوفة هو المفضل بن محمد الضبي الكوفي المقرئ (ت ١٦٨هـ) أيام هارون الرشيد، ومكث في بغداد يُقرئ الناس قراءة عاصم بن أبي النجود، فأخذ عنه الكسائي، ويحيى بن زياد الفراء. [تاريخ بغداد: ١٥: ١٥١-١٥٣].

ووفد بغداد قادمًا من الكوفة أبو عمر حفص بن سليمان الأسدي (ت ١٨٠هـ) ونزل بغداد في الجانب الشرقي منها في سويقة نصر، وقرأ عليه من أهلها: هبيرة التمار أبو عمر الأبرش البغدادي وغيره، وكان قدومه إلى بغداد ليُقرئ الناس سببًا في شهرة قراءته من بعد. [تاريخ بغداد: ٩: ٦٤-٦٧، وغاية النهاية: ٢: ٣٥٣].

ثم وفد إلى بغداد أحد علماء الكوفة وإمامهم في النحو وأحد القراء السبعة: علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ) حيث استقدمه المهدي لتأديب ولده الرشيد. [تاريخ بغداد: ١٣: ٣٤٨]. ومن بعد كان الكسائي مؤدبًا لمحمد الأمين، وأمر الخليفة الكسائي أن يُقرئ الأمين بحرف حمزة. [تاريخ بغداد: ١٦: ٢٢١].

وكان هارون الرشيد يظهر اهتمامه بأخبار القراء والقراءات ويسأل الكسائي عن أقرأ الناس للقرآن، فيؤتي بأبي عبد الرحمن عبيدة بن حميد الكوفي (ت ١٩٠هـ)، حيث قدم إلى بغداد أيام الرشيد فصيّرهُ مع ابنه الأمين، وروي أن عبيدة علّم محمداً الأمين القرآن حتى بلغ سورة الحديد. [تاريخ بغداد: ٨: ٥٠٨-٥١٠، والمحبر، لأبي جعفر البغدادي: ص: ٤٧٨].

ومن الذين استقدمهم الرشيد من الكوفة إلى بغداد أبو بكر بن عياش الأسدي الكوفي (ت ١٩٣هـ)، أقدمه الرشيد ليسأله عن أيام بني أمية. فمكث في بغداد يُقرئ الناس. [تاريخ بغداد: ١٦: ٥٤٦].

ومن الذين استقدمهم الرشيد من البصرة إلى بغداد يحيى بن المبارك اليزيدي [ت ٢٥٢هـ]، أحد القراء الفصحاء، وصاحب أبي عمرو بن العلاء أحد اقراء السبعة، جاء به الرشيد لتأديب ولده المأمون، وكان يجلس في أيام الرشيد مع الكسائي ببغداد في مجلس واحد يُقرئان الناس، فكان الكسائي يؤدب محمد الأمين، وكان اليزيدي يؤدب عبد الله المأمون، فأما الأمين فإن أباه أمر الكسائي أن يأخذ عليه بحرف حمزة، وأما المأمون فإن أباه لما اختار له اليزيدي تركه يتعلم منه حرف أبي عمرو. [تاريخ بغداد: ١٦: ٢٢٠-٢٢١].

ووفد من واسط إلى بغداد: خلف بن هشام بن ثعلب البزار (ت ٢٢٩هـ)، وكان من أهل فم الصلح، وصار بمدينة السلام كأنه من أهلها، وقرأ على سليم صاحب حمزة، وكتب قراءة عاصم عن يحيى بن آدم، وهو أحد القراء الثلاثة المتممين للعشرة. [الفهرست: ١: ٨٠، وغاية النهاية: ١: ٢٧٢-٢٧٣].

ووفد من الموصل إلى بغداد: الحسن بن سعيد بن مهران أبو علي الصفار (ت ٢٩٢هـ)، قدم بغداد وكثر عليه الناس، وروي القراءة عنه ابن مجاهد. [تاريخ بغداد: ٨: ٢٩١-٢٩٢، وغاية النهاية: ١: ٢١٥]، وكذا وفد من قراء الموصل إلى بغداد أبو بكر النقاش (ت ٣٥١هـ).

وثمة قرّاء وفدوا إلى بغداد من مكة والمدينة، والنهروان، وخراسان، وبلخ، وجرجان، وطبرستان، ومرو، والحجاز، والري، وسجستان، والشام، فاجتمع القراء من كل مكان في بغداد يَفِيدون ويُفِيدون، فكانت بغداد بحق موئل القراء وملتقاهم لما وجدوا فيها من العناية والتثبّت في أخذ الرواية.

قال الحسن بن عرفة العبدي (ت ٢٥٧هـ): "مَنْ لم يوثِّقه أهلُ بغداد فقد سقط، هم جهابذة العلم". [تاريخ بغداد: ١: ٣٤٥]. وقال أحمد بن يعقوب بن عبد الجبار القرشي: "دخلت مع خالي بغداد سنة ثلاث وثلاثمئة، وبغداد تغلي بالعلماء، والأدباء، والشعراء، وأصحاب الحديث، وأهل الأخبار، والمجالس عامرة، وأهلها متوافرون". [المنتخب، للسمعاني: ص: ٥٥٨].

### حَلَقُ القَرّاءِ في بغداد:

إنّ ما سبق من وصفٍ لحال بغداد وهي تغلي بالعلماء يجعلني أقلّب نظري وكأني أرى الكسائي يُقرئ الأمراء ويلقّنهم حروفه، والطلاب حوله متحلّقين، ويستمعون إلى قراءته ويعرضون قراءتهم عليه.

ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي (ت ٢٢٤هـ) الذي أخذ القراءة عن الكسائي عرضاً وسماعاً. [معرفة القراء الكبار، للذهبي: ص: ١٠١].

وذاك يعلى بن عقيل أبو المنذر الكوفي المقرئ (ت ٢٤٦هـ) مؤدّب أبا عيسى بن الرشيد [تاريخ بغداد: ١٦: ٥١٦].

وذاك محمد بن جعفر أبو الحسن المقرئ الصابوني، من أهل بردعة، يقد إلى بغداد وهو في طريق الحج ليلتقي بالعلماء، وإذا بالناس يتحلّقون حوله ويقرؤون عليه القرآن في جامع المنصور ببغداد، أيّام الدارقطني. [تاريخ بغداد: ٢: ٥٤٠].



## التأليف في علم القراءات:

ومع هذا الحشد من القراء من شتى البقاع والأمصار الذين اجتمعوا للإقراء والتدريس في بغداد ابتدأت حركة التدوين في علم القراءات، إذ يذهب معظم المؤلفين إلى أن أبا عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) يُعدّ أول إمام جمع القراءات في كتاب، قال ابن الجزري: "فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً" [النشر، لابن الجزري: ٣٣-٣٤].

بينما ذكر ابن عطية أن يحيى بن يعمر (ت ٨٩هـ)، ألف كتاباً في القراءات، جمع فيه ما رُوي من اختلاف الناس فيما وافق الخطّ ومشى الناس على ذلك زماناً طويلاً، إلى أن ألف ابنُ مجاهد كتابه السبعة في القراءات. [المحرر الوجيز: ١: ٥٠].

وقد ذكر ابن الجزري أن إسماعيل القاضي البغدادي (ت ٢٨٢هـ)، جمع في كتابه في القراءات عشرين قراءة، ومحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ألف كتابه الجامع في القراءات وضمّنه عشرين ونيفاً، ثم جاء ابن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤هـ) واقتصر على السبعة. [النشر: ١: ٣٤].

يظهر لنا من هذا أن المؤلفين الذين سبقوا ابن مجاهد كانوا على صنفين:

- منهم من كان مكثراً في العدد كأبي عبيد، وإسماعيل القاضي، والطبري، إذ كانوا يجمعون في كتبهم كل ما صح عندهم من قراءات الأئمة من غير تقيّد بعدد معيّن.

- ومنهم من كان مُقلّاً مثل ابن جبير الذي ألف في الثمانية والخمسة، والداجوني الذي ألف في الثمانية وكان السبعة ضمن هؤلاء. [النشر: ١: ٣٤].

- وكان السبب الذي دفع ابن مجاهد إلى تأليف كتابه، تعدد القراءات، نتيجة لظاهرة الاختيار؛ إذ كان التلميذ يتلقى من الشيخ أكثر من قراءة فيصعب ضبطها وإتقانها.
- وقد وصف ابن مجاهد الذين يحملون هذه القراءات بعد تلقيها من مصادرها فقال:
- منهم المعرب العالم بوجوه الإعراب والقراءات، العارف باللغات ومعاني الكلمات، البصير بعيب القراءات المنتقد للآثار.
  - ومنهم من يعرب ولا يلحن ولا علم له بغير ذلك، ومنهم من يؤدي ما سمعه ممن أخذ عنه ليس عنده إلا الأداء لما تعلم لا يعرف الإعراب ولا غيره.
  - ومنهم من يعرب قراءته ويبصر المعاني ويعرف اللغات، ولا علم له بالقراءات واختلاف الناس والآثار. [السبعة: ص: ٤٥-٤٦].

وكان خوف ابن مجاهد على كتاب الله من أن يطاله التحريف، قد دفعه إلى أن يجتهد ويختار للأمة سبعة من القراء ممن اشتهرت قراءته، وفاقت معرفته، وقد تقدم أهل زمانه في الدين، والأمانة، والمعرفة، والصيانة، واختاره أهل عصره في هذا الشأن، وأطبقوا على قراءته، وقصد من سائر الأقطار، وطالت ممارسته للقراءة، والإقراء، وخُصَّ في ذلك بطول البقاء. [المرشد الوجيز، لأبي شامة: ١: ١٦٠].

واختار من القراءات ما وافق خط المصحف، وصحّت روايته ووافق العربية. [السبعة: القسم الدراسي: ص: ٧٧-٨٤].

وكان لصنيع ابن مجاهد هذا تأثير كبير في تغيير اتجاه حركة التأليف في القراءات ودراستها، فبعد أن اختار ابن مجاهد سبعة من القراء المشهورين اتجهت العناية إليهم ودارت المؤلفات حول وصف قراءاتهم.

## أثر السبعة في التأليف:

ومع كل هذا الاهتمام بالقراءات السبع فلم يغفل بعض القراء من العناية بقراءات غيرهم، لكنهم لم يتجاوزوا شيوخ هؤلاء السبعة أو تلاميذهم، فأبو جعفر يزيد بن القعاع هو شيخ نافع، ويعقوب قرأ على أبي عمرو أو أحد تلاميذه، وخلف بن هشام قرأ على سليم صاحب حمزة.

ومن هنا فقد كان كتاب السبعة منطلقاً للقراء يقتبسون منه وينقلون عنه، ويرويه العلماء جيلاً بعد جيل، ويؤخذ عنهم شفاهاً، ويجيزون لتلاميذهم روايته.

ومن تأثر بصنيع ابن مجاهد ونقل عنه:

- ابن خالويه في كتابه "البدیع".
- وأبو علي الفارسي تلميذ ابن مجاهد، وقد شرح كتابه السبعة، وعلّل له اختياره، كما في كتابه الحجة للقراء السبعة.
- ومن تأثر بابن مجاهد أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠هـ) إذ نقل عنه في كتابه "بيان السبب الموجب لاختلاف القراء" قال: "إن أكثر معولي على جامع ابن مجاهد الكبير، فإنني رويته من طرق".
- واقتبس الداني من كتاب السبعة وضمنه في التحديد. ولم يكتف الداني بالنقل عن ابن مجاهد من كتاب السبعة، بل أكثر النقل عنه من كتاب النقط -الذي لم يصل إلينا من مؤلفاته- في كتابه "المحكم في نقط المصاحف" وأثنى عليه.

وهكذا أفاد القراء في كل عصر ومصر من ابن مجاهد ومن كتابه الفذ الذي يعد بحق كتاب تأسيس وتأصيل للاختيار في علم القراءات. قال عنه ثعلب: "ما بقي في عصرنا هذا أحد أعلم بكتاب الله من أبي بكر بن مجاهد". وهو شيخ القراء في وقته

كما قال الخطيب البغدادي، [تاريخ بغداد: ٦: ٣٥٣]، وانتهت إليه الرئاسة في علم القراءة كما قال أبو شامة، [المرشد الوجيز: ص: ١٦٠]، وهو شيخ الصنعة، وأول من سبَّح السبعة كما قال ابن الجزري [غاية النهاية: ١: ١٣٩].

### مدرسة بغداد الإقرائية:

ولم تتوقف الريادة والرئاسة في علم القراءات للمدرسة البغدادية عند ابن مجاهد البغدادي، بل كان لتلاميذه الحذاق دور كبير في نشر القراءات والتأليف فيها، لذا سأقتصر على ذكر واحد منهم، ثم أذكر في كل قرن عَلمًا واحدًا من أعلام المدرسة البغدادية في القراءات، ممن برز وله مصنفات في القراءات، واعتمد عليه ابن الجزري في كتابه "النشر" وأورده في أحد طرقه، وكما يأتي:

أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن أبي هاشم البغدادي (ت ٣٤٩هـ)، أحد تلاميذ ابن مجاهد النابيين، وكان كتابه (البيان في قراءات القرآن) من الأصول المعتمدة في طُرُق قراءة أهل بغداد، وقد اعتمده الحافظ ابن الجزري في كتاب "النشر" أصلًا في القراءة.

وأما القرن الخامس فبرز من القراء البغداديين كثير، منهم: أبو علي الحسن بن محمد بن إبراهيم البغدادي المالكي (ت ٤٣٨هـ). وكتابه (الروضة في القراءات الإحدى عشرة) من المصادر التي اعتمدها الحافظ ابن الجزري في "النشر".

وأما القرن السادس، فما زال للقراء البغداديين الصدارة في الإقراء والريادة في التأليف، فظهر منهم كثير، منهم: أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد البغدادي المعروف بسبط الخياط (ت ٥٤١هـ)، الأستاذ البار، شيخ العراق، وكتابه: (المبهبج في القراءات الثمان وقراءة ابن محيصن والأعمش واختيار خلف واليزيدي)، وهو من أهم الأصول التي اعتمد عليها الحافظ ابن الجزري في "النشر".

وأما القرن السابع فكان عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر بن أبي الجيش، الأستاذ الكبير مجد الدين أبو أحمد البغدادي المقرئ، الحنبلي، شيخ الإقراء ببغداد (ت ٦٧٦هـ). روى عنه ابن الجزري عن أبي بكر المقصاتي أنه قال: "كان شيخنا عبد الصمد، يروي أكثر من ثلاثين كتاباً في القراءات". وقرأ ابن الجزري (كتاب التجريد) لابن الفحام الصقلي بسنده عن الإمام أبي محمد عبد الصمد بن أحمد بن عبد القادر بن أبي الجيش البغدادي سماعاً وتلاوةً بسنده عن ابن الفحام.

وأما القرن الثامن ففيه عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه هبة الله نجم الدين أبو محمد الواسطي، الأستاذ العارف المحقق الثقة المشهور كان شيخ العراق في زمانه، نزل بغداد وأقرأ الناس فيها، وفيها توفي سنة ٧٤٠هـ، قال فيه ابن الجزري: "وَأَلَفَ كتاب الكنز في القراءات العشر جمع فيه للسبعة بين الشاطبية والإرشاد، ثم نظمه في كتاب سماه الكافية على طريق الشاطبية، وله غير ذلك من نظم ونثر، وكان ديناً خيراً صالحاً ضابطاً، اعتنى بهذا الشأن أتم عناية وقرأ بما لم يقرأ به غيره في زمانه، فلو قرئ عليه بما قرأ أو على صاحبه الشيخ علي الديواني الواسطي لاتصلت أكثر الكتب المنقطعة ولكن قصور الهمم أوجب العدم، فلا قوة إلا بالله، وليتهم لو أدركوا ما بقي من السير من ذلك قبل أن يطلبوه فلا يجدوه".

وهكذا تجد القراء البغداديين في كل قرن يفيدون ويؤلفون في علم القراءات، وأسانيدهم موصولة متصلة بكبار القراء وكتب القراءات. وكان لابن الجزري النصيب الأكبر من هذه الأسانيد.

### مسيرة الإقراء في بغداد، انحسار ثم إحياء:

بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ على يد المغول بدأ علم القراءات بالانحسار تدريجياً، ولا سيما في العهد العثماني، إذ انصرفت العناية إلى الفقه والتصوف وغيرها من العلوم أكثر من العناية بعلم القراءات، كما اقتصر العمل في المحاريب على رواية حفص، ولم



تُنشأ مدارس متخصصة للإقراء، ونتيجة لذلك ضعف تدريس القراءات في كثير من الأمصار، وبخاصة في بغداد حتى كاد ذكرها ينقطع، ولم نقف -فيما اطلعنا عليه من كتب التراجم والطبقات- على أسماء قراء بغداديين في القرون المتأخرة إلى أن ظهر الشيخ سلطان الجبوري (ت ١١٣٨هـ) وهو وإن ولد في الموصل، إلا أنه رحل إلى بغداد واستوطنها، فلُقّب بالبغدادي منشأً ومسكنًا كما هو مذكور في الأسانيد العراقية. وقد قرأ القراءات في بغداد على عدد يسير من علمائها، من بينهم الشيخ أبو محمد خليل البغدادي (ت ١١٣٨هـ) خطيب جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، الذي أخذ القراءة عن الشيخ حسن ابن الهندي، عن الشيخ حسن المصري، وهو عن الشيخ علي الشبراملسي، ليتصل السند بعد ذلك بالإمام ابن الجزري.

وقد انتشر هذا السند البغدادي الموصلي المبارك إلى يومنا هذا، وتشرفتُ بنيله ضمن الإجازة العراقية، وقد تولى تحقيقه علماء مختصّون وقراء مدققون، ونُشر بإشراف مجمع القراءة الكريم بالشارقة بعنوان: (الإجازة العراقية في القراءات السبع).

وفي القرن الحالي بدأ علم القراءات يستعيد حضوره في بغداد، فأُنشئت المراكز الإقرائية وانتشرت، ووفد بعض القراء من مصر إلى بغداد فأسهموا في إعادة هذا العلم إلى مكانته المرجوة، ومكث بعضهم فيها سنوات طويلة يُقرئون الطلاب كما فعل الشيخ محسن الطاروطي المصري رحمه الله تعالى.

كما رحل كثير من العراقيين إلى مصر والشام والحجاز لتلقي القراءات على مشايخها، ثم عادوا بالإجازات، وأسهموا في إفادة طلاب القراءات، ونشر هذا العلم.

وبمناسبة اختيار بغداد عاصمةً للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٢٦م، فإن استحضار هذا الدور لا يُعدُّ ترفاً تاريخياً، بل هو وفاءٌ لمدينةٍ حفظت القرآن أداءً كما حفظ نصّاً، وجعلت من الإقراء علماً تُداول به الأمانة، جيلاً بعد جيل.

# خَزَائِنُ الْكِتَابِ الْبَغْدَادِيِّ

## (الجزء الأول)

د. رياض زيد المختار  
باحث وناقد ومؤرخ عراقي

بَغْدَادُ عَاصِمَةُ الثَّقَافَةِ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ، وَفِي كُلِّ دَارٍ مِنْهَا خِزَانَةٌ؛ صَغِيرَةٌ كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةً، وَمِنْ هَذِهِ الْخِزَائِنِ مَا هِيَ نَفِيسَةٌ وَقِيَمَةٌ، فَتَرَاهَا حَاطِيَةً عَلَى مَخْطُوطَاتٍ، أَوْ طَبْعَاتٍ حَجَرِيَّةٍ، أَوْ كُتُبٍ نَادِرَةٍ. وَنَحْنُ الْآنَ نُقَدِّمُ هَذِهِ الْمَكْتَبَاتِ النَّادِرَةَ الْعَزِيزَةَ إِلَى الْقَارِئِ الْكَرِيمِ؛ حِفَاطًا عَلَى الثَّرَاثِ الْبَغْدَادِيِّ الْأَصِيلِ:

إِبْرَاهِيمُ عِطَّارُ بَاشِي (تُوفِّيَ سَنَةَ ١٩٦٣م)

(ذَكَرَ اسْمَهُ نَاصِرُ التَّقَشْبِنْدِيِّ فِي مَجَلَّةِ الْمَوْرِدِ، الْمَجْلَدُ ٢٠، سَنَةَ ١٩٩٢م): صَاحِبُ الْخِزَانَةِ هُوَ الْمَرْحُومُ إِبْرَاهِيمُ أَحْمَدُ مُحَمَّدُ نَعْمَانُ عِطَّارُ بَاشِي، مِنْ أَعْلَامِ الْمَوْصِلِ، دَرَسَ الْعُلُومَ الْعَرَبِيَّةَ، وَشَارَكَ فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى وَالثَّوْرَةِ الْعِرَاقِيَّةِ، وَسَاهَمَ فِي تَأْسِيسِ الْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ وَكَانَ عُضْوًا فِيهَا.

انْتُخِبَ نَائِبًا فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ عَنِ الْمَوْصِلِ مَدَّةَ ١٦ سَنَةً، وَكَانَ لَهُ مَجْلِسٌ بِبَغْدَادَ يَرْتَادُهُ الْعُلَمَاءُ وَالْأَدَبَاءُ، يُعْقَدُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ أَسْبُوعٍ، وَمِمَّنْ يَرْتَادُهُ: يَاسِينُ الْهَاشِمِيُّ، وَطَهُ الْهَاشِمِيُّ، وَمَوْلُودُ مَخْلُصٌ، وَعَلِيُّ جَوْدُ الْاَيُوبِيُّ، وَمُحَمَّدُ بَهْجَةُ الْاَثْرِيُّ، وَمَنْيَرُ الْقَاضِي، وَغَيْرُهُمْ.

تُوفِّي في ٨/٢/١٩٦٣م، وذكر المطبوعيُّ أنَّ وفاته كانت سنة ١٩٥٠م.

خِزَانَتُهُ:

كانت له مكتبةٌ حافلةٌ تضمُّ كُتُبًا مخطوطةً ومطبوعاتٍ، وإنَّ عائلةَ عطار باشي قامت بإهداء خمسين مخطوطًا من مختلف العلوم والمعارف، بينها عشرون مخطوطًا في الطب والصيدلة، ورسالةٌ في نسب الموسيقى وعلاقتها بالطب.

### إبراهيم الدروبي (١٨٩٥ - ١٩٥٩م)

هو إبراهيم عبد الغني الدروبي، وُلِدَ في بغداد ونشأ فيها واستكمل فيها تعليمه، حيث عُيِّن كاتبًا في المحاكم الشرعية ببغداد، ولع بالاستنساخ وإعادة كتابة المخطوطات القديمة، وكان مجليسيًا.

له مؤلفاتٌ نافعةٌ مفيدةٌ، منها كتاب (البغداديون أخبارهم ومجالسهم)، وهو كتابٌ عجيبٌ لما حواه من أخبار البغدادية وتواريخهم وسيرهم، طُبِعَ سنة ١٩٥٨م وسنة ٢٠٠١م وعندي نسخةٌ منه. وله كتاب (قضاة بغداد) في مجلدين، جمع فيه أخبار القضاة من القاضي أبي يوسف وصولًا إلى مصطفى حسن الأنكرلي سنة ١٩٣٩م، وعندي نسخةٌ منه طبعة ٢٠٠١م.

خِزَانَتُهُ:

(قال باقر أمين الورد في أعلام العراق الحديث، ص ٣٩): امتَهَنَ حِرْفَةَ الْوَرَاقَةِ وَالنَّسْخِ وَقَدْ كَتَبَ كَثِيرًا مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ، وَيُوجَدُ فِي مَكْتَبَةِ الْمَتْحَفِ الْعِرَاقِيِّ نُسْخٌ مِنْ خَطِّهِ.

(ذَكَرَ الدَّروبيُّ فِي الْبَغْدَادِيِّونَ أَخْبَارُهُمْ وَمَجَالِسُهُمْ، ص ٢٠٥): أَنَّهُ اسْتَنْسَخَ كَثِيرًا مِنَ الْكُتُبِ وَالرِّسَالِ لِلْأَبِ أَنْسَتَاسِ الْكِرْمَلِيِّ بِطَلْبٍ مِنْهُ.

(قال الجبوري في تحقيق المسك الأذفر): عَمِلَ في المكتبة القادرية ونَسَخَ منها ٣٦٢ مخطوطة طوال ٥٠ سنة، وله خزانة طيبة من نواذر المخطوطات، وخاصة المتعلقة بتاريخ بغداد.

(قال كوركيس عواد في مجلة معهد المخطوطات، المجلد ٢٦، الجزء ٣، سنة ١٩٨٠م): في مكتبة إبراهيم عبد الغني الدروبي ٧١ مخطوطة وضع في التعريف بها فهرسًا. أقول: هذا المخطوط منها ما عدا المطبوع والمستنسخ، ومن اطلع على مؤلفات الدروبي تأكد له حجم مكتبته؛ حيث كان قد نقل من (المنتظم) لابن الجوزي، وابن الساعي، وابن الفوطي، و(تاريخ بغداد)، وغيرها من أممات الكتب.

### إبراهيم السامرائي (١٩٢٣ - ٢٠٠١م)

هو إبراهيم بن أحمد الراشد السامرائي، وُلِدَ في العمارة وتعلّم بها وببغداد، وتخرّج في دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٦م، وأحرز الدكتوراه من السوربون سنة ١٩٥٦م. تولى التدريس بجامعة بغداد، والجامعة الأردنية (١٩٨٢-١٩٨٧م)، ثم جامعة صنعاء (١٩٨٧-١٩٩٦م)، واستقرّ في عمان وتوفي فيها.

من مؤلفاته: (الدّخيل في العربية والفارسية والتركية) وغيرها.

### خزائنه:

له ثلاث خزائن (كما ذكرها أحمد العلاونة في العلماء العرب المعاصرين ومآل مكتباتهم، ص ١٥):

- الكبرى: أنشأها ببغداد وتضم نحو ٣٢٠٠ كتاب، معظمها كتب أصلية ونواذر كتب، أراد أن يهديها إلى جامعة بغداد ولكن الإجراءات البيروقراطية حالت دون ذلك، فباعها الورثة بعيد وفاته إلى مجمع أبوظبي الشافعي.

- الثانية: أنشأها في اليمن وضمّت نحو ألف كتابٍ أهداها للأستاذ عبد الله السريحي.
- الثالثة: أنشأها في عمان وقد أهداها الورثة بعد وفاته إلى مجمع اللغة العربية الأردني.

### إبراهيم فصيح الحيدري (١٨٢٠ - ١٨٨٢م)

(قال الراوي في تاريخ الأسر العلمية، ص ١٢٢): هو السيد إبراهيم فصيح أفندي بن السيد صبغة الله أفندي بن السيد أسعد صدر الدين الحيدري، العالم المدقق.

أخذ العلم عن أعلام زمانه كالشيخ يحيى أفندي، والشيخ عبد الرحمن الروزبهاني، والشيخ أحمد الكلالي وغيرهم، وأجازَه في جميع العلوم؛ المعقول والمنقول والفروع والأصول، شيخ الإسلام محمد رفيق أفندي حينما كان أمين الفتوى.

له من المؤلفات حوالي ٣٤ مؤلفاً، منها (عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد)، وهو من الكتب المهمة التي تغطي أخبار بغداد وعوائلها وعشائرها وأشهر رجالها وجغرافيتها وعندي نسخة منه، وله (فصيح البيان في تفسير القرآن) وغيرها.

وكان لا يهاب أحداً، شارك في خلع السلطان عبد العزيز، ثم على إثرها جرد من رتبته، وكان عضواً في مجلس إدارة الولاية، فاعتراه الخوف فأصيب بانطلاق البطن ثم توفّي.

### خزائنه:

(قال الراوي): وكان قد أوقف كتبه تلك؛ الكتب الثمينة والمعدودة وحيدة بما فيها مؤلفاته، على تكية مولانا خالد المعروفة بالتكية الخالدية، حتى لعبت بها الأيدي وذهب منها ما ذهب، وكمل البلاء عليها باستيلاء دائرة الأوقاف عليها.

أقول: وسبب هذا القول أن الكتب كانت قبلاً متناثرة في المساجد والتكيا



والجوامع، وعندما تأسست الدولة الحديثة بدأت فكرة جمع هذه الكتب من المساجد ودور العلم ووضعها في مكان واحد، والغاية هي الحفاظ عليها من العبث والتلف، فتصدى للفكرة كثير من الناس وتأخر العمل بها حتى تمت وجمعت الكتب في مكتبة الأوقاف العامة.

(قال عماد عبد السلام رؤوف في تحقيق تاريخ الأسر العلمية، ص ١١٩): تحتوي مكتبة الأوقاف اليوم على ١٠ مؤلفات مخطوطة لإبراهيم فصيح الحيدري، وأكثر مؤلفاته الأخرى تسربت إلى مكاتب مختلفة، لعل أبرزها المكتبة العامة في نيويورك التي زارها كوركيس عواد فقال: "وما حفلت به هذه المكتبة ٢٧٣ مخطوطاً عربياً، حوت فيما حوت مؤلفات إبراهيم فصيح الحيدري برمتها، حتى ليخيل لي أن هذه المجموعة الخطية من بقايا خزانة ذلك المؤلف البغدادي الشهير".

### أحمد أفندي التكية (١٨٤٥ - ١٩١٨م)

هو السيد أحمد بن السيد إبراهيم المشاهدي البغدادي النقشبدي الخالدي.  
(قال الدروي في البغداديون، ص ١٥١): قرأ مقدمات العلوم على علماء عصره، ثم أخذ المعقول والمنقول على عبد الله بهاء الدين الألوسي وغيره، وأخذ الطريقة النقشبندية.  
خزائنه:

(قال الدروي): كانت له مكتبة فيها نوادر الكتب المخطوطة، أضافها إلى مكتبة العلامة السيد إبراهيم فصيح الحيدري وأوقفها وقفاً صحيحاً شرعياً، واختار وصياً عنه ابن أخته السيد أحمد أفندي القايمقجي، ثم إن مكتبته ضمت إلى مكتبة الأوقاف العامة.

## أحمد البغدادي (توفي سنة ١٩٤٦م)

هو أحمد بن السيد حسن البغدادي بن السيد أحمد بن السيد حسن.

(قال الدروبي في البغداديون، ص ١٧٦): كان رجلاً أديباً كاملاً. بالإضافة إلى الأعمال التجارية مع إخوته اشتغل بالزراعة وحصل على المكنة اللاتقة بين طبقات التجار والملاكين والزراعيين، وكان يحفظ عيون الشعر العربي والمُلح والطرائف وكثيراً من الأخبار التاريخية.

خزائنه:

له مكتبة تضم نوادر الكتب وفيها بعض المخطوطات.

## أحمد نيازي (١٨٩٥ - ١٩٧٨م)

هو القاضي أحمد بن عبد الوهاب نيازي، ووالده عبد الوهاب نيازي حاكم الشرع في بغداد.

خزائنه:

أسس المكتبة أنشأه عبد الوهاب نيازي وكان من أعلام الخطاطين ببغداد، ثم آلت المكتبة إلى ولده أحمد الذي وسّعها وزادها واعتنى بها.

(قال فيليب طرازي في خزائن الكتب العربية في الخافقين، ص ٣٠٠): "انتقلت إليه المكتبة بالإرث من والده المشار إليه".

وفيها مخطوطات خطيرة، أخصها: ديوان المتنبي وهو أقدم نسخة معروفة نادرة، وكتاب (تخيّر الألفاظ) لابن فارس وهو كتاب في اللغة نادر، وكتاب (كيمياء السعادة) باللغة الفارسية للغزالي، وهذا المخطوط الجميل قد وُشيت صفحاته بالذهب ووضعت

بين الصفحة والصفحة ورقة من رَقّ الغزال الشفاف، ثم ديوان حافظ الشيرازي نُسَخه أحمد نيازي بيده، وقد صُدِّرَ هذا المخطوط الرائع بصورة تُمثِّلُ النسخَ يُقدِّمُ الكتابَ للسلطان عبد المجيد الأول العثماني.

(قال أحمد العلاونة في العلماء العرب المعاصرين ومآل مكتباتهم، ١٣٦): جَمَعَ عبد الوهاب نيازي مكتبة نفيسة تضمُّ ذخائر المخطوطات العربية آلت إلى ولده أحمد، ولما تُوفِّي آلت إلى مكتبة المتحف العراقي، وتضمُّ ٣٩٦ مخطوطة تعود إلى أزمان تاريخية مختلفة؛ أقدمها (متخير الألفاظ) لابن فارس كُتِبَتْ في القرن الخامس الهجري، ونُسخة من (نهج البلاغة) كُتِبَتْ سنة ٥٥٦هـ، و(حلُّ العقد والعقل) للإستراباذي الموصلي كُتِبَتْ في حياته، ونُسخة من (تلخيص الشواهد) لابن هشام الأنصاري كُتِبَتْ بخط عبد الوهاب السبكي سنة ٧٧١هـ. صنَعَ الأستاذ أسامة ناصر النقشبندى فهرساً لمخطوطاتها نشره معهد المخطوطات العربية.

### أنستاس ماري الكرمل (١٨٦٦ - ١٩٤٧م)

(قال مير بصري في أعلام الأدب في العراق، ص ٢٦٧): كان اسمه قبل أن يترهب: بطرس ميخائيل ماريني، أصدرَ مجلة (لغة العرب) الشهيرة، وانتُخبَ عضواً في المجمع العلمي العربي في الشام ومجمع اللغة العربية في القاهرة.

(قال مير بصري في أعلام اليقظة الفكرية في العراق، ص ٩٠): أتمَّ دراسته في مدرسة الاتفاق الكاثوليكي، وعيِّنَ معلماً في مدرسة الآباء الكرمليين، وأُرْسِلَ في أيلول ١٨٨٦م إلى بيروت لمواصلة الدرس في كلية الآباء اليسوعيين، ثم قصَدَ بلجيكا وانتمى إلى الرهبنة، ثم دَرَسَ اللاهوت في فرنسا حتى رُسمَ قسيساً باسم أنستاس الكرمل. كان عاشقاً للغة والتاريخ والبحوث البلدانية والآثرية.

## خِزَانَتُهُ:

(قال الدَّروِيُّ في البَغْدَادِيَّوْنَ، ص ٢٠٥): "وقد جَمَعَ له مَكْتَبَةٌ عامرةٌ جامعةٌ لمراجع العلم والآداب في اللغة العربية واللغات الأخرى، وقد جاب الأقطار والأمصاَرُ مُزوِّدًا مَكْتَبَتَهُ بما يَقتضيه من سَفَرَاتِهِ وَجَوَلَاتِهِ".

(قال أحمدُ العلَّاونَةُ في العلماء العربِ ومآلِ مَكْتَبَاتِهِمْ، ص ٤١): جَمَعَ مَكْتَبَةٌ كبيرةً آلت إلى ديرِ الآباءِ الكرمليين، وفيها نفائسُ المَخطوطاتِ والمطبوعاتِ وعلى بعضها تعليقاتٌ، ثم نُقِلَتِ المَخطوطاتُ وعدُّها ١٣٣٥ مَخْطُوطًا إلى مَكْتَبَةِ المَتَحِفِ العراقيِّ ببغدادَ.

(قال فيليب طرازي): "للرهبانِ الكرمليين ببغدادَ مَكْتَبَتَانِ؛ إحداهما الخِزانَةُ الشرقيَّةُ والثانيةُ الخِزانَةُ الغربيَّةُ، وقد نُهِبَتَا كِلَتاهُما في ١٦ شباط ١٩١٧م أثناءَ الانقلابِ العثمانيِّ في بغدادَ، وكانتا تشتملانِ على عِشرين ألفَ مجلِّدٍ بينها ٢٧٥٣ مَخْطُوطًا".

تأسَّستِ الخِزانَةُ الشرقيَّةُ سنةَ ١٨٩٤م بعنايةِ الأبِ أنستاس ماري الكرملِي، وقد استعادَ طائفةٌ من المَخطوطاتِ المَنهوبةِ.

ووصفها منير وهيبة بأنَّ المكتبةَ لا تَقِلُّ عن ١٩٠٠٠ كتابٍ. ومما حَوَتْه:

- مَثالِبُ العربِ لابنِ قتيبةَ.
  - مَثالِبُ العربِ لابنِ هشامٍ.
  - العينُ للفراهيديِّ.
  - السَّمُومُ في الموادِ السَّامَةِ عندَ العربِ.
- ومما ذَهَبَ من هذه الخِزانَةِ كتابُ القرآنِ الكريمِ كَتَبَهُ ياقوتُ المستعصميُّ.

## بشار عواد معروف (وُلِدَ سَنَةَ ١٩٤٠م)

هو بشارُ بنِ عوادِ بنِ معروفِ العبيدي، مؤرِّخٌ ومُحقِّقٌ ومُحدِّثٌ غزيرُ التحقيقِ حتى جاوزَتْ تحقيقاته عَشْرَاتِ الآلافِ من الصفحات.

وُلِدَ في الأعظمية وتعلَّم فيها وتخرَّجَ في قِسمِ التاريخِ بكليةِ الآدابِ جامعةِ بغدادَ سنةَ ١٩٦٤م، ثم حَصَلَ على الماجستير والدكتوراه.

تولَّى التدريسَ في جامعةِ بغدادَ، ورئاسةَ جامعةِ صدام للعلوم الإسلامية، وأقامَ في الأردنِ من عام ١٩٩١م باحثًا في مؤسسةِ آل البيتِ ومُدرسًا في بعضِ الجامعاتِ الأردنية، وتجنَّسَ بالجنسيةِ الأردنية.

من تحقيقاته:

- التكملةُ لوفياتِ الثَّقلَةِ للمنزري.
- تهذيبُ الكمالِ في أسماءِ الرجالِ في ٣٥ مجلَّدًا.
- تاريخُ الإسلامِ للذهبيِّ في ١٦ مجلَّدًا.
- تاريخُ بغدادَ للخطيبِ البغداديِّ وذيله لابنِ الدُّبيثي.

خزائنه:

لو جُمِعَت تحقيقاته ومؤلفاته وحدها لأصبحتْ مكتبةٌ كاملةٌ عامرةٌ بأُمَمَاتِ الكتبِ. (قال أحمدُ العلاونة): جَمَعَ مكتبةً حافلةً ببغدادَ تضمُّ نحوَ عَشْرَةِ آلافِ كتابٍ من الطبقاتِ الأصليةِ في مختلفِ العلومِ، مُتخصصةً في التاريخِ والرجالِ والحديثِ، وأحضرَ قِسمًا منها إلى عَمَّانَ وما بقيَ منها هو أكثرُ من ٥٠٠٠ مجلِّدٍ وقفها في الأعظميةِ في شارعِ عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ. وله مكتبةٌ حافلةٌ كبيرةٌ معه في عَمَّانَ.



## حسين علي محفوظ (١٩٢٦ - ٢٠٠٩م)

وُلِدَ في الكاظمية وحَصَلَ على ليسانس اللغة العربية من دار المعلمين العالية ١٩٤٨م، وعلى ماجستير الآداب الشرقية ١٩٥٥م. عُيِّن مُدرِّسًا في دار المعلمين ثم أستاذًا في كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٥٩م.

### خِزانته:

( ذَكَرَ في دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠م): أنشأها في الكاظمية سنة ١٩٣٨م، فيها زهاء ٥٠٠٠ مجلد بينها ٣٥٠ مخطوطًا، وفي هذه المكتبة مراجع حسنة في اللغة والأدب والتاريخ والتراجم بالعربية والفارسية، ومن مخطوطاتها:

- الأدوار في الموسيقى (تاريخه ٨٦٣هـ).
- الفصول الأدبية والممارسات العبادية (تاريخها ٦٢٨هـ).
- القاموس المحيط (تاريخه ٨٩٩هـ بخط الخطيب القسطلاني).

وفي مجلة معهد المخطوطات ١٩٦٠م سَرَدَ الدكتور حسين علي محفوظ ٣٤٦ مخطوطًا من مكتبته، وذكر أن لآل محفوظ خزانة ثمينة ورث قسمًا منها.

## حمدي الأعظمي (١٨٨١م - ١٩٧١م)

هو عالم فاضل له اطلاع في فنون مختلفة من العلوم العقلية والنقلية، خاصة علم الكلام والرياضيات والقانون وأصول الفقه. تخرَّج على العلامتين السيد نعمان خير الدين الألوسي والسيد عبد الرزاق الأعظمي.

خِزانته: (قال السامرائي في مجالس بغداد، ص ٣٤): كان له ولع شديد بالكتب حيث إنه يحتفظ بأهمّ الكتب على اختلاف فنونها. وقبل وفاته بنى مكتبة عامة على

قِطْعَةُ أَرْضٍ يَمْلِكُهَا فِي الْأَعْظَمِيَّةِ (مَحَلَّةِ السَّفِينَةِ) وَأُوقِفَ فِيهَا سَائِرَ كُتُبِهِ الَّتِي بَلَغَ عَدْدُهَا ٦٥٠٠ مَجْلِدٍ تَقْرِيْبًا، وَفِيهَا كُتُبٌ تَرْكِيَّةٌ وَلَاتِينِيَّةٌ وَإِنْكَلِيزِيَّةٌ وَفَرَنْسِيَّةٌ.

(ذَكَرَ فِي دَلِيلِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ لِسَنَةِ ١٩٦٠م): أَنْشَأَهَا سَنَةَ ١٨٩٠م وَهِيَ مِنْ الْمَكْتَبَاتِ الْجَلِيلَةِ، تَتَنَاوَلُ مَوْضُوعَاتٍ فِي عُلُومِ الدِّينِ وَاللُّغَةِ وَالتَّارِيخِ وَالْحَقُوقِ وَالْقَوَانِينِ. (قَالَ أَحْمَدُ الْعِلَالُونَةُ): وَضَعَتْ مَعَهَا مَكْتَبَةُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الصَّاعِقَةِ وَتَضُمُّ ٦٥٠٠ مَجْلِدٍ وَقَدْ وَضَعَ الدُّكْتُورُ عِدْنَانُ الدُّورِيُّ فِهْرَسًا لَهَا.

### رَزُوقُ عَيْسَى (١٨٨٥ - ١٩٤١م)

دَرَسَ فِي الْمَدْرَسَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ الثَّانَوِيَّةِ وَنَالَ شَهَادَتَهَا سَنَةَ ١٩٠٠م، وَعَمِلَ مُوظَّفًا فِي بَعْضِ الشَّرَكَاتِ التِّجَارِيَّةِ فِي الْبَصْرَةِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى بَغْدَادَ مُدْرِسًا بِالْمَدْرَسَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ.

(قَالَ مِيرُ بَصْرِي فِي أَعْلَامِ الْأَدَبِ فِي الْعِرَاقِ، ص ٣٠٦): أَصْدَرَ مَجْلَدَ (الْعُلُومِ)، ثُمَّ اعْتُقِلَ سَنَةَ ١٩١٥م بِتَهْمَةِ الْخِيَانَةِ وَسُجِنَ ٦ شَهُورًا، وَبَعْدَ الْإِحْتِلَالِ ١٩١٧م عُيِّنَ مُتَرْجِمًا وَمُعَاوَنًا لِلْحَاكِمِ السِّيَاسِيِّ فِي الْعَزِيزِيَّةِ وَالنَّعْمَانِيَّةِ، ثُمَّ اسْتَقَالَ وَعَادَ لِلتَّعْلِيمِ بِالْمَدَارِسِ الْأَهْلِيَّةِ وَأَصْدَرَ مَجْلَدَ (الْمُؤَرِّخِ).

### خِزَانَتُهُ:

(قَالَ فِيلِيبُ طِرَازِي فِي خَزَائِنِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْخَافَقِينَ ٥٢٣/٢): "أَصَابَتْ هَذِهِ الْأُسْرَةُ نَكْبَاتًا، لَا سِيَّمَا تَفَشَّى الْهَوَاءِ الْأَصْفَرِ سَنَةَ ١٨٣٠-١٨٣١م، أَجْهَزَتْ عَلَى أَغْلَبِ أَفْرَادِهَا وَقَضَّتْ عَلَى خِزَانَةِ مَخْطُوطَاتِهِمْ، وَمِنْ جَمَلَةِ مَا كَانَتْ تَحْوِيهِ: كِتَابُ (الدَّرُّ الثَّمِينُ فِي أَخْبَارِ الذَّمِيْنِ عَلَى عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْمُسْلِمِيْنَ) وَكِتَابُ آخَرٍ لَا يَقْلُ قِيَمَةً يَتَنَاوَلُ أَخْبَارَ الْيَهُودِ مِنْذُ الْقُرُونِ الْقَدِيمَةِ".

وَقَدْ جَدَّدَ رَزُوقُ عَيْسَى خِزَانَةَ أَجْدَادِهِ فَأَطْلَقَ عَلَيْهَا اسْمَ (خِزَانَةِ الْمُؤَرِّخِ) تِمْنًا

بعنوان مجلته، وهي تنطوي على ١٥٠٠ مجلدٍ من المطبوعات مع طائفةٍ صالحةٍ من المخطوطات، ومنها:

- عنوانُ المجد في أحوالِ بغدادَ والبصرةَ ونجد.
- غايةُ المرام في تاريخِ محاسنِ بغدادَ دارِ السلام.

### رؤفائيل بطي (١٩٠٠ - ١٩٥٦م)

رؤفائيلُ بنُ بطرسَ بنِ عيسى بنِ بطي، وُلِدَ في الموصلِ وتخرَّجَ في كليةِ الحقوق ببغدادَ سنةَ ١٩٢٩م، وقرأَ كُتِبَ الأدبِ الحديثة، وترأسَ تحريرَ جريدةٍ (العراق) وأصدرَ مجلةَ (الحرية) وغيرها. انتُخبَ نائباً عن لواءِ البصرةَ في مجلسِ الأمةِ ٦ مراتٍ، ثم نقيباً للصحفيين. من مؤلفاته: (الأدبُ العصريُّ في العراقِ العربيِّ) في جزأين، و(الصحافةُ في العراقِ).

#### خزائنه:

ذُكرَ في دليلِ الجمهوريةِ العراقيةِ لسنةِ ١٩٦٠م: أنشأها في بغدادَ سنةَ ١٩٢٤م، وقد آلتُ بعدَ وفاتهِ إلى أولاده، وفيها ٣٠٠٠ مجلدٍ مطبوعٍ ولا تخلو من مراجعٍ إفرنجيةٍ، وتمتازُ بكونها تحتوي على كلِّ ما كُتِبَ عن العراقِ؛ تاريخه، وأدبه، وأحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية.

### ساسون حsqيل (١٨٦٠ - ١٩٣٢م)

هو وزيرُ الماليةِ العراقيُّ ساسون حsqيل، ينتمي إلى أسرةٍ يهوديةٍ بغداديةٍ عُرِفَتْ بالثروة والتجارة. عُيِّنَ وزيراً للماليةِ خمسَ مراتٍ من أصلِ الوزاراتِ الستِ الأولى لتأسيسِ الدولةِ العراقيةِ، وهذا يدلُّ على مدى تَمكُّنِ هذا الرجلِ من الإدارةِ الماليةِ

وذكائه وإخلاصه للعراق.

خزائنه:

(قال مير بصري في أعلام اليهود في العراق، ص ٧٠): "نظرةً واحدةً إلى مكتبة ساسون التي استولت عليها الحكومة العراقية سنة ١٩٧٠م وضمتها إلى مكتبة المتحف العراقي تدل على ثقافة الرجل وسعة اطلاعه".

حوت مكتبته عيون الأدب العربي القديم، ومطبوعات مصر وبيروت والهند والقسطنطينية ولايبزغ وليدن... إلخ. وفيها طبعات مختلفة من القرآن الكريم وكتب الأدب مثل (صبح الأعشى) للقلقشندي، و(نفع الطيب)، و(خطط المقرئ)، و(الأغاني) للأصفهاني، و(العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي، و(مجمع الأمثال) للميداني. وكتباً قانونية وفقهية ودراسات عن البابية والبهاية والإسماعيلية والقرامطة والفاطمية وكتب الرحلات وغيرها كثير.

ولم تخل مكتبة ساسون حصيل من المؤلفات التي طُبعت في إنكلترا وفرنسا ومصر بعد الحرب العالمية الأولى إلى سنة وفاته، لا سيما كتب هـ ج. ويلز، وبرنارد شو، وإميل لدويغ.

### سلمان الكيلاني (توفي سنة ١٩٣٣م)

هو سلمان بن السيد علي الكيلاني، نقيب الأشراف. كان من الفضلاء والشرفاء، يتخلق بأخلاق الفضيلة، ولي نقابة الأشراف وتولية الأوقاف القادرية، وتولى التدريس في الحضرة القادرية، كما رأس مجلس الوزراء في العهد الملكي العراقي فترة وجيزة في مطلع الثلاثينات. وشيّد بنفسه مسجداً جميلاً عامراً بالصلوات في محلة السنك ببغداد، وحبس له أوقافاً كثيرة وجعل إلى جانب المسجد سقاية.

## خِزَانَتُهُ:

(قال عمادُ عبدُ السلام رؤوف في الآثارِ الخطيةِ في المكتبةِ القادريةِ، ٢٤/١): "إنَّ كثيراً من كتبِ الخِزانةِ القادريةِ مَهورٌ باسمه، وكان قد بذَلَ في سبيلِ جَمْعِ الكتبِ الشيءَ الكثيرَ من المالِ والجهدِ، حتَّى إنَّه كان يَـلجأُ في كثيرٍ من الأحيانِ إلى استكتابِ ما يَـعثرُ عليه من مَخطوطاتٍ في حالِ عدمِ تَمكُّنه من اقتنائِها، وكان يُصحِّحُ هذه النُّسخَ بِنَفْسِه ويُقابِلُها على أصولِها".

## ضياء الدين شكاره (١٩١١ - ١٩٨٣م)

وُلِدَ في بغدادَ وتخرَّجَ في كليةِ الحقوقِ. مارسَ المحاماةَ وعُيِّنَ في مَراكزٍ إداريةٍ منها قائممقامَ مَدِينَةِ مَندلي والتَّجفِ، وهو شاعرٌ وصحفيٌّ أَصَدَرَ جريدةَ (العالم الجديد) وجريدةَ (النداء).

## خِزَانَتُهُ:

(قال المطبُعيُّ): تَرَكَ مَكْتَبَةً عامرةً بالكتبِ والمَخطوطاتِ. وحينَ كان ضياءُ الدين موظفًا في الشُّطْرَةِ، أَطْلَعَ عليَّ الخاقانيُّ على ما عِنْدَه فوصَفَ تِسْعًا منها في بَحْثِه (النوادر المخطوطة في الشُّطْرَةِ)، ونوَّةَ حسيْنُ عليَّ مَحفوظَ بـ ٨٤ مَخطوطًا لَدِيهِ.

حَدَّثَنِي وَلَدُه الأُسْتاذُ مَكرمُ عن الخِزانَةِ فَقَالَ: "كان والدي قد أَهدى قِسْمًا من المَخطوطاتِ النادرةِ إلى مَكْتَبَةِ المَتَحَفِ العِراقِيِّ وأَفَرَدَ لها جَنَاحًا، ووَصَلَ عَدَدُ الكتبِ في خِزانَتِه إلى عِشرينَ أَلْفَ مَجْلَدٍ".

وَحَدَّثَنِي الدُّكْتُورُ عَمادُ عبدُ السلامِ رؤوفُ قَالَ: "كان الأُسْتاذُ ضياءُ الدين شكاره لا يَبْخُلُ على أَحَدٍ في إِعارةِ كُتُبِه أو مَخطوطاتِه، وتَضُمُّ خِزانَتُه نوادرَ المَخطوطاتِ في تاريخِ إِيرانَ".



هو عبّاسُ بنُ محمّد بنِ ثامر بنِ محمّد بنِ جادر العزّاويّ. تخرّج في كلية الحقوق سنة ١٩٢١م. من مؤلّفاتِه: (تاريخ العراق بين احتلالين) ٨ مجلدات، و(عشائر العراق) ٤ مجلدات.

### خِزانَتُه:

إنّ خزانة عبّاس العزّاوي هي أكبرُ وأنفسُ خزانة كتبٍ على الإطلاق، مخطوطاتها تتجاوزُ خمسةَ آلافٍ مخطوطٍ من النَّفائس.

(قال مير بصري): جَمَعَ مَكْتَبُهُ ضَخْمَةً تَعُدُّ عَشْرَاتِ الآلافِ مِنَ الْكُتُبِ وَالْمَخْطُوطَاتِ، وَحِينَ ابْتَنَى دَارَهُ الْجَدِيدَةَ عَلَى نَهْرِ دِجْلَةَ خَصَّصَ الدَّوْرَ الْأَسْفَلَ جَمِيعَهُ لِلْمَكْتَبَةِ الْعَظِيمَةِ، لَكِنَّ الْكُتُبَ بَقِيَتْ تَتَوَافَدُ وَتَتْرَاكُمُ حَتَّى مَلَأَتْ غُرْفَةَ النَّوْمِ، فَقَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ: "أَنْ لَكَ أَنْ تَخْتَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ كُتُبِكَ".

حاولتُ جامعةُ بغدادَ شراءَ المكتبةِ وعَرَضَتْ عليه ١٠٠ ألفَ دينارٍ آنذاك، لكنّ العزّاوي رَفَضَ العَرَضَ وطالَبَ بـ ٢٥٠ ألفَ دينارٍ. وعندما سُئِلَ مرّةً أَنْ يُخْرِجَ كُتُبَهُ لِيَنْتَفَعَ مِنْهَا الْبَاحْثُونَ أَجَابَ بِمُحَدَّةٍ: "إِنِّي حَصَلْتُ عَلَى هَذِهِ الْمَخْطُوطَاتِ وَالْمَطْبُوعَاتِ بِالْجُهْدِ الْجَهِيدِ، وَبَذَلْتُ فِي سَبِيلِهَا النَّفْسَ وَالنَّفِيسَ، فَلِمَاذَا أَنْتُمْ قَاعِدُونَ مُتَقَاعِسُونَ تَعَصُّونَ عَلَى الْفَلَسِ وَالذَّانِقِ بِالنَّوَاجِذِ وَتُرِيدُونَ الشَّيْءَ بِلَا بَذْلِ؟ وَاللَّهِ لَأَحْفَظَنَّ هَذِهِ النُّوَادِرَ فِي الْخَزَائِنِ الْمَغْلُوقَةِ...".

وَمِنْ نَفَائِسِ مَخْطُوطَاتِهَا:

- شَرْحُ دِيْوَانِ الْأَخْطَلِ لِابْنِ حَبِيبٍ (نُسخةٌ فريدة).
- الْبُلْدَانُ لِأَبِي حَسَنِ الْعُمَرَانِيِّ.
- جَامِعُ التَّوَارِيخِ لِرَشِيدِ الدِّينِ.

آلتِ المكتبةُ بعدهُ إلى مكتبةِ المتحفِ العراقيّ. (قال قاسم رجب في مُذكراته): "إنَّ عباسَ العزاوي كان لا يَفْلُتُ منه كتابٌ، والكتابُ الذي لا يَشْتَرِيهِ لا يُباعُ أبداً بَعْدَها".

### عبد الرزاق الحسني (١٩٠٣ - ١٩٩٧م)

أحدُ المؤرِّخينَ العراقيينَ القلائلِ الذينَ اعتنوا بالتأليفِ الخاصِّ بالعهدِ الملكيِّ، وعلى رأسِ مؤلَّفاته (تاريخُ الوزاراتِ العراقية) في ١٠ مجلداتٍ.

#### خِزانته:

(ذُكرَ في دليلِ الجمهوريةِ العراقيةِ لسنة ١٩٦٠م): أنشأها في بغدادَ سنةَ ١٩٢٤م، وفيها زهاءُ ٣٠٠٠ مجلِدٍ مطبوعٍ، واجتمعَ فيها من النشراتِ الرسميةِ التي تتناولُ شؤونَ العراقِ الحديثِ ما ينادرُ اجتماعه عندَ غيره. وصلتْ خِزانتهُ أخيراً إلى سبعةَ عشرَ ألفَ كتابٍ، تمَّ إهداؤها وخُصِّصَ لها جناحٌ في دارِ الكتبِ والوثائقِ الوطنيةِ.

### عبد الصاحب المختار (١٩٢٣ - ٢٠٠٧م)

هو عبدُ الصاحبِ بنُ عباسِ بنِ عبدِ الوهابِ المختار، وُلِدَ في محلةِ الهيتاويينَ وتخرَّجَ في كليةِ الحقوقِ عامَ ١٩٤٧م. شغَلَ مناصبَ إداريةً عديدةً كان آخرها مُستشاراً في مجلسِ شورى الدولة. دَرَسَ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكية وفي مصرَ، وحَصَلَ على براءاتِ اختراعٍ في الشَّعرِ وأوزانهِ والرياضياتِ.

من مؤلَّفاته: (دائرةُ الوحدةِ في أوزانِ الشعرِ العربيِّ)، وديوانُ (ألقُ الجوى)، و(البنيةُ الرياضيةُ والنسبيةُ العدديةُ). وله ثلاثةُ دواوينَ مخطوطةٍ: (عَبَقُ اللَّمى)، (نَغْمُ الهوى)، (أصداءُ الحياة).

#### خِزانته:

له خِزانةُ كتبٍ ضخمةٌ ناطحتْ ٣٠٠٠ مجلِدٍ، غالِبُها نواذرٌ من طبعاتٍ أولى وحجريةٍ،

تُقسَّم إلى القانون والأدب واللغة والفلسفة، إضافةً إلى الدَّورياتِ الكاملةِ مثلُ مجلةِ الموردِ ولغةِ العربِ.

ومن نوادرِ المَكْتَبَةِ: (شَرْحُ شذوَرِ الذهبِ) لابنِ هشامٍ، وكتابُ (خزينةِ الأسرارِ)، ونُسخةٌ نادرةٌ جدًّا لديوانِ المتنبي.

بعدَ وفاته آلتْ مَكْتَبَتُهُ إلى ولدهِ الأستاذِ باسلِ المختار، الذي أهدى قِسْمًا كبيرًا منها إلى جامعاتِ بغدادَ والموصلِ والأنبارِ.

### عماد عبد السلام رؤوف (١٩٤٨ - ٢٠٢١م)

وُلِدَ في بغدادَ وتخرَّجَ في كليةِ الآدابِ، حَصَلَ على الدكتوراه من جامعةِ القاهرةِ سنةَ ١٩٧٦م. ترأَّسَ مَرَكزَ إحياءِ التراثِ العربيِّ بجامعةِ بغدادَ، وهو من أبرزِ المحقِّقينَ العراقيينَ.

من تحقيقاتِهِ: (تاريخُ الأسرِ العلميةِ في بغدادَ)، (حديقةُ الزوراءِ في سيرةِ الوزراءِ). ومن مؤلَّفَاتِهِ: (مدارسُ بغدادَ في العصرِ العباسيِّ)، و(موسوعةُ الآثارِ الخطيةِ في المكتبةِ القادريةِ).  
خِزانَتُهُ:

حدَّثني الدُّكتورُ عمادُ عبد السلام، قالَ: "بَلَغَ عددُ مُحتوياتِ مَكْتَبَتِي الشخصيةِ نحوًا من عِشرينَ ألفَ كتابٍ".

تَبَرَّعَ بمَكْتَبَتِهِ الأولى للمركزِ الثقافيِّ البغداديِّ، وكانت تحتوي على أكثرَ من ١٠٠٠ كتابٍ في التاريخِ واللغةِ، وله مَكْتَبَةٌ أخرى في بغدادَ تَضُمُّ أُمَمَ كتبِ التاريخِ ونوادرِ المطبوعاتِ.

## كمال الدين الطائي (١٩٠٧ - ١٩٧٧م)

هو كمال الدين عبد المحسن بن الحاج بكتاش الطائي. وُلِدَ في بغدادَ ومارسَ التعليمَ والإمامةَ والخطابةَ، وكان عُضْوًا في مجلسِ الأوقافِ الأعلى.  
خزائنه:

(ذُكِرَ في دليلِ الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠م): أنشأها في بغدادَ سنة ١٩٢٦م، تضمُّ زهاءَ ٧٠٠٠ مجلدٍ بينها ٨٠٠ مخطوطٍ تبحثُ في شتّى العلوم العربية والإسلامية.  
(ذكر الدروبي) أنَّ بعضَ مخطوطاتِ عبد الغني جميل صارت في مكتبة كمال الدين الطائي.

(قال السامرائي): إنَّ عبدَ المحسن الطائي (ولده) كان خطاطًا بارعًا، له كتبٌ مخطوطةٌ موجودةٌ في مكتبة والده.

## كوركيس عواد (١٩٠٨ - ١٩٩٢م)

وُلِدَ في الموصلِ وعيَّن أمينًا لمكتبة المتحف العراقي، ويُعتبرُ من كبارِ المختصين بالبحثِ في خزائنِ الكتبِ. من مؤلفاته: (معجمُ المؤلفين العراقيين) ٣ مجلدات، و(خزائنُ الكتبِ القديمة في العراق).

خزائنه:

تملَّكَ مكتبةً نفيسةً ضخمةً آلت إلى الجامعةِ المستنصرية، تضمُّ ٩٠٠٠ مجلدٍ بينها ٥٢٤ مخطوطًا، وتمتازُ بأنها تضمُّ معظمَ ما كُتِبَ عن العراقِ منذُ بدءِ الطباعة.  
ومن نفائسِ مخطوطاتها:  
• عجائبُ المخلوقاتِ (تاريخه ٨٨٩هـ).

- ديوانُ ابنِ المعلِّمِ الواسطيِّ.
- الحماسةُ لأبي تمامٍ (نُسخة قديمة جدًّا).

(ذُكِرَ في مَجَلَّةِ المَجمعِ العِلْمِيِّ العَرَبِيِّ بدمشق سنة ١٩٤٦م) أنَّ خِزانَتَه فيها ٢٣٤ مَخْطوطًا.

### محمد عبد الغني المختار (وُلد سنة ١٩٤٢م)

وُلد في بغداد. وتخرج في معهد المعلمين سنة ١٩٦٨م، ثم أكمل دراسته في الجامعة المستنصرية كلية الآداب وتخرج فيها سنة ١٩٧٦م.

مارس التدريس مدة أربعة عقود متنقلًا بين كثير من المدارس؛ منها مدرسة القدوة ومدرسة الأنباريين ومدرسة أبي الفداء وفي مدارس التعليم الثانوي أستاذًا للغة العربية والتربية الإسلامية. وخلال الأربعين سنة التي قضاها في التدريس تتلمذ له كثيرٌ من الشخصيات البارزة في المجال الأدبي والعلمي حتى أُحيل إلى التقاعد سنة ٢٠٠٨م.

حصل على كثير من شهادات التقدير.

#### خزائنه:

حدثني الأستاذ محمد أن خزائنه تتجاوز الألف مجلد متوزعةً بين الدين والأدب والتاريخ والسياسة، وله كثير من الدوريات التي التزم بها منها مجلة "العربي" وعنده جميع أعدادها خلال خمسة عقود، ومجلة "المعلم الجديد" و"الموسم" للطريحي، وكثير من كتب النقد والخطابة وفيها نواذر من الطباعات الأصلية، إضافة إلى كتب كثيرة في مجال اللغة العربية من معاجم وشروحات وكتب الأشباه والنظائر وغيرها. وما زال مستمرًا على شراء الكتب ورغد مكتبته.

ووالده العلامة عبد الغني المختار كانت له خزانة أيضًا آلت إلى ابنه الأستاذ محمد.



## محمد حسين الكاظمي (١٩٣٠ - ٢٠١٠م)

هو محمد حسين رؤوف هاشم الكاظمي. تخرج في المدرسة الغربية للبنين ثم التحق بكلية الهندسة بجامعة بغداد، وبعد عام أُوفد بزمالة دراسية إلى بريطانيا لإتمام دراسته في جامعة "ويلز"، حيث حصل على بكالوريوس الهندسة الكهربائية وعاد إلى بغداد سنة ١٩٦١م. وفي عام ١٩٦٥م أُوفد إلى الولايات المتحدة مدة سبعة أشهر للاطلاع والتدريب على محطات شركة GE.

تدرج في الوظائف وكان آخرها مستشاراً في وزارة الكهرباء حتى وفاته سنة ٢٠١٠م. أنيطت إليه عدة أعمال من ضمنها تأسيس محطات سد الموصل ومحطة الهارثة في البصرة ومحطة كهرباء الناصرية ومحطة سد حديثة.

### خزائنه:

له خزانة كتب متنوعة من الأدب والسياسة والدين والهندسة وفيها آلاف الكتب والدوريات باللغتين العربية والإنكليزية وفيها كتب التاريخ والنقد، وقد كان له اعتناء خاص بكتبه فأفرد لها قسماً في داره، وقد اطلعت على قسم منها وهي الآن برعاية ولده الأستاذ المهندس حسن الكاظمي.

## محمد زكي الفائز (وُلد سنة ١٩٥٣م)

هو محمد زكي حسين الفائز ووالده الحاج الشيخ حسين الفائز النائب في البرلمان العراقي في العهد الملكي لدورتين عن البصرة.

حصل على بكالوريوس هندسة إلكترونية من الجامعة التكنولوجية ١٩٧٦م، ثم الماجستير من أكاديمية "برنو" ١٩٨٣م، ثم أتبّعها بالدكتوراه من ذات الأكاديمية سنة ١٩٨٧م تخصص هندسة سيطرة وحاسبات.

ومارس التدريس في الكلية الهندسية العسكرية ثم الأكاديمية العسكرية ثم استقر في جامعة النهرين منذ عام ١٩٩٩م. وتدرج في الوظائف وآخرها عميد كلية هندسة المعلومات وحاصل على لقب الأستاذية.

مارس التدريس أكثر من ثلاثين سنة وأشرف على رسائل ماجستير وأطاريح دكتوراه، وله أكثر من ٧٥ بحثًا منشورًا في مجلات عالمية وعربية ومحلية إضافة إلى كتاب مطبوع وآخر مترجم.

أُوفد بزمالة بحثية إلى جامعة "مشيغان" ٢٠١١م وجامعة "أريزونا" ٢٠١٣م، كما حصل على عضوية كثير من اللجان والهيئات منها عضوية اللجنة المركزية للإبداع العلمي ٢٠١٣م وعضوية هيئة تحرير مجلة كلية الهندسة جامعة النهرين وعضوية تحرير مجلة هندسة السيطرة والحاسبات والاتصالات في الجامعة التكنولوجية، حاصل على لقب الأستاذ الأول كلية الهندسة جامعة النهرين سنة ٢٠١١م وغيرها.

#### خزائنه:

الأولى: أنشأها في "جيكسلوفاكيا" (التشيك حاليًا) وكانت خزانة يستعين بها لإتمام دراسته وقد أعاد قسمًا كبيرًا منها إلى بغداد.

والثانية: ببغداد وكانت متضمنةً على رسائل وأطاريح كثيرة في علم الهندسة ونظم الحاسبات ومراجع في اللغات العربية والإنكليزية والجيكية لإتقانه اللغات الثلاثة، إلا أن بعض أيادي التخريب امتدت فعبثت بها وذهب قسم مهم منها.

والخزانة الثالثة: هي الملازمة له وفيها كتب الهندسة وعلومها ومعاجم وبعض كتب الأدب والسياسة ومجموعة كبيرة من بحوثه ودراساته في مجال الهندسة والتي ما زالت مخطوطة وكتب مترجمة ينوي القيام بطبعها إضافة إلى الكثير من الرسائل

والأطاريح التي لم تُطبع.

### محمد سعيد الراوي (تُوفي سنة ١٩٣٦م)

(ذكر عماد عبد السلام رؤوف ترجمته في تحقيق "خير الزاد"، قال): هو من أسرة حُسينية عريقة، وُلد في "عانة" وتلقى معارفه الأولية ثم قدم مع أبيه بغدادَ ودرس في المدرسة الرشدية ثم المدرسة القادرية. ومن شيوخه: الشيخ عباس حلمي القصاب، ومحمود شكري الآلوسي العلامة، والشيخ عبد الرحمن القرداغي.

مارس التدريس في مدرسة خضر إلياس وخطيباً في جامع التكية الخالدية ومدرساً للعلوم الدينية في دار المعلمين، وتولى تدريس "مجلة الأحكام العدلية" في جامعة آل البيت وغيرها.

من مؤلفاته كتاب "خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد"، وكتاب "الأسر العلمية في بغداد" وهما كتابان غاية في الأخبار الحسان.

تُوفي سنة ١٩٣٦م ودُفن في مقبرة معروف الكرخي.

#### خزائنه:

(ذكر عماد عبد السلام رؤوف في ترجمته): كان له خزانة تحتوي على نفائس المخطوطات إلا أن سلطة الاحتلال سنة ١٩١٩م داهمت بيته وصادرت نفائس الكتب وأبعدته إلى البصرة ثم الهند إلى سنة ١٩٢١م حيث عاد إلى بغداد.

(قال أسامة النقشبندي في "خزائن الكتب في العراق" ص ٨٦): هي مكتبة خاصة جمعها المرحوم الشيخ محمد بن عبد الغني الراوي البغدادي وآلت إلى عائلته، وتضم من مقتنياتها ١٨٨ مخطوطاً تتوزع على العلوم والمعارف العربية والإسلامية المختلفة وفي مقدمتها علوم القرآن الكريم والحديث النبوي، وأقدمها يرجع إلى القرن التاسع

للهجرة، وفيها مخطوطات بخط يد صاحبها.

### محمود شكري الألوسي (١٨٥٦ - ١٩٢٤م)

وُلد في بغداد، وجده هو العلامة الكبير والفهامة صاحب التفسير المسمى "روح المعاني" الإمام أبو الثناء الألوسي. تخرج محمود شكري بأبيه السيد عبد الله ثم عمه أبي البركات نعمان وأخذ عن علماء عصره.

(قال المطبعي في موسوعة أعلام وعلماء العراق، ص ٧٥٠): تعلم التركية والفارسية ومال منذ شبابه إلى نزعة التحرر من التقاليد العلمية الصارمة وسلك منهج الاجتهاد فحارب البدع وانتشر صيته وسمعته ولم يتجاوز الثلاثين من عمره. وحالما صدر كتابه (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) نال عنه جائزة أوسكار الثاني ملك السويد والنرويج (التي أصبحت فيما بعد جائزة نوبل).

وعندما احتل الإنكليز بغداد أرادوه على الإفتاء فأبى ثم فاضوه على إحداث منصب قاضي القضاة له فاعتذر وبعثوا إليه بالذهب فرده في شمم وهذا منهجه.

بلغت مؤلفاته ٦٠ كتاباً أشهرها "غاية الأمان" في جزأين، وكتاب "النحت"، و"تاريخ مساجد بغداد وآثارها"، و"المسك الأذفر" في تراجم القرن الثالث عشر.

أقول: وقد ذكرنا مصادر ترجمته في كتابنا "التذكرة لأهل المئة المتأخرة" لمن أراد. خزانته:

(ذكر جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ١٣٢/٤): مكتبة السيد الإمام الكبير محمود شكري الألوسي هي من المكتبات الجليلة المشتملة على عيون الكتب ومن عرف صاحبها ومنزلته من الأدب علم حقيقة قدرها.

(ذكر فيليب طرازي في خزائن الكتب العربية في الخافقين ٢٩٨/١): أنشأها العلامة السيد محمود شكري الألوسي مؤلف كتاب (بلوغ الأرب في معرفة أخبار العرب) الذي نال الجائزة الأولى في مؤتمر المستشرقين بمدينة استكهولم وتشتمل خزائنه على أحاسن الكتب ونوادرها.

### آل الجميل

أسرة آل الجميل عربية من الأسر المعروفة بعلو المكانة ورفعة المقام والوجاهة والزعامة في السياسة والعلم والأدب. ومن مشاهير هذه الأسرة عبد الغني الجميل صاحب الصولة والجولة، ومنهم غياث الدين (ت ١٩١١م)، ومنهم محمد أفندي الجميل (ت ١٩٠٠م). وآل الجميل أصل سكناهم سورية، ثم نزحوا فسكنوا (حديثة)، ثم سكنوا بغداد وشيّدوا مسجداً جامعاً مقابل دارهم في (قنبر علي). (انظر: الدروبي، البغداديون).

### خزائنتهم:

(قال فيليب طرازي في خزائن الكتب العربية في الخافقين ٣٠٠/١): "كان في خزانة كتب آل الجميل في بغداد كتب نفيسة بل فريدة، وأكثرها من المخطوطات التي يندر وجود مثلها في خزائن أخرى، وكان أصحابها من المحفظين والمعتنين بها إلى درجة أنهم كانوا يضمنون على الناس برؤيتها". وأصاب بيت آل الجميل سنة ١٩١٤م حريق فجائي هائل ألهم خزانة كتبهم، ولم يسلم منها إلا بعض الكتب التي لا أهمية كبرى لها ما خلا كتابين مهمين؛ (المثالب والمناقب) لابن الكلبي وكتاب (تاريخ ابن أبي عدسة).

(قال العزاوي في تاريخ العراق بين احتلالين ٢٤/٧): "احترقت الدار مرة أخرى في ٣ شوال ١٣٣٢هـ، فقضى على ما بقي من الكتب وكانت نفيسة جداً".



والمُلاحَظُ أنَّ هذه الدارَ هي نَفْسُها دارُ عبدِ الغني جميل التي ذكّرناها، ولكنْ بعدَ وفاتِهِ استمرَّت المكتبةُ فيها، وأعادَ هو وأولادُه جَمَعَ الكُتبِ والمحافظةَ على ما بَقِيَ، لكنَّ الحريقَ الذي نَشَبَ في الدارِ أَكَلَ الكُتبَ.

### آل السويدي

(قال كوركيس عواد في مجلة مَعَهْدِ المَخطوطاتِ، المجلد ٢٦): مَخطوطاتُ السويديِّ كانت في مكتبةِ يوسف السويديِّ ثم انتقلتُ من بعْدِهِ إلى أولادِهِ، ولا نَعْلَمُ ما مَصيرُها اليومَ، وفيها طائفةٌ من المَخطوطاتِ.



# مُصْحَفُ أُمَا جُورَ تَارِيخُهُ وَوَصْفُهُ وَمَكَانَتُهُ

بِه أحمد وسام شاكر  
باحث ومترجم ومحقق عراقي  
مؤسس مبادرة مخطوطات القرآن الكريم

## مقدمة في تاريخ مخطوط مصحف أماجور واكتشافه:

يُعد مصحف أماجور أحد أقدم المصاحف العباسية المخطوطة معروفة تاريخ النسخ، أوقفه أماجور والي العباسيين في الشام، على أحد مساجد مدينة صُور بלבnan عام ٢٦٢هـ للانتفاع العام.

يقع المصحف في الأصل في ثلاثين جزءًا (ربعة قرآنية)، وقد عُثر على أجزاء منه بقبة الخزنة بالجامع الأموي بدمشق في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي<sup>(١)</sup>، ثم نقله العثمانيون مع باقي الرقوق القرآنية الموجودة بالقبة إلى إسطنبول إبّان الحرب العالمية الأولى، فذهب عدد منها إلى قصر طوب قابي، واستقر الباقي بمتحف الآثار التركية

---

(١) يقول الأستاذ محمد كرد علي: "ومن الخزائن المشهورة التي بعثرت في عهدنا ولم نعرف متى جمعت خزانة قبة صحن الجامع الأموي، وكانت مملوءة برقوق نفيسة فتحت سنة ١٣١٧هـ بأمر السلطان عبد الحميد الثاني إجابة لمقترح الإمبراطور غليوم الثاني الألماني فعثروا فيها قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي..." (خطط الشام، ١٩٤/٦).

والإسلامية بقصر إبراهيم باشا ضمن ما صار يُعرف اليوم بمجموعة (أوراق الشام) وهي زهاء مئتين وخمسين ألف رَقٍّ قرآني<sup>(١)</sup>.

ويعود الفضل في الكشف عن أمر هذا المصحف إلى المستشرق الألماني برنهارد موريتز، الذي كان يشغل آنذاك منصب مدير عام الكتبخانة الخديوية في القاهرة؛ فقد نشر عام ١٩١٣ مقالاً بالإنكليزية سماه «الكتابة العربية» ضمَّنه صورة ضوئية من المصحف المذكور تحتفظ به المكتبة الخديوية (أي دار الكتب المصرية)<sup>(٢)</sup>. ولسنا نعلم الكيفية التي سافرت بها بضع أوراقٍ من مصحف أماجور من دمشق إلى القاهرة، لكننا على دراية بأن العالم واللاهوتي الألماني برونو فيوليت، الذي اختير لدراسة المخطوطات اليونانية في قبة الخزنة عام ١٩٠٠، قد استعان بمواطنه موريتز لخبرته بعلم تطوُّر الخطوط العربية، فأطلعهُ على شيءٍ من المخطوطات القرآنية التي وُجِدَتْ في القبة، ومن ثَمَّ نتصور أنَّ موريتز قد خصَّ نفسه بهذه الأوراق القرآنية لاعتبار أصالتها وندرتها؛ فضَمَّها لرصيد المكتبة الخديوية التي كان ناظرًا عليها في الأعوام ١٨٩٦ إلى ١٩١١. ومن المعروف أن موريتز كان لا يألُو جهدًا في اقتناء نفائس الآثار والمخطوطات لصالح دار الكتب<sup>(٣)</sup>.

وفي عام ١٩٥٥، نبَّه المستشرق رايس إلى وجود قطعة أخرى من مصحف أماجور، تحتفظ بها مكتبة جامعة كامبردج البريطانية. وتشير السجلات إلى أن المكتبة اشترت هذه القطعة، وعددًا من الرقوق القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي، من المستشرق والمستكشف الإنكليزي إدوارد بالمر وزميله عالم الطبيعيات ف. دريك عام ١٨٧٨م. وقد ظهر لي من خلال هذا البحث أن بالمر زار الجامع الأموي بدمشق حوالي سنة

---

١ See The 1400th Anniversary of the Qur'an: Museum of Turkish and Islamic Art Qur'an Collection (Istanbul: Museum of Turkish and Islamic Art, 2010).

(٢) انظر: مادة «Arabia»، دائرة المعارف الإسلامية، ط١، ١٩١٣، مج١، اللوحة رقم IV/2.

(٣) انظر: أيمن فؤاد سيد، دار الكتب المصرية بين الأمس واليوم والغد، ص: ١١٨.

١٨٧٠م. فعلى هذا يكون بالمر سابقاً على موريتز في الاستحواذ على أوراق من مصحف أماجور في أواخر القرن التاسع عشر، ليدفع بها إلى مكتبة جامعة كامبردج نظير مبلغ معلوم. وغالب الظن أن بالمر اشترى هذه الرقوق من أحد السماسرة أو تجار الكتب الدمشقيين، ويحتمل أن يكون قد أخذها من مكتبة الجامع الأموي<sup>(١)</sup>.

وفي ثمانينات القرن المنصرم، تمكن فرانسوا ديروش من تقفي أثر القسم الأكبر من مصحف أماجور، وذلك أثناء عمله على مجموعة «أوراق الشام» التي يحتفظ بها متحف الآثار التركية والإسلامية. وكما أسلفت، فقد نقل العثمانيون هذه المجموعة الخطية من دمشق إلى إسطنبول إبان الحرب العالمية الأولى، فكان من بينها (٢٤٢) ورقة من مصحف أماجور، مُفرقة ضمن أرقام جرد مختلفة<sup>(٢)</sup>.

وقد تنبّه الباحثون في تلك الفترة الزمنية -أي عقد الثمانينات- إلى وجود صحيفة من مصحف أماجور، عُرضت في مركز الملك فيصل للأبحاث والدراسات الإسلامية بمناسبة تدشين صالة عرض المخطوطات فيه عام ١٩٨٥<sup>(٣)</sup>. وقد زرتُ المركز عام ٢٠١٨، مؤملاً النفس بالاطلاع على هذه الصحيفة القرآنية؛ فأخبرتُ أنها ليست من مقتنيات المركز، بل كانت مُعارة من إحدى المؤسسات العلمية في وقتٍ مضى، دون التصريح باسم تلك المؤسسة.

---

١ Fabio Ioppolo, "The Sister, the King, and Yet Another Consul: Additional Evidence of Early European Interest in the Qubbat al-khazna," in The Damascus Fragments: Towards a History of the Qubbat al-khazna Corpus of Manuscripts and Documents, ed. Arianna D'Ottone Rambach, Konrad Hirschler, and Ronny Vollandt (Beirut: Ergon Verlag, 2020), p. 105.

٢ François Déroche, "The Qur'an of Amagur," Manuscripts of the Middle East 5 (1990-1991), p. 65.

(٣) صدر في ذلك فهرسٌ مُصوّر بعنوان: وحدة الفن الإسلامي: معرض عن الفن الإسلامي بقاعة الفن الإسلامي بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

وفي عام ١٩٩٦، أهدى رجلٌ يُدعى رالف باندرو ويلسون<sup>(١)</sup> الصحيفة التي كانت معروضة في المركز السعودي، إلى متحف الأشموليان التابع لجامعة أكسفورد، وهي موجودة فيه إلى يوم الناس هذا. وثمة احتمال قائم أن يكون رالف على علاقة بسمسار كان له اتصال بالمستشرق والمؤرخ الفرنسي جان سوفاجيه (ت ١٩٥٠)، الذي اشترى بضع أوراق قرآنية من دمشق في أربعينات القرن الماضي<sup>(٢)</sup>.

### والي العباسيين أماجور التركي<sup>(٣)</sup>:

تشير المصادر التاريخية الإسلامية إلى أن الخليفة المعتمد على الله العباسي ولى أماجور مقاليد دمشق وأعمالها سنة ٢٥٦هـ، فسار إليها في ألف رجل، فلما قرب من أبوابها أنهض إليه عيسى ابن الشيخ ولده منصورًا في عشرين ألف مقاتل، فانهزم عسكر منصور وقتل منصور، ووهن عيسى وفرّ إلى أرمينية، واستقر الأمر لأماجور. ونقل ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عبد الله راشد الدمشقي المُحدث قوله: «رأيتُ أماجور وكان أميرًا مهابًا ضابطًا لعمله حشماً شجاعاً لا يقطع في جميع أعماله الطريق»<sup>(٤)</sup>.

(١) "رالف" هذا عالمٌ آثارٍ بريطاني، عمِلَ رئيسًا للمعهد البريطاني للآثار الأفغانية ابتداءً من عام ١٩٧٦. وقد اتهمته الحكومة الأفغانية بسرقة آثارها وتهريبها خارج البلاد، فحكمت عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى عشر سنوات، وقد حُلِيَ سبيله عام ١٩٨٢.

٢ François Déroche, "The Qur'anic Collections Acquired by Wetzstein," in Manuscripts, Politics and Oriental Studies: Life and Collections of Johann Gottfried Wetzstein (1815–1905) in Context, ed. Boris Liebrecht and Christoph Rauch (Leiden–Boston: Brill, 2019), p. 99.

(٣) انظر ترجمته في: الكامل في التاريخ (٢٩١/٦)؛ تاريخ الرسل والملوك (١٧٤/٩-١٧٥)؛ تاريخ مدينة دمشق (٢١٨/٩-٢٢٠)؛ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (٩٣-٩٢/١٠)؛ الوافي بالوفيات (٢١٦/٩).

(٤) تاريخ مدينة دمشق (٢١٨/٩).



ويقول الذهبي عنه: «ولي نيابة دمشق للمعتمد فبقي عليها ثمان سنين. وكان شجاعاً مهيباً ظالماً»<sup>(١)</sup>.

ويقول الصفدي في ترجمته: «أما جاور التركي أمير دمشق أيام المعتمد؛ كان مهيباً شجاعاً، أُمِنَت الطرق في أيامه والحُجَّاج، وكان الشام أيامه مثل المهد»<sup>(٢)</sup>.

ومن أعماله الخيرية: تأمين الطُّرُق والحُجَّاج وبناء خان بالخواصين بدمشق كُتِب على بابه: مئة عام وعام، فعاش بعد ذلك مئة يوم ويوم، ووقف مصحف كوفي يتألف من ثلاثين جزءاً في صندوقين ودار له بمدينة صُور.

مات أما جاور بدمشق سنة ٢٦٤هـ، وتولَّى الحكم بعده ولده علي، ثم تحرك أحمد بن طولون من مصر واستولى على الشام<sup>(٣)</sup>.

### وصف مخطوط مصحف أما جاور:

كُتِبَ مصحف أما جاور بما يصطلح عليه اليوم الخط الكوفي ذي الزوايا الهندسية، وهو يندرج ضمن النمط العباسي **D.I** وفق تصنيف ديروش للخطوط القرآنية المبكرة. وهو أسلوب خطي شائع في مخطوطات قرآنية مؤرخة من القرنين الثالث والرابع الهجريين<sup>(٤)</sup>. وأقرب المصاحف منه زمنًا؛ مُصْحَفُ محفوظ اليوم بمكتبة تشيستر بيتي (دبلن) برقم Ms. ١٤٢١، تشير وقفيته أنه كان في ثلاثين جزءاً، أوقفه على المسجد الجامع بدمشق عبد المؤمن بن أحمد في شهر ذي القعدة من سنة ٢٩٨هـ<sup>(٥)</sup>.

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٣١/٧).

(٢) الوافي بالوفيات (ج ٧/٣٤٤).

(٣) تاريخ مدينة دمشق (٢٢٠/٩).

؛ F. Deroche, The Abbasid Tradition, pp. 36-37.

◦ A. J. Arberry, The Koran illuminated, p. 8.

ويتميز هذا الأسلوب الخطّي -بعبارة شيلا بلير-: «بمدّة هلالية الشكل على الألف، مع ذيل في نهاية حرف النون المتطرف الذي يتّسع تدويره شيئاً قليلاً في نهايته»<sup>(١)</sup>.

والمصحف خالٍ من علامات الإعجام لتمييز الحروف المتشابهة في الرسم، في حين تستعمل النقط الحمراء المدورة لبيان علامات الإعراب، وكذا النقاط الخضراء المدورة لتمييز أوجه القراءات المختلفة.

وتكتب فواتح السور باللون الذهبي وتشتمل على ذكر اسم السورة وعدد آيها. ولا توجد علامة للفصل بين الآيات، وبدلاً من ذلك يوضع حرف الهاء (هـ) المذهب بعد انتهاء خمس آيات (علامة التخميس) عملاً بنظام أبجد هوز، وتُرسَم دائرة حلقيّة مذهبة تكتب بداخلها أرقام الآيات العشريّة (علامة التعشير). وتقسم الكلمة الواحدة بين سطرين، وأحياناً بين صفحتين.

### وقفية مصحف أماجور:

كُتِبَ أعلى وجه كل ورقة من المصحف عبارة: «وقفها أماجور» و«أوقفها أماجور»<sup>(٢)</sup>. وقد احتفظت لنا مجموعة (أوراق الشام) في إسطنبول بوقفيتين من المصحف، مؤرخة بشهر شعبان ورمضان من سنة ٢٦٢هـ.

كُتِبَت الوقفية الأولى عند بداية الجزء الرابع من المصحف، قرأتها:

«[واحتسب] با فيمن يقرأ فيها ولا يهَب ولا يحال فيها بحيلة

(١) شيلا بلير، كتابة كلمة الله، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ص: ٢٤-٢٥.

Sheila Blair, "Transcribing God's Word," p. 77.

(٢) فرانسوا ديروش، المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠١٠م، ص: ٤٨٨.

تُبطل هذا الوقف أو تزيله فمن فعل ذلك من جميع الناس  
فقد باء بغضب من الله ورسوله وهو في أضيق الحرج وذلك  
في شعبان سنة اثنتين وتسعين ومئتين».

وكتبت الوقفية الثانية في مجلد ينتهي عند الآية ١١٤ من سورة طه (الجزء السادس  
عشر في المصاحف المطبوعة اليوم)، قرأتها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وقف هذه الأجزاء وهي ثلاثون  
جزءًا في صندوقين، أماجور مولى أمير المؤمنين، وداره التي  
وقفها بمدينة صور، على أن يقرأ فيها طلبًا لثواب الله عز  
وجل واحتسابًا فيمن...<sup>(١)</sup> لا يُبطل هذا الوقف أو يزال فمن  
فعل ذلك من جميع الناس فقد باء بغضب من الله ورسوله  
وهو في أضيق الحرج وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين  
وستين ومئتين».

فقد أوقف أماجور الأجزاء الثلاثين -التي حُفِظَتْ في صندوقين نظرًا لكبر  
حجمها- بمدينة صور واشترط الواقف أن تقرأ هذه الأجزاء القرآنية في تلك المدينة  
احتسابًا وطلبًا لثواب الله، وأن لا يبطل الوقف أو يزال بحيلة من الحيل أو يُوهَب، وأن  
من يفعل ذلك فقد باء بغضب من الله ورسوله.

وكما تنص الوقفية المؤرخة في شهر رمضان ٢٦٢هـ، فقد حفظت أجزاء مصحف  
أماجور الثلاثين في صندوقين. وقد بيّنت الباحثة شيلا بلير أن حفظ المخطوطات  
القرآنية في صناديق خشبية أو معدنية ظاهرة معروفة في التاريخ الإسلامي المبكر،

---

(١) هناك خروم في المخطوط أذهبت بكلمات هذا الجزء، ولكن اعتماداً على نص الوقفية السابق نعتقد أن  
الجزء المفقود هو: يقرأ فيها ولا يُهَب ولا يحال فيها بحيلة.

حيث نقل لنا السهمودي (ت ٩١١هـ) عن ابن زبالة (ت ١٩٩هـ) عن الإمام مالك بن أنس (ت ١٩٧هـ) أن الحجاج بن يوسف الثقفي أنفذ إلى المسجد النبوي بمصحف وُضِعَ في صندوق عند يمين الأسطوانة التي جعلت علماً لمقام النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت تفتح كل يوم خميس وجمعة ويُقرأ فيه في صلاة الصبح<sup>(١)</sup>.

**ونخلص** من كل ما سبق إلى وجود حوالي ثلاثمئة ورقة من مصحف أماجور مفرقة في مجموعات إسطنبول، وكامبردج، والقاهرة، وبرلين، وأكسفورد، ودمشق. وإذا علمنا أن الإحصاءات وجدت أن المخطوط الأصلي كان في حدود أربعة آلاف ورقة<sup>(٢)</sup>، فإن المتبقي من أوراق مصحف أماجور اليوم لا يتجاوز عُشر الأصل!



[صحيفة من مصحف أماجور، بمتحف الأشموليان التابع لجامعة أكسفورد،

برقم EA ١٩٩٦، ٥٤]

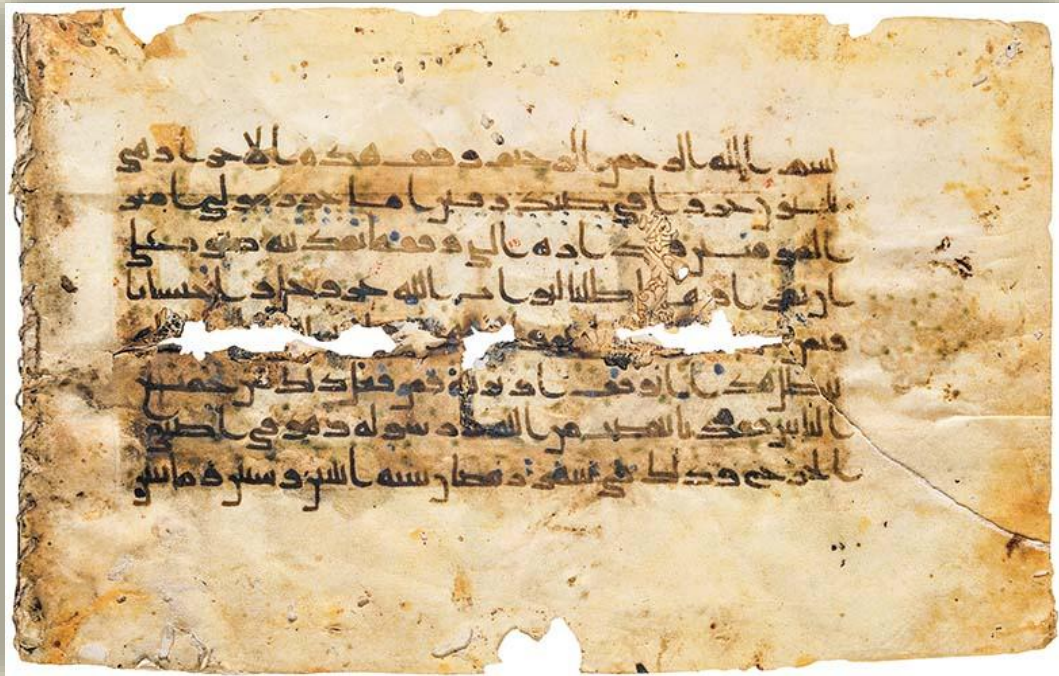
(١) انظر: شيلا بلير، كتابة كلمة الله، ص: ٢١. نقلاً عن: السهمودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (١٩٩/٢).

(٢) فرانسوا ديروش، استعمالات القرآن بوصفه كتاباً مخطوطاً، مجلة ألباب، العدد ٦، صيف ٢٠١٥، ص: ١٥.





[ورقة من مصحف أماجور، وتظهر علامة آية مذهبها بداخلها رقم "ثمانون". محفوظة بمكتبة جامعة كامبردج، مخطوط برقم Add. 1116]



[وقفية مصحف أماجور المؤرخة في رمضان سنة ٢٦٢هـ، في متحف الآثار التركية والإسلامية، مجموعة أوراق الشام، مخطوط برقم SE 13114]





[غرفة عرض المخطوطات، بمتحف الآثار التركية والإسلامية]



# بَغْدَادُ الْأَسْمَاءِ وَالْجُذُورِ الْحَضَارِيَّةِ

د. معتمد المفتي  
باحث ومؤرخ عراقي

## مقدمة:

يضمّ هذا البحث محاور جاءت في إطار مقارنة علمية شاملة تسعى إلى تتبع الجذور التاريخية واللغوية والجغرافية لمدينة بغداد، ومفهوم العراق في الوعي العربي والإسلامي، من خلال الربط بين المنهج التاريخي الكلاسيكي والمصادر الأثرية والنصوص القديمة. إذ ينطلق البحث من دراسة تطوّر كتابة التاريخ عند العرب المسلمين بوصفها الإطار المنهجي الذي تشكّلت في ظلّه مفاهيم المكان والزمان والرواية التاريخية، ليمهّد بذلك لفهم كيفية تناول المدن، وفي مقدمتها بغداد، في كتب الخطط والتواريخ ضمن التراث العربي الإسلامي.

كما يتوسّع البحث في تحليل الأصل اللغوي لمصطلح "العراق" وتحولات دلالاته عبر العصور، وصولاً إلى دراسة اسم "بغداد" في النصوص المسماة والمصادر التاريخية المختلفة، ومناقشة فرضيات أصل التسمية في ضوء الشواهد الأثرية والنصوص القديمة. ويختتم مسار هذا البحث بمحور جغرافي تاريخي يسلّط الضوء على "صورة

بغداد" ومحيطها المكاني قبل تشييد المدينة المدورة في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، بما يتيح رؤية متكاملة تجمع بين البعد التاريخي واللغوي والجغرافي في فهم نشأة المدينة وتطورها الحضاري.

### أولاً- نبذة تاريخية ومنهجية عن كتابة التاريخ عند العرب المسلمين:

اهتمّ العرب المسلمون بتدوين الحوادث التاريخية منذ القرن الأول الهجري، وكان أوائل من تصدّى لهذا العمل أبناء الصحابة والتابعين. وقد شمل التدوين التاريخي مراحل ما قبل الإسلام ومرحلة ظهوره وما بعدها، واتخذ أشكالاً متعددة من حيث الموضوع والمنهج.

فمن حيث الموضوع، انقسمت كتب التاريخ إلى:

١. تواريخ سياسية تُعنى بأخبار الدول والخلفاء والحروب.
  ٢. تواريخ تراجمية تختص بسير الأعلام من العلماء والفقهاء والمحدثين.
  ٣. تواريخ عامة تبدأ من ما قبل الإسلام، ثم تتناول التاريخ الإسلامي إلى زمن المؤلف.
  ٤. تواريخ خاصة تركز على حدث بعينه، كالغزوات والمعارك مثل أحد أو الخندق.
- أما من حيث المنهج والتنظيم، فقد سلك المؤرخون عدة أساليب، منها:
- التنظيم الحولي (الحوليات)، حيث تُذكر الحوادث سنةً بعد سنة.
  - التنظيم على أساس الخلفاء، فيُذكر عهد كل خليفة وما وقع فيه من أحداث.
  - التنظيم الموضوعي، بالتركيز على مرحلة أو واقعة محددة.
- وفيما يخص كتب التراجم، فقد تعددت طرق ترتيبها، وأبرزها خمسة أنواع:

١. الترتيب الهجائي على حروف المعجم، كما في كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، حيث يبدأ بحرف الألف وينتهي بالياء، ثم يذكر الكُنى، مع تقديم اسم النبي محمد ﷺ ومن سُمِّي باسمه أو باسم أحمد؛ لما لهذا الاسم من منزلة عظيمة في نفوس المسلمين.

٢. الترتيب على الطبقات، أي تقسيم المترجمين إلى أجيال متقاربة في الأعمار، لكل طبقة شيوخها وتلامذتها. ويُعد كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد مثلاً بارزاً على هذا المنهج.

٣. الترتيب حسب الأنساب، حيث تُجمع القبيلة الواحدة أو العائلة في موضع واحد.

٤. الترتيب حسب الأمصار والمدن، مثل: علماء بغداد، أو علماء مصر، أو مكة، أو خراسان.

٥. الترتيب حسب الوفيات، وهو أسلوب شائع في عدد من المصنفات المتأخرة.

ويجدر التنبيه إلى أن التعبير الشائع «كتب التراجم والطبقات» تعبير غير دقيق، لأن الطبقات هي في الأصل جزء من علم التراجم.

ومنذ القرن السادس الهجري، بدأ يظهر التمازج بين التاريخ السياسي والتاريخ الثقافي والعلمي، وكان من أوائل من نهج هذا الأسلوب ابن الجوزي في كتابه/المنتظم، إذ كان يذكر في أحداث السنة الواحدة الوقائع السياسية، ثم يعقبها بذكر وفيات العلماء والأعيان. وقد تطور هذا المنهج بعد ذلك وأصبح سمةً بارزة في عدد من المصنفات التاريخية الكبرى.

### ثانياً- خطط بغداد وتواريخ المدن في التراث الإسلامي:

يُعدّ فن خطط المدن وتواريخها من الفنون التاريخية التي عرفها العرب المسلمون مبكراً،

واهتموا بها اهتمامًا واسعًا، ولا سيما في المدن الكبرى التي كانت مراكز سياسية وعلمية وحضارية.

ويمكن تقسيم تواريخ المدن في التراث العربي الإسلامي إلى قسمين رئيسين:

١- نوع يُعنى بخطط المدينة، أي وصف عمرانها، وأحيائها، ومساجدها، وأسواقها، وأسوارها، وشوارعها، ومنشآتها العامة، مع بيان تطورها العمراني.

٢- نوع يُعنى بتراجم علماء المدينة وأعلامها، وما أسهموا به في الحياة العلمية والثقافية.

ويُلاحظ أن النوع الأول، وهو المعنى بخطط المدينة، كان أسبق ظهورًا من النوع الثاني، إذ اتجه المؤرخون في البداية إلى توثيق معالم المدن وتنظيمها العمراني.

وقد أُلِّفَ في هذا المجال مصنفات مبكرة، من أبرزها: تاريخ البصرة، تاريخ الكوفة، تاريخ واسط. كما يُعد كتاب تاريخ المدينة لابن زُبالة، المتوفى سنة ١٨١هـ، من أقدم ما أُلِّفَ في هذا الفن، وهو شاهد على الاهتمام المبكر بتوثيق المدن الإسلامية.

أما بغداد، فقد كان لأهلها السبق في التأليف في تاريخ مدينتهم، على الرغم من أن تأسيسها يعود إلى منتصف القرن الثاني الهجري.

ومن أوائل ما أُلِّفَ في ذلك كتاب تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور، الذي تناول فيه جوانب متعددة من تاريخ المدينة، مما يعكس مكانة بغداد العلمية والحضارية، وسرعة تحولها إلى مركز جذب للعلماء والمؤرخين.

### ثالثًا- العراق الأصل اللغوي والتطور التاريخي للمصطلح:

يُعدّ اسم العراق من الألفاظ القديمة، غير أن شيوع استعماله يعود إلى أواخر العهد الساساني، أي في العصر الجاهلي. وقد تطوّر هذا المصطلح في الاستعمال واتّسع مدلوله عند الجغرافيين والمؤرخين العرب، حتى كثر وروده في الشعر الجاهلي، حيث



اقترن في أذهان شعراء البادية بمعاني الرخاء والخصب والخيرات.

وكان العرب يطلقون على بلاد ما بين النهرين الشمالية أو العليا اسم الجزيرة، وهو مصطلح يكاد يطابق مفهوم ميزوبوتاميا (Mesopotamia) في الاستعمال اليوناني، في حين أطلقوا اسم العراق على الأقاليم الوسطى والجنوبية مما يُعرف اليوم بالعراق. وقد ميّزوه أحياناً بوصفه العراق العربي، تمييزاً له عن عراق العجم، وهو الجزء الجنوبي من بلاد إيران.

كما أُطلق على السهل الرسوبي اسم السواد لخضرته وكثرة زرعه، وكان هذا المصطلح في كثير من الاستعمالات مرادفاً لتسمية العراق. كذلك استُخدم اسماً لبلاد بابل أو أرض بابل، وهو مصطلح متوارث منذ العهد البابلي القديم (الألف الثاني قبل الميلاد). أما الحد الفاصل بين الجزيرة والعراق في استعمال البلدانين والجغرافيين العرب، فلم يكن ثابتاً أو واضحاً، بل تغيّر تبعاً لاختلاف العصور والاعتبارات الجغرافية والسياسية. وقد اختلف الباحثون في أصل تسمية العراق ومعناها، ويمكن حصر آرائهم في ثلاثة احتمالات رئيسة:

أولاً- الأصل العربي للاسم: يرى أصحاب هذا الرأي أن كلمة عراق عربية الأصل، وقد اختلفوا في معناها؛ فمنهم من ذهب إلى أنها تعني الشاطئ، أي شاطئ البحر أو سيفه، أو مطلق الشاطئ. ويُقال إن أهل الحجاز كانوا يطلقون اسم العراق على البلاد القريبة من البحر لدنوّها منه، فضلاً عن وقوعها على ضفاف دجلة والفرات. ويرى آخرون أن معناها حرف الجبل أو سفوح الجبال المتاخمة لأطرافه الشمالية والشرقية.

ثانياً- الأصل الفارسي للاسم: أما القائلون بالأصل الفارسي، فقد اختلفوا كذلك في تفسيره؛ فمنهم من يرى أنه مأخوذ من لفظ فارسي يدل على الساحل، مثل كلمة إيراه التي عُربت إلى إيراك ثم عراق. ويذكر الخوارزمي في مفاتيح العلوم، وكذلك حمزة

الأصفهاني في تاريخه، أن التسميتين (إيران وعراق) فيهما تصحيف، والصواب هو (إيراك) بالكاف الفارسية. وقد أيد هذا الرأي الباحث الآثاري هرتسفلد، إذ ذهب إلى أن عراق معربة من إيراك الفارسية، التي تعني البلاد السفلى.

ثالثًا- الجذور اللغوية من تراث العراق القديم: يرى أصحاب هذا الاحتمال أن لفظ عراق يعود في أصله إلى تراث لغوي من العراق القديم، سواء أكان سومريًا أم من لغة أقوام غير سومريين ولا ساميين استوطنوا السهل الرسوبي في عصور ما قبل التاريخ. ويذهب بعضهم إلى اشتقاقه من كلمة أوروك أو أنوك، وهي التسمية السومرية لمدينة الوركاء الشهيرة، كما تدخل هذه الكلمة في تركيب أسماء مدن قديمة أخرى مثل أور ولا رسا. غير أن نقطة الضعف في هذا الرأي تتمثل في أن هذا المصطلح لم يكن يُطلق في العصور القديمة على القطر العراقي بأكمله.

ويذهب المؤرخ المعروف "أومستد" إلى أن أقدم استعمال لكلمة قريبة من العراق ورد في العهد الكشّي (منتصف الألف الثاني قبل الميلاد)، في وثيقة تاريخية تعود إلى حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ورد فيها اسم إقليم أريقاء، الذي يرى أنه الأصل الذي تطوّر لاحقًا إلى التسمية العربية لبلاد باب.

أما الاستعمال الواسع والشائع لمصطلح العراق، فقد بدأ في المراحل الأخيرة من العهد الساساني، ولا سيما بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين، حيث ظهر في الشعر الجاهلي واستقر في الوعي الجغرافي العربي.

وقال بعض الحكماء عن بغداد: (الدنيا بادية وبغداد حاضرتها)، وقال الصولي حدثني من سمع الشافعي يقول: (ما دخلت بلدًا قط إلا عدته سفرًا إلا بغداد فأني حين دخلتها عدتها وطنًا)، وقال الجاحظ: (رأيت المدن العظام بالشام والروم وغيرها فلم أرى مدينة قط أرفع سمكًا، ولا أجود استدارة، ولا أوسع أبوابًا، ولا أجود فصلًا،

من مدينة أبي جعفر كأنما صبت في قالب وكأنما أفرغت إفراغًا)، وقال أبو سعيد محمد بن علي بن خلف الهمداني في مدح بغداد<sup>(١)</sup>:

فَدَى لِكَ يَا بَغْدَادُ كُلَّ مَدِينَةٍ      مِنْ الْأَرْضِ حَتَّى خَطَّتِي وَبَلَادِيَا  
فَقَدْ طُفْتُ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا      وَسَيَّرْتُ خَيْلي نَحْوَهَا وَرَكَايَا  
فَلَمْ أَرْ فِيهَا مِثْلَ بَغْدَادَ مَنَزَلًا      وَلَمْ أَرْ فِيهَا مِثْلَ دَجَلَةِ وَادِيَا  
وَلَا مِثْلَ أَهْلِهَا أَرْقَ شَمَائِلًا      وَأَعَذِبَ أَلْفَاظًا وَأَحَلَّى مَعَانِيَا  
وَكَمْ قَائِلٌ لَوْ كَانَ وَدَكَ صَادِقًا      لِبَغْدَادَ لَمْ تَرْحَلْ فَكَانَ جَوَايَا  
يُقِيمُ الرِّجَالُ الْأَغْنِيَاءَ بِأَرْضِهِمْ      وَتَرْمِي النُّوَى بِالْمَقْتَرِينَ الْمَرَامِيَا  
وَمَا فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ عَنْ إِمْلَالَةٍ      وَلَكِنْ حَذَارًا مِنْ شِمَاتِ الْأَعَادِيَا

وقال الشاعر العباسي علي بن الجهم:

عيون المَهَا بين الرصافة والجسرِ      جلبن الهوى من حيث أدري ولا تدري

وقال الشاعر أبو علاء المعري:

أودعكم يا أهل بغداد والحشا      على زفرات ما ينين من اللذع

وقال ابن زريق البغدادي:

أستودع الله في بغداد لي قمرًا      بالكرخ من فلك الأضرار مطلعته

وقال الشاعر نزار قباني:

مدي بساطك واملئي أكوابي      وانسِ العتاب فقد نسيْتُ عتابي  
عيناك يا بغداد منذ طفولتي      شمسان ناعمتان في أهداي  
لا تنكري وجهي فأنت حبيبتي      وورود مائدتي وكأس شرابي

(١) ابن الجوزي، مناقب بغداد، عني بتصحيحه وتعليق هوامشه ونشره، محمد بهجة الأثري البغدادي، مطبعة

دار السلام، بغداد، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، ص ٣٠ - ٣٢.

بغداد جئتكَ كالسفينه متعباً      أخفي جراحاتي وراء ثيابي  
بغداد عشت الحسن في ألوانه      لكن حسنك لم يكن بحسابي  
ماذا سأكتب عنك يا فيروزتي      وهواك لا يكفيه ألف كتاب  
قبل اللقاء الحلو كنت حبيبتي      وحبيبتى تبقين بعد ذهابي

#### رابعاً- اسم بغداد في النصوص المسمارية والمصادر التاريخية:

عند الحديث عن سيرة مدينة بغداد، لا بد من التأكيد على أنها تمثل حضارة قائمة بذاتها، إذ تُعد من أقدم المدن التي عرفت البشرية عبر العصور. فقد ذُكر اسم بغداد في مختلف الحضارات التي قامت على أرض وادي الرافدين، وورد في الكتابات المسمارية لكلٍّ من الحضارتين البابلية والآشورية، وهما من أقدم حضارات العالم.

وقد ظهر اسم بغداد في النصوص المسمارية بصيغ متعددة، منها: (بغدادو) و(بغدادى)، و(بگدادو)، وتُقرأ أحياناً (خدادو) وتعود بعض هذه النصوص إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، مما يدل على وجود مدينة وإقليم كانا يُعرفان بهذا الاسم في تلك الحقبة، وكانا يقعان بالقرب من موقع مدينة بغداد الحالية.

ويُرجَّح أن الاسم المعاصر لمدينة بغداد قد انحدر مباشرة من هذا الاسم القديم. وتشير المصادر التاريخية إلى وثيقة قضائية بابلية يعود تأريخها إلى عهد الملك البابلي السادس حمورابي، صاحب أول تشريع قانوني مدوّن في التاريخ (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م)، حيث ورد في تلك الوثيقة اسم بلدة تُدعى بغداد. ويُقال إن هذه الوثيقة كانت مدوّنة على لوح طيني باسم (بگدادو)، وقد عُثر عليه في مدينة سبّار، الواقعة خرائبها اليوم في منطقة أبي حبة ضمن نطاق اليوسفية.

كما كشفت الحفريات الأثرية في موقع بغداد عن واجهة كبيرة مشيدة بالآجر

البابلي، نُقشت عليها أسماء وألقاب الملك البابلي الشهير نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥-٥٦٢ ق.م)، وهو ما يعزز الرأي القائل بقدوم الاستيطان في موقع بغداد وأهميته السياسية والعمرانية في العصور البابلية المتأخرة.

وتدل هذه الشواهد التاريخية والآثارية على أن اسم بغداد ليس تسمية طارئة أو حديثة، بل هو اسم متجذّر في أعماق التاريخ الرافديني، ارتبط بالمكان منذ آلاف السنين، واستمر في الذاكرة الحضارية حتى اتخذ صورته النهائية في العصور اللاحقة.

وتشير نصوص مسمارية أخرى إلى ورود اسم بغداد في وثائق تعود إلى العهد الكشّي. فقد ورد في لوح يعود تأريخه إلى عهد الملك الكشي نازي-ماراتاش، الذي حكم بين (١٣٤١-١٣١٦ ق.م)، ذكر موضع يُدعى بيلازي يقع على شاطئ نهر الملك ضمن إقليم بغدادي، مما يدل على وجود تسمية إقليمية متداولة مرتبطة باسم بغداد في تلك المرحلة المبكرة.

كما ورد اسم أرض واقعة قرب بغداد في حجر حدود (كُدورو) يُعرف باسم ميشو، ويرجع تأريخه إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد اقتنى هذا الحجر طبيب أوروبي سنة (١٧٨٠م) بالقرب من إيوان كسرى، ويُعد من الشواهد المهمة على استمرار استعمال اسم بغداد أو مشتقاته في تحديد المواقع الجغرافية المحيطة بالمدينة.

كذلك عُثر على حجر حدود آخر يعود إلى زمن الملك الكشي مردوخ-أبلا-إدن الثاني، الذي حكم بين (١٢٠٨-١١٩٥ ق.م)، ذكر فيه نهر يُدعى أرا را يجري في أرض بغداد، كما ورد فيه اسم موضع شَبَت-شَري ضمن إقليم بغداد، وهو ما يعزز الدلالة على رسوخ هذا الاسم في الوثائق الإدارية والجغرافية لتلك الفترة.

أما في المصادر الآشورية، فقد ورد اسم بغداد في أخبار الحروب التي خاضها الملك الآشوري أد-نراري الثاني (٩١١-٨٩١ ق.م)، حيث ذُكر أنه حارب الملك البابلي نبشم-أكن،



وكانت بغدادو من جملة المواضع التي تعرّضت للنهب أثناء تلك الحملات العسكرية.

وتؤكد هذه الشواهد المسمارية، البابلية والآشورية على السواء، أن اسم بغداد أو صِيغَه القريبة كان متداولاً منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وأنه ارتبط بمواقع وإقليم ذي أهمية جغرافية وسياسية، مما يعزز الرأي القائل بجذور التسمية العميقة في تاريخ وادي الرافدين<sup>(١)</sup>.

يبدو من الإشارات السابقة أن بغدادو كانت مدينة ذات شأن مهم أو مركزاً إدارياً بارزاً في فترات مبكرة من تاريخ وادي الرافدين، غير أن هذه المكانة لم تستمر على حالها، إذ بدأت تفقد شيئاً من أهميتها منذ عهد الملك الآشوري أدد- نراري الثاني (٩١١-٨٩١ ق.م).

ويشير الملك الآشوري تِغْلَث - بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) في سجلاته إلى القبائل الآرامية التي أخضعها سنة (٧٢٨ ق.م)، وقد ذكر من بينها قبيلة نُسبت إلى موضع جغرافي يُدعى بغدادي، وهو ما يدل على بقاء الاسم متداولاً بوصفه دلالة مكانية، حتى وإن تراجع الدور السياسي أو الإداري للمدينة نفسها.

وقد أظهرت الدراسات والبحوث الأثرية الحديثة أن موقع بغداد كان في العصور القديمة موطناً بشرياً مهماً يعود إلى العصر الآشوري. فقد ورد ذكرها في وثيقة عُثر عليها في مدينة نينوى، ويعود تأريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد، حيث يذكر الملك الآشوري سرجون الثاني حادثة أُسر شخص يُدعى بكدت، وقد أُعدم بطريقة قاسية سنة (٧١٦ ق.م)، وهو ما يعكس طبيعة السيطرة الآشورية على مناطق النفوذ المحيطة ببغداد.

---

(١) الأستاذ توفيق وهبي، بحث منشور بعنوان (القول والاستطراء في أصول معنى بغداد) في مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول من السنة الأولى ١٩٥٠م، ص ٥٣.

كما ورد ذكر بغداد في الروايات التاريخية والأدبية التي دَوَّنها الفردوسي في الشاهنامه، ضمن أخبار العهد الساساني، ولا سيما في عهد الملك بهرام جور الخامس (٤٢٠-٤٣٨م)، حين توجّه إلى بغداد.

وتشير الروايات نفسها إلى أن الملك قباذ الأول بن فيروز (٤٨٨-٥٣٦م) أقام في بغداد مدة من الزمن، الأمر الذي يدل على استمرار وجودها كمركز مأهول وذو أهمية استراتيجية خلال العصر الساساني، رغم ما شهدته من تراجع أو تغير في أدوارها عبر العصور.

وتؤكد هذه الشواهد التاريخية، من العهد الآشوري إلى الساساني، أن بغداد لم تكن مجرد موضع عابر في الجغرافيا القديمة، بل كانت حاضرة حية تتبدل أدوارها ووظائفها تبعاً للتحوّلات السياسية والعسكرية في تاريخ المنطقة<sup>(١)</sup>.

تشير مجمل هذه الدلائل التاريخية والآثرية إلى أن مدينة بغداد مدينة عريقة الجذور، تعود نشأتها إلى بدايات الحضارات التي قامت في وادي الرافدين، وأنها كانت معمورة بالسكان منذ ما يقرب من أربعة آلاف عام. فقد ورد ذكرها في سجلات الحضارات القديمة المتعاقبة، واستمر حضورها بعد أفول الحضارة البابلية، ومع ظهور الحضارات الإغريقية والرومانية والفارسية.

كما حافظت بغداد على وجودها وأهميتها خلال مرحلة الفتوحات الإسلامية لأرض السواد (العراق) في عهد الخلافة الراشدة، ثم في العهدين الأموي والعباسي، حيث بلغت ذروة ازدهارها الحضاري والسياسي. ولم ينقطع دورها بعد ذلك، إذ تعاقبت عليها نظم الحكم المختلفة، من البويهيين والسلاجقة إلى المغول والتتار، ثم الصفويين، فالعثمانيين، وصولاً إلى العهدين الملكي والجمهوري في العصر الحديث.

(٣) د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، سنة ١٩٥٨م، ص ١٧.

وعلى الرغم من هذا التعاقب الطويل للحضارات والدول والتحويلات السياسية الكبرى، فإن مدينة بغداد احتفظت باسمها التاريخي العريق، الذي ظل حاضراً ومتداولاً حتى يومنا هذا، شاهداً حياً على استمرارية المكان وعمق الذاكرة الحضارية لهذه المدينة الفريدة في تاريخ الإنسانية.

### خامساً- أصل تسمية بغداد في ضوء الشواهد الأثرية والنصوص القديمة:

فقد عُرفت مدينة بغداد منذ العصور القديمة، بوصفها جزءاً من مهد الحضارات في وادي الرافدين، وتعددت المعاني والتفسيرات المرتبطة باسمها.

وقد تناقل المؤرخون آراءً متعددة حول أصل كلمة بغداد؛ فاعتمد بعضهم على الأخبار المتواترة والروايات التقليدية، في حين استند آخرون إلى المصادر التاريخية والنصوص القديمة، أو إلى فرضيات لغوية وتخمينية.

وعند الرجوع إلى المعجم الذي أصدره الدكتور بهاء الدين الولادي في أصول اللغات، نجد أن كلمة بغداد تعني في اللغة السومرية "قلعة قبيلة الصقر" أو "هيكل الصقر". وقد أيد هذا الرأي عالم الآشوريات الفرنسي رينيه لابات (René Labat) في معجمه المتخصص بالعلامات الأكديّة، حيث أشار إلى الدلالات الرمزية واللغوية المرتبطة بهذا اللفظ في سياق اللغات الرافدينية القديمة.

وتُبرز هذه التفسيرات اللغوية عمق الجذور التاريخية لاسم بغداد، وتؤكد ارتباطه بالبيئة الحضارية والرمزية لوادي الرافدين منذ أقدم العصور<sup>(٤)</sup>.

ويرى بعض الباحثين أن كلمة بغداد ذات أصل أكدي، مشتقة من اللفظ الأكدي

(٤) بهاء الدين الولادي، معجم قاموس أصل اللغات، مراكش: دار وليلى، ١٩٩٦، ص ١٣٢.

انظر: Rene Labat, Manuel d, Epigraphie Akkadienne, Paris

(بعل جاد)، أي معسكر بعل، ويُفهم من ذلك أنها كانت موضعًا عسكريًا أو معسكرًا للجيش البابلي. ويذهب رأي آخر إلى أن التسمية محرّفة من (بعل داد)، أي مدينة إله الشمس، في إشارة إلى الطابع الديني للمدينة في العصور القديمة.

كما يرجّح فريق من الباحثين أن أصل كلمة بغداد يعود إلى اللغة الكلدانية الآرامية، من لفظ (بيل داد)، وهي كلمة مركّبة من مقطعين؛ بيل، وهو اسم الإله عند الآراميين، وداد، وهي كلمة آرامية تعني الفتك أو القوة. ويؤمن أصحاب هذا الرأي بأن الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني قد حقق نصرًا عسكريًا في موقع بغداد، فخلّد هذا الانتصار بتأسيس مدينة حملت هذا الاسم.

وتعكس هذه الآراء المتعددة تعدد التأثيرات اللغوية والدينية والحضارية التي مرّت بها منطقة بغداد، كما تُبرز صعوبة الجزم بأصل واحد قاطع للتسمية، في ظل تعاقب الحضارات واختلاط اللغات في بلاد الرافدين عبر آلاف السنين.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أصل كلمة بغداد قد ذكر في سفر التكوين من التوراة باسم أمراقل، ويُرجعون ذلك إلى عهد الملك البابلي حمورابي، المعاصر للنبي إبراهيم الخليل، مما يعكس قدم الاسم وأهميته في الذاكرة التاريخية للمنطقة.

بينما يرى فريق آخر أن أصل كلمة بغداد آرامي، من لفظة (بكدادا)، وهي مركبة من مقطعين (ب) كلمة مقتضبة تعني البيت، وكانت تُستخدم في بداية أسماء المدن مثل (بعقوبا، وباعشيقا، وباقوقا)، (كدادا) تعني الغنم أو الضأن، وبذلك يُصبح معنى التسمية بيت الغنم أو الضأن، وهو ما يعكس الطابع الريفي والزراعي للمنطقة في العصور القديمة، قبل أن تتطور إلى مركز حضاري وإداري مهم كما ورد في المصادر التاريخية اللاحقة.

ويرجح آخرون بأن كلمة بغداد آرية الأصل التي أستخدمها الكشيون في بلاد بابل

لأول مرة في الألف الثاني قبل الميلاد وتعني عطية الإله أو الصنم<sup>(١)</sup>، وبعد سقوط الدولة البابلية على يد كورش الثاني الملك الأخميني من بلاد فارس سنة (٥٣٩) قبل الميلاد حتى مجيء الفتح الإسلامي كانت قرية بغداد قائمة أثناء الحكم الساساني للعراق، ويرى ياقوت الحموي في معجمه بأن أصل كلمة بغداد هو فارسي مشتق من الكلمة (باغ داد) وتفسيره بستان الرجل فكلمة باغ تعني بستان وكلمة داد اسم رجل فتصبح (بستان رجل).

ويُقال أيضًا: إن اسم بغداد من أصل فارسي معرّب عن (باغ داذويه)، وذلك لأن بعض رقعات مدينة المنصور العباسي كان يشغلها باغ، أي بستان، يخصّ رجلاً من الفرس يُدعى داذويه. ويعكس هذا الرأي قدم وعراقة مدينة بغداد، ويؤكد استمرار ذكر اسمها عبر مختلف الحضارات التي حكمت وادي الرافدين، حتى يومنا هذا.

كما وردت تسميات أخرى لمدينة بغداد بحسب الموقع والوظيفة والرمزية:

- دار السلام أو مدينة السلام، نسبةً إلى نهر دجلة الذي يُقال له وادي السلام.
- الزوراء، ويُرجع أصل الاسم إلى أبواب المدينة الداخلية (أزورار)، أو إلى أزورار القبلة في المسجد الجامع بالرصافة على الضفة الشرقية للمدينة، أو إلى أزورار نهر دجلة.
- المدينة المدورة، نسبةً إلى تصميم بغداد الدائري المعروف في عهد تأسيسها العباسي.

وتعكس هذه المسميات المتعددة غنى التراث الحضاري لمدينة بغداد، وتوضح كيف تداخلت الجوانب الدينية والرمزية والجغرافية والهندسية في تسمية المدينة عبر العصور المختلفة<sup>(٢)</sup>.

وهناك رأي آخر يقول بأن كلمة بغداد إحدى المدن التاريخية الكلدانية حيث

(١) د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسة، الدليل، المصدر السابق، ص ١٨.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الثاني، باب بغداد، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٩٠٦م، ص ٢٣٠.

راجع: د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسة، الدليل، المصدر السابق، ص ٤٦.



وجد الباحثون على كثير من الآجر القديم كتب على بعضه بالحرف المسماري كلمة (بل دو دو) وعلى بعضه (بغدادو) و(بغدانو) ومعنى بل دودو مدينة الآله في لغة السريانيين الكلدان<sup>(١)</sup>.

تشير الحوادث التاريخية والكتابات المسمارية المكتشفة على الآجر والتي تعود إلى العهود القديمة جدًا إلى أن الكلدانيين كانوا من أسسوا هذه المدينة في الجانب الشرقي من نهر دجلة. ولم تكن بغداد في تلك الفترة مدينة كبيرة أو ذات أهمية استراتيجية كبيرة، إلا أن موقعها جعلها عرضة للسيطرة المتكررة من قبل الآشوريين خلال الحروب المستمرة بينهم وبين ملوك بابل.

ومن بين الملوك الذين استولوا على المدينة أثناء هذه النزاعات، الملك الآشوري آشور بلكلا، الذي شنّ بجيوشه حملة على الملك البابلي مرووخ شاكر ومالي، واستولى على المدينة بالقوة، كما احتل أجزاء أخرى من بابل في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ونتيجة لهذه الحملات، اضطر ملك بابل إلى طلب الصلح من آشور بلكلا لضمان الاستقرار والرضا عن وضعه أمام القوة الآشورية.

وتوضح هذه الحوادث أن بغداد كانت منذ نشأتها موقعًا متنازعًا عليه بين القوى الكبرى في وادي الرافدين، مما يعكس أهميتها الجغرافية وارتباطها بالأحداث السياسية والعسكرية في العصور القديمة.

ازدهرت بغداد في عهد الدولة البابلية الثانية، أيام الملك نبوخذ نصر الثاني (تبوكد نصر أو نبختنصر، ٦٠٤-٥٦٢ ق.م)، الذي بنى لها قصرًا على الضفة الغربية من نهر دجلة. وقد اكتشف هذا القصر عالم الآثار السير هاندي رولنسن سنة ١٨٤٨م في بغداد

---

(١) علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، طبع على نفقة نعمان الأعظمي الكتبي في مطبعة الفرات، بغداد، صاحب المكتبة العربية ببغداد، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م، ص ٣.

نفسها، ووجد عليه نقوشاً مسمارية للملك، ذكر فيها فتوحاته وألقابه. كما توجد العديد من الكتابات المسمارية على الآجر في بغداد، التي تحمل أسماء الملك ونقوشاً عن غزواته وإنجازاته، مما يعكس أهمية بغداد كمركز عمراى وسىاسى فى تلك الفترة. وظلت بغداد عامرة منذ تأسيسها على يد الكلدانيين، إلى أن حمل القائد كورش الفارسى جيوشه على العراق سنة ٥٣٨ ق.م، وأجهض الدولة البابلية الثانية التى أسسها الملك نبوبلاصر (٦٦١ ق.م)، والتى بلغ مجدها أوجها على يد ابنه بختنصر الثانى. وبفعل هذه الأحداث، انحطت بغداد وتحولت إلى قرية صغيرة على الجانب الغربى من نهر دجلة، وظلت على هذا الحال خلال عهد الإسكندر المقدونى الذى فتح العراق سنة ٣٣١ ق.م، وعهد خلفائه السلوقيين وأيام البرتيين.

ومع تولى الساسانيين حكم العراق سنة ٢٢٦م، أعادوا الاهتمام بالمدينة، فاتخذوها منزهاً لهم لما تتميز به من موقع جغرافى حسن وطقس معتدل، مما يوضح استمرارية المدينة ووجودها المأهول رغم تحولات السلطة عبر العصور القديمة.

### سادساً- جغرافية بغداد التاريخية قبل بناء مدينة المنصور المدورة:

كانت منطقة بغداد قبل قيام الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ببناء المدينة المدورة تتألف من أربع طساسيج (مقاطعات إدارية)، اثنتان فى الجانب الغربى من نهر دجلة واثنتان فى الجانب الشرقى. فى الجانب الغربى وُجد طسوجا قطربل وبادوريا، أما فى الجانب الشرقى فكانا طسوجى نهر بوق وكلوادى.

ويهمنا هنا وضع بغداد فى أواخر العهد الساسانى وبدايات العصر الإسلامى، حيث كانت المنطقة التى قامت فيها قرية بغداد تقع فى الجانب الغربى من نهر دجلة. وكان هذا الجانب ينقسم إلى قسمين: القسم الشمالى يُعرف بـ طسوج قطربل، والقسم

الجنوبي ب طسوج بادوريا، ويفصل بينهما نهر الصراة. وكانت قرية سوق بغداد تقع ضمن طسوج بادوريا، أي إلى الجنوب من نهر الصراة.

وضمّ الجانب الغربي من بغداد آنذاك عددًا كبيرًا من القرى والأديرة، من أبرزها: (قطفتا، ورثالا، دير كليليشوع، دير الجاثليق، سال، دير مديان، بناورا، الكرخ، رحا البطريق، براثا، المحوّل، دير عمر صليبا، سونايا، دير مار فيثون، مزرعة بالمباركة، الخطابية، دير بستان القس، شرفانية، الوردانية).

وكانت أهم قرى طسوج قطربل هي: (الخطابية، الشرفانية، الوردانية، سونايا)، في حين عُدت براثا والكرخ من أهم قرى طسوج بادوريا. كما ضمّ رستاق الفروسيج ثلاث قرى تقع بين نهر كرخايا ونهر الصراة، وهي: (سال، ورثالا، بناورا)، فضلًا عن موضع يُعرف ب سوق بغداد وقصر سابور.

وتُعدّ قرية الكرخ من أقدم القرى التي تناقل المؤرخون أخبارها منذ العصور القديمة، وقد نُسبت إليها لاحقًا محلة الكرخ الواسعة في بغداد. ويُستفاد من وصف المؤرخين أن الكرخ كانت في تلك المرحلة أشبه بقرية منفردة. ويذكر المؤرخ الفارسي حمد الله المستوفي أن مؤسس قرية الكرخ هو الملك الساساني سابور الثاني (٣٠٩-٣٧٩م)، المعروف عند العرب بلقب ذو الأكتاف.

أما من حيث أصل التسمية، فيرى ياقوت الحموي أن لفظة الكرخ نبطية، بينما يرجّح بعض الباحثين أنها آرامية أو سريانية، مشتقة من فعل يعني سوق الماء إلى مواضعه. ويرى آخرون أنها مأخوذة من كلمة كرخا الآرامية، وتعني المدينة المحصنة، في حين يُرجعها فريق آخر إلى الأصل اليوناني (Charax)، أي المكان المسيّج، ثم عُربت إلى الكرخ.

وتُعدّ بغداد من القرى المُحدثة قبل الإسلام، وكان موقعها في الجانب الغربي من دجلة، يحدّها من الشمال موضع قطفتا) مقبرة الشيخ معروف (حاليًا)، ويقع فيها قصر

سابور الحاكم الساساني، الذي عُرف في العصر العباسي باسم قصر عيسى. كما شملت المنطقة قرى أخرى مثل: (ورثالا، الكرخ، سونايا، براثا، شرفانية، المباركة، بستان القس، رحا البطريق، الخطابية، نهر طابق أو بابك، سوق البقر، الوردانية).

ومع قيام المنصور ببناء المدينة المدوّرة، أُدرجت هذه القرى ضمن حدودها، ولم يبقَ من أسمائها القديمة في الجهة الشمالية الغربية من بغداد العباسية سوى موضع سونايا، وذلك بسبب خراب معظم القرى الأخرى.

أما الجانب الشرقي من بغداد، فقد كان يضم سوق الثلاثاء، وهو سوق واسع يقع أعلى شارع الرشيد الحالي، إضافة إلى دير درمالس في رقّة باب الشماسية (منطقة الصليخ القديمة)، وقرية ودير الزندورد، التي كانت تشمل محلة باب الأزج في العصر العباسي.

وفي سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، شرع الخليفة أبو جعفر المنصور ببناء مدينته المدوّرة في الجانب الشمالي الغربي من بغداد الحالية، ويرجح الباحثون أن موقعها كان شمال منطقة سونايا القديمة، بالقرب من مدينة الكاظمية الحالية، وتحديدًا في منطقة الشالجية، قرب محلة الجعيفر<sup>(١)</sup>.

وفي سنة ١٥١هـ/٧٦٨م، جرى بناء الجانب الشرقي الأعلى من بغداد الحالية، ويرجح أن موقعه كان إلى جنوب منطقة الأعظمية المعاصرة، المجاورة لمقبرة أبي حنيفة النعمان من الغرب، والمقبرة الملكية من الشرق.

وتشير المصادر التاريخية إلى الأهمية التجارية البارزة لبغداد قبل قيام الخليفة أبي جعفر المنصور بتأسيسها مدينةً عاصمة، إذ كانت تُعدّ مركزًا تجاريًا مهمًا، يتجلى ذلك

---

(١) يقول بشير فرنسيس: بنى المنصور مدينته المدورة في البقعة الممتدة بين الكاظمية ومحلة الكرخ وتقوم معامل السكك الحديد الحالية في الشالجية قسم من بقاياها، إذ كان ينتشر في أطرافها قرى أهلة وديارات عامرة، بغداد تاريخها وآثارها، ص ٦.

بوجود سوقين عظيمين فيها.

أولهما: سوق بغداد، الذي كان قائماً في قرية يؤمّها تجّار فارس والأهواز وسائر الأقاليم، ويجتمع فيه التجّار مرة واحدة كل شهر، وكان يقع إلى الجنوب من نهر الصراة. وقد أسهمت مكانته التجارية البارزة في إطلاق اسم بغداد على المدينة، وهو الاسم الذي ظل ملازماً لها حتى يومنا هذا.

أما السوق الثاني فهو سوق الثلاثاء، وكان من أسواق أهل كلواذى، إذ كانوا يقيمونه في أول ثلاثاء من كل شهر قبل أن يعمر المنصور بغداد، فنُسب السوق إلى اليوم الذي كان يُعقد فيه. وفي ذروة ازدهار بغداد، أصبح سوق الثلاثاء من أعظم أسواقها، وكان يضم سوق البرّ الأعظم، ويقع في المنطقة التي تشغلها اليوم محلات الكمرك والمصبغة وسوق البزازين وسوق الجوخجية وسوق الصفاير وغيرها.

ومن خلال هاتين الروايتين، يُستنتج أن بغداد كانت ساحة كبرى للتجارة قبل أن يُمصرها المنصور العباسي، وأن أهميتها لم تقتصر على الجانب الاقتصادي فحسب، بل شملت كذلك المكانة السياسية والعسكرية والاستراتيجية، الأمر الذي دفع العرب إلى الإشارة على المنصور باتخاذها حاضرةً للدولة العباسية ومركزاً لحكمها<sup>(١)</sup>.

## الخاتمة:

تُبرز هذه الدراسة، في خاتمتها، أن فهم نشأة بغداد وتطوّرها التاريخي لا يمكن أن يكتمل بمعزل عن الإطار المنهجي الذي صاغه المؤرخون العرب المسلمون في تدوين الحوادث وتوصيف المدن وربطها بسياقاتها الزمانية والمكانية. فقد أظهرت المحاور المتناولة أن التراث الإسلامي في كتب الخطط والتواريخ لم يقتصر على السرد

(١) يوسف غنيمه، تجارة العراق قديماً وحديثاً، ط١، مطبعة العراق في بغداد، سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٢م، ص ٤٥.



الوصفي، بل أسّس لرؤية تحليلية أسهمت في حفظ الذاكرة العمرانية والحضارية للمدن الكبرى، وفي مقدّماتها بغداد.

كما بيّنت الدراسة أن مصطلح "العراق" واسم "بغداد" يشكّلان نتاجاً لتراكم لغوي وتاريخي وحضاري طويل، تعاقبت عليه الحضارات واللغات والنصوص، من المسمارية والآثار القديمة إلى المصادر العربية والإسلامية، بما يعكس عمق الجذور الثقافية للمكان واستمرارية حضوره في الوعي الإنساني.

وقد أتاح تناول الجغرافية التاريخية لبغداد قبل بناء المدينة المدورة إبراز الدور المحوري للبيئة الطبيعية وشبكات الاستيطان القديمة في تشكيل ملامح المدينة لاحقاً.

وانطلاقاً من ذلك، تؤكّد هذه الخاتمة أن بغداد ليست مجرد مدينة نشأت بقرار سياسي في العصر العباسي، بل هي ثمرة تاريخ طويل من التفاعل بين الإنسان والمكان، واللغة والذاكرة، والنص والآثار. الأمر الذي يستدعي مواصلة البحث الأكاديمي المتخصّص في مصادرها المتنوعة، بهدف تعميق فهمنا لهويتها الحضارية وترسيخ مكانتها بوصفها إحدى أبرز الحواضر التاريخية في العالم الإسلامي والإنساني.



## المصادر والمراجع:

- ١- ابن الجوزي، مناقب بغداد، عني بتصحيحه وتعليق هوامشه ونشره، محمد بهجة الأثري البغدادي، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م.
- ٢- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.
- ٣- يوسف غنيمه، تجارة العراق قديماً وحديثاً، ط١، مطبعة العراق في بغداد، ١٣٤١هـ/١٩٢٢م.
- ٤- علي ظريف الأعظمي، مختصر تأريخ بغداد القديم والحديث، طبع على نفقة نعمان الأعظمي الكتبي في مطبعة الفرات، بغداد، ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م.
- ٥- الأستاذ توفيق وهبي، بحث منشور بعنوان (القول والاستطراد في اصول معنى بغداد) في مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الاول من السنة الأولى ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م.
- ٦- د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسه، دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
- ٧- بشير فرنسيس، بغداد تاريخها وآثارها، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
- ٨- بهاء الدين الولادي، معجم قاموس أصل اللغات، مراکش: دار وليمي، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٩- Rene Labt, Manuel d, Epijrapie Akkadienne, Paris



# بَعْدُ

## مِنَ الْحَظَرِ اللُّغَوِيِّ إِلَى الرَّمَنِ الْعَرَبِيِّ

د. مُحَمَّدُ جُمُعَةُ الدَّرِي

جامعة الأقصر - مصر

جاء في بعض المَصادر اللغويَّة أن الأصمعيَّ (ت ٢١٦هـ) كان لا يقول بغداد، وينهى عن ذلك، وكان يقول: مدينة السلام<sup>(١)</sup>، ووردَ رأي الأصمعيَّ أيضًا عند بعض علماء الحديث والأنساب<sup>(٢)</sup>.

(١) أدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد- مطبعة السعادة- القاهرة- مصر ط ٤/ ١٩٦٣م. (باب ما يُغَيَّر من أسماء البلاد) ص ٣٢؛ وتصحيح الفصح لابن درستويه (ت ٣٤٧هـ)- تحقيق د. محمد بدوي المختون. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة- مصر ط ١٩٩٨م. ص ٤٥٥؛ ومعجم ما استعجم لأبي عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ)- تحقيق مصطفى السقا- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- مصر ط ١٩٤٥/١م. (بغداد) ج ٢٦٢؛ وشرح الفصح للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)- تحقيق د. إبراهيم الغامدي- معهد البحوث العلمية- مطابع جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية. ط ١٤١٧هـ ج ٦٣٧/٢؛ والمعرَّب للجواليقي (ت ٥٤٠هـ)- تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر- مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة- مصر ط ١٩٩٥/٣ ص ٧٤؛ وعقد الخلاص في نقد كلام الخواص لابن الحنبلي (ت ٩٧١هـ)- ضمن جهود ابن الحنبلي اللغوية- تحقيق نهاد حسوبي صالح- مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان ط ١٩٨٧/١م. ص ٢٢٦.

(٢) تاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)- تحقيق مجموعة من الأساتذة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت ط ١٩٦٥م- ٢٠٠١م. (ب غ د د) ج ٤٤٢/٧؛ حيث نقل الزبيدي قول الرُّشاطي (ت ٥٤٢هـ): "وكان الأصمعي ينهى عن ذلك ويقول: مدينة السلام"، وُراجَعَ ترجمة الرُّشاطي أحد علماء الأنساب والحديث في: الأعلام للزركلي (ت ١٣٩٦هـ)- دار العلم للملايين- بيروت- لبنان ط ٢٠٠٢/١٥م. ج ١٠٥/٤.

وقد وضح أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) -وهو من أشهر تلاميذ الأصمعي- سبب هذا الموقف بأن معنى هذه الكلمة في اللغة الفارسية هو عطية الصنم؛ حتى خشي الأصمعي أن يكون ذلك- أي نطق لفظ بغداد- شَرَكًا<sup>(١)</sup>!

وقد انبرى للأصمعي ابن درستويه؛ فقال بحق: "وهذا قبيح من الأصمعي؛ لأنه يُتكلم بعبد يغوث، وعبد العزى، وعبد وُدٍّ، ونحو ذلك من أسماء العرب، وليس يتورع عن هذا أحد"<sup>(٢)</sup>، ثم خطأ ابن درستويه الأصمعي في دلالة الكلمة؛ فقال: "وقد غلط أيضًا؛ لأن الفرس ما عبدت الأصنام قط، وهم يدعون أن لهم كتابًا ونبيا، وإنما مدينة السلام مدينة أبي جعفر الذي بناها خاصة، وبغداد اسم لخارج المدينة كله، وقد تكلمت العرب فيه بالذال المعجمة"<sup>(٣)</sup>.

وفي نص ابن درستويه إشارة مقتضبة إلى بعض مظاهر التعريب؛ حيث أثبتت المعاجم العربية نطق الكلمة بالإبدال المفرد مثل: بغداد (بإبدال الدال الثانية ذالًا مُعجمة)، وبغذاد (بإبدال الدال الأولى ذالًا مُعجمة)، وبغدام (بإبدال الدال الثانية ميمًا)، وبغدان (بإبدال الدال الثانية نونًا)، وبهداد (بإبدال الغين هاء)، بل ذكرت المعاجم تطورات صوتية مُركبة مثل: بغذاذ (بإبدال الدالين ذالين مُعجمتين)، مَغْدان (بإبدال الدال الثانية نونًا وإبدال الباء ميمًا)، وبغْدِين (بإبدال الدال الثانية نونًا وإبدال الألف ياء)، ومَغْدَام (بإبدال الدال الثانية ميمًا وإبدال الباء ميمًا)، وبغْذَان (بإبدال الدال الأولى ذالًا مُعجمة وإبدال الدال الثانية نونًا)؛ فهذه إحدى عشرة لهجة<sup>(٤)</sup>!

(١) المعرب للجواليقي ص ٧٤.

(٢) تصحيح الفصيح لابن درستويه ص ٤٥٥.

(٣) تصحيح الفصيح لابن درستويه ص ٤٥٥.

(٤) هكذا في تاج العروس للزبيدي (ب غ د د) ج ٤٤٢/٧. وفي (ب غ د ذ) ج ٣٧٧/٩ إشارة إلى أن اللهجات المشهورة في الكلمة سبعة هي: بغداد، وبغذاذ، وبغذاد، وبغدان، ومغدان، وبغدام، وأن الكلمة تُذكر وتؤنث.

ويؤيد كلام ابن درستويه مجيء هذه الكلمة (بغداد) في كلام الفصحاء شعراً ونثراً؛  
ومن نماذج ذلك قول أعرابي<sup>(١)</sup>:

أَقْلَبُ فِي بَغْدَادَ عَيْنِي هَلْ أَرَى سَنَا الصُّبْحِ أَوْ دِيكَا بِبَغْدَادَ صَائِحُ

والحق أن الأصمعي لم يخطئ الكلمة (بغداد)، ولم يُنكر دلالتها، ولكنه تحرّج تحرّجاً دينياً، وهذا التحرّج شبيه بما رُوي عنه من أنه كان "يكره أن يروي:

يا امرأ القيس فانزل

وكان يرويه (يا امرأ الله)؛ لأن من معاني القيس في اللغة اسم صنم<sup>(٢)</sup>!

ولا شك أن التحرّج الديني في نطق كلمة: (بغداد) امتدَّ إلى بعض اللغويين تأثراً برأي الأصمعي، وامتدَّ أيضاً إلى بعض المعجميين مثل الجوهري الذي أهمل الكلمة في المواد والمدخل من معجمه الصحاح، وإن لم يستطع لشهرتها إهمالها في تضاعيف المواد<sup>(٣)</sup>!

وقد زال الحرج الديني في نطق بغداد بعد نسيان الأصل اللغوي؛ إذ أصبحت بغداد بفعل التطور الحضاري والدلالي رمزاً عربياً إسلامياً، بعد أن كانت رمزاً لصنم أو لغيره؛

---

(١) انظر البيت في المعرب للجواليقي، ص ٧٥، وفيه شواهد أخرى، وانظر الشواهد التي ذكرها ابن درستويه في تصحيح الفصيح، ويُراجع: تهذيب الخواص من درة الغواص لابن منظور (ت ٧١١هـ) - تحقيق د. الشريف البركاتي - نادي مكة الثقافي الأدبي - السعودية، ط ١/١٩٩٤م. ص ٧٩، ولسان العرب، له - دار صادر - بيروت - لبنان ط ٣/١٩٩٤م. (ل ف ح) ج ٢/٥٧٩، وتاج العروس للزبيدي (ب غ د د) ج ٢/٤٤٢.

(٢) الاقتضاب لابن السيد البطليوسي ق ٢ ص ٢٥، ونوادر المخطوطات - تحقيق عبد السلام هارون - مطبعة السعادة - القاهرة - مصر ط ١/١٩٥١م. ص ١٩٠، وقد أحسن الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) حين قال في كشف الطرة عن الغرة - المطبعة الحنفية - دمشق - سوريا ط ١/١٣٠١هـ. ص ٧: "قلماً تجد اسماً اختصَّ ببرّ ولم يطلق على ذي شرّ، وقد جاء في الحديث إطلاق المسيح على عيسى عليه السلام، وعلى الدجال عليه اللعنة!"

(٣) يُراجع الصحاح للجوهري (ت ٣٩٣هـ) - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان ط ٢/١٩٧٩م. (ز و ر) ج ٢/٦٧٣، (د ج ل) ج ٤/١٦٩٥، (م ن ن) ج ٦/٢٢٠٨؛ ولعلَّ هذا يستوجب ربط كلمة: (بغداد) واللهجات المسموعة فيها بالإحالات المعجمية؛ تحقيقاً للشمول.



فوجدنا الأصمعي نفسه يستعمل الكلمة (بغداد) في نصوص كثيرة<sup>(١)</sup>.

بل صارت بغداد مثالاً للحضارة والتقدم والرّقة ورغد العيش الذي يدعو إلى الزّهو والفخر والانتساب إليها؛ ففي القاموس المحيط للفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ): "وتبغدد: انتسب إليها أو تشبّه بأهلها"؛ وشرح الزّبيدي (ت ١٢٠٥هـ) في تاج العروس هذا الاشتقاق أو النحت من كلمة: (بغداد) بأنه: "على قياس تمعدّد وتمضّر وتقيّس وتنزّر وتعرب"<sup>(٢)</sup>، بل استدرك الزّبيدي تطوُّراً دلاليّاً آخر؛ فقال: "تبغدد عليه: إذا تكبّر وافتخر، مُولّدة"<sup>(٣)</sup>.

فانظر كيف تحوّلت كلمة: (بغداد) من الحظر اللغويّ إلى الرمز العربيّ؟ وكيف أثمر هذا التحوّل في إثراء المعجم العربيّ باستعمالات واشتقاقات مثل: تبغدد، ومُتبغدد، والبغددة<sup>(٤)</sup>، تلك الاستعمالات التي لا تزال حتى الآن في بعض اللهجات العربيّة المعاصرة على الرّغم من شيوع الحضارة في مُعظم البلاد العربيّة!

---

(١) انظر بعض هذه النصوص في شرح ما يقع فيه التصحيف والتحرّيف لأبي أحمد العسكريّ - تحقيق عبد العزيز أحمد - مكتبة الحلبي - القاهرة - مصر ط ١/١٩٦٣م. ص ١٥٥، ١٦٦، والمصون في الأدب له - تحقيق عبد السلام هارون - الخانجي - القاهرة - مصر ط ٢/١٩٨٢م. ص ١٨٩، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) - تحقيق د. عبد المجيد الترحيني ود. مفيد قميحة - دار الكتب العلميّة - بيروت - لبنان (د.ت) ج ٧٩/٢٠٧.

(٢) تاج العروس للزّبيدي (ب غ د د) ج ٧٩/٤٤٢.

(٣) تاج العروس للزّبيدي (ب غ د د) ج ٧٩/٤٤٢؛ وجاء في معجم اللغة العربيّة المعاصرة للدكتور أحمد مختار عمر بمُساعدة فريق عمل كان د. محمد جمعة الدّريّ واحداً منهم - عالم الكتب - القاهرة - مصر ط ١/٢٠٠٨م. (ب غ د د) ج ١/٢٢٨: "تبغدد على الشخص: تكبّر وتظاهر بالزّهو عليه، استعلى واختال عليه!" والحق أن الفعل: (تبغدد) لا يقتصر على هذه المعاني؛ إذ يشيع استعماله في معاني الرّغد والنعيم وإن لم يكن ثمة زهو أو استعلاء؛ ولكنّ المعجم اكتفى ببعض كلام الزّبيدي!

(٤) لفظ: (البغددة) في اللهجة المصريّة المعاصرة معناه التدلّل؛ وكانت دلالتة مقصورة على وصف الإناث، ثم وُصف به الذّكور أيضاً.

The image features a highly decorative border in a traditional Islamic style. The border is composed of multiple layers of intricate patterns. The outermost layer is a thin gold line. Inside this is a wider band with a repeating geometric pattern of interlocking squares and diamonds in blue and gold. The next layer is a band of stylized floral and foliate motifs in gold and blue. The innermost layer is a wide, scalloped border with a central medallion at the top. This medallion contains a golden floral design on a blue background. The entire border is set against a light cream background. The text is centered within the frame.

القِسْمُ الثَّانِي :  
المَقَالَاتُ



# المُثَقَّفُ البَغْدَادِيُّ

بِسْمِ سُلْطَانِ صِلَاح

مدير التحرير

الذي لم يفتر عن تأريخ أعلام الأسرة  
الآلوسية وإحياء ما دُثر من آثارهم، مع  
إنتاجه الشعري وهمومه الجمعية. ولا  
غربة في ذلك، فهو خريج حلقة  
الآلوسيين، تلك التي كانت أشهر  
مضارب العلم في عصرها.

ومن هنا نجد نعمان القاضي،  
شاعراً وفقهياً بغدادياً، وعلي علاء  
الدين، الفقيه والمؤرخ وناشر كتب  
الفلاسفة، وخاتمتهم ومحيي ذكرهم  
محمود شكري، العلامة الموسوعي  
متعدد الفنون. ولم تكن هذه  
الموسوعية مستحدثة، ولا وليدة  
عصرنا؛ بل هي إرث متأصل منذ ولادة  
بغداد، وواجب عميق متصل

في حوارٍ الدائم مع أصدقائي من  
أهل بلدي (العراق) أو من غيره من  
مختلف الجنسيات، لطالما طربت  
وتفاخرت ببغداديتي، لا نزعةً جاهلية  
حمقاء تزعم لي فضلاً على غيري، بل  
اعتزازاً بتنوّع مَشارب علماء بغداد  
وسعة موسوعيتهم.

فدائماً ما نضرب المثل بالدكتور  
مصطفى جواد، ذلك العلامة الموسوعي  
الذي شارك في صناعة الفكر بكتاباته  
الغزيرة، من مقالات دقيقة إلى مؤلفات  
جامعة وتحقيقات نافعة، امتدت فنونها  
بين الأدب والتاريخ واللغة.

وكذلك الشيخ محمد بهجة الأثري،  
ذاك المعمم السلفي البغدادي العريق،



بأبكارها؛ فلا يكون العالم بغدادياً أصيلاً ما لم يجمع شتات العلوم ويوظفها لتحقيق مراد واحد.

وكم أسعدني وأنا أستمع لهذه الفكرة من الدكتور بشار عواد معروف العبيدي البغدادي، وهو يتحدث عن إمام المؤرخين والمفسرين محمد بن جرير الطبري - طابت روحه - ويصفه بأنه صاحب ثقافة بغدادية صرفة، ويقول عن تاريخه: "كالخوت يبتلع الأسماك".

وإن المتتبع لسيرة الطبري ليقف عجباً أمام ثناء أكابر العلماء عليه، وشهادتهم له بسعة علمه وامتداد معرفته ويده الطولى في فنون متعددة، فهذا هو أصل المثقف البغدادي. فالذهبي يصفه إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، وعلامة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات واللغة.

وقال أبو سعيد بن يونس: "محمد بن جرير من أهل آمل، كتب بمصر، ورجع إلى بغداد، وصنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه".

وقال عنه الخطيب البغدادي: "كان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وقد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها: صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، قلّ أن ترى العيون مثله، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم".

وقال عنه القفطي: "جامع العلوم، لم يُرَ في فنونه مثله، وصنف التصانيف الكبار".

وهكذا نجد أن الطبري، المولود في طبرستان والمتنقل بين البلدان، لم يهدأ له بال إلا في بغداد لما كانت المدينة تتناسب مع سعته المعرفية وتنوع علومه، حتى دُفن فيها، ونجد روحه حاضرة اليوم في كل مشروع ثقافي ببغداد، كأنّ المدينة تصرخ: "أنا مثقف ببغداد، إذن أنا موسوعي".



# الثقافة والهوية الوطنية

د. د. محمود أحمد المعماري

أكاديمي عراقي

أستاذ التاريخ العربي الحديث والمعاصر

الثقافة هي الروح التي تنبض بها المجتمعات، وهي المرآة التي تعكس قيمها وتاريخها. وتلعب الثقافة دورًا محوريًا في تشكيل هوية الأفراد والمجتمعات، حيث تساهم في تعزيز الانتماء والتماسك الاجتماعي.

في هذا السياق، وبمناسبة اختيار (بغداد) عاصمة الثقافة الإسلامية لهذا العام، تبرز أهمية الثقافة في إعادة رسم هوية المجتمع، من خلال الحفاظ على التراث والتفاعل مع التغيرات العصرية. من حيث مفهوم الثقافة فهي تشمل مجموعة القيم والعادات

والتقاليد التي تميز مجتمعًا ما. بينما الهوية تعبر عن الشعور بالانتماء والتميز الذي يشعر به الأفراد تجاه مجتمعهم. هذه الهوية تتكون من خلال التفاعل بين الفرد والمجتمع، وتتأثر بالعوامل التاريخية والاجتماعية، والاقتصادية. على سبيل المثال: في العراق، تلعب الثقافة دورًا كبيرًا في تعزيز الهوية الوطنية، حيث تجمع بين مختلف المكونات الاجتماعية والثقافية، وتعزز الشعور بالوحدة والتضامن بين أفراد المجتمع. الحفاظ على التراث هو أحد أهم

أدوار الثقافة، حيث تحفظ القصص، والفنون، واللغات التي تعزز الشعور بالانتماء.

الأغاني الشعبية -مثلاً- تعكس تاريخ البلد وتراثه، وتساهم في تعزيز الهوية الوطنية. بالإضافة إلى ذلك، تلعب الموسيقى الشعبية والشعر دوراً كبيراً في تعزيز الهوية الوطنية، حيث تعبر عن تجارب وآمال المجتمع، وتوثق الأحداث التاريخية والمواقف الاجتماعية.

ومن بين العادات القيّمة في المجتمع العراقي التي أثبتت أنها تقوّي لُحمة المُجتمع وتزيد من تماسكه: الضيافة، والزيارات العائلية، والمشاركة في المناسبات، والاحترام والتقدير

للكبار. هذه العادات تعزز الروابط الاجتماعية وتساهم في بناء مجتمع متماسك، حيث يشعر الأفراد بالانتماء والمسؤولية تجاه مجتمعهم.

الثقافة تتطوّر وتتكيّف مع التغيّرات المجتمعيّة، مما يساهم في إعادة تعريف الهوية. هذا التفاعل يسمح للمجتمع بالاحتفاظ بأصالته مع الانفتاح على العالم.

التكنولوجيا الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي أثّرت بشكل كبير على الثقافة، حيث أصبحت الفنون والتراث تصل إلى جمهور أوسع، مما يساهم في تعزيز الوعي الثقافي والتماسك الاجتماعي.



# شَارِعُ الْمُتَنَبِّي ذَاكِرَةُ الثَّقَافَةِ الْحَيَّةِ فِي بَغْدَادَ

كلمة أسامة فاضل  
كاتب عراقي

صفراء الحواف تحمل آثار قرائها  
السابقين، ومجلدات نجت بأعجوبة من  
الحروب والإهمال. هنا، لا تُباع الكتب  
بوصفها سلعة، بل تُداول بوصفها  
ذاكرة، وكأن كل كتاب يهمس: كنتُ  
شاهدًا على زمنٍ ما.

شارع المتنبّي هو المكان الذي  
قاومت فيه الثقافة العراقية محاولات  
الطمس المتكررة. في بلدٍ أثقلته الحروب  
والانكسارات، ظلّ هذا الشارع  
واقفًا، يتعرض للضرب، ثم ينهض، كأن  
القراءة فيه فعلٌ عنادٍ حضاري،

لا يمكن أن نرى شارع المتنبّي  
مجرد شارع في قلب بغداد، ولا سوق  
كتب تقليدي تصطف فيه العناوين  
على الأرصفة. لأنّه في المعنى العميق:  
مساحة رمزية، تمشي فيها المدينة على  
قدمين، وتطلّ من خلالها بغداد على  
ذاتها، كما لو أنّها تقرأ سيرة حياتها  
صفحةً صفحة.

في صباحات يوم الجمعة، يتحوّل  
الشارع إلى مشهدٍ حيّ نابض: باعة  
الكتب يفتشون الأرصفة، عناوين  
قديمة تعود إلى عقود مضت، كتب

وصرخةً حضاريةً تقول إن بغداد، مهما  
تهالكت، لا تزال مدينة تقرأ وتفكر.

لا يقتصر المشهد على الكتب  
وحدها؛ فالمتنبي منتدى مفتوح، تلتقي  
فيه الآراء قبل الأشخاص. شاعرٌ يقرأ  
نصاً على عجل، طالبٌ يبحث عن كتابٍ  
نادر، مثقفٌ يخوض جدالاً سياسياً،  
ورسامٌ يعرض لوحاته قرب جدار قديم.  
تتجاوز الفلسفة مع الشعر، والسياسة  
مع الرواية، دون حواجز أوبروتوكولات.  
الجميع متساوون أمام كتابٍ مفتوح  
ونقاشٍ محترم.

وإذا كان لكل مدينة مرآة ترى  
نفسها فيها، فإن شارع المتنبي هو مرآة  
العراقي. فيه ترى شغفه بالمعرفة، وحزنه  
العميق، وسخريته اللاذعة، وإصراره  
على الحياة.

لا يسألك أحد هناك: من تكون؟  
ولا من أين جئت؟ بل: ماذا تقرأ؟ وما

الذي تبحث عنه بين هذه الأكوام من  
الورق والحنين؟

وربما تكمن خصوصية شارع  
المتنبي في أنه يربط الأزمنة ببعضها،  
فلا يعيش في الماضي فحسب، ولا  
ينتمي إلى الحاضر وحده. هو جسرٌ بين  
أجيالٍ قرأت وكتبت وحلمت، وأجيالٍ  
لا تزال تبحث عن معنى وسط الركام.  
كل خطوة فيه تذكير بأن الثقافة في  
بغداد وسيلة بقاء، وليست ترفاً ورياءً.  
وأخيراً حين تغادر شارع المتنبي،  
تخرج محملاً بالكتب ومعها شعورٍ  
غامض بثبات الجذور، وبأنك مررت  
بقلب بغداد النابض. شارعٌ يختصر  
مدينة، ومدينةٌ تجد في شارعها هذا  
سبباً إضافياً للاستمرار. فطالما ظلّ  
المتنبي حياً، ستبقى بغداد قادرة على أن  
تروي حكايتها، ولو بصوتٍ خافت،  
لكنه صوتٌ عنيد.

# بَغْدَادُ

## مَدِينَةُ الْقَانُونِ وَالْقَصِيدَةِ

### -رَحْلَةُ صِنَاعَةِ الْعَدَالَةِ-

د. مصطفى هشام هجرس

رئاسة الجامعة العراقية / قسم الشؤون القانونية

وتشكّل العدالة، فلم يكن يفكر في تأسيس عمراي فحسب، بل كان يصوغ بُعداً للدولة الناهضة، حيث أراد أن تكون بغداد مركز نظام ومختبر سلطة، وحصناً تُدار منه شؤون الأمة وفق رؤية دقيقة تحكمها الموازين لا الأهواء.

فبها كانت تكتب الكتب، وتنقح المذاهب، وتعلن أحكام الصلح والمظالم في حلقات العلماء، فمن (كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف) مروراً بدروس المستنصرية، كان يصاغ تصوّر للدولة سابق لعصره، ومحدّد لمعنى

إنّ المتحدث عن بغداد، يجب أن يدرك أنّ الحديث ليس عن مدينة مرت على صفحات التاريخ مروراً عابراً، إنّما هو حديث عن مدينة وُلد القانون فيها قبل افتتاح شوارعها وعلوّ قبابها.

ففي اليوم الذي خطّ (أبو جعفر المنصور) المدينة الأولى، كان يضع حجراً أساساً لأول أشكال التنظيم والتشريع في تاريخ المنطقة، تلك التي خرج منها قضاء القضاة، وديوان المظالم، وديوان الحسبة، وخرجت معها مسيرة لا تقل بهاء: مسيرة القانون



السلطة ومسؤوليتها تجاه الناس،  
فغدت مركزاً لشرعيتها، أورثت ذاكرةً  
حضارية لا تنضب.

ثم جاء القرن العشرون،  
واستأنفت بغداد هذا الدور الرائد  
بروحٍ عصريةٍ، حين نهض العراق  
بدولته الحديثة، وبقيت ذات المكان  
الذي تُكتب فيه التشريعات  
وتُناقش القوانين وتُدار شؤون  
الدولة الحديثة، بدءاً من المجلس  
التأسيسي إلى مجلس النواب، ومن  
المحاكم الشرعية إلى محاكم  
التمييز، وظلّت نقطة الارتكاز  
التي تتجمع حولها ملامح النظام  
القانوني في العراق، وما زال  
العراقيون حتى اليوم، ينظرون إلى  
العاصمة على أنها مركز لإنتاج  
القواعد القانونية وصياغة  
السياسات العامة، ومقرّاً للنشاط  
الحقيقي للسلطة القضائية والتنظيم  
الإداري والرقابة.

وتكلّل هذا الدور بجانبه الثقافي  
والعلمي، فمن كلية القانون بجامعة  
بغداد، خرج بصيص المعرفة الأول إلى  
كليات القانون الأخرى، وتخرّجت  
أجيال كتبت شروح القوانين، وصاغت  
مشاريع التشريعات، وأسست وعياً  
قانونياً متمدناً، وأصبحت كليات  
القانون والمعاهد القضائية مركز  
عقلٍ يُبنى فيه الرأي، وتُصاغ فيه  
الرؤى الإصلاحية حول الدولة  
والعدالة والسلطة.

إنّ بغداد، حين يُكتب عنها  
كذاكرة قانونية ممتدة من العصور  
المتأخرة إلى زمننا الحالي، ومن ديوان  
المظالم إلى مجلس القضاء الأعلى، ومن  
حلقات العلماء إلى الهيئات التمييزية،  
ثم إلى إدارات ومكاتب الدولة التي ما  
زالت تضخ روح القانون في مفاصل  
العراق، لم تكن بهذا المعنى عاصمةً  
سياسيةً فحسب، بل كانت [وما  
زالت] عاصمة تتجسّد فيها هوية

الدولة نفسها.

فالقانون في بغداد ليس مجرد وثيقة، بل هو حياة، وتاريخ، وقيمة تشكّل بها وعي الناس ونظرتهم إلى السلطة والحقوق والعدالة.

ولهذا تبقى بغداد، رغم ما مرّ بها، مدينة تقف عند حدّين:

- حدّ الماضي الذي منحها هيبتها.

- وحدّ المستقبل الذي يُنتظر فيه استعادة الدور كمركز لصناعة التشريع وفلسفة الدولة.

وكأنّ قدرَ بغداد أن تبقى قلباً لا يخفق فحسب، بل قلباً ينبض منه العراق كلّهُ.



# العمارة في بغداد أسلوب حياة

د. إسماعيل كرم

باحث في علم التاريخ، من العراق

النافذة، كما أن في هذه العمارة مراعاة  
لبعض التفاصيل الهندسية كالإضاءة  
الطبيعية والتهوية الداخلية.



تراجعت فنون هذه العمارة في  
الوقت الحاضر، وأصبح الاتجاه نحو  
العمارة الحديثة التي تفتقر للتفاصيل  
الهندسية وتفاصيل تأثير الدين  
والمجتمع عليها، فأخذت البيوت الآن  
تصبح كالأقفاس المغلقة التي يعيش

كانت العمارة الإسلامية في بغداد  
تأخذ طابعاً يوافق المبادئ والقيم  
الإسلامية والتقاليد الشرقية، خصوصاً  
في المنازل والدور؛ مثل مراعاة حرمة  
البيوت وعدم انكشافها على الشارع  
والدور المجاورة، فكانت تتمتع بخصوصية  
عالية عن طريق بناء معماري يحفظ  
لأهل البيت خصوصيتهم وحرمتهم،  
عن طريق بناء الدور بباحة داخلية  
تحيط بها الغرف، وإطلال الشبايك  
على الداخل لا على الخارج، أو في بعض  
الأحيان تطل على الخارج ولكن تغطي  
الشبايك "شناشيل" بغدادية، وهي  
عبارة عن أغطية خشبية تغطي

المفخور مما يجعل تخلخل الهواء من بين  
فتحاته باردًا.



ولنضرب مثالاً آخر على المراكز  
الحكومية المتأثرة بالتراث العراقي  
القديم، وهو مبنى وزارة الصناعة  
والمعادن التي تقع في شارع النضال،  
صممه المهندس العراقي فاضل عجينة  
وأنجز في سنة ١٩٧٨م.



أنا أرى أن هذا البناء سوف  
يحتفظ بجماله ورونقه حتى لو مرت

بداخلها الإنسان، وصغر المساحات  
التي تقام عليها المباني.

لم تقتصر العمارة الإسلامية  
الشرقية على الدور العامة للناس، بل  
كانت هوية بلد بأكمله بمؤسساته  
ومراكزه الحكومية. يقول شاعر العرب  
الأكبر محمد مهدي الجواهري:

أعدّ مجدّ بغدادٍ ومجدك أغلبُ  
وجدّد لها عهدًا وعهدك أطيبُ  
وأطلع على المستنصرية كوكبًا  
وأطلّعه حقًا فإنك كوكبُ

بُنيت جامعتي، الجامعة المستنصرية،  
على وفق هذه العمارة الإسلامية  
مستوحاة من المدرسة المستنصرية، وهي  
الامتداد التاريخي والأكاديمي لها، فقد  
تأسست سنة ١٩٦٣م، حيث قام  
المهندس المعماري العراقي قحطان  
عوني بمزج العمارة العراقية التراثية  
ومتطلبات الحداثة فيها. فلو قمت  
بزيارة الجامعة المستنصرية وتمشيت  
فيها ستري بإضاءة طبيعية تريح العين،  
وإحاطة البناية بجدار من الطابوق

عليه قرون من الزمن، والتعليل في ذلك يعود لمراعاة الضوابط والمبادئ الهندسية في البناء والعمارة، على العكس من الأساليب المتبعة حاليًا التي تعتمد على بعض النقاط منها استغلال المساحة والاقتصاد في النفقة، مع أن العمارة التراثية لا تتعارض مع هذين المبدأين.

تتجه بغداد -والعراق عمومًا- إلى سيادة المصلحة على الذوق، وربما لهذا علاقة بانفتاح العراق بعد عام ٢٠٠٣م على الرأسمالية الاقتصادية بشكل غير منضبط في الاقتصاد، مما أثر سلبًا على العمارة والذوق؛ حيث إن مصالح التجار والمستثمرين العراقيين والأجانب أخذت تأتي بأشكال عمارية لا تمت للهوية والعراقة بصلة، ليس فيها من روح الفن إلا البساطة والسطحية، بل حتى الأشجار في بغداد لم تسلم من المصالح الاستثمارية وأضحت مهددة من الاستثمار العقاري.

إن العمارة في بغداد متأثرة بالحالة

السياسية والاجتماعية التي يعيشها البلد، وقد لامست ذلك أثناء تجوالي في مدينة بغداد، لا سيما عند نزولي بجامع نداء الإسلام؛ فمن أول نظرة ألقياها على الجامع ينتابني شعور الفخامة والشموخ لما يبعثه مبنى هذا الجامع في النفوس من هذا الشعور، وليس جامع النداء وحده من يتّصف بهذه الصفة، فهناك في منطقة الغزالية جامع أم القرى الذي يبعث الشعور نفسه.



فقد بُني الجامعان في حقبة زمنية شهد العراق فيها عسكرة مجتمعية وأوضاعًا سياسية شديدة التأزم؛ إذ بُني جامع أم القرى في الفترة ما بين ١٩٩٩ - ٢٠٠١م، وصُممت منائر الجامع على شكل فوهة البندقية لسلاح الكلاشنكوف الروسي، وهو السلاح الذي كان يعتمد



صنف المشاة في الجيش العراقي.

واليوم، وبالحالة التي تسود في المجتمع العراقي والبغدادي، ألا وهي الحالة العشوائية واللامنهجية، هي حالة نعيشها واقعاً مؤسفاً، انعكست هذه الحالة على نشوء مناطق جديدة بأطراف العاصمة بغداد غير منظمة وغير مخططة؛ فبعض الدور تراها

متعاكسة الأوجه رغم وقوعها في شارع واحد، أو قد ترى الدور مبعثرة غير منظمة.

هذه الصور تعكس حالة المجتمع، وتضعنا أمام تبادل التأثير بين سيكولوجية المجتمع والعمارة، وتظهر الاضطرابات النفسية والاجتماعية على ملامح المدينة.



# عَنْدَ بَوَائِبِ جَامِعِ مَرْجَانٍ

د. عماد جاسم

مستشار بيت الحكمة ببغداد

خرج عن طاعته. وقبل خروجه نصَّب  
أويسَ مرجانًا وكيلًا له على بغداد، وما  
أن رحل السلطان عن بغداد حتَّى  
استقلَّ بها مرجان.

سريعًا عاد أويس إلى بغداد،  
وأطاح بمرجان، إلَّا أنه لم يقتله جزاء  
خيانتته، بل عفى عنه، ومن هنا صمَّ  
مرجان على التكفير عن خيانتته فأنشأ  
هذه المدرسة وحبس لها الكثير من  
الأوقاف للإنفاق عليها، وعقب وافته  
دُفن فيها وبُنيت فوقه قبة.

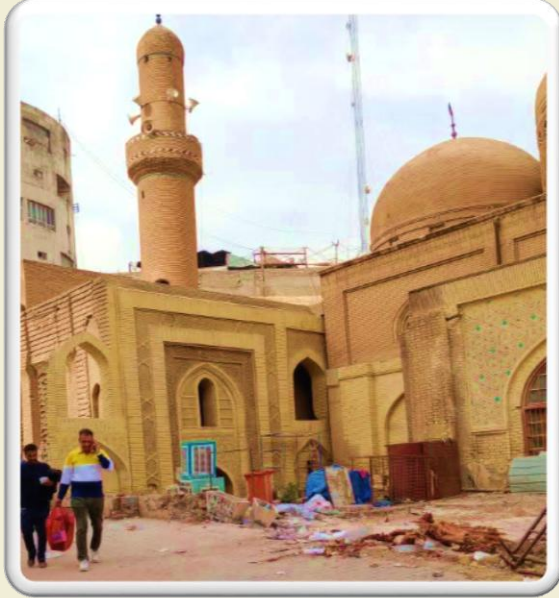
بحسب راسم الجميلي، فإنه في عام  
(١٩٤٧م) هدمت أجزاء كبيرة من

تقودني خطواتي هذه المرّة باتجاه  
أحد أقدم جوامع بغداد، وهو جامع  
مرجان، الذي كان يسمّى أيضًا "مدرسة  
مرجان"، ويعود تاريخ بنائه إلى عام  
(١٣٣٧م)، أي أنّ إعجاب المغول  
بالطراز المعماري العباسي دفعهم إلى  
بناء مدرسة فقهية لتدريس وتعليم  
الفقه الشافعي.

روى الأب أنستاس الكرمل في  
كتابه "خلاصة تاريخ العراق"، أنّ  
سبب بناء هذا الجامع يرجع إلى  
اللحظة التي قرّر فيها السلطان أويس  
الزحف إلى تبريز لتأديب أميرها الذي

واليوم حاولتُ الاقتراب أكثر  
للتعرّف إلى ما يحصل من عمليات  
(هدم!) أو إعمار أو تجديد. لكن  
الخوف كل الخوف هو من تجاهل آليات  
الصيانة التي تليق بهذا الأثر المعماري  
المهم، الذي يتوسط شارع الرشيد قرب  
أسواق الشورجة.

تَعَمَّدُ أكثر الدُول والمُجتمعات التي  
تعتزّ بتاريخها إلى اختيار فرق وكوادر  
متخصصة للحفاظ على مثل هذا الإرث،  
وليس كما هو حاصل عندنا.



الجامع والمدرسة ضمن أعمال توسعة  
شارع الرشيد، كانت مناسبة لإعادة بناء  
المسجد من جديد وفقًا للشكل  
المعروف اليوم.

ويقول بشير فرنسيس: إنّ كامل  
هيئة المسجد المُقامة الآن هي  
حديثة الطراز، بينما البناء التاريخي  
القديم للجامع لم يتبقّ منه سوى  
المدخل والمنارة.

ويضيف: إنّ المدخل القديم  
منقوش بزخارف عباسية جميلة،  
إحداها على باب المدرسة.



المنظم والدقيق جدًّا، لغرض إجراء الترميم، دون أيّ مساس بالجدران أو هوية المبنى الأثري ومكوّناته.



[مدخل القصر العباسي]

ونحن من العراقيين المحبّين والمهتمّين بآثارنا وتراثنا الذي نعدّه من الكنوز التي لا بُدّ من الحفاظ عليها واستثمارها لتكون موردًا إضافيًا للدولة، نطرح تساؤلات مشروعة عمّا يحصل من حملات ترميم وتهديم لبعض مواقعنا، ولا بُدّ أن يصاحب ذلك مخاوف مشروعة أيضًا من عدم الاستعانة بجهات أو

لست وحدي من يرى ضرورة الحفاظ على إرثنا الوطني والإنساني، وأهمّيّة العناية به، كما لست مُنحازًا إلى لغة الإدانة، لأنني أعرف طبيعة العمل المؤسّساتي، واشتغلتُ بل وعانيتُ من غياب التضامن أو من غياب الفهم لجدوى العمل الثقافي المنظم، الذي يحترم قيمة التاريخ باتجاه ترسيخ هويتنا الوطنية.

وهناك الكثير ممن يحرصون على التنبيه أو رفع أصواتهم في توخي الحذر عند عمليات الترميم دون خبرة أو معرفة دقيقة، لأجل مصلحة البلاد التي تضمّ هذه الكنوز العمرانية.

ويأتي سؤال: كيف تتابع عمليات ترميم المواقع الأثرية؟!

تتجه أغلب الدول التي تضم مواقع أثرية مهمة إلى وضع لجان استشارية علمية، وتبدأ بمخاطبة مراكز بحثية، وشركات لها باع طويل بآليات العمل

شركات أو مكاتب مَعْنِيَّة بالتراث! وهواجس أخرى من اجتهاد غير العارفين في تدمير أَرْضِيَّات ومداخل تراثية، مثلما حصل في القصر العباسي ومواقع أخرى.

ومن باب حرصنا هذا، ومحاولة تذكير المعنيين بضرورة توخي الحذر من عمليات ترميم قد تقضي على معالمنا نتيجة الفوضى وغياب الرقابة، نحن

نحتاج إلى الاستعانة بعقول وضمائر تتابع هذه الشركات والجهات، بعيدًا عن المحسوبيّات، لتوقف كل أنواع التخريب أو التجاوزات، وللسؤال عن تفاصيل وجدوى وشرعية هذه العمليات التي أغلقت أبواب المَواقِع الأثرية في وجوه السائحين، في وقت نحن فيه أحوج إلى زيادة موارد الدولة التي لا بُدَّ لها أن تفكّر بكنوزها.





# جَامِعُ الْأَحْمَدِيَّةِ فِي بَغْدَادَ تَارِيخٌ عَظِيمٌ وَوَاقِعُ الْيَمِّ

بِه فلاح السامرائي  
باحث ومحقق عراقي

دَمْعٌ لِبَغْدَاد.. دَمْعٌ بِالْمَلَايِينِ  
دَمْعٌ عَلَى الْبُعْدِ يُشْجِيهَا وَيُشْجِينِي

لَا يَزَالُ الدَّمَارُ يُحِيطُ بِمَسَاجِدِ  
بَغْدَادِ الْقَدِيمَةِ بِصُورَةٍ مُتَعَمِّدَةٍ، وَعَلَى  
مَرَأَى وَمَسْمَعِ (دِيْوَانِ الْوَقْفِ السُّنِّيِّ).  
وَجَامِعُ الْأَحْمَدِيِّ أَوْ الْأَحْمَدِيَّةِ -نِسْبَةً إِلَى  
الْمَدْرَسَةِ الْأَحْمَدِيَّةِ- وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ  
الْمَسَاجِدِ الْمَنْكُوبَةِ، وَالَّذِي يُعَدُّ مِنْ  
أَشْهَرِ وَأَعْرَقِ ثَلَاثَةِ جَوَامِعَ تَزْدَانُ بِهَا  
مِنْطَقَةُ الْمِيدَانِ فِي بَغْدَادَ؛ إِضَافَةً إِلَى  
جَامِعِ الْأَزْبَكِ، وَجَامِعِ الْمُرَادِيَّةِ.

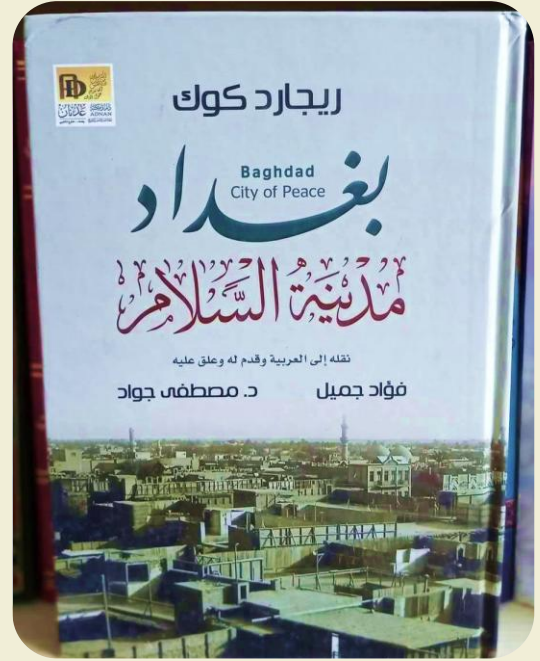
جَامِعُ الْأَحْمَدِيَّةِ مِنْ مَسَاجِدِ بَغْدَادِ  
الْأَثَرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، وَيَقَعُ فِي جَانِبِ

الرُّصَافَةِ شَرْقَ سَاحَةِ الْمِيدَانِ قُرْبَ  
جَامِعِ الْمُرَادِيَّةِ. وَلَقَدْ بَنَاهُ أَحْمَدُ بَاشَا  
"الْكُتْخُذَا" نَائِبُ سُلَيْمَانَ بَاشَا الْكَبِيرِ  
عَامَ (١٢١١هـ)، وَسَمَّى الْجَامِعَ نِسْبَةً إِلَيْهِ،  
وَلَمْ يُتَمَّ عِمَارَتُهُ فَقُتِلَ عَامَ (١٢١٠هـ)  
وَقَبْرُهُ مَوْجُودٌ فِي بَاحَةِ الْمَسْجِدِ.

ثُمَّ جَاءَ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بَك فَاتَمَّ  
عِمَارَةَ الْجَامِعِ بَعْدَ عَامٍ تَقْرِيْبًا وَبَنَى  
الْمَدْرَسَةَ الْأَحْمَدِيَّةَ.

وَقِصَّةُ قَتْلِ أَحْمَدَ بَاشَا غَرِيبَةٌ بَعْضُ  
الشَّيْءِ، وَهِيَ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهَا الْمُسْتَشْرِقُ  
الْبَرِيطَانِيُّ "رِيْجَارْدُ كُوك" فِي كِتَابِهِ (بَغْدَادُ  
مَدِينَةُ السَّلَامِ)، قَالَ: "وَأَحْمَدُ بَاشَا -هَذَا-

الْمُلَقَّبُ بِ(الْكَهْيَّة) أَوْ (الْكُتْحُذَا) -أَيِ  
النَّائِبِ- كَانَ نَائِبًا لِلْوَالِي الْمَمْلُوكِيِّ  
سُلَيْمَانَ بَاشَا الْكَبِيرِ، وَكَانَ الْوَالِي يَعْتَمِدُ  
عَلَيْهِ كَثِيرًا لَا سِيَّمَا فِي أَوَاخِرِ سِنِي  
عُمُرِهِ بَعْدَ أَنْ نَالَ مِنْهُ الْعَجْزُ، وَكَانَ  
الْمُرْشَحَ الْأَوْفَرَ حَظًّا فِي نَيْلِ الْوِلَايَةِ  
بَعْدَ سُلَيْمَانَ بَاشَا، وَهُوَ مَا أَثَارَ حَفِيزَةَ  
وَحَسَدَ بَقِيَّةِ الْأُمَرَاءِ وَالْبَشَوَاتِ.



وَاخْتَلَفَتْ الْأَسْبَابُ فِي مَقْتَلِهِ، لَكِنَّ  
الْمُسْتَشْرِقَ الْبَرِيطَانِيَّ (رِيْجَارْدُ كُوكِ)  
يُرْجِّحُ سَبَبَ مَقْتَلِهِ إِلَى تَلَكُّوْ أَحْمَدَ بَاشَا  
عَنْ خِطْبَةِ (خَدِيْجَةِ خَانِمِ) ابْنَةِ الْبَاشَا  
سُلَيْمَانَ؛ وَذَلِكَ لِجَمَالِ زَوْجَتِهِ وَرَفِضِهَا  
لِزَوَاجِهِ الثَّانِي، مِمَّا أَثَارَ حَفِيزَةَ خَدِيْجَةِ

خَانِمِ الَّتِي اتَّفَقَتْ مَعَ أَمِينِ الْخَزِينَةِ (عَلِي  
آغَا) عَلَى خُطَّةٍ لِقَتْلِ أَحْمَدَ بَاشَا بَعْدَ  
اتِّهَامِهِ بِالْحِيَانَةِ.

وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، وَبَيْنَمَا  
الْبَاشَا الْهَرَمُ يَجْلِسُ فِي دِيْوَانِهِ، وَبَعْدَ أَنْ  
دَخَلَ عَلَيْهِ نَائِبُهُ أَحْمَدُ بَاشَا؛ اسْتَلَّ عَلَيِ  
آغَا سَيْفَهُ وَضَرَبَ عُنُقَ أَحْمَدَ بَاشَا غِيلَةً،  
وَفَصَلَ رَأْسَهُ عَنْ جَسَدِهِ أَمَامَ أَنْظَارِ  
الْبَاشَا الْهَرَمِ الَّذِي صَدَّقَ الدَّعَايَةَ الَّتِي  
أَثِيرَتْ حَوْلَ أَحْمَدَ، لَاسِيَّمَا وَأَنَّ أَحْمَدَ قَدْ  
وَسَّعَتْ شُهْرَتُهُ فِي الْعِرَاقِ وَكَانَ هُوَ مَنْ  
يُدِيرُ أُمُورَ الْوِلَايَةِ.

تَمَّتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ فِي بِنَايَةِ  
الْقَلْعَةِ فِي الْمَيْدَانِ.

دُفِنَ أَحْمَدُ بَاشَا فِي مَقْبَرَةِ الشَّيْخِ  
عُمَرَ السُّهْرَوَرْدِيِّ بِدَايَةِ الْأَمْرِ، ثُمَّ نُقِلَ  
إِلَى مَدْفِنِهِ فِي جَامِعِ الْأَحْمَدِيِّ، وَلَمْ يَبْقَ  
مِنْ ذِكْرِ أَحْمَدَ بَاشَا سِوَى هَذَا الْجَامِعِ  
الْجَمِيلِ الَّذِي كَلَّفَ أَمْهَرَ الْمِعْمَارِيِّينَ  
وَالْأُسْطُوَاتِ فِي بِنَائِهِ أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ، لَكِنَّهُ  
لَمْ يَشْهَدْ افْتِتَاحَهُ.

وَلَقَدْ حُلَّ هَذَا الْجَامِعُ فِي مَوْجِعِ

جَامِعِ الْقَصْرِ الَّذِي بُنِيَ فِي زَمَنِ الدَّوْلَةِ  
الْعَبَّاسِيَّةِ - عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ -، وَقِيلَ:  
إِنَّ مَكَانَ جَامِعِ الْقَصْرِ هُوَ جَامِعُ  
الْخُلَفَاءِ الْمَنْكُوبِ هُوَ الْآخِرُ الْكَائِنُ  
فِي سُوقِ الْغَزْلِ.

وَقَدْ مَرَّتْ عَلَى الْمَبْنَى أَحْدَاثٌ  
كَثِيرَةٌ مِنْهَا: قِيَامُ الْوَالِي دَاوُدَ بَاشَا  
بِتَجْدِيدِ الْكِتَابَاتِ وَالتَّقْوِشِ الْقَائِمَةِ  
عَلَى وَاجِهَةِ الْمَبْنَى سَنَةَ (١٢٤٧هـ/  
١٨٣١م).

وَفِي عَهْدِ الْوَالِي مِدَحَتِ بَاشَا  
هُدِمَتْ غُرْفُ الْمَدْرَسَةِ وَأُضِيفَتْ  
أَرْضِيَّتُهَا إِلَى الشَّارِعِ الْعَامِّ، كَمَا جُدِّدَ  
بِنَاءُ بَيْتِ الصَّلَاةِ سَنَةَ (١٣٠٧هـ/١٨٩٣م)  
اسْتِنَادًا إِلَى كِتَابَةِ مُدَوَّنَةٍ عَلَى رَقَبَةِ قُبَّةِ  
بَلَاطِ الْمِحْرَابِ.

وَفِي الْعَهْدِ الْمَلِكِيِّ أَمَرَ الْمَلِكُ  
فِيصَلُ الْأَوَّلُ أَنْ يُخَصَّصَ هَذَا الْجَامِعُ  
لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَقَطْ.

وَقَدْ دَرَسَ فِي الْمَدْرَسَةِ عُلَمَاءُ أَعْلَامٍ  
وَلَهُمْ شُهْرَةٌ فِي بَغْدَادَ، وَآخِرُ مَنْ دَرَسَ  
فِيهَا: الْعَلَامَةُ السَّيِّدُ يَحْيَى الْوَتَرِيُّ، وَمِنْ

بَعْدِهِ وَلَدُهُ مُحَمَّدُ الْوَتَرِيُّ، وَهُمَا مِنْ عَائِلَةٍ  
بَغْدَادِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ، وَلَهُمْ مَجْلِسُ عِلْمٍ فِي  
جَامِعِ الْخُلَفَاءِ قُرْبَ سُوقِ الْغَزْلِ يُسَمَّى  
"مَجْلِسَ آلِ الْوَتَرِيِّ". ثُمَّ دَرَسَ فِي الْمَدْرَسَةِ  
الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَحْمَدَ الشَّوَّافِ.

وَمِنْ خُطَبَاءِ جَامِعِ الْأَحْمَدِيَّةِ  
الْمَعْرُوفِينَ أَيَّامَ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ: (مُلَّا  
طَه الْقَرَاغُوزِيُّ) جَدُّ نُورِي السَّعِيدِ.

وَمِنْ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ ارْتَبَطُوا  
بِالْمَسْجِدِ وَطَارَ ذِكْرُهُمْ فِي الْأَفَاقِ:  
الْخَطَّاطُ سُفْيَانُ الْوَهْبِيُّ (ت ١٢٦٦هـ)  
دَفِينُ الْمَسْجِدِ، وَهُوَ مِنْ أَيْمَةِ الْخَطَّاطِينَ  
فِي بَغْدَادَ، تَتَلَمَذَ عَلَى يَدِ الْأُسْتَاذِ دَرَوِيْشِ  
نُعْمَانَ الدَّكَايِّيِّ، وَصَارَ أَسْتَاذًا فِي فَنِّ  
الْخَطِّ وَتَخَرَّجَ بِهِ خَطَّاطُونَ كَثِيرُونَ؛  
أَشْهَرُهُمْ مُفْتِي بَغْدَادَ أَبُو الثَّنَاءِ الْأَلُوسِيُّ،  
وَالْمُفْتِي عَبْدُ الْغَنِيِّ آلِ جَمِيلٍ، وَالسَّيِّدُ  
الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ أَمِينٍ الْوَاعِظُ، وَالشَّيْخُ  
عِيسَى الْبَنْدَنِيجِيُّ، وَالْعَلَامَةُ أَحْمَدُ أَفَنْدِي  
الْقَائِمَقْجِيُّ، وَصِبْغَةُ اللَّهِ الْحَيْدَرِيُّ.

وَكَانَ الْوَهْبِيُّ يَتَفَقَّنُ فِي جَوْدَةِ الْخَطِّ،  
وَيُحَسِّنُ التَّزْوِيقَ، وَيَخْطُ اللَّوْحَاتِ

بِالذَّهَبِ الْخَالِصِ وَالْمِينَا.

وَمِنْ آثَارِهِ الْخَطِيَّةُ كِتَابُ "الثُّحْفَةِ  
الْاِثْنَى عَشْرِيَّة" مِنْ مَخْطُوطَاتِ الْمَكْتَبَةِ  
الْقَادِرِيَّةِ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ  
مَخْطُوطَاتِ مَكْتَبَةِ الْأَوْقَافِ الْعَامَّةِ فِي  
بَغْدَادَ، وَكُتِبَ فِي آخِرِهِ: "وَقَعَ الْفَرَاغُ مِنْ  
كِتَابَةِ هَذَا الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ عَلَى يَدِ  
الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُفْيَانَ الْوَهْبِيِّ، مِنْ

مَمَالِيكَ الْوَزِيرِ الْمُعَظَّمِ سُلَيْمَانَ بَاشَا  
وَالِي بَغْدَادَ دَارِ السَّلَامِ".

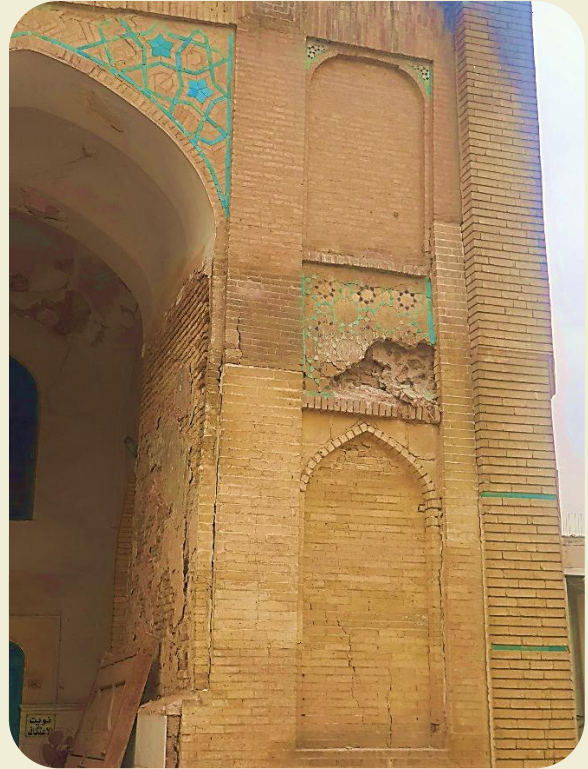
وَلَا تَزَالُ آثَارُ خَطِّ الْوَهْبِيِّ فِي جَامِعِ  
الْأَحْمَدِيَّةِ وَجَامِعِ عُمَرَ السُّهُرُورِيِّ  
شَاهِدَةً عَلَى حَقِّبَةِ مَاضِيَّةٍ.

وَكَانَ لِجَامِعِ الْأَحْمَدِيَّةِ خِزَانَةٌ كُتِبَ  
كَبِيرَةٌ أَشَارَ إِلَيْهَا الْكَرْمَلِيُّ فِي مَجَلَّةِ "لُغَةِ  
الْعَرَبِ" فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ.

### جانب من الخراب والإهمال في جامع الأحمديّة:









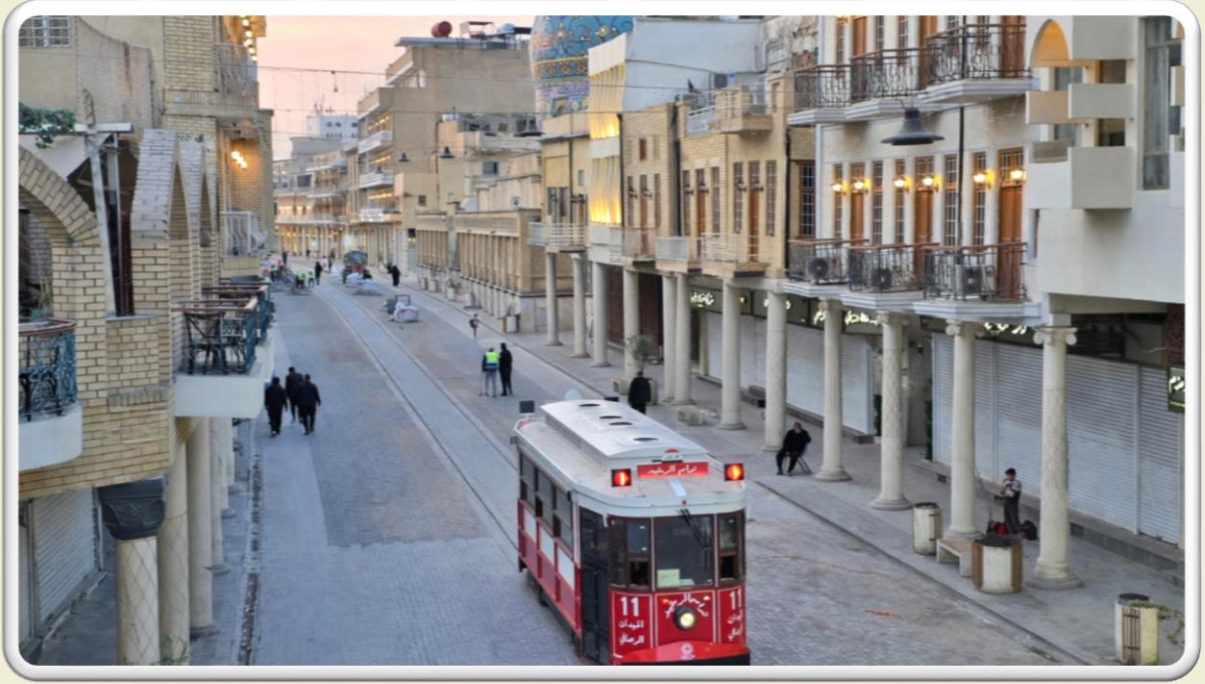
# (تِرَامُوَيِّ) فِي شَارِعِ الرَّشِيدِ هَلْ يَتَحَقَّقُ الْحُلُمُ؟!

عادل العرداوي

كاتب وصحفي عراقي

كنا نحلمُ بها، وهي قادمةٌ بشكلٍ قريبٍ لا ريبَ في ذلك، لتنتهي تلك الصورةُ الكالحةُ والمشوّهة التي عاشها الرشيدُ في تلك السنواتِ العجافِ التي مرَّ بها، بل ومررنا بها جميعًا.. وألمُسُ اليقينَ قبل الشكِّ فيما أتابعه يوميًا وأراه عبر ذلك الجهدِ الخيّرِ الذي يجري ويتصاعدُ في شارعِ الرشيدِ، الذي تقوده الحكومةُ الحاليةُ متمثلةً بأعلى هرمها الرسميِّ، ومعه حشدٌ من الخيرين الآخرين الذين يمثلون دوائرَ حكوميةً وجهاتٍ غيرَ حكوميةٍ أخرى معنيّةً بذلك.

الحديثُ عن أقدمِ شريانٍ حيويٍّ في جسدِ بغدادَ الحديثةِ (شارع الرشيد) لا يُملُّ ولا يفقدُ قيمتهُ أو حرارتهُ مهما توالى الأيامُ وتعاقبت... وأدعي -تواضعًا- أيُّ واحدٌ من أولئك الذين عشقوا هذا الشريانَ البغداديّ وأفتتن به منذ ستيناتِ القرنِ المنصرمِ حتى الوقتِ الحاضرِ، وكتبوا وتحدّثوا عنه في أكثرَ من مناسبةٍ، وما زلتُ كذلك وسأبقى إلى أن أرى الصورةَ المُشرقةَ الجديدةَ والمنتظرةَ التي سيكونُ عليها (شيخ شوارع بغداد) مجلّته التي



والحلم الذي أُشيرُ إليه عبر هذه  
السطور تلك الخطوة المنتظرة التي يجبُ  
أن تتحقق في شارع الرشيد ونحن نعيدُ  
الحياةَ إليه رويدًا رويدًا، وأعني بذلك  
تشغيلَ آلة الـ(ترامواي) ليصبحَ وسيلةَ  
النقلِ الوحيدةَ فيه، فتمنحَ الوسائلِ  
الأخرى من اختراقه، ويكونَ فضاءه  
الممتدَّ من البابِ المعظمِ إلى البابِ الشرقيِّ  
مجالاً خصبً لممارسةِ رياضةِ المشي لما  
يقاربُ من مسافةٍ (٤ كم)، وكما هو  
حاصلٌ فعليًا منذ سنواتٍ خلت في

شارع (الاستقلال) بمدينة (إسطنبول)  
التركية الشهيرة، وما زال كذلك؛  
حيث تحوّلت عرباتُ (ترامواي)  
تلك إلى معلَمٍ سياحيٍّ وترفيهيٍّ، سواءً  
ذلك في إسطنبول أو في غيرها من  
العواصم والمُدنِ العالمية الأخرى. وهذا  
ما نريده لـ(مترو) شارع الرشيد..  
وشارعُ الرشيد هذا هو مَشارُ  
الحكاياتِ والمواقفِ والذكرياتِ العذبةِ  
التي تشكّلُ جزءًا أساسيًا من فولكلورِ  
وموروثِ بغدادَ منذ بدايةِ القرنِ

العشرين المنصرم حتى اليوم الحاضر،  
بل إنَّ وصفَ ابنِ بغدادَ الشاعرِ  
المجدِّدِ والراحلِ (مظفر النواب) الذي  
أفاضَ به عليَّ وأنا ألتقي به -رحمه الله-  
في مقهى (الهافانا) الواقعة وسط  
دمشق القديمة في أواسطِ عام ٢٠٠٥م  
الماضي لأوَّل مرةٍ ينطبقُ عليه تمامًا،  
إذ طلبَ مني أن أتحدَّثَ له عن واقع  
حالِ شارع الرشيدِ باعتباره (ذاكرة)

بغدادَ الحيةَ فقط دونَ الأحاديثِ  
الأخرى؛ لأنَّه يُعدُّ (شارع الرشيد)  
بمثابةِ (النهر) الثاني لبغدادَ الموازي  
لمسارِ نهرِ دجلةَ الخالدِ، والذي يجبُ أن  
يكونَ متدفقًا من دونِ توقُّفٍ مهما  
كانت الظروفُ والصعوباتُ التي كانت  
تمرُّ بالعراقِ وعاصمته الخالدة  
بغدادَ، التي هي أمُّ شارع الرشيدِ الذي  
سيعودُ زاهيًا، لا شكَّ في ذلك!



# الْوَجْهَ الْأَخْرَ لِبَغْدَادِ

علاء الدين أحمد شهاب

كاتب وناقد عراقي

الشوارعُ صفحاتٌ يكتبُ عليها  
الناسُ من حكاياتهم ما لم تدوّنهُ  
الكتبُ، وينثرُ عليها البشرُ ما لم تسطرهُ  
الأقلامُ والمحابرُ.

الدّرايينُ المنعرجةُ والملتويةُ على  
نفسِها، والشوارعُ الملتقّةُ بجنانٍ على  
حاراتِ بغدادِ القديمة. الكورنيشُ الفتيُّ  
الذي يختلسُ النظرَ بلا حياءٍ على الفاتنةِ  
الحسنةِ (دجلة). الحسنةُ اليافعةُ التي  
لا تشيخُ مهما تقادمَ الزمنُ، والتي تضربه  
بأمواجها تأديبًا له فلا يرعوي، وتغرقه  
بفيضاناتها مرّاتٍ عديدةً فلا يتوبُ، وهل  
يتوبُ عاشقٌ! رصيفُ الأنهارِ هو الآخرُ

مراهقٌ لا يكبرُ أو شابٌ غويٌّ لا يهرمُ!  
المقاهي التي تتلصصُ على حكاياتِ  
البغداديينَ القدامى وهم يرمونَ نردَ  
(الطاولي) وكأنّهم يرمونَ معه همومهم  
الساذجةَ في حينها، ويعبثونَ بأحجارِ  
الشطرنجِ ويضربونَ بقطع (الدومينو)  
على مناضدٍ تكادُ تتنّ من سطوةِ  
الضربِ وشدةِ الجلدِ على ظهورها، وكأنّهم  
ينقّسونَ عمّا هو مكبوتٌ في دواخلهم!  
بسطياتُ الكتبِ المعروضةُ بفتنةٍ  
في شارعِ المتنبي أمامَ أنظارِ زوّارِ محلّينَ  
وأجانبٍ وهي تغريهم بأغلفةِ الكتبِ  
العتيقةِ والحديثةِ، وأوراقٍ متدرّجةِ

الألوان بين أصفر وأبيض وألوانٍ أخرى  
باهتة وداكنة أنهكتها فترات الحروب  
وأرهبها حصارٌ ظالمٌ قبل عقودٍ من  
السنوات كان قد استنزفَ جلَّ خيراتهم  
ومدَّخراتهم بما فيها المكتبات العامرة  
في البيوت، فولَّت تلك الأيام إلى غير  
رجعة. حصارٌ لم تزل آثاره مرسومةً على  
وجوه المُسنِّين على الرغم من كرِّ  
السنين وتعاقبها!

مقاهٍ شعبيةٌ مبعثرةٌ في الحارات  
والأزقة تحاولُ جهدها أن تلممَ -على  
بعثرتها- الآمالَ الفاترة والأحلامَ  
المُجهدَةَ لشبابٍ ورجالٍ يتوقّدون  
تطلُّعاً وحماساً.

يقولُ الكاتبُ جمال حيدر في كتابه  
الماتع "بغداد في حادثة الستينات"  
(ص ١٠٣-١٠٤): «تركْتُ مقاهي بغدادَ  
بصماتها المائلة على الحياة الاجتماعية  
والسياسية والثقافية وتطوراتها بعدما  
غدَّت ملتقى الأدباء والمُفكرين

والسياسيين، واحتلَّت كلُّ منها مجالاً  
خاصّاً بها. ومقاهي بغدادَ عادةً ما  
تشعرك بالانتماء إلى العامة: سجاداتٌ  
مزرکشةٌ وغلاياتٌ مطليةٌ بلونِ  
الذهب، مرايا ضخمةٌ، مراوحٌ سقفيةٌ  
تدورُ بتواصلٍ، ولوحاتٌ قديمةٌ تكادُ  
تخرجُ من إطارها، في حين تزدانُ واجهةُ  
بعض المقاهي الشعبية بالآلاتِ  
المُوسيقية النحاسية التي تومضُ في  
عيون المارة وهي في انتظارِ المناسبةِ  
الخاصة بها».

ولعلَّ واحداً من أشهر تلك  
المقاهي هو مقهى الشَّابندر بطرازه  
العتيق وشناشيله البغدادية التي  
تشعرك بروح الأصالة والانتماء، ليغدو  
مزاراً للمثقفين ورواد الفكر والمعرفة،  
ومثله مقهى أم كلثوم، وحسن عجمي،  
ومقهى الزهاوي وغيرها من المقاهي  
التي كانت ولم تزل تعجُّ بأرباب الفكر  
والثقافة؛ فهم في مناقشاتٍ ومساجلاتٍ



في الأدب واللغة والسياسة وشؤون الحياة. وكلام الأستاذ حيدر جمال هنا إنما هو عن المقاهي الشعبية التي كانت تجذب زبائنَها في عقود الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم وظلَّ بعضها صامدًا إلى يومنا هذا، والتي كانت تحاكي الروح البغدادية المتطلّعة لحياة الترف والوجاهة مع أصالة ظلت تلازم البغداديّ حتى وهو يرتشف (استكان) شاي بسيط يحكي انتماءه وهويّته.

ثمَّ ما لبثت أن ظهرت مقاهي الحداثة في الأحياء الراقية من مدينة السلام، كسلسلة مقاهي رضا علوان الموزعة على مناطق الكرادة وزيونة والبنوك واليرموك ومنطقة الصليخ (الستمية) والأعظمية وغيرها من المناطق التي عُرفت بعراقتها مع مساحة تحضّر وتمدّن لازمت أهلها قديمًا وحديثًا، ومثلها مقهى (كرايندارز) الذي يظهر مجاورًا لمقاهي رضا علوان أو

العكس صحيح، إذ صار تناسلهما وتجاوزهما في الأحياء الراقية شبيهًا لأحجية البيضة والدجاجة، وأيهما قد سبق الآخر! وكذلك سلسلة مقاهي (لوكاس) المتعددة، ولا يفوتني التنويه بمقهى جواد الشكرجي في حيّ النازمية من منطقة الكرادة، والذي قضيت - ولم أزل أقضي - فيه أوقاتًا ممتعة أناقش فيه آخر إصدارات الكتب مع صديق الدرب الدكتور محمد رضا العميري المختصّ بالنقد والسرد.

يقودنا الحديث عن المقاهي إلى الحديث عن الأسواق، إذ أغلب مرتادي الأسواق سيراتادون المقاهي للترويج عن النفس وارتشاف ما يحلو لهم من مشروبات يكسرون بها حرّ الصيف أو برودة الشتاء بحسب المواسم، ولعلّ واحدًا من أكثر الأسواق شهرةً بين البغداديين خاصّةً والعراقيين عامّةً هو سوق الشورجة الذي يحتلّ

قلب بغدادَ في جهة الرصافة تحديداً. يقول الكاتب جمال حيدر: «سوق الشورجة عصبُ الأسواقِ البغدادية. سُميت السوقُ قديماً بسوقِ الرياحين، ثم استُبدلَ الاسمُ إلى العطارين، ليستقرَّ أخيراً على تسمية الشورجة». ثم يمضي الكاتب فيقول: «سوقُ الشورجة لا تعرفُ الهدوءَ إلا مع انقضاءِ ضوءِ النهارِ، شريحةٌ صغيرةٌ من الحمالين ذوي العضلِ البارزِ في الأقدام تحملُ على ظهرها تجارةَ العراقِ بأسره. تنافرتِ الآراءُ حولَ أصلِ مفردةِ شورجة، حيث يذهبُ البعضُ إلى أنَّها محرَّفةٌ عن (الشيرج) وهو دهنُ السمسم الذي امتنَّه اليهودُ استخراجَه في مصانعٍ انتشرت في تلك المنطقة، في حين يعزو الدكتور مصطفى جواد المفردة إلى (شوركاه) أي محلَّ الماءِ المالح، إذ يعتقدُ بأنَّ السوقَ كانت بركةَ ماءٍ مالحةٍ وحرَّفت لاحقاً إلى (شورجة)».

وعدا عن الشورجة، فهناك عشراتُ الأسواقِ المنتشرة في مناطقِ بغدادَ وأحيائها، لا سيما في جانبِ الرصافة، كسوقِ (الغزل) المختصَّ ببيع الحيوانات، وسوقِ (هرج) المختصَّ ببيع كلِّ ما هو قديمٌ وعتيقٌ فضلاً عن اللقى والأشياءِ المدرسة، وسوقِ الصفاير المختصَّ ببيع الأواني والتحفِ النحاسية وقد كادَ أن يندرسَ اليومَ، وسوقِ السراي المختصَّ ببيع الدفاترِ والقرطاسية وكلِّ ما له صلةٌ بلوازمِ الدراسةِ والمدارسِ، وأسواقٍ أخرى يصعبُ استيعابُها والإحاطةُ بها.

أمَّا الجوامعُ والمراقدُ فلها مقالٌ خاصٌّ يحتاجُ إلى تفصيلٍ وإطنابٍ لا سيما المراقدُ المشهورةُ كمرقدِ الشيخ عبد القادر الكيلاني ومرقدِ أبي حنيفة النعمان في جانبِ الرصافة، ومرقدِ الإمام موسى الكاظم في جانبِ الكرخ، فضلاً عن المساجدِ التاريخية الكثيرة

والمراقِدِ كي ننظرَ إلى (الوجهِ الآخرِ  
لبغدادَ) بعيدًا عن وجهتيها السياسيةِ  
والتاريخيةِ اللتين لعبتا أدوارًا مهمةً في  
التاريخِ القديمِ والحديثِ فضلًا عن  
تاريخِ الفكرِ والأدبِ والحضارةِ.

المنتشرة في الأحياءِ القديمةِ كجامع  
الحيدر خانة وجامع الأحمدي وجامع  
مرجان وجامع السيد سلطان علي وجامع  
الأصفية وغيرها كثيرٌ، وإنّما أردنا  
الحديثَ عن المقاهي والأسواقِ والجوامعِ



# البَسَّاسِيرِيُّ حِينَ أَهْتَرَّتْ بَغْدَادُ بَيْنَ رَأْيَتَيْنِ

قراءة في أخطر فتنة سياسية ومذهبية في القرن الخامس الهجري

د. أحمد خضر الحمداني

باحث في علم التاريخ، من العراق

## تمهيد:

ليست كل الفتن مجرد تمرّد عابر، ولا كل القادة الطامحين مجرد مغامرين عسكريين. فبعض اللحظات في التاريخ تتحول إلى مفاصل حاسمة، تتكشف فيها هشاشة السلطة، وتتصارع فيها الشرعيات، ويختلط فيها الطموح الشخصي بالمشروع المذهبي. ومن تلك اللحظات الخطيرة ما شهدته بغداد سنة ٤٥٠هـ، حين دخلها قائد مملوك رافعاً راية الخلافة الفاطمية، وأجبر الخليفة

نتناول في هذا المقال واحدة من أخطر الفتن السياسية في القرن الخامس الهجري، وهي حركة القائد التركي أرسلان البساسيري التي كادت أن تُسقط بغداد العباسية في المدار الفاطمي. ويسعى المقال إلى تقديم قراءة سردية تحليلية تكشف أبعاد الصراع السياسي والمذهبي بين العباسيين والسلاجقة والفاطميين، وتبرز أثر هذه الحادثة في إعادة تشكيل ميزان القوى في المشرق الإسلامي.

العباسي على مغادرتها.

إنها قصة أرسلان البساسيري، الرجل الذي كاد أن يغيّر وجه الخلافة العباسية، وأن يحوّل بغداد من عاصمة عبّاسيّة سنّية إلى منبر فاطميّ باطنيّ، في مشهد لم تعرفه المدينة منذ تأسيسها.

### من مملوك إلى صانع أحداث:

وُلد البساسيري في بيئة تركية، ويُنسب إلى بلدة «بَسَا» في فارس، ومنها جاء لقبه. دخل عالم السياسة من بوابة العسكرية، مملوكًا في خدمة البويهيين، ثم تقلّبت به الظروف حتى أصبح أحد كبار القادة في بغداد في عهد الخليفة القائم بأمر الله.

كانت شخصيّته تتعدّى كونها شخصيّة جندي، إذ كان رجل دولة بالمعنى العسكري، عرف دهاليز السلطة، وشهد انتقال النفوذ من البويهيين الشيعة إلى السلاجقة السُنة.

هذا التحول الإداري الذي كان في حقيقته صراعًا على هُوية العراق السياسية والمذهبية.

في هذا المناخ المشحون، تشكّل وعي البساسيري وطموحه.

### بغداد بين ثلاث قوى:

لفهم فتنة البساسيري، لا بد من إدراك طبيعة المشهد السياسي آنذاك:

- الخلافة العباسية: رمز ديني سياسي بلا قوة عسكرية حقيقية.
- السلاجقة بقيادة طغرل بك: قوة سنّية صاعدة تسعى لحماية الخلافة وتوظيفها.
- الفاطميّون في مصر بقيادة المستنصر بالله: دولة باطنية تدّعي الانتساب إلى شيعة أهل البيت، تطمح لانتزاع الشرعية من العباسيين ببغداد.
- في ظل هذه الأقطاب المضطربة، وجد البساسيري نفسه بين قوتين:



السلاجقة الذين بدؤوا يهْمشونه،  
والفاطميين الذين عَرَضُوا عليه المال  
والسلاح والدعم السياسي.

من هنا كان القرار، الذي لم يكن  
عسكرياً فحسب، بل كان اختياراً بين  
مشروعين للسلطة.

### معركة سنجار، بداية التمرد الصريح:

في سنة ٤٤٨هـ وقعت مواجهة  
مفصلية قرب سنجار بين قوات  
البساسيري والقوات السلجوقية بقيادة  
قتلمش بن أرسلان، ومعه قريش بن  
بدران العقيلي.

انتهت المعركة بهزيمة السلجوقيين:  
فرّ قتلْمش، وأُسر قريش بعد إصابته،  
وارتفعت مكانة البساسيري.

كانت فحوى رسالة هذه الهزيمة  
عسكرية تقول: إن النفوذ السلجوقي في  
العراق ليس مستقراً كما يُظنّ.

ومن هنا بدأ التفكير الجدي في  
التقدم نحو بغداد.

### تمرد إبراهيم ينال، الفراغ الذي صنع الفرصة:

في تلك الأثناء، تمرد إبراهيم ينال،  
أخو طغرل بك السلجوقي، طمعاً في  
السلطنة. هذا التمرد أجبر طغرل على  
مغادرة العراق لمواجهة أخيه في همدان.  
خلت بغداد من الحماية  
السلجوقية. والسياسة - كما يعلمنا  
التاريخ - لا تحتل الفراغ. فاستغل  
البساسيري اللحظة، وتحرك نحو  
العاصمة.

### سقوط الهيبة، دخول بغداد سنة (٤٥٠هـ):

في السادس من ذي القعدة سنة  
٤٥٠هـ دخل البساسيري بغداد رافعاً  
الألوية الفاطمية الخضراء. لقد كان  
أشبه بإعلان رمزي بتغيير الشرعية  
بصورة سيطرة عسكرية.

وفي هذه الوقعة وقعت أحداث جسام:  
- إقامة الخطبة للمستنصر بالله  
الفاطمي.

- ضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي.

- تغيير صيغة الأذان بإضافة «حي على خير العمل».

- إرسال شارات الخلافة العباسية إلى القاهرة.

- قتل الوزير ابن المَسلمة.

- خروج الخليفة القائم بأمر الله من بغداد، ثمَّ أسره.

كانت هذه المرة الأولى منذ قرون تُذكر بغداد باسم خليفة غير عباسي. فقد اهتزت المدينة بين رايتين.

### الذروة التي سبقت السقوط:

ظن البساسيري أن اللحظة التاريخية قد حانت، وأن بغداد أصبحت ضمن المدار الفاطمي. لكنه أخطأ في تقدير عاملين حاسمين:

- قوة السلاجقة عند اجتماعهم.

- هشاشة التحالفات القبلية

والسياسية التي اعتمد عليها.

لم يكن له مشروع إداري متماسك، ولم يؤسس قاعدة اجتماعية واسعة. كان يعتمد على الظرف السياسي دون البناء المؤسسي.

### عودة طغرل، وحسم الصراع:

بعد أن قضى طغرل بك على تمرّد أخيه إبراهيم ينال سنة ٤٥١هـ، عاد إلى العراق بعزم المنتصر.

بدأت القبائل تتخلّى عن البساسيري. وتبدّلت ولاءات بعض حلفائه، وعلى رأسهم قريش بن بدران الذي فضّل مصلحته السياسية.

نجح طغرل في تحرير الخليفة، والتقى به في النهروان، ثم دخلا بغداد معًا.

أما البساسيري، فقد انسحب إلى الكوفة ثم إلى واسط، يحاول استعادة زمام المبادرة. لكن التاريخ لم يمنحه فرصة أخرى.

### نهاية البساسيري:

قرب واسط، لحقته قوات سلجوقية.

دارت مناوشات انتهت بانفضاض أتباعه عنه. حاول الفرار، لكن السهام أدركته فسقط قتيلاً سنة ٤٥١هـ (١٠٥٩م).

قُطعت رأسه، وأُرسلت إلى طغرل، وطيّف بها في بغداد. وانتهت الفتنة، لكن أثرها لم ينتهِ.

### رؤية تحليلية:

تكشف حركة البساسيري عن ثلاث حقائق كبرى في تاريخ الدولة العباسية:

أولاً: أن الخلافة كانت قد فقدت قوتها السياسية، وأصبحت رهينة القوى العسكرية.

ثانياً: أن الصراع المذهبي لم يكن مجرد خلاف فقهي، بل صراع على تمثيل الأمة وقيادة العالم الإسلامي.

ثالثاً: أن الطموح الشخصي إذا لم يستند إلى مشروع مؤسسي راسخ، ينهار بزوال الظرف السياسي الذي صنعه.

لم يكن البساسيري مجرد خائن،

ولا مجرد بطل متمرّد، بل كان نتاج مرحلة انتقالية مضطربة، تصادمت فيها الشرعيات، وتكشفت فيها هشاشة السلطة المركزية.

والحاصل أن فتنة البساسيري بقيت واحدة من أخطر اللحظات التي مرت بها بغداد العباسية. ففي عام واحد فقط، تبدلت الخطبة، وتغيرت الرايات، وأسر الخليفة، ثم عاد كل شيء إلى سابق عهده، لكن بثمن سياسي باهظ.

لقد أثبتت تلك الحادثة أن السلطة في ذلك العصر لم تكن تُحسم بالنسب أو بالرمز الديني، بل بالسيف والتحالفات.

وهكذا، طويت صفحة البساسيري، لكن قصته ظلّت شاهداً على أن بغداد -مدينة الخلافة- لم تكن دائماً مركز القرار، بل كانت أحياناً ساحة صراع بين مشاريع كبرى تتنافس على معنى الشرعية نفسها.

# تَارِيخُ الْيَهُودِ فِي بَغْدَادَ

كلمة حسن جاسم

باحث في علم التاريخ، من العراق

يمتدُّ تاريخُ اليهودِ في العراقِ لآلافِ السنين، إذ مثَّلَ العراقُ مركزًا دينيًا واقتصاديًا وثقافيًا بارزًا خلالَ فتراتٍ متطاولةٍ؛ فكانَ ذلكَ منذُ السبيِ البابليِّ لليهودِ على يدِ الملكِ (نبوخذ نصر)، وجلبِهِم إلى أرضِ وادي الرافدين، حيثُ انصهروا في لُجَّةِ المجتمعِ. وقد تَكَرَّرَ سبيُّ اليهودِ قَبْلَ ذلكَ، إذ سبقَ السبيُّ البابليُّ سبيُّ آشوريٍّ أيضًا.

واستمرَّت حياةُ اليهودِ على أرضِ الرافدينِ في حقبةِ الإسلامِ وصولًا إلى العصرِ العباسيِّ وتأسيسِ العاصمةِ بغدادَ، التي ازدهرتُ فيها حياةُ الطائفةِ

اليهودية، وشاركوا في شؤونِ الحياةِ العامةِ حتى الغزوِ المغوليِّ وسقوطِ بغدادَ في القرنِ الثالثِ عشرِ الميلاديِّ، وهو ما أدى إلى تضائلِ عددهم في المدينة. وعندَ الوصولِ إلى فترةِ حكمِ الدولةِ العثمانية، نرى اهتمامها باليهود، حيثُ بسطتْ عليهم رداءَ الحمايةِ والحريَّةِ؛ فبرزتْ سطوتُهم التجاريَّةُ وإتقانُهم الحِرَفَ، وأبرزها الصياغةُ والحداةُ.

واستمرَّت بغدادُ مآبًا ومركزًا لليهود. وخلالَ أواخرِ القرنِ التاسعِ عشرِ وأوائلِ القرنِ العشرينِ شكَّلَ اليهودُ نسبةً كبيرةً من سكانِ بغدادَ،

حيث قُدِّرَ عددهم في عام ١٩١٠م بثلاثة وخمسين ألف نسمة، بينما وصل عددهم في عام ١٩٢١م إلى زهاء ثمانين ألفاً، حتى بلغوا في عام ١٩٤٧م مئة وعشرين ألف نسمة خلال فترة الحكم الملكي.

بيد أن عددهم بدأ يتناقص سريعاً لأسبابٍ وأحداثٍ شتى؛ أولها حادثة "الفرهود" في الأول من حزيران لعام ١٩٤١م، إبان انهيار سلطة رشيد عالي الكيلاني على يد بريطانيا، لما كان بينه وبين ألمانيا النازية من صلاتٍ، وكان لليهود في الوقت نفسه "عيد الشفوعات"؛ فكان دعمهم لبريطانيا مثار استفزاز لعساكر الكيلاني، فتروي الروايات التي لا تخلو من المبالغة والتزوير أن العساكر هجموا على اليهود في بغداد، وقتل وجرح بعضهم، وصارت هذه الحادثة لاحقاً ورقة ضغط على يهود بغداد لجذبهم إلى إسرائيل.

ثم كان حدث آخر تمثل في إعدام التاجر اليهودي (شفيق عدس) في البصرة عام ١٩٤٨م، وهو العام ذاته الذي قامت فيه دولة إسرائيل، حيث اتهم "عدس" بتهريب الأسلحة إليها.

وبعد تلك الأحداث استهدف "الموساد" الإسرائيلي يهود العراق في بغداد تحديداً عام ١٩٥٠م، وحذّره من تفجيرات متوقعة داخل العاصمة، وبعد تلك التحذيرات بثلاثة أيام وقع تفجير في المركز الثقافي الأمريكي ببغداد. وبعد شهر من العام نفسه، وتحديداً في الثامن من أبريل، وقع انفجار ثانٍ داخل مقهى من مقاهي شارع أبي نوايس، وأصيب عدد من اليهود بهذا التفجير؛ فاستغل "الموساد" هلع القوم وأطلق حملة عُرفت بـ(عزرا ونحميا)، التي نقلت ١٢٠ ألف يهودي إلى إسرائيل للاستفادة منهم.

ويقول المؤرخ الإسرائيلي (آفي



شلايم): "إِنَّ الموسَادَ هُمْ مَنْ قاموا بالتفجيرات التي حصلت ببغداد لنقل اليهود؛ فهاجرَ القومُ وبدأ إسقاط الجنسية عنهم من قِبَلِ الحكومة.

وخلالَ عام ١٩٦٧م وانتكاسة جيوش العرب في الحرب، بدأ اضطهاد اليهود في بغداد، وصولاً إلى فترة حكم نظام البعث الذي كان شديداً في تعامله معهم حتى أعدمَ بعض تجارهم. وقد خلت بغداد من وجودهم بعد الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣م، إلا من أفراد قليلين لعلهم يُعدّون على أصابع اليد.

وتُشير الروايات إلى عام ٢٠١٠م وخروج (عماد ليفي) آخر يهودي في العاصمة بغداد، التي كان لهم فيها أثر واضح وبالعُ من خلال شخصيات في مجالات شتى، أبرزها: أول وزير مالية للمملكة العراقية (ساسون حسقييل)؛

فعائلةُ حسقييل من عوائل اليهود الثرية التي شُبهت بعائلة "روتشيلد" في أوروبا. وكانَ لهم رجالاتٌ في القانون أمثال: (ابن بطاط) و(يوسف كبير)، إضافةً إلى المطربة الشهيرة (سليمة مراد).

وقد سكنوا العاصمة بغداد تحديداً في مناطق (أبو سيفين، وأبو دودو، وقنبر علي، والبتاويين)، ولهم كنائس، منها: (ميرا طويق) في البتاويين، و(مقام الحاخام إسحاق جاؤون) في قنبر علي.

وأشهرُ مقابرهم في منطقة الحبيبية بعد أن نُقلت من منطقة النهضة، إذ تضمُ المقبرة قرابة أربعة آلاف قبر. لقد عاش اليهود ببغداد أزماناً مديدةً وتركوا إرثاً كبيراً، وكانت لهم فتراتٌ متميزة لعلَّ أجلاً مطلع القرن العشرين حتى وقوع الهجرة الكبرى.



# خُطُوطُ عُلَمَاءِ بَغْدَادَ

عبد القادر صبحي الجبوري

باحث ومحقق عراقي

ترقاً علمياً، بل هو شاهدٌ على الموروث  
العلمي للمدينة؛ فالخطُّ مكوّنٌ من  
مكونات الهوية العلمية لبغداد.

لِذَا فَإِنَّ تَسْلِيْطَ الضَّوْءِ عَلَيْهِ  
وَدِرَاسَتَهُ يَفْتَحُ آفَاقًا جَدِيْدَةً لِدِرَاسَةِ  
تَارِيْخِ الْعِلْمِ فِي بَغْدَادَ وَالْمَرَا حِلِ الَّتِي تَمَرُّ  
بِهَا، مِمَّا سَيَسَهِّمُ بِشَكْلِ كَبِيْرٍ فِي إِعَادَةِ  
بِنَاءِ الْمَشْهَدِ الْعِلْمِيِّ لِبَغْدَادَ وَالْحَرَكَةِ  
الفكرية فيها.

وَيَأْتِي هَذَا الْمَقَالُ ضَمْنَ مَسَارٍ أَوْسَعٍ  
يَعْمَلُ عَلَيْهِ مَشْرُوعُ «مُوروث العراق  
العلمي» الْمَعْنِيُّ بِأَرْشَفَةِ النِّتَاجِ الْعِلْمِيِّ  
العراقي - الْمَخْطُوطِ مِنْهُ وَالْمَطْبُوعِ -

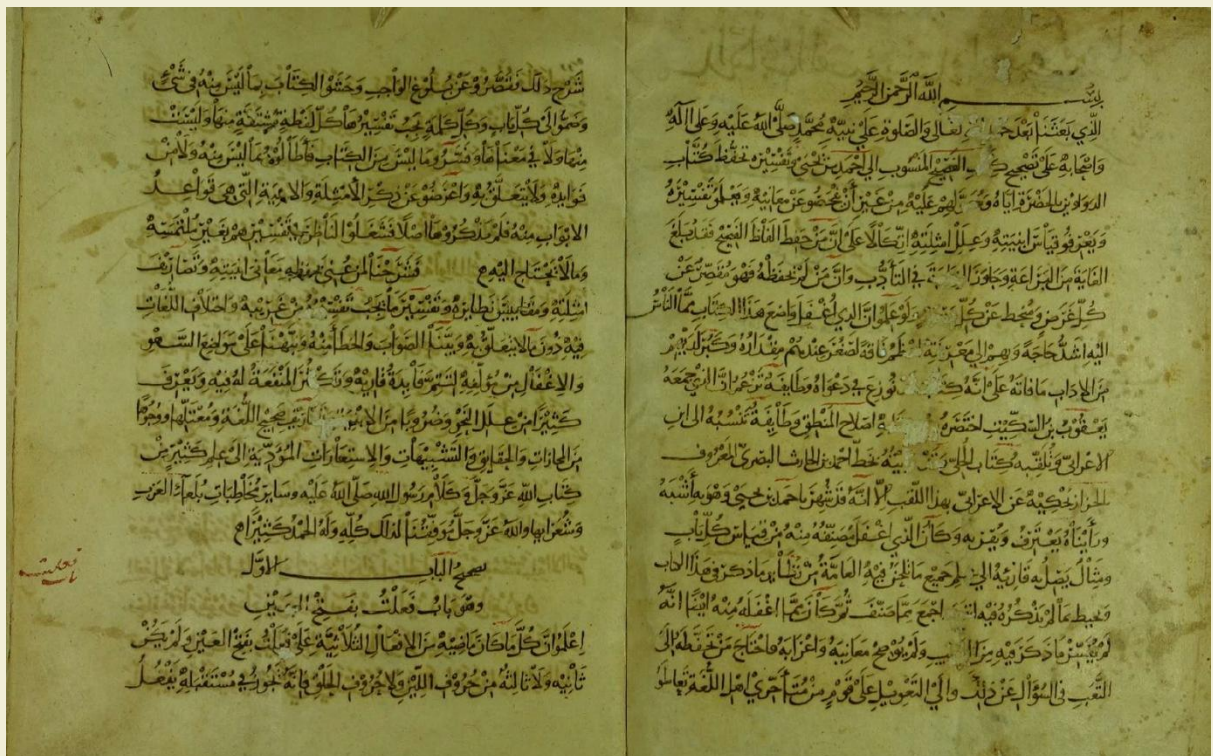
عُرِفَتْ بَغْدَادُ مِنْذَ الْقَرْنِ الثَّانِي  
الهِجْرِيِّ بِكَوْنِهَا مَرْكَزًا عِلْمِيًّا رَائِدًا،  
فَكَانَتْ بِحَقِّ (أُمِّ الدُّنْيَا). وَحُقِّ لِلْإِمَامِ  
الشَّافِعِيِّ أَنْ يَقُولَ: (مَا دَخَلْتُ بَلَدًا قَطُّ  
إِلَّا عَدَدْتُهِ سَفَرًا إِلَّا بَغْدَادَ؛ فَإِنِّي حِينَ  
دَخَلْتُهَا عَدَدْتُهَا وَطَنًا)، فَكَانَتْ بَغْدَادُ  
مَوْطَنًا لِلْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ.

وَانْعَكَسَ هَذَا الْأَمْرُ عَلَى تَنَوُّعِ  
الْمُوروثِ الْعِلْمِيِّ لِلْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ،  
وَأَدَّى هَذَا الْآخِرُ إِلَى تَنَوُّعِ الْخُطُوطِ  
وَالْأَوْرَاقِ وَالْأَحْبَارِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِيهِ، بَلْ  
أَدَّى إِلَى تَطَوُّرِ الْخُطُوطِ وَأَسَالِيْبِ الْكِتَابَةِ.  
إِنَّ تَوْثِيْقَ خُطُوطِ الْعُلَمَاءِ لَيْسَ

ودراسة الشواهد الخطية والعلمية العراقية، وتحويلها من مواد متفرقة في مكتبات العالم إلى ذاكرة علمية رقمية حيّة، تمهيداً لمشروع أوسع يعيد الاعتبار لموروث العراق العلمي في

ميادين المعرفة والثقافة العربية والإسلامية والعالمية. وهذه مجموعة يسيرة فيها نماذج من خطوط العلماء البغداديين وقفت عليها في ثنايا مكتبات العالم:

١. ابن الجواليقي: العلامة الإمام اللغوي النحوي أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن بن الجواليقي<sup>(١)</sup> (ت ٥٤٠هـ).



○ المخطوط: شرح كتاب الفصيح لابن درستويه (ت ٣٤٧هـ)، مكتبة عارف حكمت - المدينة المنورة برقم ٢٣٦٢، تاريخ النسخ ٥٦١هـ.

(١) سير أعلام النبلاء: ٨٩/٢٠.



## ٢. ابن المنتجب:

محمد بن يوسف بن محمد، أبو عبد الله النيسابوري ثم البغدادى الكاتب المعروف بابن المنتجب<sup>(١)</sup> (ت ٦٠٨هـ).



## ○ المخطوط:

إعراب القرآن، للإمام أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت ٣٣٨هـ)، مكتبة الفاتح - تركيا برقم ٨٨، تاريخ النسخ ٥٩٩هـ.

(١) تاريخ الإسلام للذهبي: ٢٠٠/١٣.



### ٣. الإمام ابن القطيبي:

الشيخ العالم المحدث المفيد المؤرخ المعمر مسند العراق - شيخ المستنصرية أول ما فتحت - أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن حسين البغدادي الأزجي، المعروف بابن القطيبي<sup>(١)</sup> (ت ٦٣٤هـ).



○ المخطوط:

كتاب مسند العشرة المبشرين ومسند أهل البيت كلاهما للإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - مكتبة علي باشا - تركيا برقم ١٤٠، بدون تاريخ نسخ.

(١) سير أعلام النبلاء: ٨/٢٣، تاريخ علماء المستنصرية: ٢٣١/١.



٤. ابن النجار: محدث العراق، الإمام، الحافظ، المؤرخ، محب الدين، أبو عبد الله محمد بن محمود بن حسن بن هبة الله بن محاسن البغدادي، المعروف بابن النجار<sup>(١)</sup> (ت ٦٤٣هـ).



○ المخطوط: سنن الإمام ابن ماجه، مكتبة مراد ملا - تركيا، برقم ٤٠٠.

تاريخ نسخه: قال ابن النجار في آخر الكتاب: (كُتِبَ لِنَفْسِهِ مُحَمَّدُ بْنُ النَّجَّارِ الْبَغْدَادِيُّ؛ بِالْقَاهِرَةِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَفَرَّغَ مِنْهُ فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ (٦٢٤هـ)، وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ مِنْ شَهْرِ شَبَاطِ الرُّومِيِّ. وَهُوَ يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَهُ بِهِ، وَسَائِرَ الْمُسْلِمِينَ فِي الدَّارَيْنِ).

وبعد النظر في المخطوطة تبين لي أنَّ السبع صفحات الأولى من المخطوطة ليست بخط ابن النجار، بل بخط آخر متأخر عنه، ويبدأ خط ابن النجار من الصفحة اليسرى.

(١) سير أعلام النبلاء: ٣١/٢٣، تاريخ علماء المستنصرية: ٣٦٦/١.



٥. محمد بن أبي القاسم المقرئ:

الإمام العالم المحدث المقرئ الصادق الخير بقیة السلف رشيد الدين أبو عبد الله بن أبي القاسم عبد الله بن عمر البغدادي السلامي شيخ الحديث بالمستنصرية<sup>(١)</sup> (ت ٧٠٧هـ).



○ المخطوط:

الجزء الثالث من كتاب شرح الحماسة لأبي زكريا يحيى التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، مكتبة لاله لي - تركيا برقم ١٨٠٩، تاريخ النسخ: ٦٨٥هـ، نقلها من خط ابن الجواليقي وعليها خط المؤلف.

(١) معجم شيوخ الذهبي: ٢٠٤/٢، تاريخ علماء المستنصرية: ٢٤٢/١.



## ٦. ابن عبد الحق القطيعي:

الإمام الفقيه الفرضي المتفني صفّي الدين أبو الفضائل عبد المؤمن بن عبد الحق البغداديّ القطيعيّ<sup>(١)</sup> (ت ٧٣٩هـ).



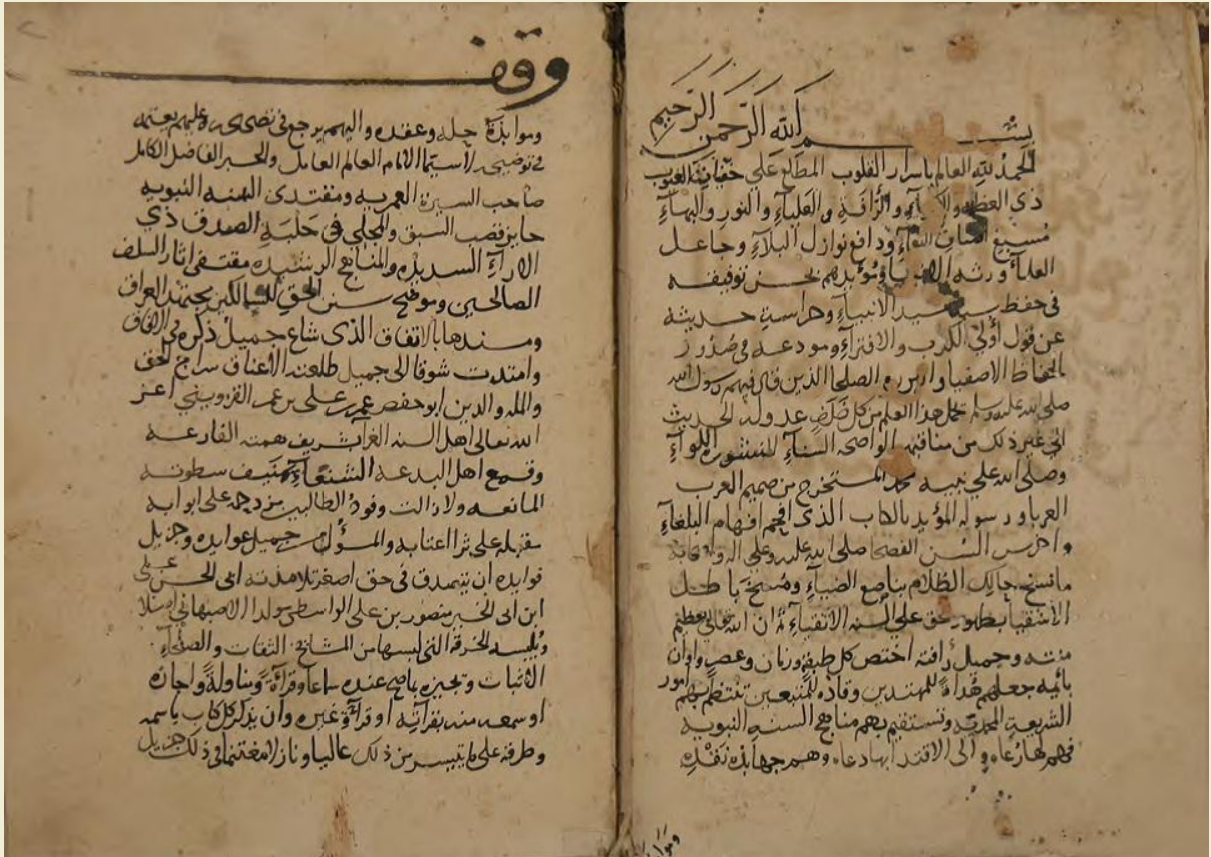
○ المخطوط:

إدراك الغاية في اختصار الهداية في الفقه الحنبلي، مكتبة الأوقاف - الكويت برقم ٩٤٩، نسخة بخط المؤلف فرغ منه سنة ٧٢٣هـ.

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ٧٧/٥.

## ٧. العز القديسي البغدادي:

قاضي الأقاليم عز الدين الشيخ عبد العزيز بن علي بن أبي العز القديسي البكري البغدادي<sup>(١)</sup> (ت ٨٤٦هـ).



○ المخطوط:

مشيخة سراج الدين القزويني (ت ٧٥٠هـ).

مكتبة فيض الله - تركيا، تاريخ النسخ ٨١٣هـ ببغداد بالمدرسة الجوزية.

(١) الضوء اللامع للسخاوي: ٢٢٢/٤.



## ٨. ابن القاصح:

الإمام المقرئ أبو البقاء عليُّ بن عثمان البغداديِّ ثمَّ المصريِّ (ت ٨٠١هـ).



○ المخطوط:

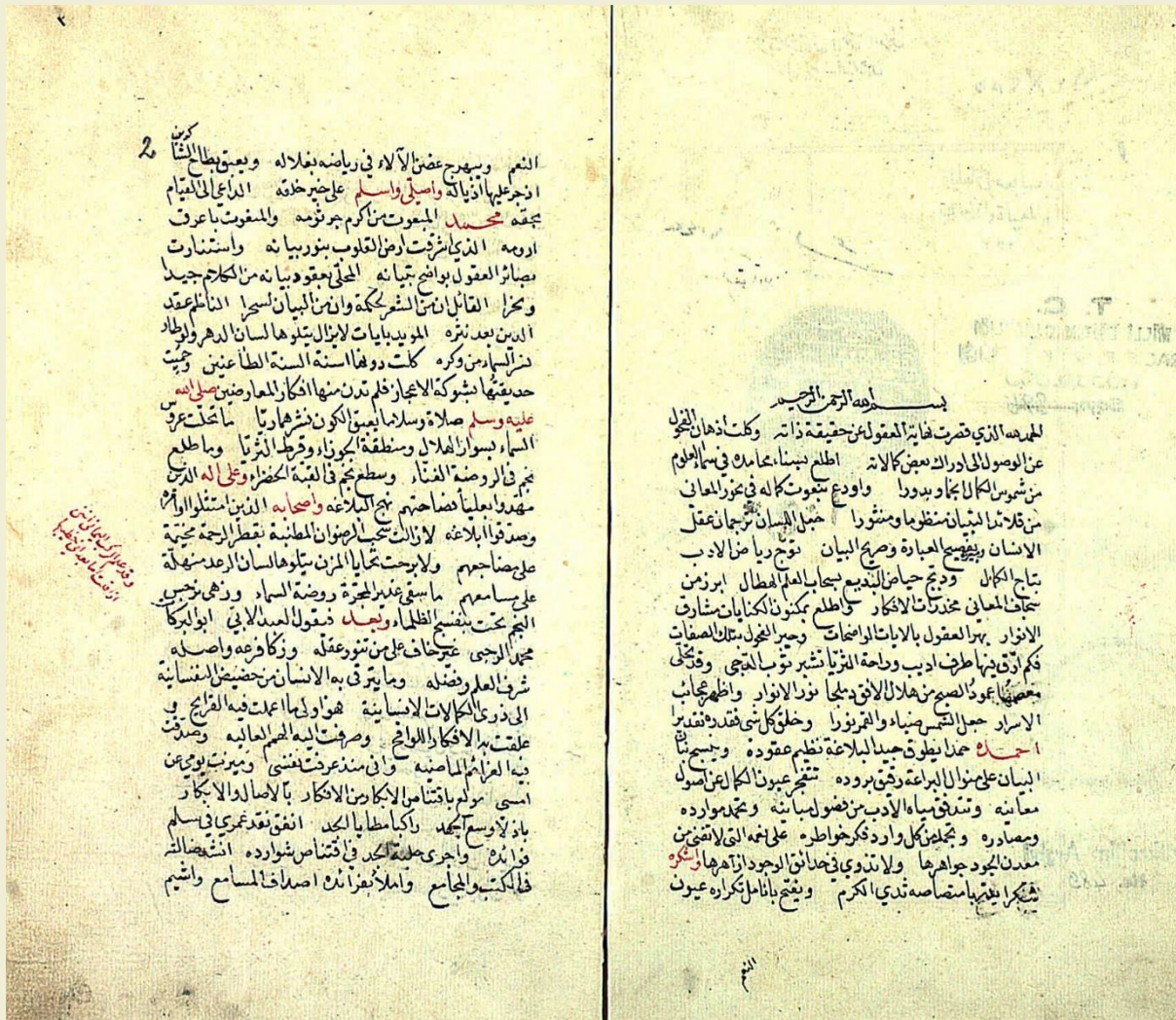
مختصرُ الأمالي في شرح القصيدة العلوية في القراءات السبع.

مكتبة أرزنجان - تركيا برقم ٤، تاريخ ٧٩٥هـ، نسخة بخط المؤلف.



## ٩. أبو البركات الرحي:

الشيخ أبو البركات محمد بن عبد الغفور الرحي البغدادي الهاشمي الحنفي (ت ١١٧٥هـ).



○ المخطوط:

نزهة المشتاق في علماء العراق، مكتبة راجب باشا - تركيا برقم ١٠٥٠، تاريخ النسخ ١١٧٥هـ، نسخة بخط المؤلف وقد أهده لراغب باشا.



## ١٠. عبد العزيز الرحي: .

الشيخ الفقيه عبد العزيز بن محمد الرحي البغدادي، فقيه حنفي، له علم بالهندسة (توفي بعد ١١٨٤هـ).



○ المخطوط:

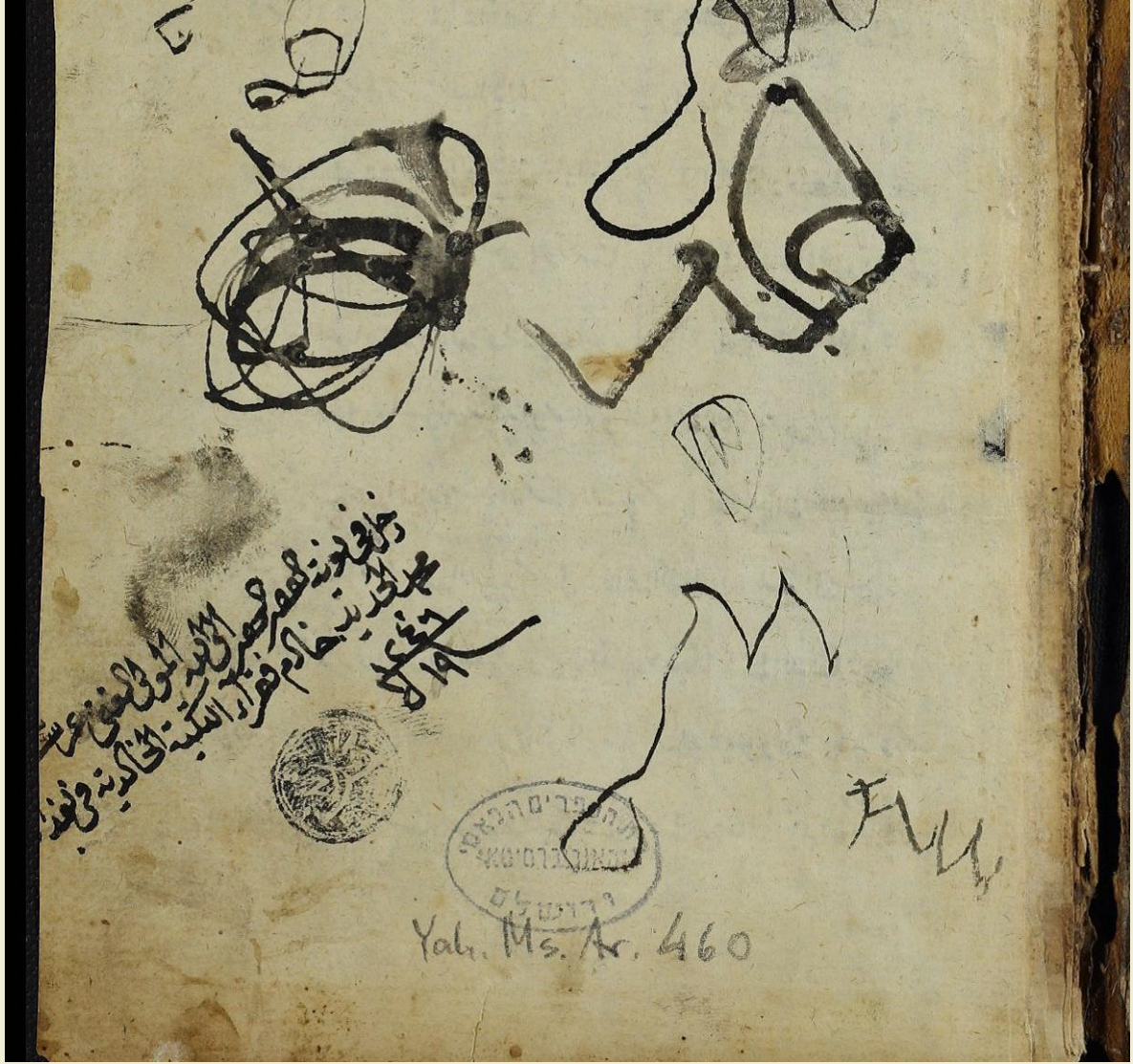
فقه الملوك ومفتاح الرتاج، المرصد على خزانة كتاب الخراج.

مكتبة أسعد أفندي - تركيا برقم ٧٢٦.

تاريخ النسخ ١١٨٤هـ، نسخة بخط المؤلف.



١١. العالم الفقيه الحنفي مدرس التكية الخالدية محمد الإمام أو محمد الجديد<sup>(١)</sup> (ت ١٢٤٦هـ).

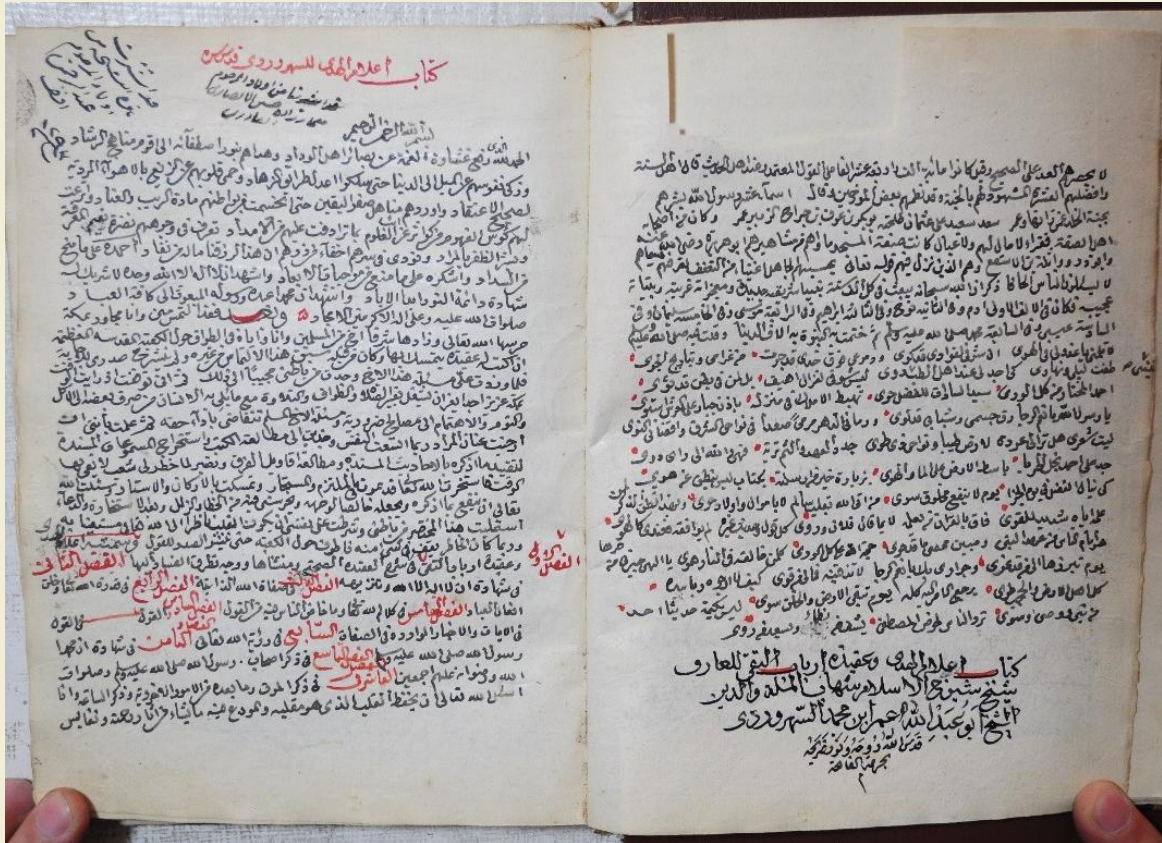


○ المخطوط: قيد تملك على إجازة الشيخ عبد الغني النابلسي، وهذا نصه: (دخل في نوبة الفقير الحقير إلى المولى الغني عز شأنه محمد الجديد خادم فقراء التكية الخالدية في بغداد ١٢٤٦هـ). المكتبة الوطنية الفلسطينية المغتصبة (المكتبة الإسرائيلية) برقم ٤٦٠، وتاريخ النسخ: ١٢٤٣هـ في بغداد.

(١) المجدد الثالث، ص ٨٣.

## ١٢. القاضي محمد محسن العباسي:

صدر علماء العراق وقاضي قضاته الشيخ المعمر محمد محسن بن محمد صالح العباسي  
الدوري (ت ١٢٦٣هـ).



○ المخطوط:

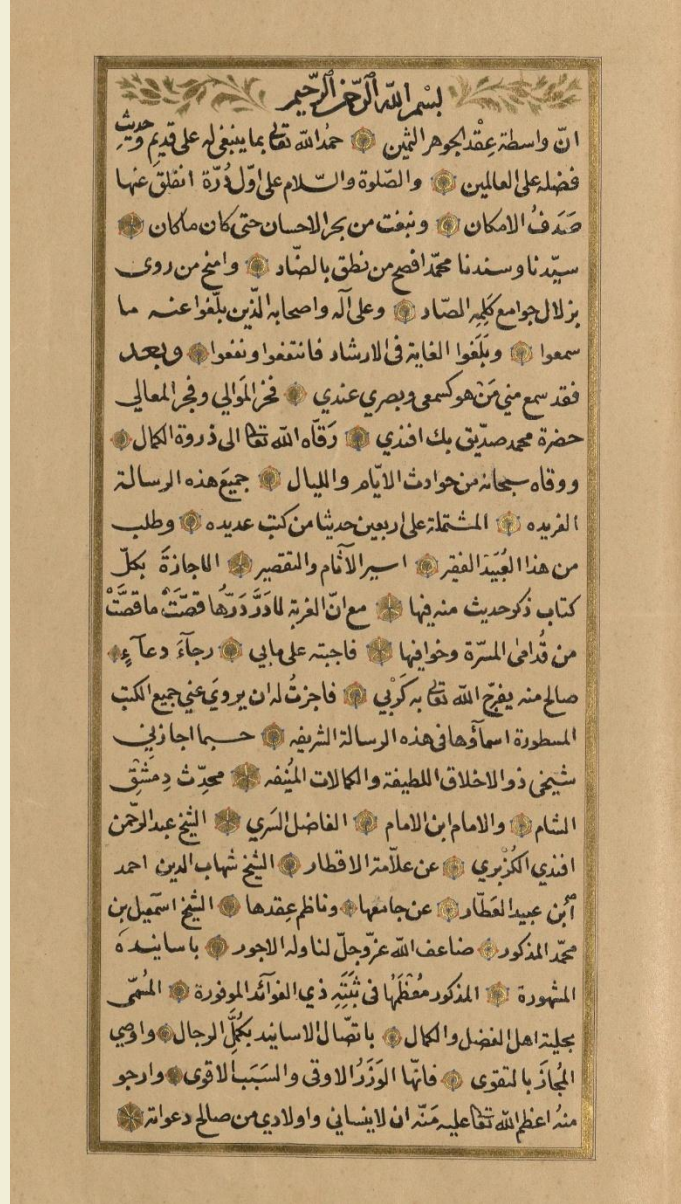
مجموع في التصوف أغلبها مؤلفات الإمام السهروردي.

دار المخطوطات العراقية - بغداد برقم ١١٠٢٣.

تاريخ النسخ: بين ١١٦٢هـ و ١١٦٣هـ.



١٣. الإمام المفسر مفتي بغداد الشيخ أبو الشاء الألوسي<sup>(١)</sup> (ت ١٢٧٠هـ).



○ المخطوط: إجازةً بخط الإمام الألوسيِّ لمحمدٍ صديق بك أفندي، نهاية كتاب عقد الجواهر الثمين لإسماعيل العجلوني. المكتبة الفلسطينية المغتصبة (المكتبة الإسرائيلية) برقم ٢١٥، تاريخ الإجازة ١٢٦٨هـ.

(١) المسك الأذفر ص ١٣٠.



## ١٤. إبراهيم فصيح الحيدري<sup>(١)</sup> (ت ١٢٩٩هـ).



○ المخطوط:

تعليق لإبراهيم فصيح الحيدريّ نهاية كتاب (حاشية السيلكوتي على الخيالي على شرح العقائد النسفية).

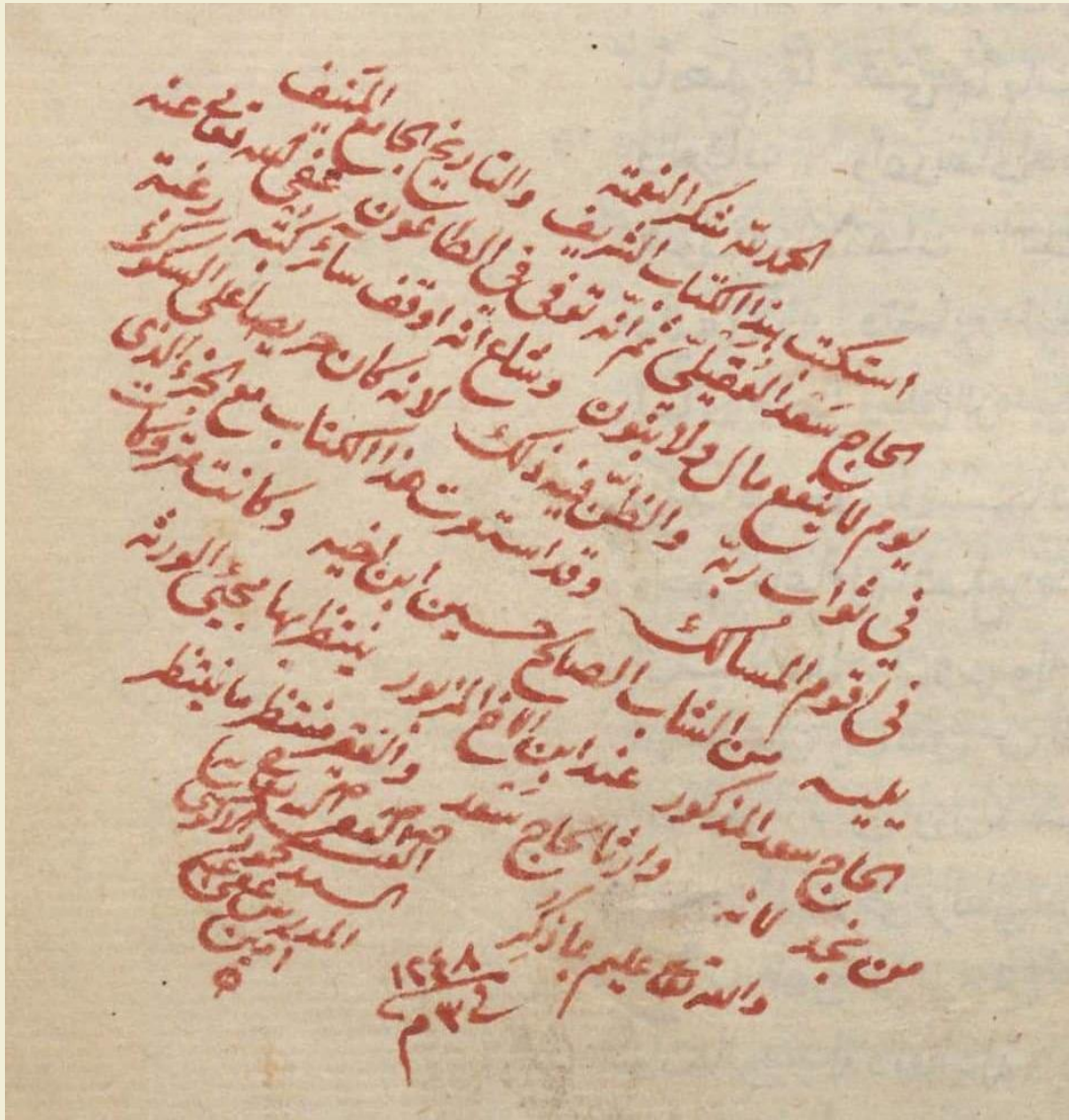
مكتبة جامعة صلاح الدين - أربيل برقم ٥٠.

بدون تاريخ نسخ.

وعلى النسخة المخطوطة تعليقات كثيرة للحيدريّ المذكور.

(١) تاريخ الأسر العلمية في بغداد ص ١٢٢.

١٥. الإمام الفقيه مدرس المدرسة المرجانية السيد نعمان خير الدين الألوسي<sup>(١)</sup> (ت ١٣١٧هـ).



○ المخطوط: قيدُ استعارةٍ في المجلدِ الأولِ من شذراتِ الذهبِ لابنِ العمادِ الحنبليّ سنة ١٢٤٨هـ، وهو ينتظرُ عودةَ الورثةِ من نجدٍ.

مكتبةُ الدولة - برلين برقم (Ms. or. fol. 1397)، تاريخُ النسخ ١٢٤٤هـ.



(١) المسكُ الأذفرُ، ص ١٨٦.

# صَرَاعَاتُ أَعْلَامِ بَغْدَادٍ عَبَّاسُ الْعَزَّازِيِّ وَبَهْجَةُ الْأَثَرِيِّ فَوْزَجَا

د. عَمْرُ السَّنَوِيّ

رئيس التحرير

## مُبْتَدَأُ الْمَوَدَّةِ وَمَعْدِنُ التَّلَمَذَةِ:

لقد نشأ عبّاسُ العزّازيّ (١٨٩٠-  
١٩٧١م) ومحمّد بهجة الأثريّ (١٩٠٢-  
١٩٩٦م) في ظلالِ دَوْحَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَاحِدَةٍ،  
وارتويا من مَشْرَبِ بَغْدَادِيٍّ أَصِيلٍ،  
حيثُ كانتِ الْأَسْرَةُ الْأَلُوسِيَّةُ هِيَ الْقِبْلَةُ  
وَالْمَثَابَةُ؛ فَكِلَاهُمَا نَهَلَ مِنْ مَعِينِ الْعَلَامَةِ  
مُحَمَّدِ شَكْرِي الْأَلُوسِيِّ (ت ١٩٢٤م)،  
وعنه أخذَا الْعِلْمَ الْعَرَبِيَّ وَالْغَيْرَ  
الْإِسْلَامِيَّ وَالْعَقِيدَةَ التَّوْحِيدِيَّةَ، وَكِلَاهُمَا  
تَفِيًّا ظِلَالُ الْعَلَامَةِ عَلِيِّ عَلَاءِ الدِّينِ  
الْأَلُوسِيِّ (ت ١٩٢٢م)، فَاسْتَوَتْ خِلْقَتُهُمَا

لَعَلَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَعْدِنَ  
الْإِنْسَانِ يَظْهَرُ فِي حُكْمِهِ عَلَى أَخِيهِ، وَأَنَّ  
غَوَائِلَ الصُّدُورِ كَوَامِنٌ لَا يَقْدَحُ زِنْدَهَا  
إِلَّا احْتِكَاكُ الْمُزَاحِمَةِ فِي الْمَرَاتِبِ،  
وَمُنَازَعَةُ الْأَنْفُسِ فِي مَنَازِلِ الرَّفْعَةِ.  
وإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ حَالَ الْعُلَمَاءِ،  
وَجَدَ أَنَّ صِلَاتِ الْعُقُولِ قَدْ تَنَفَّصَتْ  
انْفِصَامَ الْوَدِّ إِذَا مَا دَبَّتْ فِيهِ عِقَارِبُ  
الْحَسَدِ بَيْنَ الْأَقْرَانِ؛ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ  
الْخَصْمَانِ نَخْلَتَيْنِ مِنْ نَخِيلِ بَغْدَادَ  
الْبَاسِقَاتِ، وَرُكْنَيْنِ مِنْ أَرْكَانِ نَهْضَتِهَا  
الْحَدِيثَةِ؟



العِلْمِيَّةُ عَلَى سَوْقِ التَّحْقِيقِ وَالْاجْتِهَادِ.  
وَقَدْ جَمَعَتْهُمَا مَيَادِينُ شَتَّى، فَكَانَا  
كَفَرَسَيَّ رَهَانٍ فِي الْبَحْثِ التَّارِيخِيِّ،  
وَتَحْقِيقِ نصوصِ التُّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ،  
وَاشْتَرَكَا فِي عُضُويَّةِ "المَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ  
الْعِرَاقِيِّ"، فَكَانَا يَرَسِمَانِ مَعَالِمَ الْهُويَّةِ  
الثَّقَافِيَّةِ لِبَلَدٍ يَنْهَضُ مِنْ رُكَامِ الزَّمَانِ.

بَلْ إِنَّ الْقَارِئَ فِي سِيرَتَيْهِمَا يَجِدُ مِنْ  
الْوِفَاقِ مَا يَظُنُّهُ عَهْدًا لَا يَنْقُضُهُ إِلَّا  
الْمَوْتُ؛ فَقَدْ كَانَ الْعَزَاوِيُّ مِعْوَانًا  
لِلْأَثَرِيِّ، يَمُدُّهُ بِبِدَائِعِ بَحْثِهِ لِيُزَيِّنَ بِهَا  
صَفَحَاتِ مَجَلَّةِ "العَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ" فِي  
أَوَاخِرِ الثَّلَاثِينَاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ،  
وَاسْتَمَرَّتْ عِلَاقَتُهُمَا إِلَى أَرْبَعِينَاتِ  
الْقَرْنِ الْمَذْكُورِ، يَتَبَادَلَانِ مَظَاهِرَ الْوَدِّ  
مِنْ لِقَاءَاتٍ وَإِهْدَاءَاتٍ.

### نُشُورُ الْقُلُوبِ وَبِدَايَةُ الْجَفَاءِ:

غَيْرَ أَنَّ حَوَادِثَ الْأَيَّامِ تَقْلُبُ  
النَّفُوسَ، وَلَعَلَّ تَفَرُّدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا  
بِمَنْهَجٍ أَوْرَثَ فِي الْآخِرِ وَحْشَةً؛ فَالْأَثَرِيُّ

رَجُلٌ شَدِيدُ التَّحَرِّيِ عَمِيقِ التَّحْقِيقِ،  
وَكَانَ لُغَوِيًّا بَلِيغًا، يَعْتَصِرُ الْكَلِمَةَ  
اعْتَصَارًا، وَيَأْنِفُ مِنْ رَكَكَةِ اللَّفْظِ وَإِنْ  
صَحَّ الْمَعْنَى.

أَمَّا الْعَزَاوِيُّ فَكَانَ دُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ  
اخْتَصَّ بِجَانِبِ التَّارِيخِ وَالْأَنْسَابِ، وَكَانَتْ  
عَمْدَتُهُ مَدَوِّنَاتُ السَّابِقِينَ فِي غَالِبِ مَا  
صَنَّفَ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ دَخَلَ فِي عَمَلِهِ  
مَا يَدْخُلُ فِي حُطْبِ اللَّيْلِ، يَجْمَعُ الشَّوَارِدَ،  
وَيُكَدِّسُ الْأَخْبَارَ، وَيُصَنِّفُ الْمَجْلَدَاتِ  
الضَّخْمَةَ كـ"تَارِيخِ الْعِرَاقِ بَيْنَ احْتِلَالَيْنِ"  
و"عَشَائِرِ الْعِرَاقِ"، دُونَ عَنَافَةِ فَائِقَةٍ  
بِتَنْمِيقِ الْعِبَارَةِ أَوْ تَهْذِيبِ السَّرْدِ.

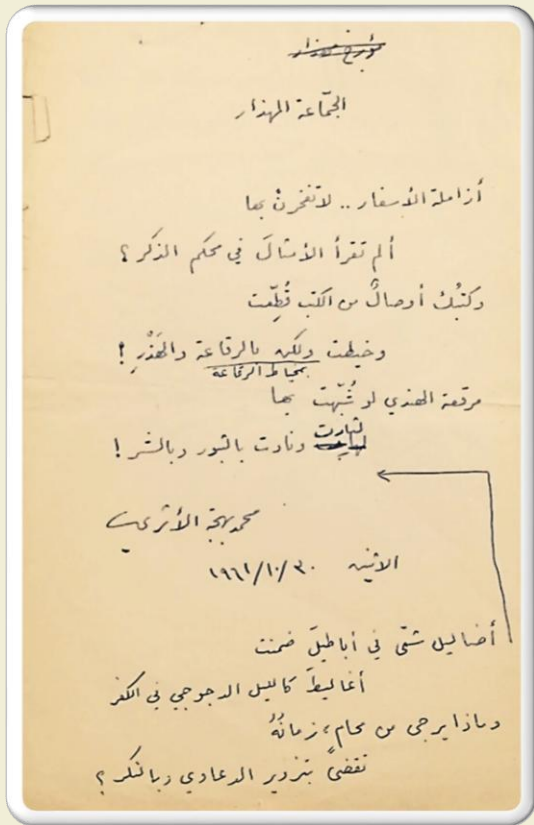
وَمِنْ ثَمَّ اسْتَعَلَّتْ نَزْعَةُ "الْأَدِيبِ" فِي  
الْأَثَرِيِّ، لِتَزْدَرِيَ نَزْعَةَ "الْمُؤَرِّخِ" فِي  
الْعَزَاوِيِّ، فَاسْتَحَالَ الْوُدُّ بُغْضًا، وَانْقَلَبَتِ  
الزَّمَالَةُ حُصُومَةً مُمْتَدَّةً.

### نَصُّ الْهَجَاءِ وَتَارِيخُهُ:

كَتَبَ مُحَمَّدٌ بِهَجَةِ الْأَثَرِيِّ أَيْبَاتًا  
يَهْجُو فِيهَا صَاحِبَهُ الْقَدِيمَ عَبَّاسَ

بيتين، بخط يده المرتعشة، في دلالة واضحة على أنه أضافها في أواخر حياته! فقال:

أضاليل شتى في أباطيل ضمنت  
أغاليط كالليل الدجوي في الكفر  
وماذا يرجي من محام، زمانه  
تقضى بتزوير الدعاوى وبالنكر؟



بالعلامة الشيخ محمد بهجة الأثري، بتاريخ: ١٩/آب/٢٠٢٣م، وكان عنوان مشاركتي: (قراءة فيما لم يُنشر من شعر العلامة الأثري).

العزاوي، بتاريخ: الاثنين ١٩٦١/١٠/٣٠م، تحت عنوان: (مؤرخ مهذار<sup>(١)</sup>)، ثم ضربَ على هذا العنوان وجعلَ مكانه: (الجماعة المهدار)؛ فكأنه استخسر أن يُطلق عليه لقب (المؤرخ) حتى لو كان في سياق الذم! وكتبَ تحت هذا العنوان ثلاثة أبيات، قال فيها:

أزاملة الأسفار.. لا تفخرن بها  
ألم تقرأ الأمثال في محكم الذكر؟  
وكتبك أوصال من الكتب قطعت  
وخطت بمخياط الرقاعة والهذر!  
مرقعة الهندي لو شُبّهت بها  
لثارت ونادت بالشبور وبالشر

ولم يكتفِ الأثري بهذا، فقد عادَ إلى هذه الأبيات، وأعملَ فيها قلمَ التصحيح والضبط، بل إنه أضاف إليها

(١) عَرَضْتُ هذه الأبيات في مشاركتي في الندوة التي أقامها (مشروع رحلة التعلم - العراق) بإدارة الدكتور قيس العبيدي، وهي ندوة خاصة



## تَشْرِيحُ الهَجَاءِ وَنَفْسِيَّةِ الهَاجِي:

استفتح الأثريُّ هجاءَهُ بعبارة "أزاملة الأسفار"، وهي إحالةٌ ذكيةٌ ومؤلمةٌ - في آنٍ واحدٍ - إلى قوله تعالى: {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}؛ فوسمَهُ بصفة الزاملة (وهي الدابة التي تُحْمَلُ عليها الأحمال) ليوحى بجهل العزّايِّ بمضمون ما أُلْفَهُ مِنَ الكُتُبِ، وهذه لفظةٌ مقصودة، لأنّ (الزمال) في العامية البغدادية، تُطلق على الحمار خاصة.

فتأمّل هذا القول وما يحمل من دلالة، فإنّه لا ينفى عن العزّايِّ العلم، بل ينفى عنه الفقه به، ويجعله مُجَرَّدَ وعاءٍ ناقلٍ لا يعقل ما يحمل، وهذا أشدُّ نكالا على العالم من وصفه بالجهل الصّرف.

ثمّ يمضي الأثريُّ في تفتيت الكيان العلميِّ لصاحبه، بقوله: "وكتُبُكَ أوصالٌ من الكُتُبِ قُطِّعَتْ"، وهذا لعمري هو حُضُّ الاستخفافِ بصنعةِ التّأليفِ عند العزّايِّ؛ فالتأليفُ عند البلغاءِ

بناءٌ مرصوصٌ، وعند العزّايِّ - في نظر الأثريِّ - هو تجميعُ أعضاءٍ ميّنة، وخياطتها بـ "مخياط الرقاعة" وهي ضعف العقل والحماقة؛ فاخيارُهُ هذه اللفظة ولفظة "الهذر" أيضًا، للدلالة على أنّه قصّد نزعَ صفة الرّزانة عن العزّايِّ، ليلحقه بعوامّ الناس الذين لا ميزانَ لقولهم ورأيهم.

أما وصفُ كُتُبِ العزّايِّ بأنّها "مُرَقَّعة"، فهو إمعانٌ في تصويرِ نتاجه بثوبٍ درويشٍ بالٍ، جُمِعَ من أطمارٍ شتّى لا يربط بينها رابطٌ. وفي هذا إشارةٌ نفسيةٌ إلى مدى الضيق الذي كان الأثريُّ يشعرُ به تجاه ضخامة مؤلّفات العزّايِّ التي يراها خاليةً من جودة السبكِ وأصالة التحقيق.

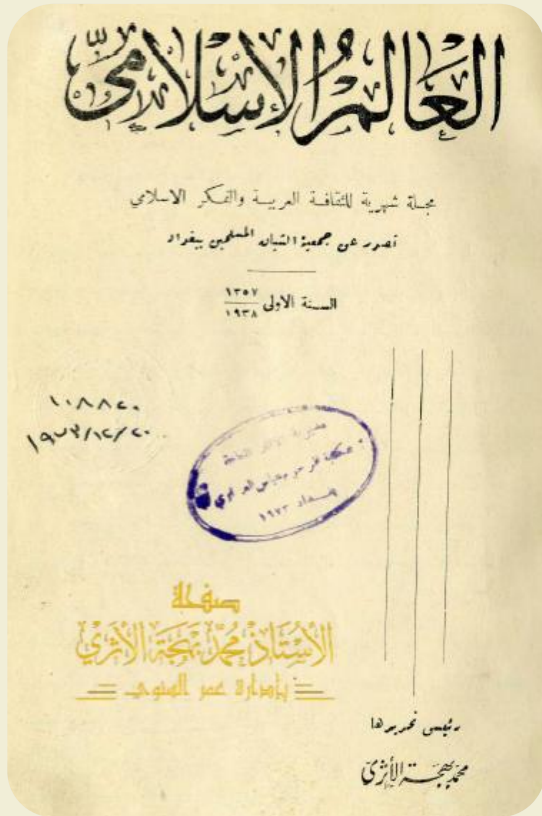
## داءُ الأقرانِ وتزويرُ الموداتِ:

ويأتي تذييلُ القصيدة ليكشف عن بلوى أخطر، وهي الطعنُ في الدِّمّةِ والمروعة، حين يقول: "وماذا يُرجى من

الزَّلَّةُ الْعِلْمِيَّةُ "أضاليل شتى"!

### خُصُومَةٌ مِنْ طَرَفَيْنِ، وَعِبْرَةُ الْقَوْلِ:

لَمْ يَكُنْ عَبَّاسُ الْعَزَاوِيِّ فِي مَنَآى  
عَنِ التَّفَاعُلِ مَعَ هَذِهِ الْخُصُومَةِ، بَلْ  
وُجِدْنَاهُ يُسَوِّدُ بَعْضَ الْحَوَاشِي بِخَطِّ يَدِهِ  
عَلَى نَسْخَتِهِ مِنْ مَجْلَّةِ (العَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ)  
الَّتِي كَانَ يَصْدُرُهَا صَاحِبُهُ الْقَدِيمُ مُحَمَّدٌ  
بَهْجَةُ الْأَثَرِيِّ، تِلْكَ الْحَوَاشِي الَّتِي  
حَمَلَتْ تَعْلِيقَاتٍ تَنَمُّ عَنْ نَقْضِ مَا غَزَلَهُ  
الْوَدُّ قَدِيمًا.

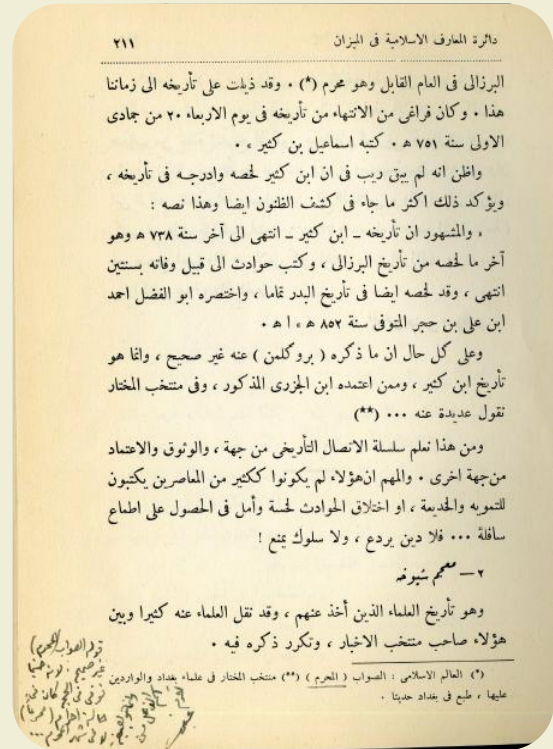


مَحَامٍ، زَمَانُهُ تَقْضَى بِتَزْوِيرِ الدَّعَاوِي  
وَبِالتُّكْرِ، هُنَا خَرَجَ الْأَثَرِيُّ مِنْ مِيدَانِ  
النَّقْدِ الْعِلْمِيِّ إِلَى مِيدَانِ الثَّلَبِ  
الشَّخْصِيِّ، فَعَيَّرَهُ بِمِهْنَتِهِ (الْمُحَامَاةِ)،  
وَجَعَلَ مَدَارَ حَيَاتِهِ عَلَى التَّزْوِيرِ  
وَالْمُنْكَرَاتِ؛ وَهَذَا اتِّهَامٌ سَافِرٌ لَا  
يَسْتَنْدُ إِلَى أَدْنَى دَلِيلٍ، وَلَا يُؤَيِّدُهُ وَاقِعٌ  
حَالِ الْمَهْجُو. وَفِي هَذَا نَزْعَةٍ نَفْسِيَّةٍ  
تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَثَرِيَّ وَصَلَ فِي خُصُومَتِهِ  
إِلَى مَرَحَلَةِ "الاسْتِئْصَالِ"، حَيْثُ لَا  
يُرِيدُ أَنْ يُبْقِيَ لَخْصِمِهِ مَفْخَرَةً، لَا فِي  
عِلْمٍ وَلَا فِي خُلُقٍ.

كَمَا أَنَّ وَصْفَ كُتُبِ الْعَزَاوِيِّ بِأَنَّهَا  
"كَاللَّيْلِ الدَّجُوجِيِّ فِي الْكُفْرِ" لَيْسَ إِلَّا  
انْعِكَاسًا لظُلْمَةِ النَّفْسِ حِينَ يَتَمَلَّكُهَا  
الْغَضَبُ مِنَ الْقَرِينِ. فَالْأَثَرِيُّ -عَلَى  
جَلَالَةِ قَدْرِهِ- سَقَطَ فِي فَخِّ الْهَجَاءِ  
الْمُقْذَعِ الَّذِي يَجْعَلُ بَعْضَ الْخَطَأِ فِي  
التَّارِيخِ لَيْلًا حَالِكًا يَكْفُرُ (أَي: يَغْطِي)  
كُلَّ شَيْءٍ، وَيَسْتَرُ كُلَّ فَضِيلَةٍ!! وَيَجْعَلُ

البَيَانِيَّةِ اخْتَارَ أَنْ يُحَلِّدَ هَذِهِ الْخُصُومَةَ  
فِي أَبْيَاتِ هَجَائٍ تَكُونُ سِمَةً فِي  
جَبِينِ الزَّمَانِ!

فيا لهما من عِلْمَيْنِ! كَادَ عِلْمُهُمَا أَنْ  
يُغْطِيَ الْآفَاقَ لَوْلَا أَنَّ نَفْسَ الْإِنْسَانِ  
مَجْبُولَةٌ عَلَى حَبِّ التَّفَرُّدِ، وَكُرْهِ الشَّرِيكِ.  
فكانت هذه الأبيات التي بين أيدينا  
وثيقةً تُثَبِّتُ أَنَّ الْعَبْقَرِيَّةَ لَا تَعَصِمُ مِنْ  
الْخَطَأِ، وَأَنَّ الْبَلَاغَةَ قَدْ تَكُونُ سِفًا  
قَاطِعًا لِلأَرْحَامِ الْعِلْمِيَّةِ، وَأَنَّ أَعْلَامَ  
بَغْدَادَ - عَلَى عِظَمِ شَأْنِهِمْ - يَظْلُونَ بَشَرًا  
تَعْتَلِجُ فِي صُدُورِهِمْ مَوَاجِدُ الْحُبِّ  
وَالْبُغْضِ، وَلَكِنْ سَتَبْقَى تَسِيرُ بِذِكْرِهِمْ  
الرُّكْبَانُ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ.



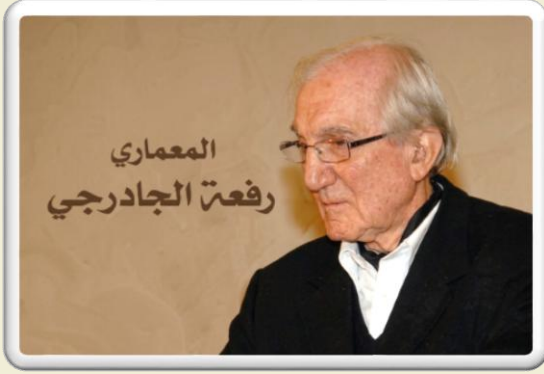
لقد كَانَ الْعَزَاوِيُّ يَرُدُّ بِجَفَاءٍ،  
وَكَاثَهُ يُدَافِعُ عَنْ حِيَاضِ عِلْمِهِ  
بِإِظْهَارِ تَفَوُّقِهِ عَلَى صَاحِبِهِ حِينَ أَظْهَرَ  
شَيْئًا مِنْ أَخْطَائِهِ الْعِلْمِيَّةِ فِي مَجَلَّتِهِ.  
وَلَكِنَّ الْأَثَرِيَّ بَزْهَوِهِ الْأَدَبِيِّ وَفَخَامَتِهِ

# رَفَعَتُ الْجَادِرْجِي

بَيْنَ ضَرْيَحِ أَمْرِ الْقَيْسِ وَنَصْبِ الْجُنْدِيِّ الْمَجْهُولِ

صَادِقُ الطَّائِي

كاتب ومؤرخ وباحث اجتماعي عراقي



يُعدّ المعمار العراقي رفعت الجادرجي واحداً من أبرز معماريي العراق، إذ شارك في النهضة الحداثوية للعمارة العراقية منذ عودته من دراسته الهندسة المعمارية في بريطانيا عام ١٩٥٢م.

وما تزال الأبنية التي صمّمها الجادرجي شاهدة على مشاركته الفاعلة في تغيير وجه العمارة العراقية، حيث صمّم عشرات المباني في مختلف أنحاء البلاد.

كذلك تُعدّ النُصب التي صمّمها، والتي زيّنت أهم ساحات بغداد، من أبرز منجزاته.

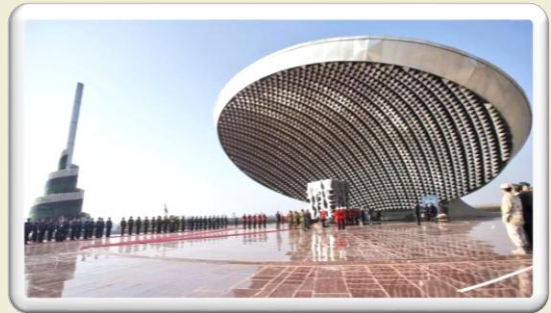
وهنا أودّ الحديث عن نصب كان له النصيب الأكبر في إبراز ملامح بغداد الحديثة في خمسينات القرن العشرين، وأعني به نصب الجندي المجهول، الذي كان قائماً في ساحة الفردوس قبل أن يُزال لاحقاً.

تبدأ حكاية هذا النصب عام ١٩٥٩م، بالأمر الذي أصدره رئيس الوزراء

العراقي: عبد الكريم قاسم، بإنشاء نصب  
يخلّد الجندي المجهول في قلب بغداد.



وتنتهي هذه الحكاية بأمر الرئيس  
العراقي: صدام حسين عام ١٩٨٢م  
بهدمه. ففي عام ١٩٧٨م، قرر صدام  
حسين إنشاء نصب آخر للجندي  
المجهول، على الرغم من وجود النصب  
القديم في ساحة الفردوس، وكُلّف  
النحات خالد الرحال بتصميمه.



وكانت العقلية المهيمنة على

السلطة آنذاك تقوم على القضاء على كل  
ما له علاقة بمنجزات عبد الكريم  
قاسم، إذ كان يُنظر إلى اسمه بوصفه إرثًا  
ينبغي محوه، وذلك عبر هدم النُصب  
المُهمّة التي نُفّذت في زمنه. وعندما  
أنجز النصب الجديد في ساحة  
الاحتفالات في منطقة المنصور عام  
١٩٨٢م، صدرَ قرارُ صدام حسين بإزالة  
نصب الجندي المجهول من ساحة  
الفردوس.



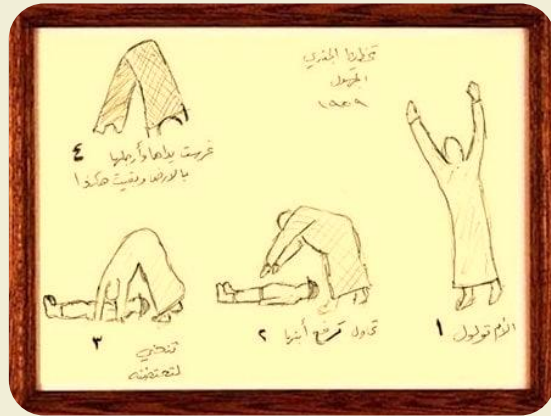
والمفارقة التاريخية كمنت في أنها هي  
نفس الساحة التي ستشهد، بعد نحو



عشرين عامًا، إسقاط تمثال صدام حسين في المكان ذاته، معلنةً نهاية نظامه.



أحب أن أشير هنا إلى أن ثمة خفايا في قصة نصب الجندي المجهول الأول الذي صمّمه رفعت الجادرجي، قد تكون غير معروفة على نطاق واسع؛ إذ انتشر تخطيط يُنسب إلى الجادرجي، يُدّعى فيه أن فكرة النصب استلهمت من صورة أمّ الشهيد وهي تنحني فوق جثمان ولدها، وأنّ القوس والانحناء في النصب يرمزان إلى هذا المشهد.



وقد ذكرت الكاتبة بلقيس شرارة، زوجة رفعت الجادرجي، هذا الموضوع في كتابها "رفعت الجادرجي... حياة غنية حافلة بالإنتاج"، إذ تقول: "سألتُ رفعت عن ذلك، فقال: لا أدري من أين أتوا بهذه الفكرة، ليس هنالك أي صحة لهذا".

وفي تقديري، فإن هذه الفكرة متهافئة وساذجة؛ فالحركة التي يُظهرها التخطيط أقرب إلى حركة راقصة باليه تنحني لتلامس يديها الأرض، منها إلى انحناء حانية أو احتضان أمّ مكلمة فقدت ابنها. ويمكن إدراك الفرق الجوهري إذا نظرنا إلى تكوّر تمثال أمّ الشهيد في أحد مشاهد نصب الحرية؛ فهناك تتجلّى الحركة الطبيعية الصادقة لأمّ تحتضن جثمان ابنها.

في مقابل ذلك، ذهب بعضهم إلى القول: إنّ نصب الجندي المجهول الذي صمّمه الجادرجي مقتبس من نصب



ولا شك في أن للأقواس استخدامات متعددة، تختلف باختلاف أشكالها ودلالاتها، ومن أبرز استخداماتها ما نراه اليوم في العمارة الدينية، سواء في الكنائس والكاتدرائيات أو الجوامع والزوايا الصوفية. وقد يرى البعض تشابهاً شكلياً بين نصب هيروشيما ونصب الجندي المجهول العراقي، غير أن رمزيتهما وسياقهما التاريخي وشكلهما النهائي تبقى متباينة تبايناً واضحاً.

والآن نعود إلى أصل قصة نصب الجندي المجهول الأول الذي صمّمه رفعت الجادرجي، كما رواها بنفسه في كتابه "الأخضر والقصر البلّوري"، الذي كتبه بمساعدة الأستاذ عطا عبد الوهاب

ياباني أُقيم تخليداً لضحايا هيروشيما، ويجسّد أقصى درجات الانحناء الياباني احتراماً لمن يُجَلّ، فكيف إذا كان شهيداً، إذ ينبغي -بحسب هذا التصرّو- أن يبلغ الانحناء حدّ ملازمة الهامات للأرض. وقد أُقيم نصب ضحايا هيروشيما في مركز حديقة السلام، في المنطقة التي تعرّضت للقصف بالقنبلة الذرية، وسط مدينة هيروشيما، بين منطقتي كامياتسو وهاتسوبوري، وهما من أهم المناطق الإدارية والتجارية في المدينة. وقد أنجز هذا النصب عام ١٩٥٤م، أي قبل تنفيذ نصب الجادرجي بخمس سنوات، ويوصف بأنه أشبه بـسرج الحصان. ويحتوي النصب التذكاري على صندوق حجري نُقشت عليه أسماء ضحايا الكارثة الذرية، تحت قوس يمثل سقفاً مستوحى من فخار "هانيوا" المستخدم في تزيين مقابر عصور ما قبل التاريخ في اليابان.

أثناء اعتقالهما في سجن أبي غريب في أواخر سبعينات القرن الماضي. ومن خلال هذه الرواية، يتضح أن قصة هذا النصب تعود بجذورها إلى مرحلة أقدم من طلب الزعيم عبد الكريم قاسم وتكليفه للجادرجي بتصميم أول نصب للجندي المجهول في بغداد.

إذ ترتبط هذه القصة بتأسيس حلف بغداد، الذي ضمّ العراق وإيران وتركيا وباكستان وبريطانيا، وأُعلن عنه رسميًا عام ١٩٥٥م، بعد أن تطوّر من فكرة "حلف السانتو" أو "الحلف المركزي"، واتخذ من بغداد مقرًا له. ويُعدّ هذا الحلف من اللبّات الأولى للحرب الباردة التي دشّنتها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، عبر تجميع القوى الليبرالية لتشكيل طوق يمنع توسع المد الشيوعي في الشرق الأوسط بقيادة الاتحاد السوفيتي. وعلى هامش حلف بغداد، نشأت مشاريع

تعاون اقتصادي وثقافي لتعزيز العلاقات بين دول الحلف، وكان من بين هذه الأفكار مشروع تعاون بين تركيا والعراق، يقضي بإقامة ضريح لشاعر عربي كبير مدفون في أنقرة هو امرؤ القيس، على أن يتولى تصميمه معمار عراقي، وفي المقابل يُقام ضريح لشاعر تركي كبير مدفون في بغداد هو فضولي البغدادي، على أن يتولى تصميمه معمار تركي.

يروي رفعت الجادرجي، وهو المهندس الشاب آنذاك، ولم تمض سوى ثلاث سنوات على عودته من بريطانيا بعد دراسته العمارة هناك، أنه بدأ استعداداته لوضع التخطيطات ودراسة التصاميم للمشاركة في المسابقة الخاصة بتصميم ضريح امرئ القيس. ويشير إلى أنه استلهم الشكل الرئيس للنصب من طاق كسرى الشهير في المدائن، لما يحمله من روح

عراقية تعود جذورها إلى العمارة السومرية، كما درس الإمكانية الهندسية لتحويل الضريح من طاق مبني بالآجر إلى طاق يُنفَّذ بالخرسانة (الكونكريت)، مستفيدًا من خبرته في تصميم طاق جامع سراج الدين.

مرّت السنوات، ووقع انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨م، واتخذت حكومة الثورة أول قراراتها بالانسحاب من حلف بغداد، فدُفنت الفكرة - كما ظنّ الجادرجي حينها- إلى الأبد.

غير أن الصدف، أو الأقدار، شاءت أن يُعيّن المهندس الشاب رفعت الجادرجي في منصب مهم في أمانة العاصمة بغداد، وأن يطلب منه الزعيم عبد الكريم قاسم شخصيًا، في أواخر عام ١٩٥٨م، تصميم ثلاثة نُصُب هي: نصب الجندي المجهول، ونصب ١٤ تموز،

ونصب الحرية، على أن تُنفَّذ وتُفتتح في الذكرى الأولى للثورة في تموز ١٩٥٩م.

يقول رفعت الجادرجي في كتابه: "لم أعترض محتجًا بضيق الوقت، وقلتُ في نفسي: إنّ تصميم النصب الأول جاهز -وكان يقصد ضريح امرئ القيس- ولا بد لي من إكمال تصميم النصب الثالث، أي نصب الحرية". ثم يتساءل: "لِمَ لا يكون التصميم على شكل لافتة جميلة، بدل هذه اللافتات القبيحة المرفوعة الآن؟ لافتة جميلة، وباقية، و(خالدة) حسب قولهم". وهكذا جاء تصميم نصب الحرية. أما نصب ١٤ تموز، فلم يُنفَّذ حتى اليوم، إذ نُسي في خضم الانشغال بإقامة النُصُب ومحاولة إنجازها في الوقت المحدد.

لروح رفعت الجادرجي، المُحبّة للجمال، الرحمة والمغفرة الواسعة.



# مُصْطَفَى جَوَادٍ فِي رَسَائِلِهِ إِلَى أَنْسْتَاْسِ مَارِي الْكَرْمَلِيِّ

د. سعيد عدنان  
كاتب وأديب وتربوي عراقي



قليلٌ مَنْ بَلَغَ مَبْلَغَ مصطفى جواد  
في سَعَةِ الإحاطة بالتاريخ العربيّ  
الإسلاميّ، وباللغة العربيّة، وقليل  
مثله من أبناء القرن العشرين من  
يقف مع جِلَّة القدماء في اللغة  
والتاريخ؛ فلا ينبو به موقف، ويجري  
معهم فلا تزلّ به قدم.

وُلد مصطفى جواد في مطلع القرن،  
في سنة لا يستطيع أن يقطع بها، وهو  
المحقّق المدقّق؛ أهي سنة ١٩٠٤، أو سنة  
١٩٠٦، أو ١٩٠٨، أو هي سنة غير تلك  
السنوات، ممّا يدور حولها.

ومهما يكن من أمر سنة الميلاد؛  
فقد ولد يقظ الذهن، ذا حافظة تكاد  
لا تُفَلت شيئاً ممّا تسمع أو تقرأ، يحبّ  
المعرفة، ويروم الاستزادة منها، على  
الرغم من أنّ سنوات النشأة الأولى لم

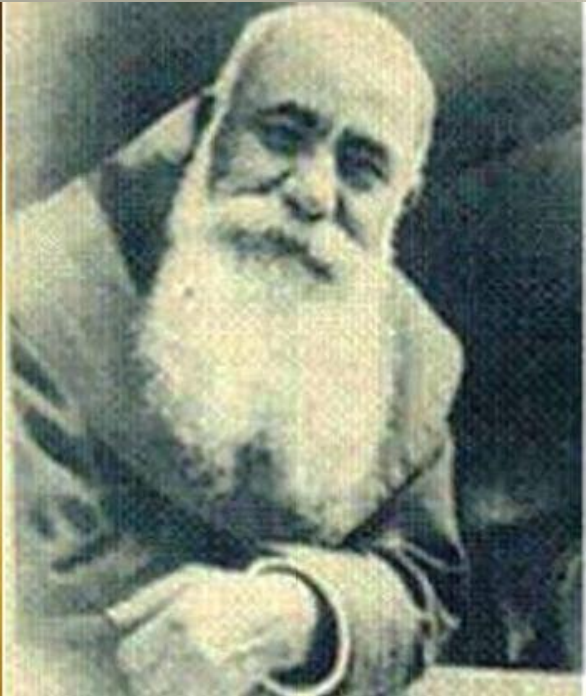
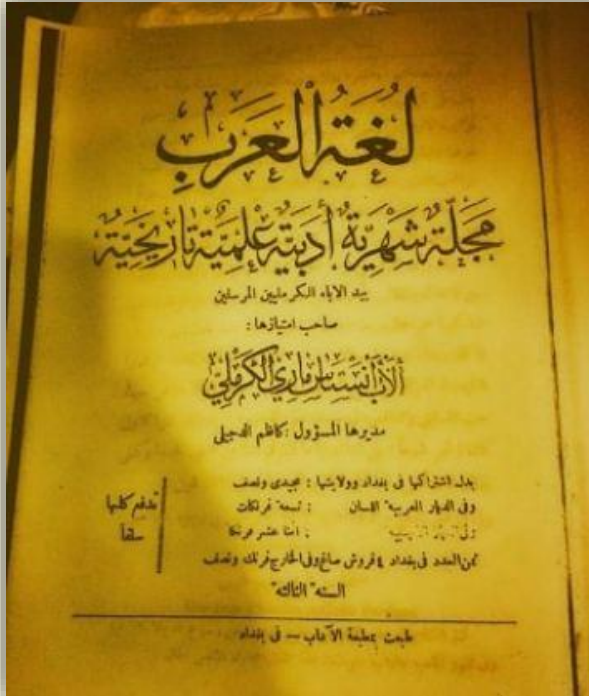


تجربريح رُخاء، وربّما تلبّثت به في غير شأنه، ومالت به عن طريق طلب العلم. لكنّه سرعان ما يرجع إلى طريق المعرفة، ويستوي عليه منصرفاً عمّا سواه. ويتخرّج في دار المعلمين الابتدائية ليعمل معلّماً، وليمضي مع سجيّته في البحث، والتنقيب، والوقوف على الأصول؛ ما كان مطبوعاً وما كان مخطوطاً، غير متوانٍ في بلوغ النائي الخفيّ منها.

ولقد كان من سبل المعرفة عنده

مواصلة أعلام العصر؛ بزيارتهم، ومراسلتهم، وتبيّن ما لديهم. فكان من ذلك أن مدّ الأواصر بينه وبين الأب أنستاس ماري الكرملّي.

كان الكرملّي يومئذٍ علامةً جليلَ القدر، لا يُشقّ له غبار، قد أنشأ مكتبة كبيرة في دير الآباء الكرمليين ببغداد، واتّخذ من الدير مثابة له، يزاوّل منه كلّ شأنه؛ يدرس، ويتعبّد، ويؤلّف، ويعقد فيه مجلسه الأدبيّ، ويحرّر مجلّته (لغة العرب).



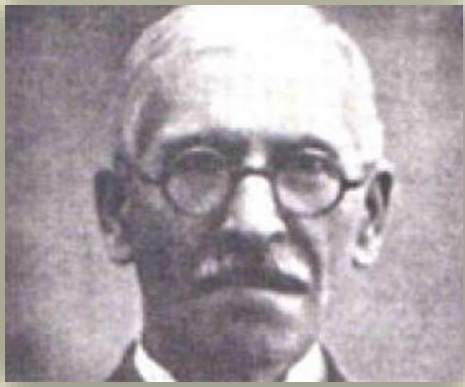
وكان مصطفى جواد، منذ أواخر العشرينات، قد وجد سبيله إلى دير الكرملين، وإلى مكتبته، وإلى مجلس الأب أنستاس ماري الكرمل، وصار من أشدّ روّاده مواظبة؛ يفيد من المكتبة، مطبوعها ومخطوطها، ويفيد من المجلس وأحاديثه، ويحاور الآخرين، ويردّ بعض ما يذهبون إليه فأتسعت معرفته، وقويت حجّته، وتكاملت ملكة النقد عنده.

ثمّ أخذ ينشر أبحاثه في (لغة العرب) متخصّياً الشوارد في التاريخ واللغة؛ مستدرّكاً ومعقّباً على كبار الكتاب يومئذٍ حتّى عُرف اسمه، ولمع نجمه وهو لمّا يبلغ الثلاثين من عمره.

أراد مصطفى جواد سعةً في العلم، ورغب في تعلّم الفرنسيّة وإتقانها، وبدأت باريس في متناوله فاتّجه في سنة ١٩٣٣ إلى مصر، وبقي فيها سنة، أو ما يقرب من السنة، يتعلّم مبادئ

الفرنسيّة، ويستمع إلى دروس في كليّة الآداب، ويتّصل بأدباء مصر، ثمّ يقصد باريس، وينتظم في جامعة السوربون، ولكنّه ليس كغيره من الطلبة؛ فهو طالب في جانب، وعالم يفيد منه المستشرقون في جانب آخر؛ فلقد رسخت قدمه في التاريخ الإسلامي، واللغة العربيّة؛ هذين الميدانين اللذين ظلّا يتساوقان في حياته، وبقي، ما عاش، مرجعاً ثبّتاً فيهما.

وأُتيحت له في باريس مكتبة أخرى كتلك التي كانت له في دير الكرملين، وأُتيح له عالم يشبه صاحبه الكرمل الذي كان في بغداد؛ ذلك العالم هو الميرزا محمّد القزويني، وتلك مكتبته.



كان القزويني قد اتخذ باريس دار إقامة قبل مجيء مصطفى جواد بسنين، وقد وجد فيه المستشرقون نافذة يطلّون منها على الشرق وحضارته، إذ كان حسن العلم بالعربيّة والفارسيّة مثلما كان حسن العلم بالفرنسيّة والإنكليزيّة.

لقد أفاد مصطفى جواد من الميرزا القزويني ومكتبته، وانتسخ من مخطوطاتها شيئاً كثيراً، واستكمل منها ما لم يجده في غيرها.

ولمّا أراد أن يكتب أطروحته التمس لها موضوعاً من التاريخ العبّاسي قلّ من طرقه؛ فكتب عن: الخليفة الناصر لدين الله وسياسته؛ وهو خليفة امتدّت خلافته زمنًا طويلاً، وكان حازماً حسن السياسة؛ على الرغم من مجيئه في أخريات زمن الدولة العبّاسيّة.

أتمّ عمله قبيل أن تدهم العالم الحربُ الثانيّة، فلمّا وقعت عاد إلى بغداد بزادٍ موفور من اللغة والتاريخ

وما يتّصل بهما، وبلغة فرنسيّة أتقنها. ثمّ التحق بدار المعلمين العالية يدرّس اللغة، ويكتب في ما يتّصل بها، ويكتب في التاريخ، ويحقّق الأمكنة، والمواضع في بغداد العبّاسيّة؛ وليس مثله من ملأ يده من خطط بغداد وقال فيها بعلم رصين وثيق؛ إنّه عالم اللغة المؤرخ، ومنزلته في التاريخ لا تقلّ عن منزلته في اللغة!

كان، مع مزاولته البحث الرصين، يقول الشعر في ساعة أنس، أو ساعة ضيق، ولكنّه شعر العلماء؛ كالذي قاله رجال اللغة والنحو من قبل؛ نصيبه من الشعر: استقامة الوزن، وفصاحة اللفظ، وصحّة المعنى، أمّا توقّد العاطفة، وجُموح الخيال، وابتكار المعنى، فأشياء نصيبه ضئيل منها.

وكان يكتب الرسائل لمن بينه وبينهم مودّة أو صلة؛ يكتبها أحياناً على نحو من التفصيل. فلقد جرت

مراسلات بينه وبين الكرمل منذ سنة ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٣٨، إذ راسله وهو في دلتاوة، ثمّ وهو في القاهرة، ثمّ وهو في باريس؛ فلمّا رجع إلى بغداد عادت المُجالسة تغني عن المراسلة.

ورسائله هذه كلّها ثلاث وثلاثون رسالة، نشرها الدكتور محمّد حسين الزبيدي في سنة ٢٠١١م<sup>(١)</sup>.

كانت الرسالة الأولى قصيرة، ثمّ أخذت الرسائل تطول إذ جعلت تنطوي، زيادة على التحيّات وبثّ الأشواق، على أمور تتّصل بأحواله حين هبط القاهرة، ثمّ باريس، وعلى عنوانات مقالات وبحوث كان قد كتبها، وأرسلها إلى النشر في المجلّات، وتنطوي أيضًا

على ما جرى بينه وبين الأدباء الذين حاورهم، أو قرأ كتبهم، ونقدتهم عليها. لقد كان مصطفى جواد رقيق الحاشية في مخاطبة الكرمل، لكنّه حين يتحدّث عمّن اختلف معهم تغلّظ كلماته وتقسو.

وكّل رسائله تنبئ عن وثوق بما لديه، وتيقّن من صواب معرفته وسعتها. ولقد جاءت كلّها على شرط الفصاحة الرفيعة، وربّما اقتربت بعض ألفاظها من الغرابة التي يحبّها مصطفى جواد، ويأنس بها؛ إذ يرى أنّ على الكُتّاب أن يعيدوا الحياة لما أهمل من الألفاظ.

وإنّ قارئ الرسائل ليجد فيها علمًا غزيرًا، ورغبة صادقة في التحقق

(١) هذه النشرة عليها مؤاخذات علمية، وقد كتب في نقدها الأستاذ حسين محمد عجيل، في صحيفة الصباح (١٦/١٢/٢٠٢٠م)، بعنوان: (رسائل مصطفى جواد إلى الكرمل.. كنزٌ معرفيٌّ نُشر مبتورًا). وجاء في آخر مقالته قوله: (هذه نماذج فقط من أخطاء كارثيّة في كتابٍ «شرحهُ وحققهُ» أستاذٌ أكاديميٌّ،

وأصدرته جامعةٌ عراقيةٌ، وهي تكفي لوصم الكتاب بأنّه إساءة بالغة إلى ذكرى مصطفى جواد، وإلى البحث العلميّ، وتقتضي المسؤولية الأخلاقية على المحقّق والناشر أن يسعيا إلى إعادة طبعه بما يليق بسمعة الأكاديمية العراقية وبذكرى العلامة الجليل كاتب تلك الرسائل). [المحرّر]

والتثبت، وإنه ليقراً فيها صفحة أخرى  
من صفحات هذا العلامة الجليل الذي  
ذهب من دون أن تتم الفائدة منه على  
ما ينبغي أن يكون.

يقول الدكتور علي جواد الطاهر في  
الحفل التأبيني بعد مرور أربعين يوماً  
على وفاة مصطفى جواد: (أمّا مصطفى

جواد فليس كنزاً بهذا المعنى المادّي،  
وبهذا المفهوم الضيق، إنه كنز ضاع  
دون أن يستثمر، وتبدّد قبل أن يستنفد.  
لقد ذهب الرجل وذهب الكنز معه، ولا  
يمكن في هذه الحال ردّ الفائد  
وتعويض الخسار).  
نعم إنه كنز قليل النظير...





# بَعْدَ إِذْ بَيْنَ نَازِكٍ وَالسِّيَّابِ

عبد الله نصّار

باحث وأكاديمي من غزة - فلسطين

كان للقصيدة البغدادية حضورها  
الثّر في إبداع كلّ من الشاعرين، وقد  
مثّلت جرحاً في خاصرة الكلمة، ونزفاً في  
وريد الروح؛ ذلك أنها جاءت مُترعةً  
بِصَخَبِ الجوّ العامّ السائد في  
عصريهما؛ حيث القلاقل، والصراعات،  
والنزاعات بين الأحزاب، أجل، كانت  
بغدادُ تعاني -آنذاك- من شللٍ في  
السياسة العراقية، وتعطّلٍ للأحزاب،  
وركودٍ أصاب العراقَ أجمعه، لكنّ  
عشقَ البلادِ والتفاني في محبتها جعل  
فؤاد كلّ منهما موصولاً بها؛ بل وشكّل في

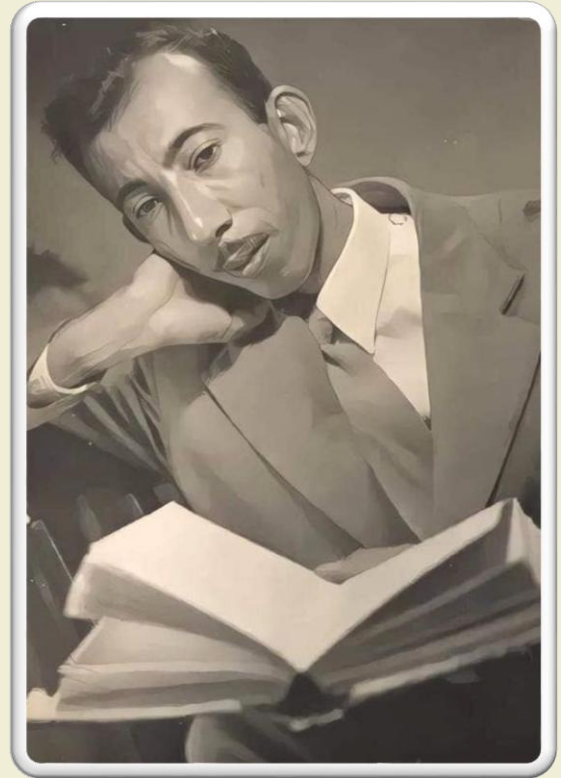
ذاتهما أملاً أن تكونَ بغدادُ معافاةً  
سليمةً من ندوبِ الزمان وجراحاته،  
ولكن يبقى لكلّ شاعرٍ أسلوبه الذي  
ينتحيه للتعبير عن ذلك، فكيف  
توطّنتَ بغدادُ في المشهد الشعري لدى  
كلّ من نازك الملائكة وبدر شاكر  
السّيّاب؟ هذا ما يُمكن أن نكشف  
عنه في هذه السطور، من خلالِ قراءةٍ  
في أعمالِ كلّ منهما.

بدايةً، يجدرُ بنا القول: إنّ بغدادَ في  
شعر السّيّاب وردت في ظلال القصائد  
رمزاً أكثر منه تصرّيحاً، وإيماءً أكثر منه

إفصاحًا، اللهم في مواضع قليلة، منها أن  
صديقه خالد الشواف دعاه ذات يوم  
لزيارتها، فرسم أمله قائلاً:

صبر النفس عسى أن نلتقي  
فإذا خالد تحلو بسمائه  
وإذا بغداد لحن للهوى

تملاً القلب نشيداً فتياته  
ويبقى التساؤل هنا مطروحاً: لماذا  
انتحى السيّاب هذه الوجهة واتخذ هذا  
الأسلوب في تعامله مع بغداد في شعره؟



وهنا يجب أولاً أن نُقرّ ببراعة

السيّاب، وحسن تجويده للشعر، مع  
العمق والغزارة الفتيّة، والقدرة  
الإيحائية والتصويرية؛ فنحن أمام  
شاعرٍ امتلك ناصية البيان، وتكوّن  
لديه معجمه الشعريّ المضمخ بالجمال،  
كيف لا؟ وهو العاشق لتراثه العربي،  
والمطلع أيضاً على الآداب الغربية؛ إذ قرأ  
لشكسبير معجباً به، ولملتون، ولتوماس  
إليوت، ولجون كيتس، وغيرهم من  
الشعراء الفكتوريين والرومانتيكيين.

أمّا ثانياً، فالأمر يعود إلى نشأته  
الريفية؛ حيث ترعرع في جيكور،  
ومثلت لديه هذه القرية أمّاً يؤول إليها  
كلما ضاق ذرعاً بأسباب العيش وكدره،  
أمّا بغداد فقد كانت المدينة التي  
صدمت الشاعر بطقوسها الجارحة،  
وأحداثها الموحجة، ولا يعني ذلك أنّها  
شكّلت فيه بُغضاً لها؛ بل على العكس،  
كان السيّاب متعلّقاً بالعراق أجمع،  
خاصةً لو قرأنا قصيدته " غريب على

الخليج" فهي تمثل قمة التعلّق الروحي والوجداني بالعراق وما فيه، ولكنّه كان يتمنّى أن يرى بغداد تخلو من النزاعات وسوء الحال، فجاءت مخبوءة في أنفاس شعره؛ لأنّها تركت غصّة في بوجه، وإلّا فلماذا ينحاز للمساكين والضعفاء لولا أولئك العابرين الذين يأنف التاريخ ذكرهم، يقول:

أُتِيهَا التَّلُجُ يا حشراتِ الدُّهْورِ  
وانتخابات المساكين في كل كهف يغور  
في جبال السنين

كن لهيباً على أوجه العابرين  
قنّع الخوف فيها بلون الرجاء

وفي قصيدة أخرى بعنوان: "جيكور والمدينة"، يعقد جدليةً ثنائيةً ينسرب إليها ملمحٌ دالٌّ على رفض الواقع الذي تحياه بغداد، وهنا مقارنةٌ عجيبةٌ بين حاله في جيكور؛ حيث الرّيف والطّبيعة والخصب والهناء، وحاله في بغداد؛ حيث ضيق الحال وسوء المعيشة، ويرى

فيها قسوة المعاملة، وظلم الواقع، يقول:  
وتلتفت حولي دروب المدينة  
حبلاً من الطين يمضغن قلبي  
ويُعطين، عن جمرة فيه، طينة  
حبلاً من النار يجلدن عُري الحقول الحزينة  
ويحرقن جيكور في قاع رוחي  
ويزرعن فيها رماد الضغينة

هذه هي بغداد - في نظر السياب -  
التي يستغرب من حالها، وإنّه الحنين  
الجارف لموطنه الأول؛ جيكور، الذي  
تنتفي عنه الضغينة، ويستقر به الحال،  
وتهنأ به النفس.

بغداد هي معضلة الشاعر،  
وإحساس بالمنفى، وشعورٌ بالغرابة؛ لأنه  
لم يجد فيها ذاته، ولم تأبه بروحه  
المتفردة الحاملة بطقوس السلام والرخاء.  
ولهذا كلّ توارت بغداد كمسمّى في  
أثناء شعره، لكنها كانت حاضرة بقوة  
ومعنى، ورمز مؤلم خاضع لحرق غامرة  
في ذاته، تولد عنها حزنٌ في قرارة روحه

ومستقرّ نفسه.

أمّا عن القصيدة البغدادية في الموروث الشعري الملائكي، فقد تجلّت بوضوح لا لبس فيه كمسمّى ورمز لا سيما في الظواهر المناسباتية، والقضايا الوطنية.



عندما أعلن ميثاق الوحدة الثلاثية من القاهرة في السابع عشر من نيسان عام 1963م، تجلّت بغداد في ثوب زاهٍ يحده الفرح، فقالت تبارك ذلك: واستفاقت بغدادُ نشوى تُغني وهي تسقي ورودَ أجمل فجرٍ خفقت في سمائها رايةً الوحدة يا للحلم الجميل النَّصرِ

قلبها قلبها المشوق إلى مصر

مرّ طويلاً قد ضمّ تربة مصرٍ والتقت كفها بكفي دمشقٍ في صباح العروبة المُفترّ فبغدادُ هي أختُ العروبة وسيدة العواصم وأمُّ البلاد، تجيءُ تهنئُ بهذه المناسبة، فيكون لها دورها وحضورها في السياق التاريخي؛ بل وتتخطى ذلك إلى دورِ المستلهم للهمم الداعي إلى الوحدة والنصر:

إيه بغدادُ أيقظي كلّ من ما

تَ شهيداً على نشيد النَّصرِ أنبئيه بأنَّ وحدتهُ قا مت وضمت من أرضه كلّ شبرٍ طلع الفجرُ من وراء الدياجي

يا عيونَ الشهيد نامي وقرّي وعندما فاض النّهر بشكلٍ رهيبٍ عام 1954م على بغداد، وثّقت نازك هذه الحادثة في شعرها، ما يدل على أنّ القصيدة البغدادية لديها كانت ذات

سَمِتْ مناسباتي، تقول:

ذلك العاشقُ إِنَّا قد عَرَفْنَاهُ قديمًا

لِئَنَّهُ لا ينتهي من زحفه نحو ربانا

وله نحن بَنِينَا، وله شِدْنَا قُرَانَا

لِئَنَّهُ زَائِرُنَا المألوف ما زال كريماً

كُلُّ عامٍ ينزلُ الوادي ويأتي لِقَانَا

ولها قصيدةٌ أخرى في الحادثة نفسها.

وعلى كُلِّ، نجدُ أَنَّ حضورَ (بغداد)

في شعر (السَّيَابِ) كان على رمزيته

يُصاحبه الأنين والحزن على ما آلت إليه

وفاجأت به شاعرها؛ لذلك جاءت

تعبيراته وتراكيبه الشعرية فيها شيءٌ

من الغصّة التي تخنقُ روحَ الشاعرِ،

وتجعلُه في حالةٍ من الاستغرابِ من هذا

الواقع المر. وفي المقابل نجدُ أَنَّ (نازك)

أفردتُ لبغدادَ قصائدَ متعددةً، ووثقت

من خلالها صوراً من الواقع الملموس،

والتجارب التي عاصرتها.





# مَهْمِيَّاتُ بَغْدَادٍ فِي ذَاكِرَةِ الْأَسَاتِذَةِ

## فَهْمِي الْمُدَرِّسُ وَرِحْلَةُ التَّعْلِيمِ الْعَالِي فِي الْعِرَاقِ

د. ياسين محمد

باحث في الفكر الإسلامي، من العراق

بعد الحرب العالمية الأولى التحق  
بمحاكمة الملك فيصل الأول في سورية،  
وعند سقوطها عاد إلى وطنه العراق.

في عام ١٩٢١، أصبح كبير الأمناء في  
البلاط الملكي، لكنه أُقيل لاحقًا بضغط  
الإنجليز. وفي عام ١٩٢٤، عُين أمينًا  
عامًا لجامعة آل البيت في الأعظمية،  
المنارة الأولى للتعليم العالي في العراق،  
التي شُكّلت بمبادرة الملك فيصل الأول  
منذ توليه الحكم. وكان هدف الجامعة  
تأسيس هوية وطنية شاملة، فجمع  
منهجها بين الفقه الحنفي والفقه  
الجعفري وتاريخ الأديان والعلوم

فَهْمِي الْمُدَرِّسُ (١٨٧٣-١٩٤٤)، من  
مواليد بغداد وأحد أعلامها، نشأ في بيت  
علم وورع، فهو ابن القاضي الشرعي  
الشيخ عبد الرحمن بن سليم بن محمد بن  
أحمد بن الشيخ سليمان الخزرجي،  
المعروف بالمدرس، الذي انتقل إلى بغداد  
من الموصل واستقر فيها.

كان فَهْمِي الْمُدَرِّسُ عالمًا  
موسوعيًا، يجيد اللغة التركية  
والفارسية، وقضى خمسة عشر عامًا في  
التدريس بالجامعة العثمانية في  
إسطنبول، حيث درس الحقوق  
الإسلامية وتاريخ الآداب العربية.

الفلسفية. وقد افتتح الملك فيصل الجامعة في ١٦ آذار ١٩٢٣، ووزع على المشاركين شارات تذكارية من الذهب بألوان العلم العربي، تعبيراً عن أمل بناء وطن متكامل بالعلم والمعرفة.

إلا أن الجامعة تعثرت، وأُغلق بابها رسمياً في عام ١٩٣٠، وتحول المبنى لاحقاً إلى مجلس الأمة. ويشير الدكتور سيار الجميل في كتابه جامعة آل البيت في العراق ١٩٢٤-١٩٣٠، إلا أن ساطع الحصري، مدير المعارف العام آنذاك، كان وراء إفشال المشروع، نتيجة خلاف شخصي وأيديولوجي مع فهمي المدرس، الذي كان من الجيل الباني للحلم العراقي الجديد.

تعرض المُدرّس للنفي إلى السليمانية بسبب مقالاته، لكن جهود نواب المعارضة أعادته إلى بغداد، وعُين مديراً لدار العلوم العربية والدينية بالأعظمية عام ١٩٣٧. وشارك لاحقاً في حركة رشيد عالي الكيلاني، وعند فشلها انزوى في محلة البارودية، منقطعاً عن الناس حتى وفاته عام ١٩٤٤.

رحم الله الملك فيصل الأول، راعي العلم الأول في العراق، ورحم السيد فهمي المدرس، رئيس أول جامعة عراقية، الذي بقي اسمه في ذاكرة بغداد، وشاهداً على مرحلة أساسية من تاريخ التعليم والثقافة في الوطن.



# الشيخ المنشاوي

## نفحات القرآن في دار السلام

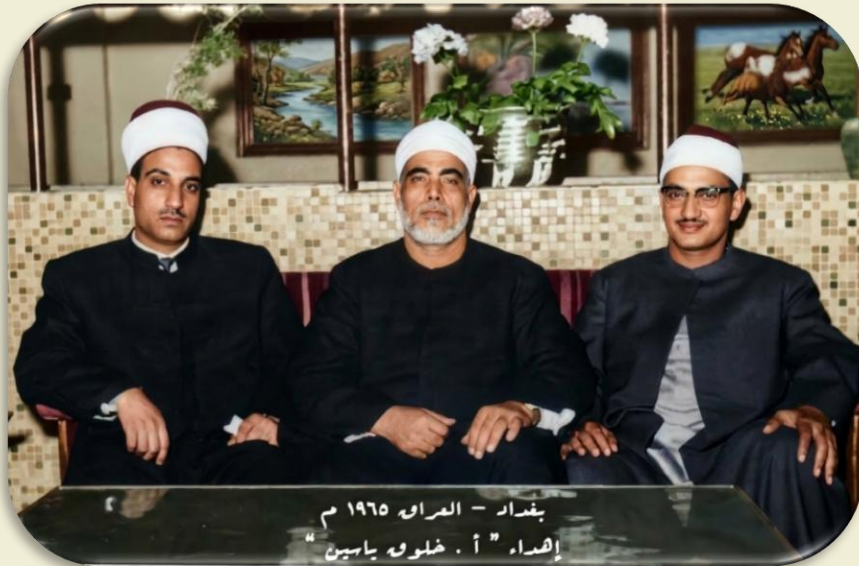
محمد إسماعيل سعدون

باحث في العلوم الشرعية، من العراق

من عظيم رحمة الله ومنه أن يسر مجيء القارئ الخاشع محمد صديق المنشاوي إلى بغداد أواخر سنة ١٩٦٤م، وهي الرحلة التي امتدت حتى مطلع سنة ١٩٦٥م؛ فكانت حُقة حافلة بتلاوات من الطراز الرفيع العالي.

ويذكر القارئ الشيخ "خلق ياسين العزاوي" -أحد مقرئي العراق- أن أهل العراق في تلك الفترة كانوا قليلي العهد بتلاوات الشيخ محمد صديق المنشاوي -رحمه الله-؛ فكان ذلك داعياً لطلب قدومه. يقول العزاوي: «في الخمسينيات وبداية الستينيات كان العراق يعيش حالة استثنائية بشغفه بكبار القراء المصريين وتعلقه بهم؛ فقد كان لزيارة الشيوخ عبد الفتاح الشعشاعي، وأبي العينين الشعيشع، وعبد الباسط عبد الصمد، إبان مجالس العزاء الملكية في الخمسينيات الأثر البالغ في نفوس العراقيين عامة، إذ أخذت بالألباب من روعتها. وبأن من هؤلاء العمالقة الثلاثة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد؛ إذ ترك تلاوتين غاية في الفخامة، الأولى -وهي الأجل- من سور الحشر والتكوير والفجر، وسورتي القمر والرحمن، وقد دأبت الإذاعة العراقية على تكرار بثهما، إضافة إلى عشرات تلاوات الأستوديو الرائعة التي -فيما يبدو- سجّلها

عند زيارته آنذاك، ممّا أورثه شهرةً طاغيةً في الشعب العراقيّ، ومحبةً لا يُدانيها مثيلٌ. وفي غمرة هذه الثورة في تلاوة القرآن الكريم كانت إذاعة بغداد تذيع تسجيلاً من سور الشعراء والطارق والفجر لشيخ عرفه القليل آنذاك، فأخذ بمجامع قلبي وهو يتلو بصوتٍ يخرج من حنايا الفؤاد: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ}، وبطريقة فريدة لم أعهدها في قراء جيله عند أداء سورة الطارق، ثمّ يختتمها بالآية الكريمة: {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}، فدخل قلبي بغير استئذان؛ إنّه القارئُ الفذُّ الذي لن يُكرّر الشيخ محمد صديق المنشاوي. لذا كنتُ إذ ذاك أرى نفسي أمضي خلاف التيار، فعند مناظرة محبي عبد الباسط والشعشع والشعشاعيّ يعسرُ عليّ إيصالُ مذهبي في هذا الشيخ لندرة تسجيلاته آنذاك، بخلاف صور الشيوخ الشعشاعيّ والشعشع وعبد الباسط التي شاعت واستفاضت، أمّا المنشاوي فلم أكن قد رأيتُ له صورةً، فسارعتُ وأنا في مرحلة الدّراسة الثّانويّة إلى كتابة رسالة للشيخ المنشاويّ إلى عنوان الجامع الأزهر بالقاهرة، أثبته فيها رغبتني في رؤية صورته وزيارته لبغداد، فإذا بالجواب يوافيني بخطّ يده الكريمة مرفقاً بصورته وعليها إهداؤه». انتهى النقل عن الشيخ خلوق ياسين.



[من اليمين: الشيخ المنشاوي، الشيخ الحصري، والشيخ إبراهيم منير المدرّس وذلك عندما أنهى الحصريّ زيارته بغداد واستلم المنشاويّ بدلاً منه إحياءً ليالي رمضان]

ثُمَّ بَعْدَ أَنْ دُعِيَ الشَّيْخُ الْمُنْشَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- وَقَدِمَ إِلَى بَغْدَادَ، حَظِيَ بِاسْتِقْبَالٍ حَافِلٍ مِنْ لَدُنِ مُحِبِّيهِ الْعِرَاقِيِّينَ، ثُمَّ مَضُوا مَعَهُ إِلَى مَسْجِدِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي الْأَعْظَمِيَّةِ لِإِحْيَاءِ ذِكْرِ مَوْقِعَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى، بَيِّدَ أَنَّ هَذِهِ التَّلَاوَةَ لَمْ تُسَجَّلْ تَسْجِيلًا رَسْمِيًّا لِعَدَمِ السَّبْقِ بِالتَّنْسِيقِ، كَمَا لَمْ يَقَيِّدْهَا أَحَدٌ مِنَ السَّمِيعَةِ.

وَمِمَّا يُسْتَمَلَحُ ذِكْرُهُ مَا رَوَاهُ عَدَدٌ مِنَ الْإِخْوَةِ فِي شَأْنِ مَا كَانَ عِنْدَ مَصِيرِ الشَّيْخِ الْمُنْشَاوِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- إِلَى مَسْجِدِ أَبِي حَنِيفَةَ الثُّعْمَانِ فَوْرَ وَصُولِهِ مِنَ الْمَطَارِ؛ إِذْ أَمَّ الْمَسْجِدَ فِي زِيَارَةٍ غَيْرِ رَسْمِيَّةٍ، وَكَانَ الشَّيْخُ صَفَاءُ الدِّينِ الْأَعْظَمِيُّ آنَذَاكَ يَقْرَأُ، فَقِيلَ لَهُ: «أَمْسِكْ عَنِ الْقِرَاءَةِ؛ فَإِنَّ الشَّيْخَ الْمُنْشَاوِيَّ قَدْ حَضَرَ»، فِدَاخَلَ الشَّيْخُ صَفَاءُ الْعَجَبُ حِينَ رَأَاهُ، إِذْ ارْتَابَ فِي شَخْصِهِ، وَلَكِنْ مَا إِنْ اسْتَعَاذَ الشَّيْخُ بِطَرِيقَتِهِ الْفَرِيدَةِ حَتَّى اسْتَيْقَنَ صَفَاءُ أَنَّهُ الْمُنْشَاوِيُّ لَا مُحَالَةَ، فَقَرَأَ الشَّيْخُ حِينَئِذٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ.

وإِنَّ فِي اخْتِيَارِ الشَّيْخِ الْمُنْشَاوِيِّ لِسُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي ذِكْرِ مَوْقِعَةِ بَدْرِ دَلَالَةً عَلَى تَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ فِي مَقَاصِدِ الْإِخْتِيَارِ. وَحَسَبَ تَعْبِيرِ الْقَارِئِ خُلُقِ يَاسِينَ الْعَزَاوِيِّ فَقَدْ تَجَاوَزَتْ هَذِهِ التَّلَاوَةُ كُلَّ تَقْدِيرٍ، حَتَّى وَقَفَ الْحَاضِرُونَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ: أَهَذَا هُوَ الْمُنْشَاوِيُّ حَقًّا؟!

وَقَدْ قَرَأَ الشَّيْخُ الْمُنْشَاوِيُّ فِي الْقَصْرِ الْجُمْهُورِيِّ فِي التَّلْفَازِ الْعِرَاقِيِّ؛ فِفَاضَ لِسَانُهُ بِجُمْلَةٍ مِنَ السُّورِ، وَمِنْهَا مَقَاطِعُ مِنْ: (الْفِرْقَانِ، وَالشُّعْرَاءِ، وَالنَّمْلِ، وَالْقَمَرِ، وَالرَّحْمَنِ، وَالْقَصَصِ، وَالْمُؤْمِنُونَ، وَالتَّحْرِيمِ، وَيُونُسَ، وَالْوَاقِعَةَ، وَالْحَدِيدِ، وَغَيْرَهَا مِنْ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ)، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُقَمِّ مَحْفَلًا رَسْمِيًّا فِي مَسَاجِدِ بَغْدَادَ سِوَى مَحْفَلِي الْجُمُعَةِ فِي مَسْجِدِ (١٤ تَمُوزَ).

يَقُولُ الْقَارِئُ خُلُقِ الْعَزَاوِيُّ: «وَحُلَالَ مَقَامِهِ فِي الْعِرَاقِ حَرَصْتُ عَلَى نَقْلِ تِلَاوَتَيْنِ لَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ مِنْ مَسْجِدِ (١٤ تَمُوزَ) بِبَغْدَادَ، كَانَتِ التَّلَاوَةُ فِي كُلِّتَيِ الْجُمُعَتَيْنِ شَرَكَةً بَيْنَ



الشيخ المنشاوي والقارئ العراقي عبد الرحمن توفيق، وإحداهما ذائعة في الشبكة العالمية وفيها يتم المنشاوي ما ابتدأه توفيق من سورة إبراهيم، وهي حالة لم أجدها عند مقرئ في طبقة المنشاوي من أقرانه؛ حيث أتم القارئ عبد الرحمن توفيق تلاوته عند ختام الآية الثانية والعشرين من سورة إبراهيم: {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ثم وصل الشيخ المنشاوي -رحمه الله- القراءة من الآية التي تليها: {وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}.



وفي مجلس جمع الشيخ المنشاوي ببعض أهل العراق -وهو مجلس مسجل منشور- بدأ الشيخ لطيف المعشر، مزاحاً للحاضرين معه؛ إذ طلب إليه أحدهم توجيهات في شأن الصوت ورعايته، فالتفت أحد الجالسين إلى المنشاوي قائلاً: «هذا الكلام من الأخ عبد توفيق»، فأجابته الشيخ المنشاوي مداعباً: «عبد الرحمن؟ هذا نَعْدُهُ مصرياً، قد أخذناه منكم!»، فاستولى الضحك على أهل المجلس.

ثم بعد جولة من الحديث، أفاض الشيخ بتلاوة آيات من سورة الشعراء، استفتحها

بقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ}. وإنَّه لَمِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ الْقَارِئَ الْخَاشِعَ مُحَمَّدَ صَدِيقَ الْمُنْشَاوِيِّ مِنْ أَعَذِبِ النَّاسِ لِسَانًا، وَأَخْشَعِهِمْ صَوْتًا، وَهَذَا التَّمَيُّزُ قَدْ سَرَى فِي تَلَاوَاتِهِ، وَيَظْهَرُ بَرِيقُهُ جَلِيًّا فِي بَعْضِ مَقَامَاتِهِ؛ فَفِي تَلَاوَتِهِ بِالْعِرَاقِ ظَهَرَ صَوْتُهُ الشَّجِيُّ الْحَزِينُ وَأَدَاؤُهُ الرَّفِيعُ الَّذِي يَخْلَعُ الْقُلُوبَ مِنْ مَوَاضِعِهَا، وَلَا سِيَّما فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِذْ تَلَاهَا بِتَجْوِيدٍ فَائِقٍ وَأَدَاءٍ عَالٍ بَهَرَ السَّامِعِينَ، وَكَانَتْ فِي مَسْجِدِ (١٤ تَمُوزَ) بِبَغْدَادَ حِينَ أَتَمَّ مَا ابْتَدَأَ بِهِ الْقَارِئُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ تَوْفِيقِي، وَهَذَا مَا رُزِقْنَا وَصُولَهُ وَتَسْجِيلَهُ، عَلَى حِينِ ضَاعَتْ تَلَاوَاتُ أُخْرَى لَمْ تُقَيَّدْ، كَتَلَاوَتِهِ لِسُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي ذِكْرِ بَذْرِ بِجَامِعِ أَبِي حَنِيفَةَ الثُّعْمَانِ، وَالَّتِي وُصِفَتْ بِأَنَّهَا تَلَاوَةٌ جَاوَزَتْ حُدُودَ الْوَصْفِ.



# الكلثوم فِي بَعْدَاءِ

بِه أحمد صبري

كاتب وناقد وإعلامي مصري

مؤسس قناة عين على التراث

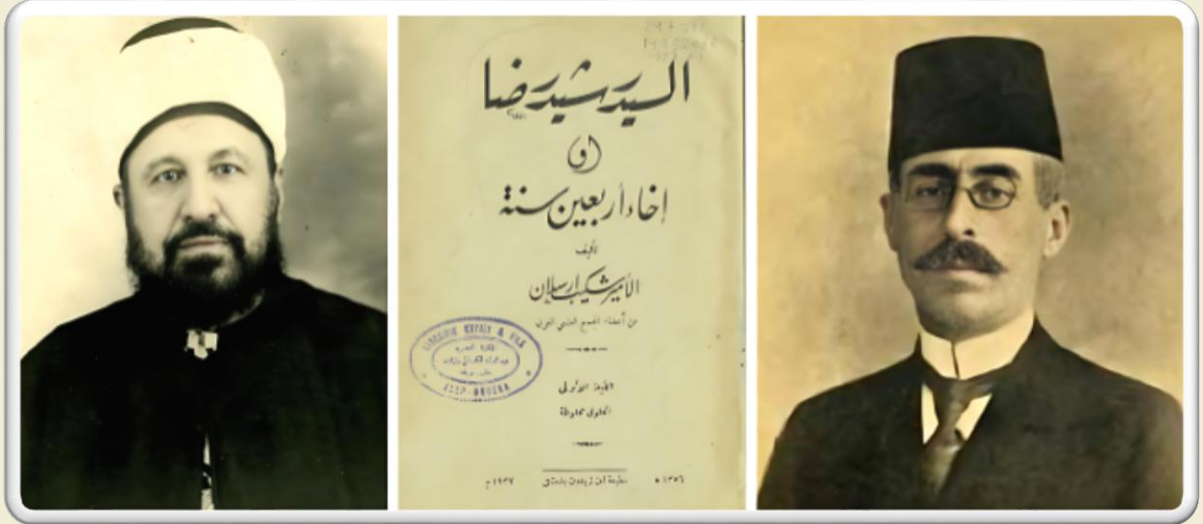
تميل النفس مع اللحن، وتهتز مع العزف، وتلين مع الأوتار، وتتحرك طربًا مع كل دقات الإبداع والإمتاع، وكان الفنُّ في كلِّ عصرِ الروح التي تحيا بها النفوس طربًا، وتهتزُّ محبةً، وتتحرَّك ودادًا.

وإذا كان ذلك كذلك كانت عواصم الحضارة العربية حاضرة الإيقاع، كلحنٍ حلو في أذن متذوق، وقلب طروب.

في لحظة من الزمن ظهرت أم كلثوم (فاطمة البلتاجي)، شابة معممة، تنشد الأناشيد الدينية، والأماديح اللطيفة، حتى ذاعت موهبتها، فصار صوتها ميدانًا تتلى فيها أجمل القصائد، وأحلى الأبيات، وذاع صيتها في أقطار العروبة التي كانت تن من وقع الاحتلال بريطانيًا كان أو فرنسيًا... وجابت كما جاب صوتها كل قطر وصقع، تُسمع الناس وتُطربهم، وتأخذ بألبابهم بحلو النغم، وجميل الطرب.

ولعلّ من الجميل أن نذكر أنّ العلامة الكبير السيد محمد رشيد رضا، وصديقه الطوّاف الأمير شكيب أرسلان، حضرا حفلًا لأمّ كلثوم عام ١٩٢٩م، وشنّفا سمعيهما بجمال صوتهما، حتى قال شكيب من وقع هذا الجمال تلك الأبيات الخالدة:

رؤوسٌ تُغَطّي بِشَلَجِ المَشيءِ      ب، وَلَكِنَّمَا النارُ مِنْ تَحْتِهَا  
تميلُ مَعَ الطَرَبِ المُسْتَمِرِّ      ر، لَدَى أُمِّ كُلْثُومَ مَعَ تَحْتِهَا



وبعد ذلك بزمنٍ استدعى العراقيّون ذلك الصوتَ الجميلَ ليحلّ بديارهم؛ فكيف كانت الزيارة؟ وكيف استقبل العراقيّون (أمّ كلثوم)؟ وماذا قال عنها علماءهم وأدباؤهم؟

في نوفمبر من عام ١٩٣٢م حلّت المطربة أمّ كلثوم أرض بغداد، واتصل صوتهما، بصوت معجبيها من العراقيين على مسرح فندق الهلال، وقد كتبت الصحافة مرحلة بها وبتختها قائلة: "بشرى عظمى نرفها إلى العراق أجمع.. الآنسة أمّ كلثوم في بغداد.. وستبدأ أولى حفلاتها في أوتيل الهلال بالميدان، وقد اتخذت إدارة الأوتيل جميع التدابير اللازمة من النظام والترتيب، وخصصت محلات منفردة للسيدات استعدادًا لهذا المَقدم الميمون".

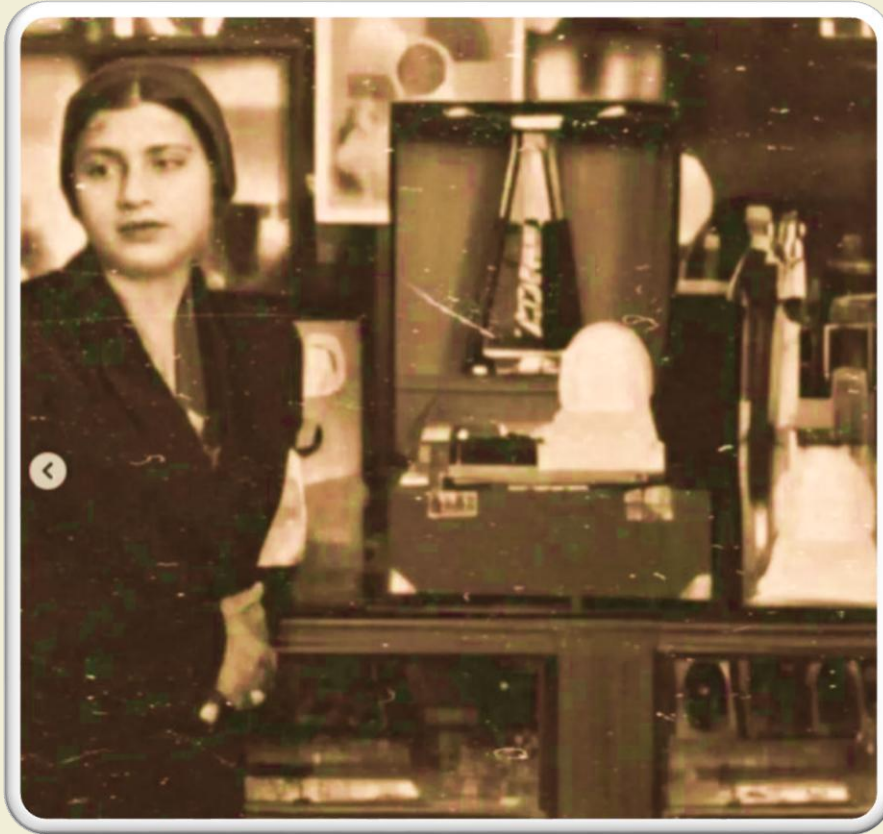
وبات الجميع في انتظار تلك اللحظة التي سيشنف آذانه بسماع صوت كوكب الشرق، وفي مساء يوم ١٩ نوفمبر ١٩٣٢م، غص فندق الهلال بكل عاشق لهذا الصوت القوي الشجي. وتفاعلت الصحف مع تلك الزيارة، فوصف أحد الصحفيين أحداث تلك الليلة في جريدته، قائلاً: "عندما ظهرت الأنسة على المسرح بأبهى زينة وفي يدها العود، ثارت من الحاضرين زوبعة تصفيق وهتافات هائلة دامت بضع دقائق، ثم أخذت الفنانة ذائعة الصيت تلعب بالقلوب ما شاءت بفنون غنائها الممتاز".

وظلت بالعراق شهرًا، أحييت فيه ثلاثة عشر حفلة، من أجمل شهور السنة، محملاً بأروع الذكريات، التي تحوّلت مع الأيام إلى تاريخ عطر، يسطع في الذاكرة البغدادية، كما لو أن كل ليلة من لياليها كانت نجمة تتلألأ في سماء الفن. وقد أقيمت حفلاتها في فندق الهلال بمنطقة الميدان.





ونشرت إدارة فندق الهلال إعلانًا في جريدة العالم العربي في عددها الصادر بتاريخ ١٩٣٢/١٠/٢٩، جاء فيه: "قريبًا جدًّا، الحفلات الغنائية الساهرة بأوتيل الهلال، تطرب الحاضرين بصوتها الملائكي الساحر، مطربة الشرق الأنسة أم كلثوم، ملكة الغناء في الشرق، وصف لا غلو فيه ولا مبالغة، أصبحت رمزًا لسمو مكانة هذا الفن. ويكفي أن يذكر اسم أم كلثوم، فتتمثل شخصية امتزج بها الفن بمعانيه الساحرة وبدائعه الباهرة، فيتجلى بأصفي جوهرة وأعذب روضة في كل لحن من ألحانها. فمتى غنت، فصوت يملأ المسامع، وطرب يفعم الصدور، وسحر يلعب بالعقول".

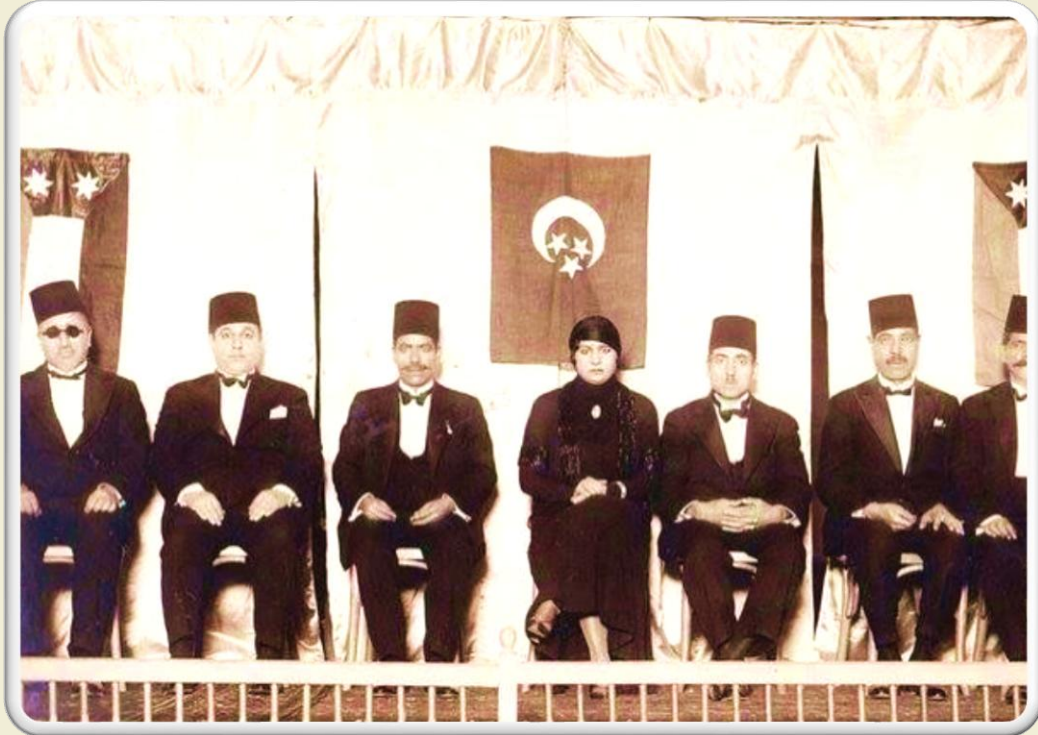


وكانت الجماهير التي تحضر دائمًا لسماع الفنانة، تعي تمامًا الجهد الكبير الذي تبذله وما تبديه من تفنن، لذلك تعبر عن حبها وصدق شعورها، مرة بالهتاف وأخرى بالتصفيق الحار. ومن اللافت أن الحضور كان على تخت من كبار الموسيقيين الذين رافقوها، لتكون أولى حفلاتها في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٢، بداية لسلسلة ليالٍ خالدة.

وتوالى الإعلانات عن بدء الحفلات، منها: إعلان يوم الثلاثاء ٨ تشرين الثاني: "الافتتاح العظيم لأول حفلة من حفلات الآنسة أم كلثوم سيكون يوم ١٧/١١/١٩٣٢، وستباع بطاقات الحفل في شباك الأوتيل بأجور متفاوتة حسب المواقع: موقع ممتاز في صحن الصالة ٥٠٠ فلس، موقع ممتاز في البلكونات ٥٠٠ فلس، موقع أول ٣٧٥ فلس، موقع ثاني ٢٥٠ فلس".

ولم يغفل الإعلان عن تفصيلٍ يعكس خصوصية المجتمع العراقي آنذاك، إذ خصصت إدارة الأوتيل مكانًا خاصًا للسيدات، منعزلًا تمامًا عن محلات الرجال، له مدخل خاص من سوق الهرج، وخدمتهن نساء، لتدل هذه اللفتة على شغف النساء العراقيات بسماع أم كلثوم، شأنهن شأن الرجال.

ثم تتابعت الأخبار عن وصول الفنانة، وأفادت إحدى الصحف بأن وصولها تأخر يومًا بسبب عدم ملائمة الطقس للطائرة، حتى جاء يوم السبت ١٩/١١/١٩٣٢ ليُعلن: "هذه الليلة.. الافتتاح العظيم لأول حفلة من حفلات الآنسة أم كلثوم".



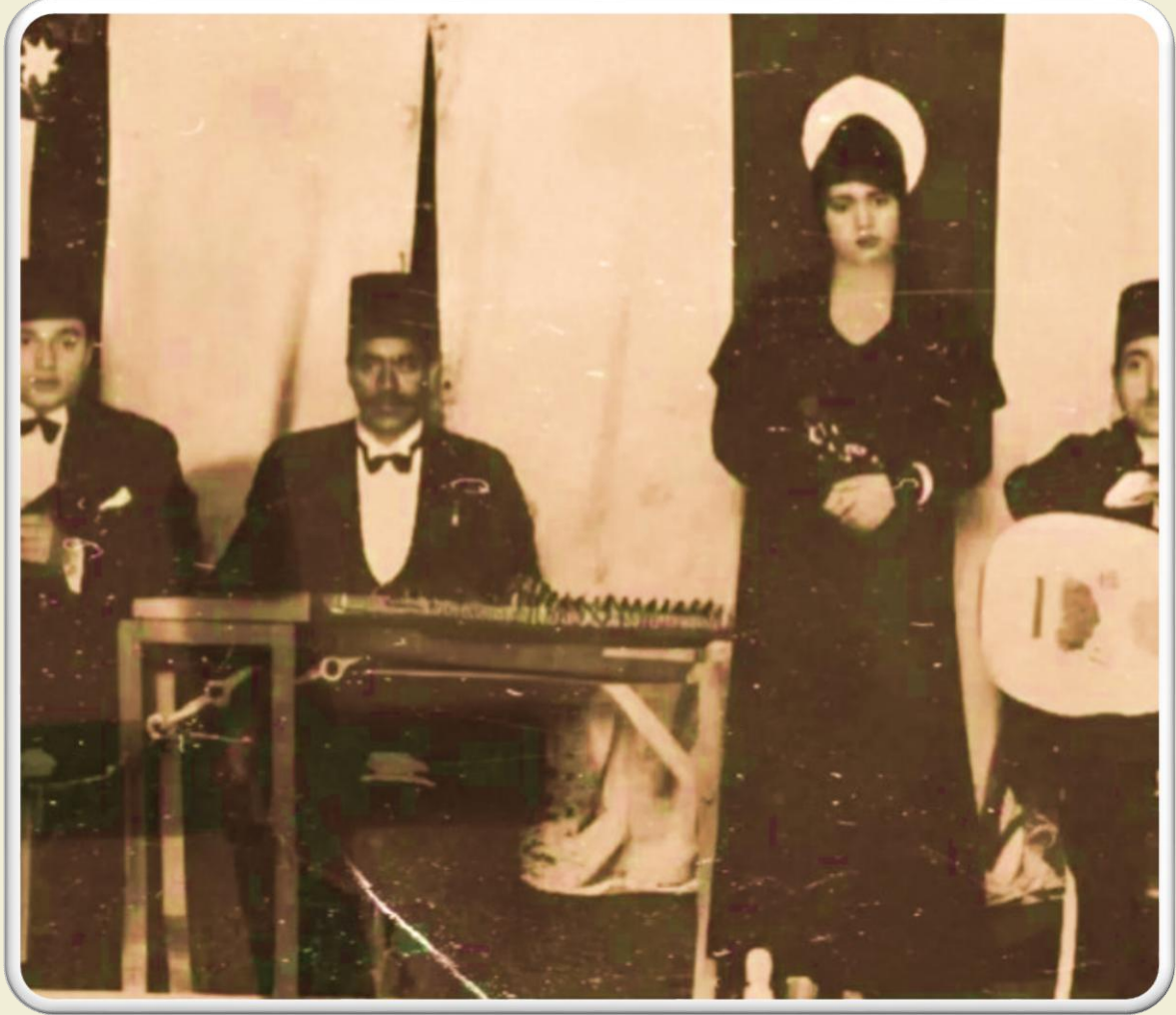
وما أن ارتفعت الستارة، حتى غصّ فندق الهلال ب جماهير المستمعين والمستمعات، تشنّف أذانها بصوت الفنانة الكبير. وعندما ظهرت على المسرح المزين، وفي يدها العود، ثارت القلوب تصفيقًا وهتافًا هائلين دام بضع دقائق، ثم أخذت تلعب على القلوب ما شاءت بفنون غنائها الممتاز، متذوقة كلماتها وأنفاسها، وقد رسم الفنان الشمسي بالضوء الخاص صورتها وهي جالسة بين جوقها، تذكّرًا لافتتاح الحفلات الغنائية التي ستقيمها أثناء إقامتها في بغداد.

وقد حضر الحفل الثالث رئيس الوزراء العراقي آنذاك، ناجي شوكت. فيما أعلنت أم كلثوم في ١٩٣٢/١١/٣٠ رسالة إلى الشعب العراقي: "قدمتُ إلى هذه البلاد وفي نفسي كل الشوق إليكم، وبناءً على الضرورة في وجودي في مصر في ١٩٣٢/١٢/١٥ سأغادر البلاد، ومع ذلك سأترك ذكرى جميلة لما لقيته منكم من عاطفة وشعور سامٍ يدل على حسن ضيافتكم وعنصركم الطيب".





وعلى مدى أيام الإقامة، أقامت أم كلثوم مأدبة طعام للأدباء والشعراء والصحافيين في ١٠ كانون الأول، وهو تعبير عن تقديرها لهم، كما أقامت حفلات مسائية ويومية، منها: حفلة نهائية خاصة بالسيدات في سنترال سينما، وصولاً إلى الحفلة الوداعية الأخيرة، والتي كانت استجابة لرغبة الجمهور العراقي، قبل أن تغادر يوم الأحد ١٨/١٢/١٩٣٢.



ومن المواقف المدهشة، أنها أعجبت بأغنية "قلبك صخر جلمود" لحنها صالح الكويتي للمطربة سليمة مراد، وغنتها في حفلاتها بمساعدة ضابط الإيقاع العراقي حسين عبد الله، لتكون هذه المرة الوحيدة التي تغني فيها لملحن غير مصري، دلالة على مرونتها الفنية وانفتاحها على التنوع الموسيقي.



وفي ختام زيارتها، وجّهت رسالة امتنان للعراقيين بعنوان: "الآنسة أم كلثوم تشكر العراقيين"، قالت فيها: "أي شكر أستطيع أن أسديه لأهل العراق الكرام الذين طوقوا يدي بقلائد المن والتكريم بكل مظاهره ومعانيه، حتى أصبحت عاجزة عن حمل تلك الأيادي، وقد تركتم في نفسي أثرًا جميلًا وذكرى طيبة ستظل معي إلى الأبد. وسأعود إلى بلادي فخورة بما لقيت من العراق وأهله".

وغادرت أم كلثوم بغداد في ١٨/١٢/١٩٣٢، تاركة وراءها إرثًا موسيقيًا وذاكرة وطنية خالدة، ظلت حية في وجدان العراقيين، ودرسًا في الفن والحياة والوفاء لموهبة عظيمة أمتعت قلوبًا وشغفت أسماعًا بحلو الطرب، ولم تخل دواوين أكابر شعراء العراق من قصائد تصف هذه الموهبة الفذة.



يقول الشاعر معروف الرصافي من قصيدة فيها:

|                              |                           |
|------------------------------|---------------------------|
| أمّ كلثوم في فنون الأغاني    | أمة وحدها بهذا الزمان     |
| هي في الشرق وحدها ربّة الفنّ | من فما أنّ للفنّ ربّ ثان  |
| ذاع من صوتها لها اليوم صيتٌ  | عمّ كلّ الأمصار والبلدان  |
| ما تغنّت إلا وقد سحرتنا      | بافتنانٍ لها وأيّ افتنانٍ |
| في الأغاني تمثّل الحبّ تمثيـ | لأ صريحاً بصوتها الفتان   |
| يتجلّى في لحنها مشهد الحبّ   | بِ أوان الوصال والهجران   |
| فتريك المحبّ عند التناي      | وتريك المحبّ عند التداني  |



[أم كلثوم مع الشاعر معروف الرصافي]

ويقول الشاعر جميل صدقي الزهاوي:

يا أم كلثوم، غني، فاهوى نغم  
غني وغني على الأوتار صادحة  
من أجل صوتٍ رخيم منك يسمعه  
غني لنا ثم غني إن ليلتنا  
الحسن تسمعه كالحسن تبصره  
ويقول العلامة محمد بهجة الأثري:

روح من الملاء الأعلى يناجينا  
ماذا أحس بنفسي غير أن صدّي  
حمامة النيل، والدنيا على قدم  
رفقا بأرواح مسحورين قد ثملوا

ويقول العلامة محمد باقر الشيبلي:

هنيئاً لك بغدا  
من الغيد الأعاريد  
لقد أحييت ليالي  
فعدراً فرحة التّف  
إذا غنيت في الحب  
وإن لجّ بك الشّو  
فما شكواك ليل  
لأنت سلوة التّف

دُ فهذي (أم كلثوم)  
بِ أتنا لا من الروم  
لك بتغريد وترنيم  
س إذا قصر تَكريمي  
بِ فغني باسم من أهوى  
ق فبئيه مع التّجوى  
ل أيصني الليل للشكوى؟  
س وما أحلى من السلوى

ويقول الشيخ جواد الشبيبي:

قُمْرِيَّةُ الدَّوْحِ يا ذَاتَ التَّرَانِيمِ  
سِيرِي مَعَ الْجَحْفَلِ الْجَرَّارِ خَافِقَةً  
وَنَاوِحِي الْأُمَّةَ الثَّكَلَى فَقَدْ رُزِئَتْ  
مَعَ النُّسُورِ عَلَى وَرْدِ الرَّدَى حُومِي  
وَسَابِقِي فَوْقَهُ سَرَبَ الْقَشَاعِيمِ  
بِلَادُهَا بِالْمَطَاعِينَ الْمَطَاعِيمِ

وكانت أمّ كلثوم قد زارت بغدادَ مرةً أخرى في النصف الثاني من عقد الأربعينات، وغنّت في قصر الرحاب أمام العائلة المالكة حين كان الوصي عبد الإله وصياً على عرش العراق لصغر سنّ الملك فيصل الثاني. ولكن لم تحظْ أمّ كلثوم بتلك الحفاوة الشعرية العراقية كما في المرة السابقة، وذلك بسبب تفرُّق الأدباء في المحافظات أو رحيل بعضهم عن الدنيا.

ولكن بقيت أمّ كلثوم في ضمير العراق والعراقيين، كما ظلّ وظلّوا في وجدانها، حتّى غنّت عقب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م:

بَغْدَادُ يا قَلْعَةَ الْأَسُودِ  
يا كَعْبَةَ الْمَجْدِ وَالْخُلُودِ



# مَدْرَسَةُ الْأَمِيرِ سَعَادَةَ السَّائِلِي الْبَغْدَادِيِّ

هـ طالب عيسى

مدير المركز الثقافي البغدادي



## بَغْدَادُ.. مَنَارَةُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ:

يُعَدُّ إِنْشَاءُ بَغْدَادَ سَنَةَ (١٤٥هـ - ٧٦٢م) حَدَثًا تَارِيخِيًّا مَهْمًا فِي تَارِيخِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ لِمَا لَعَبَتْهُ مِنْ دَوْرٍ مَهْمٍ فِي صِنَاعَةِ التَّارِيخِ الْعِلْمِيِّ لِلْبَشَرِيَّةِ، فَغَدَتْ مِلْتَقَىً لِلْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ وَالْمَعْرِفَةِ فِي الْعَالَمِ. بَدَأَتْ بَغْدَادُ عِنْدَ تَأْسِيسِهَا كَمَدِينَةٍ مَدَوَّرَةٍ عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ نَهْرِ دَجْلَةٍ الَّتِي عُرفَ بِـ (الْكِرْخ)، وَلَا سَتِيْعَابَ

طُمُوحِ الدَّوْلَةِ وَتَطَوُّرِهَا بُنِيَتْ (الرَّصَافَةُ) عَلَى جَانِبِهَا الشَّرْقِيِّ فِي مَنَاطِقَةِ الْأَعْظَمِيَّةِ، وَمِنْ يَوْمِهَا أَخَذَتْ بِالتَّوَسُّعِ، وَرَبَّمَا الْإِنْتِقَالَ تَدْرِيجِيًّا جَنُوبًا لِتَصِلَ إِلَى مَنَاطِقَةِ بَغْدَادِ الْقَدِيمَةِ الْمَوْجُودَةِ آثَارُهَا هَذَا الْيَوْمَ عَلَى ضَفَافِ دَجْلَةٍ الْمَمْتَدَّةِ طَوْلًا مِنْ بَابِ الْمَعْظَمِ إِلَى الْبَابِ الشَّرْقِيِّ.

يَقَعُ الْمَبْنَى فِي "مَحَلَّةِ حَسَنِ جَدِيدِ بَاشَا"، وَهِيَ إِحْدَى أَكْبَرِ مَحَلَّاتِ بَغْدَادِ؛

تحدّها من جهتها الشمالية محلة الميدان، والجهة الشرقية محلة الحيدر خانة، والجنوبية محلة العاقولية وباب الآغا (ساحة الرصافي حاليًا)، بينما يحدها من الجهة الغربية نهر دجلة.

### نُشُوءُ الْمَوْسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ:

تُعَدُّ الْمَسَاجِدُ أَوَّلَ الْمَوْسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي بَغْدَادِ، فَضلاً عَنِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ؛ إِذْ كَانَتْ مُحَلًّا لِتَدْرِيسِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ وَعَدَدٍ مِنَ الْعُلُومِ الْآخَرَى كَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَالْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْهَجٌ مُحددٌ لِلتَّعْلِيمِ، بَلْ كَانَتْ وَفْقَ مَا يَخْتَارُهُ رِجَالُ الدِّينِ وَأَئِمَّةُ الْمَسَاجِدِ.

وَبَعْدَ أَنْ اتَّسَعَتِ الْفَتْوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ ظَهَرَتِ (الْكُتَّابُ) أَوْ مَا يُعْرَفُ بِ(الْكُتَاتِيْبِ)، وَكَانَتْ مِيَسْرَةً لِلْجَمِيعِ، وَاخْتَصَّتْ هَذِهِ الْمَدَارِسُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ بِالصَّبِيَّانِ وَالنَّشِءِ الصَّغِيرِ، وَكَانَتْ الْمَنَاهِجُ الدِّرَاسِيَّةُ فِيهَا بَسِيطَةً

وَبَدَائِيَّةً تَقْتَصِرُ عَلَى تَعْلِيمِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْحِسَابِ وَالشَّعْرِ وَالتَّارِيخِ وَبشكْلِ مُبَسَّطٍ.

وَكَانَتِ الْمَحْطَةُ الرَّئِيسِيَّةُ فِي التَّعْلِيمِ بِنَشُوءِ الْمَدَارِسِ فِي بَغْدَادِ؛ إِذْ تُعَدُّ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ طُفْرَةً كَبِيرَةً فِي مَجَالِ التَّعْلِيمِ عَلَى مَسْتَوَى الْعَالَمِ أَجْمَعِ، فَبَعْدَ أَنْ كَانَ التَّعْلِيمُ مُحْصُورًا فِي الْمَسَاجِدِ وَالْكُتَاتِيْبِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْأَحْيَاءِ وَالْأَزْقَةِ، شَكَّلَ ظُهُورُ الْمَدَارِسِ بِشَكْلِهَا الْمُسْتَقِلِّ فَهْمًا جَدِيدًا لِلتَّعْلِيمِ، بَلْ وَنَهْضَةً عِلْمِيَّةً غَيْرَ مُسَبَّوْقَةٍ، وَجَعَلَتِ الْمَدَارِسَ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الدَّوْلَةِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْمَدَارِسُ بِمِثَابَةِ جَامِعَاتٍ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَسْتَقِلُّ الْمَوْسَّسَاتُ التَّعْلِيمِيَّةُ مَالِيًّا إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ بِسَبَبِ نِظَامِ الْأَوْقَافِ الَّذِي كَانَ يَغْطِي مَصَارِيفَ الطُّلَبَةِ وَالْأَسَاتِذَةِ وَسَائِرِ النِّفَقَاتِ، وَأَكِيدًا بِالإِضَافَةِ إِلَى دَعْمِ الدَّوْلَةِ.

عَلَى أَنَّنَا لَا يَنْبَغِي أَنْ نُغْفَلَ ظُهُورُ



المدارس التي سبقت مدارس بغداد، إلا أنها لا تعدو أن تكون مبادرات لم تستكمل شروط المدرسة على حدّ تعبير المؤرخين.

ومن المدارس المهمة التي ظهرت في بغداد: المدرسة النظامية (٤٥٩هـ - ١٠٦٥م)، والمدرسة المستنصرية (٦٣١هـ - ١٢٣٣م)، والمدرسة التنشئية (٥٠٠هـ - ١١٠٦م): وتقع المدرسة في جامع الوزير الحالي المجاور للمبنى التاريخي للمركز الثقافي البغدادي، أي: مدرسة الأمير سعادة، والمدرسة الموفقية (٥٢٢هـ - ١١٢٨م)، والمدرسة النجيبية (قبل ٥٤٥هـ - ١١٥٠م)، والمدرسة الشرايية.

يُعدّ انتشار المدارس في بغداد أهمّ الأحداث العلمية خلال الفترة الممتدة من (٤٥٠هـ) إلى (٦٥٠هـ) التي تؤرّخ لظهور المدارس في بغداد، وتُعدّ قفزةً كبيرةً في المجال العلمي على مستوى البلاد العربية والإسلامية والعالم

أجمع، بغضّ النظر عن الأسباب التي أدّت لظهورها، وهي ليست محلّاً مناسباً للذكر في مقامنا هذا.

انتشرت هذه المدارس الثلاثون في بغداد بجانبها الغربي والشرقي؛ منها عشرة مدارس امتدت على الجهة الشرقية لنهر دجلة، ومن هذه العشرة تجاوزت سبعةً هي على التوالي: النظامية، المستنصرية، التنشئية، الأمير سعادة، الموفقية، النجيبية، دار العلم أو الشرايية (القصر العباسي).

لذلك يُعدّ هذا هو التجمع الأكبر في بغداد، وهو بمثابة جامعةٍ كبيرةٍ مقسّمةٍ إلى كلياتٍ؛ فعلى امتداد كيلومتراتٍ بسيطةٍ تمتد مباني هذه المدارس بدءاً من النظامية، والتي لا تبعد عن نهر دجلة حسب ما عيّنه الخططيون إلا أمتاراً بسيطةً، إلى دار العلم؛ فشكّلت هذه المدارس النسيج العام لبغداد آنذاك.

## مَدْرَسَةُ الْأَمِيرِ سَعَادَةَ (قَبْلَ ٥٠٠هـ - ١١٠٦م)

هي الأصل التاريخي لمبنى المركز الثقافي البغدادي؛ إذ بُنيت هذه المدرسة من قِبَل الأمير سعادة الرسائي، وهو سعادة بن عبد الله الرومي (نسبةً لأصله من الروم)، المستظهري (نسبةً للخليفة المستظهر بالله)، الرسائي (نسبةً إلى نقل الرسائل)، ويُكنى أبا الحسن، ويلقَّب بعز الدين، وهو خادم الخليفة المستظهر بالله الذي حكم بغداد بين سنَي (٤٨٧-٥١٢هـ / ١٠٩٤-١١١٨م).

وُصفت شخصية سعادة في كتب التاريخ بأنه كان خادماً شهماً له منظرٌ حسنٌ ومخبرٌ مستحسنٌ، يفصح بأكثر اللغات؛ أرسله الخليفة المستظهر بالله إلى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه في المحرم سنة (٤٩٥هـ)، وأخرج معه الشيخين الحسن بن محمد الاسترابادي وأبا سعد ابن الحلواني وهما من الأعيان، فذهب وأدَّى الرسالة

ورجع من السلطان بالأموال العظيمة، وهذا دليلٌ على نجاح مهمته، وصار يتولى المصالح العامة مع الشحنة أبي سعيد سيف الدين آق سنقر البرسقي -الحاكم العسكري آنذاك- المُتوفى سنة (٥٢٠هـ).

ذكر المؤرخون أَنَّ الأمير سعادة عمَّر لنفسه الدار الجميلة على دجلة، وهي التي أوقفها على الصوفية وعُرفت بـ(رباط سعادة)، وجعل أمرها إلى القاضي وجيه الدين عمر بن محمد السهروردي البكري، وعلى عقبه ونسله.

تم اختيار الأمير سعادة كحاملٍ للرسائل، والظاهر من الرواية أنه كُفِّ بمهمةٍ تشابه في وقتنا الحاضر مهمة "المبعوث الخاص" إضافةً إلى نقله الرسائل، وهذا يدل على كفاءته وأمانته، وعلى ثقة الخليفة بشخصه بسبب مواصفاته الشخصية التي ذكرناها سابقاً.

إنَّ من أهم الصفات الواجب

توفرها في حامل الرسائل وممثلي الدولة آنذاك الأمانة والموثوقية؛ إذ كان يجب أن يكون حامل البريد والرسائل شخصاً جديراً بالثقة، ولديه السرعة والقدرة على التحمل، فقد كان السفر في ذلك الوقت شاقاً، ويتطلب قطع المسافات الطويلة وفي ظروفٍ مختلفة، كما يجب أن يكون على درايةٍ بالطرق والمدن لضمان تسليم الرسائل في الوقت المحدد، ولديه القدرة على الحفاظ على السرية لا سيما الرسائل الرسمية أو الحساسة والمهمة، وعنده القدرة على التعامل مع المواقف الصعبة كقَطَاع الطرق والظروف الجوية القاسية؛ لذا كان يجب أن يكون قادراً على التعامل مع هذه المواقف بحكمة، وقد يتطلب الأمر إيصال الرسائل شفهيّاً، لذا كان يجب أن يكون لديه ذاكرةٌ جيدةٌ ولسانٌ فصيحٌ وحجةٌ واضحةٌ. علماً أنَّ الرسائلي كان على ارتباطٍ

بديوان البريد وديوان الرسائل في البلاط العباسي آنذاك وفقاً للترتيب الإداري؛ لذلك كان لحامل الرسائل مكانةٌ خاصةٌ ومميزةٌ ومهمةٌ.

توفي الأمير سعادة الراستلي سنة (٥٠٠هـ - ١١٠٦م)، ودُفن في جوار الإمام أبي حنيفة بالأعظمية، واشتهر بكونه حنفيّ المذهب صوفيّ المشرب.

#### مُدَرِّسُ الْمَدْرَسَةِ:

أولاً: محمد بن علي بن غازي بن علي بن محمد، أبو عبد الله الحموي، قاضي واسط والمنعوت بالأصيل، وكان فاضلاً؛ وُلد بحماة سنة (٥٩٩هـ) وقدم مصر ومدح ملكها (الكامل بن العادل)، وسافر معه إلى الإسكندرية، ثم قدم بغداد وسكنها ودرّس بها في مدرسة الأمير سعادة، ثم رُتّب لقضاء واسط؛ ذكره ابن الشعار المتوفى سنة (٦٥٤هـ) بأنه كان من جملة محفوظاته بأسانيده ومتونه (المفصل للزمخشري)؛ توفي في

العاشر من ذي القعدة سنة (٦٣٨هـ).

ثانيًا: مدرّس النحو فخر الدين أبو جعفر أحمد بن عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن جعفر الآمدي الصوفي؛ عُين مدرّسًا للنحو في مدرسة سعادة، ثم معيدًا بالمدرسة المستنصرية، وله أشعارٌ حسنةٌ مدح بها الخليفة المُستعصم بالله، وكان يحضر مجلس الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، وقد كُتب شعره في شعراء العصر، واستُشهد عند احتلال المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ).

ثالثًا: القاضي بدر الدين علي بن محمد بن ملاق الرقي؛ فُوض إليه أمر القضاء بالجانب الغربي في سنة (٦٨٢هـ) إضافةً إلى ما يتولاه من الحسبة (وهي الجهات الرقابية الحكومية في وقتنا الحاضر) بجاني بغداد، والتدريس بمدرسة سعادة. وفي سنة (٦٨٣هـ) نُزعت الحسبة من يده وقلّدت لجمال الدين عبد الله بن العاقولي، وأقرّ بدر الدين

على القضاء بالجانب الغربي.

رابعًا: أصيل الدين محمد بن علي الحموي؛ درّس الفقه بمدرسة سعادة قبل سنة (٦٣٩هـ).

خامسًا: الفقيه أحمد بن محمد بن علي المعروف بابن الكجلو، من أهل المدائن في أطراف بغداد، وكان يتولى الخطابة بها مدةً، ثم قدم إلى بغداد وسكنها، وكان يسكن بمدرسة سعادة على شاطئ دجلة؛ عُرف أديبًا فاضلاً له شعرٌ حسنٌ. توفي يوم الخميس السابع عشر من ذي الحجة سنة (٥٧٨هـ).

### كَمْ بَقِيَتْ مَدْرَسَةُ الْأَمِيرِ سَعَادَةَ؟

دامت هذه المدرسة فترةً طويلةً تقترب من القرنين؛ إذ إنها تأسست في أواخر القرن الخامس من الهجرة، وبقيت عامرةً حتى ما بعد الاحتلال المغولي لبغداد قرابة النصف قرن، وورد اسمها في إجازة شرف المعالي ابن الصقيل العالم اللغوي (المتوفى سنة

٧٠١هـ)، وآخر خبر تدريس بالمدرسة كان في سنة (٦٨٢هـ).

وورد في ترجمة أبي محمد الفضل بن محمد الزبادي السرخسي عن معمر بن عبد الواحد: أنبأنا أبو محمد الفضل بن محمد بن إبراهيم الزيادي من لفظه ببغداد في مدرسة سعادة، وأسنده إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مَرَّةً فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَهَا مَرَّتَيْنِ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَيِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ قَرَأَهَا ثَلَاثًا فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ".

### التَّيْظِيمُ الدَّاخِلِيُّ وَالْحَيَاةُ الدِّرَاسِيَّةُ:

المستنتج مما ذكر سابقاً أنَّ الأمير سعادة أنشأ المدرسة أولاً بجانب الدار الجميلة التي سكنها، ثم جعل الدار رباطاً للصوفية، وكانت تُدرّس فيها -شأنها شأن مدارس بغداد- علوم اللغة العربية والنحو والقرآن والفقه

وأصول الدين والحساب.

كان يُشترط في المدرّس آنذاك أن يكون طاهر القلب واللسان، ويعامل الناس بمكارم الأخلاق، ولا ينشغل بأمور الدنيا، ويستمر بزيادة علمه بالدرس والمطالعة، ملتزماً بأوقات الدرس.

فيما تُشترط في الطالب بعد قبوله، وتوفر شروط القبول فيه ومقابلته، أن تكون نيته طلب العلم، ويظهر قلبه، ويكون قانعاً بما بين يديه، ويحترم أستاذه فلا يمشي أمامه، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ بالكلام إلا بإذنه، وأن يستغل وقته في القراءة والكتابة.

فإذا علمنا أنَّ المدرسة المستنصرية المجاورة تقبل الطلاب للأعمار من الثامنة عشرة حتى الثانية والعشرين، فإنَّ مدرسة الأمير سعادة قد تكون أكثر سماحاً بالقبول بالفئات العمرية الأوسع لجذب الطلبة.

وتُقسم المراحل الدراسية فيها



شأنها شأن باقي المدارس إلى ثلاث مراحل: الأولى للطلبة المبتدئين، والثانية للطلبة المتوسطين، والثالثة للمنتهين أو المرحلة العليا.

كانت تبدأ الدروس في ذلك الوقت بقراءة آية من القرآن الكريم، والاستعاذة من الشيطان والبسملة والصلاة على النبي، ثم يبدأ الدرس سواء كان بالمحاضرة أو المناقشة أو الإملاء والتلقين، وعادةً ما ينتهي الدرس بعبارـة "وهذا آخره" أو "وما بعده يأتي إن شاء الله تعالى".

كان في المدرسة "المعيد"، وهو معين المدرس على الطلبة لا سيما المتخلفين عن الدرس، ويعاون الطلبة على الحفظ والمراجعة، ولغاية الآن يُسمى المعيد في جامعاتنا العراقية، على أن يكون هذا المعيد من الصالحين والفضلاء، صبوراً على أخلاق الطلبة واختلاف مشاربهم. يتنافس الطلبة على السكن

في المدرسة لما توفّره لهم من علمٍ ميسّرٍ وخلوةٍ وانقطاعٍ إلى الدرس، وربما سكنَ في الغرفة أكثر من طالبٍ رغبةً في البقاء، على أن يلتزم بقوانينها ونظامها الداخلي وأوامر مدير المدرسة والمدرسين.

### التَّخْطِيطُ الْمِعْمَارِيُّ وَالْمَرَافِقُ:

أما تخطيط المدرسة فهي على الأرجح الأقرب إلى المستطيل، وهذا هو السائد في بناء المدارس آنذاك، ولعل الشكل الحالي للمبنى هو ما ورثته المدرسة من بداياتها؛ إذ يحيط الفناء الواسع المكشوف بالأواوين (قاعات المحاضرات) وغرف الدرس والمُدَرِّسين والطلاب والإدارة، ويلحق به مسجدٌ خاصٌّ للصلاة والعبادة كما هو موجودُ الآن في الجهة القبليـة من البناء.

كما تحتوي المدرسة على خزانة للعلم (أي المكتبة)، ولها "أمين" يرتب أمرها، ويجري فيها أمور النسخ

والمطالعة والكتابة، ويتم اختيارها بما يتناسب مع التهوية والإضاءة، ويساعده "المُناول" وهو الذي يسهل وصول الكتب إلى الطلاب.

وأکیدًا تحتوي المدرسة على باقي الخدمات كالحمامات، وربما صيدلية صغيرة للتداوي، ومكان راحة للمريض بالإضافة إلى الإسطبلات وغيرها.

### الإدارة والهيكَل التنظيمي:

أمّا النظام الداخلي للمدرسة فيتكوّن من "الناظر" أو المدير، وعادةً يكون من وجوه القوم وأشرفهم، وهو أعلى صاحب رتبة إدارية في المدرسة، يساعده "المشرف" وهو بمثابة معاون، وكان يرجع في كل أموره للمدير، ويتولى مهامه عند غيابه، و"الكاتب" ويشابه في وقتنا الحالي عمل السكرتير، وله من الوظائف والواجبات ما يقرره المدير والمُشرف.

تتكون هيئة التدريس من عددٍ

من العلماء في مجالات التخصص، والمعيدون الذين يُنتخبون بالتنسيق بين الطلبة أنفسهم، ويصادق عليه المدرس. تحتوي الهيئة على "المعمارية" الذين يشرفون على المبنى ويصونونه، و"الفرّاشون" الذين يُعنون بالنظافة، و"القيّم" الذي يقوم بحراسة المدرسة والحفاظ عليها، بالإضافة إلى "البوابون" والخزّنة والخدم.

ومن أجل استمرار المدرسة فقد تم تحديد عددٍ من الأوقاف، والتي تخصص وارداتها للصرف على المدرسة وسد احتياجاتها، ومن الأوقاف التي كانت سائدة آنذاك الأراضى والأملاك والمَحلات في الأسواق؛ لذلك امتد عمر المَدْرسة طويلاً كما سبق بأكثر من قرنين من الزمن، على أنّ أخبارها انقطعت شأنها شأن الكثير من الأمور في بغداد في تلك العصور، وتُصرف هذه الأموال على العاملين في

المدرسة والتدريسيين والطلبة وأبنيتها وتنظيفها وغيرها من موارد إحياء المدرسة.

وكان في المدرسة منارةً على ما ذكره المؤرخ ابن الجوزي، وأنها استُخدمت في رمي أحد المجرمين من أعلاها، وهذا يدل على علوها وارتفاعها، وثُبني المنارة على الشواطئ لإرشاد السفن وتنبيهها، فلعلها استُخدمت كتوجيه للسفن التي ترسو على شاطئ دجلة إضافةً لاستخدامها كمئذنة تُستخدم للدعوة للصلاة والتنبيه، ووجود هذه المنارة حالة نادرة في المدارس البغدادية؛ إذ خلت مدارس بغداد من المآذن، ولعل هذا تأثرًا من المعماري أو المؤسس الأمير سعادة بوجود أمثالها في مدارس نيسابور ومرو وغيرها، على أنَّ التعبير عنها بالمنارة بدل المئذنة أيضًا مثيرٌ للانتباه، مما يبيِّن أنَّ لها استخداماتٍ غير الأذان.

### رِبَاطُ سَعَادَةٍ وَالْفِكْرِ الصُّوفِيِّ:

إلى جانب المدرسة كان رباط سعادة، والرباط: من المراقبة، أي ملازمة ثغر العدو، وهي مراكز دفاع المسلمين المتقدمة عند حدود الدولة الإسلامية، ونظرًا لانقطاع غزوات المسلمين في تلك الفترات فقد انتقلت هذه الربط للصوفية من أجل العبادة والزهد؛ إذ تحول استخدامها العسكري إلى مدني، وتطورت لاحقًا هذه الربط بمرور الزمن لتكون مراكز فكرية وثقافية واجتماعية، وهكذا تحولت إلى مراكز تعليم بعد أن كانت مجرد أماكن للزهد والعبادة.

أصبحت الرُّبُط (جمع رِبَاط) لاحقًا تجمّع بين العلم والعبادة، وبدأت هذه الرُّبُط بالانتقال إلى المُدن ومراكزها تدريجيًا، ومن هذه المدن بغداد، التي لها مكانةٌ مميزةٌ في التصوف الإسلامي. سُمي المكان بالرباط نسبةً

للاية القرآنية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ  
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]،  
وعُرفت لاحقاً هذه الربط في بلاد الشام  
ومصر باسم "الخانقاه" في العهد العثماني.  
تُعدُّ بغداد محلاً لنشوء الفكر  
الصوفي وتطوّره؛ فمن أعلامه في بغداد:  
الحلاج والجنيد والشبلي والمحاسبي  
والخراز، وكان العصر الذهبي للفكر  
الصوفي هو هذا العهد المؤرّخ له،  
فظهرت العديد من الرُّبُط في بغداد  
منها: رباط الزوزني في غرب بغداد،  
والأخلاطي في محلة الجعيفر حالياً،  
ورباط أرجوان في درب زاخا أي شارع  
المتنبي حالياً، وغيرها العديد حتى  
بلغت نحواً من الستين.

كان لهذه الربط الأثر الجميل في  
تنمية الثقافة ونشرها في العالم  
الإسلامي، وعُدَّت مواقع للتأليف  
والتصنيف والإقراء والتثقيف؛ فكان

من عادة واقف الرباط أن يجعل فيه  
وقفاً من الكتب للمطالعة والاستنساخ  
والمراجعة والاستشهاد، وكان لها دورٌ لا  
يقل أهمية عن المدارس، قُدِّم من  
خلالها عدد من الخدمات  
الاجتماعية الخيرية.

فكان رباط سعادة يقوم بهذه  
الأمر المذكورة أعلاه شأنه شأن  
الأربطة في بغداد والعالم الإسلامي؛  
فكان للرباط "شيخ" يتولى إدارته  
وتنظيمه وتوزيع المهام في داخله،  
وتربية المريدين، وتحديد أحوالهم  
وخلواتهم، وإعطاء الدروس وحفظ  
القرآن الكريم، وكان داراً متخصصةً في  
الحديث النبوي الشريف على ما ذكره  
المؤرخ ابن الديبشي المتوفى سنة (٦٣٧هـ)  
في ذيل تاريخ مدينة السلام.

ذكرت المصادر التاريخية أنّ من  
الكتب التي أُلِّفت في رباط سعادة  
(التاريخ المجاهدي)، وهو كتابُ ألفه

وجيه الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عمويه السهروردي، وهو عم الشيخ أبي النجيب السهروردي الزاهد المشهور والفقيه المعروف صاحب المدرسة النجيبية التي مرَّ ذكرها سابقًا، وكان شيخ رباط سعادة، وهو أول شيخ للرباط أوقفه له الأمير سعادة ولعقبه ونسله؛ فصنَّف تاريخًا على السنين ذكر فيه الحوادث منذ قصة الخلق الواردة في القرآن الكريم إلى سنة (٥٢٤هـ)، وأهداه إلى مجاهد الدين بهروز والي بغداد سنة (٥٢١هـ) وهو النائب عن السلطان السلجوقي ببغداد، وسمَّى كتابه: "التاريخ المُجاهدي".

وُلد السهروردي سنة (٤٥٥هـ)، وقَدِمَ بغداد وسكنها، ودرس عند الفقيه والأديب أبي القاسم الديبوسي المتوفى سنة (٤٧٩هـ)، وعند العالم والمتصوف الشهير أبي حامد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ).

توفي السهروردي في ليلة الأربعاء الثامن من ربيع الأول سنة (٥٣٢هـ)، وصُلي عليه برباطه على دجلة رباط سعادة، ثم دُفن قرب رويم الزاهد بالجانب الغربي من بغداد في مقبرة معروف الكرخي الحالية والمعروفة.

ويدل تأليف كتاب (المجاهدي) على سعة مكتبة الرباط، ووجود الحركة العلمية فيه واستمرارها؛ هذا إذا ما علمنا تأثر الرباط بمحيطه وتأثير الرباط على محيطه وتوفر أجواء التأليف والكتابة فيها.

### السَّرُّ فِي اخْتِيَارِ الْمَوْقِعِ النَّهْرِيِّ:

تم اختيار مكان مدرسة الأمير سعادة بعناية؛ فقد بُنيت المدرسة على نهر دجلة وكذلك باقي المدارس لعدة أسبابٍ تتعلق بالاحتياجات الأساسية والمزايا التي توفرها المواقع النهرية، منها: توفير المياه؛ إذ كانت الأنهار مصدرًا مهمًا للشرب والنظافة، لا سيما

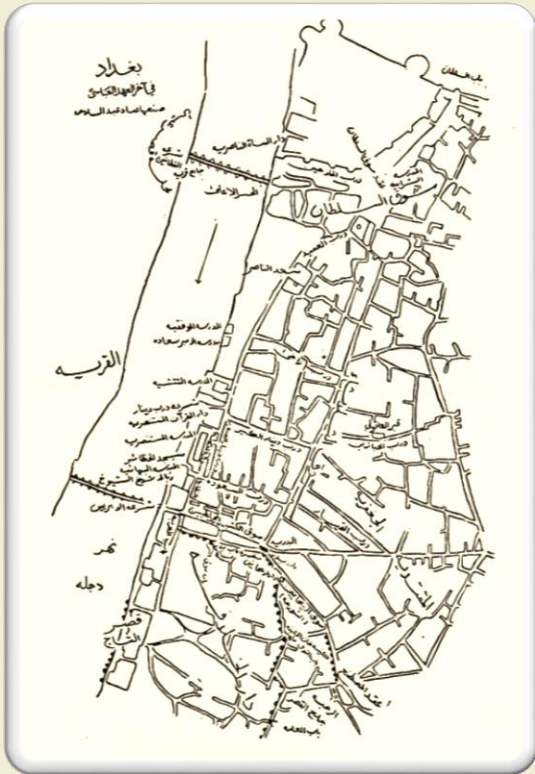


أنَّ الطهارة في الإسلام لها أهمية كبيرة مرتبطة بأداء العبادات، وكذلك أهمية المياه في سائر الاحتياجات اليومية للطلاب والمعلمين. كما توفر المنطقة النهرية لدجلة أجواءً أكثر اعتدالاً ورطوبةً بسبب مناخها الحار والجاف، مما يجعلها مكاناً مريحاً للدراسة والمعيشة. بالإضافة إلى سهولة الوصول والمواصلات؛ فكانت الأنهار طرق مواصلاتٍ مهمةً في تلك العصور، مما يسهل الوصول إلى المدارس ونقل الطلاب والمعلمين والموارد ونقل الكتب والمواد التعليمية.

وكنتيجةً طبيعيةً لوجود المدارس على ضفاف نهر دجلة والتطور العلمي والفكري الحاصل في تلك الفترة، ظهرت الحاجة إلى أماكن بيع الكتب والورق وأدوات الكتابة؛ فنشأ سوق الوراقين، ولا فرق لدينا من أنه جزء من سوق التشية (سوق السراي) أو في

درب زاخا (شارع المتنبي)، فقد كان كلاهما مجاوراً لهذه المدارس، وملاصقاً لمدرسة الأمير سعادة.

بدأت هذه الدكاكين أو المكتبات بالانتشار لتقوم بأعمال النسخ وبيع الورق والأقلام والحبر وتجليد الكتب وبيع الكتب، وتطور حتى تخصص الوراقين؛ فمنهم من ينسخ العلوم الشرعية كالفقه والأصول واللغة، ومنهم في التاريخ والشعر والأدب وغير ذلك.



المدرسة المركز الثقافي البغدادي الذي  
يُعدُّ امتدادًا تاريخيًا لمدارس بغداد لِمَا  
يضمُّه من مكتبات أعلام العراق،  
وندواته العلمية وفعالياته الثقافية.

وهكذا تُمثل مدرسة الأمير سعادة  
ورباطه دليلًا على مكانة وعظمة بغداد  
العلمية والحضارية والثقافية والروحية  
في العراق والمنطقة، ويشغل الآن هذه



# ثَانَوِيَّةُ كَلِيَّةِ بَغْدَادِ تَارِيخُهَا وَمَكَانَتُهَا وَخِصَائُصُهَا وَأَعْلَامُهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
(خَرِيْجُ ثَانَوِيَّةِ كَلِيَّةِ بَغْدَادِ)

على طَلَبٍ من البابا بيوس الحادي عشر  
لإنشاء مدرسة كاثوليكية في بغداد  
تخدم الشباب العراقيين.

كانت البداية بسيطة، مع عدد  
قليل من الطلاب والمعلمين، ثم نما  
الطلب تدريجياً حتى وصل أعداد  
الطلاب إلى أكثر من ١١٠٠ طالب في  
مراحل لاحقة، وأصبح التدريس  
يجمع بين اللغتين العربية  
والإنجليزية، مع تركيز كبير على المواد  
العلمية واللغوية.

في نهاية الستينات (١٩٦٩م)، تمّ

تُعَدُّ ثَانَوِيَّةُ كَلِيَّةِ بَغْدَادِ (المعروفة  
أيضاً باسم Baghdad College) من  
أعرق وأشهر الثانويات النموذجية في  
بغداد، وقد لعبت دوراً مهماً في التعليم  
الثانوي في العراق منذ تأسيسها قبل نحو  
قرن. تُعرف ببيئة تعليمية صارمة ومنهج  
متقدّم نسبياً، واعتُبرت سنوات طويلة  
رمزاً للتعليم المتميّز في البلاد.

## التاريخ والأصل:

تأسّست (ثانوية كلية بغداد) سنة  
(١٩٣٢م) بِهَمَّةِ فَرِيْقٍ من الِيسوعِيِّين  
الأمريكيّين (من ولاية بوسطن) بناءً

### الموقع الخاص بالثانوية:

تقع ثانوية كلية بغداد في منطقة الأعظمية على ضفاف نهر دجلة في بغداد، وتحديداً في شارع الأطل، على الضفة الشرقية من نهر دجلة.

ويقع الحرم على أرض واسعة كانت سابقاً أرض قصر رشيد باشا الزهاوي قبل أن يتحول إلى موقع للمدرسة، وتم اختيار هذا الموقع لأسباب بيئية وتعليمية، إذ يوفر جوّاً مناسباً للدراسة والأنشطة.

### البنيات الرئيسة داخل الحرم:

#### المباني التعليمية:

منذ إنشائها، صُممت الكلية لتضم عدة مبانٍ تعليمية واسعة تتكون عادة من طابقين لكل مبنى، وتضم هذه المباني فصول الدراسة بالإضافة إلى:

- مكاتب الإدارة والتدريس.
- مختبرات متخصصة للفيزياء والكيمياء والأحياء.

تأميم المدرسة من قبل الدولة العراقية وطرّد المعلمين اليسوعيين الأجانب، وتحوّلت إلى مؤسسة تعليمية حكومية.

### المنهج والمكانة التعليمية:

منذ تأسيسها، اتّبعت المدرسة نظاماً تعليمياً متوازناً يجمع بين الصعوبات الأكاديمية العالية والتربية القيمية، ما جعلها محطّ أنظار العائلات التي تسعى إلى تعليم قوي لأبنائها.

كانت الموادّ العلميّة تُدرّس بالإنجليزية وأحياناً بالعربية، ما منح الطلبة ميزة واضحة في المستويات العليا والدراسة خارج البلاد لاحقاً.

طوال تاريخها، تُخرّج ثانوية كلية بغداد العديد من الشخصيات البارزة في العراق وخارجه، من سياسيين وأطباء ومهندسين وأكاديميين، مما يعكس تأثير المدرسة في المجتمع العراقي عبر عقود.

- قاعة كبيرة للمحاضرات والاجتماعات.
- مكتبة مدرسية تضم العديد من الكتب والمراجع القيّمة.

جميع هذه المباني كانت تتبع تصميمًا معماريًا متناسقًا مع تأثيرات من العمارة العراقية مع الحفاظ على الطابع الأميركي Jesuit، وقد احتفظت معظمها بشكله الأصلي حتى الآن دون تغييرات كبيرة في الواجهة الخارجية.

### مصلى القلب المقدّس (الكنيسة):

في العقود التالية على التأسيس، تم تشييد مصلى القلب المقدّس داخل الحرم، وهو مبنى كبير مخصّص للصلوات والأنشطة الدينية. بدأت أعمال البناء بعد تأسيس المدرسة بجانب المباني التعليمية، وتم الانتهاء منه في عام ١٩٥٣م.

المصلى لم يكن مقتصرًا على أداء الصلوات، بل احتوى أيضًا على مكتبة كبيرة تُعد من أهم المكتبات في الحرم،

إذ جمع عددًا من الكتب القيمة والمراجع التعليمية التي استخدمها الطلاب والمعلمون.

### بنايات الخدمة والسكن:

كما تضم الثانوية:

- سكن الدير الخاص بالآباء اليسوعيين، الذي كان استخدامه في البداية سكنًا للطلبة ثم تحول لاحقًا إلى سكن دائم للآباء المشرفين على إدارة الكلية.
- مراجع ومكتبات مدرسية تخدم الطلبة والمدرّسين على مدار العام.

### الحدايق والمساحات الخارجية:

تحيط بالمباني حدايق ومساحات خضراء واسعة كانت من سمات الحرم منذ بداياته. ساهمت هذه المساحات في توفير بيئة تعليمية مريحة ومنعشة للطلاب. ومع ذلك، يشير بعض التقارير إلى أن الحدايق فقدت رونقها بسبب النقص في خدمات الصيانة خلال السنوات الأخيرة.



## الخصائص المعمارية العامة:

- التصميم العام كان مستوحى من العمارة العراقية مع لمسات غربية وضعها الآباء اليسوعيون الذين جلبوا خرائط وتصاميم من الولايات المتحدة المتوافقة مع مناخ العراق واحتياجات المدرسة.
- المعايير التعليمية والبنائية كانت من أعلى المستويات في العراق حينها، حيث زوّدت المباني بمختبرات واسعة، ومساحات مفتوحة للاستخدامات العلمية والثقافية.
- كل مبنى يؤدي وظيفة واضحة: فصول، مختبرات، إدارة، وأماكن للأنشطة الدينية والاجتماعية داخل الحرم.

## أهمية بنية الكلية في التعليم:

الاهتمام بالبناء والتخطيط كان جزءاً أساسياً من فلسفة التعليم في كلية بغداد؛ إذ أن جودة البيئة التعليمية، بدءاً من مساحة الفصول، مروراً باختيار المختبرات، وصولاً إلى أماكن

الاستراحة، كلها كانت تهدف إلى تهيئة الطالب للنجاح الأكاديمي والعلمي بطريقة شبيهة بأفضل المدارس العالمية في ذلك الوقت.

## أشهر مُدرّسي ثانوية كلية بغداد:

كان الآباء اليسوعيون (المدرسون الأجانب المؤسسون) يشكّلون العمود الفقري للتعليم في كلية بغداد منذ ١٩٣٢م، حتى التأميم عام ١٩٦٩م، وهم:

١. الأب توماس كينغ ( Thomas King, S.J. )، يُعد من أشهر وأهم أساتذة اللغة الإنجليزية والفلسفة. اشتهر بالصرامة الأكاديمية وتنمية التفكير النقدي، وقد ترك أثراً عميقاً في أسلوب التدريس والمنهج.

٢. الأب جون دوناهو ( John Donohue, S.J. )، يُعد من أبرز مدرّسي الرياضيات والعلوم. عُرف بالدقة العالية والانضباط، وقد ساهم في تطوير المختبرات العلمية.

٣. الأب ويليام سوليفان ( William Sullivan, S.J)، كان مدرسًا للغة الإنجليزية والتاريخ. اهتم ببناء شخصية الطالب وليس التحصيل فحسب. وكان له دور إداري وتعليمي بارز.

٤. الأب جوزيف رايان ( Joseph Ryan, S.J)، وهو من أوائل المدرسين

في المدرسة. ساهم في وضع النظام التربوي والامتحاني.

٥. الأب بول هانلون ( Paul Hanlon, S.J)، كان معروفًا بأسلوبه التربوي الإنساني، وكان قريبًا من الطلبة، وله تأثير أخلاقي وتربوي كبير عليهم.



# ذِكْرِيَاتٌ فِي جَامِعَةِ بَغْدَادَ

د. أ.د. أنمار نزار الحديثي  
أكاديمي ومؤرخ عراقي

لا يخفى على القاصي والداني بأن جامعة بغداد قد أخذت اسمها من اسم العاصمة الأقدم في العالم "بغداد مدينة السلام". ولهذه الجامعة العريقة مكانة في القلب، فبالرغم من انضمامي لأحد كليّاتها (كلية الآداب، قسم التاريخ) إلا أنها ليست داخل الحرم الجامعي. وللمفارقة، عندما دخلت الكلية في بداية دراستي البكالوريوس، كان لقاء العميد الدكتور نوري القيسي - رحمه الله - معنا نحن الطلبة الجدد في باحة مركز الكلية أمام قسم الإنكليزي،

وقد بشرنا بانتقالنا القريب إلى موقع الجامعة في الجادرية. وعندما ذكرت لوالدي الدكتور رجاء الخطّاب - أستاذة العراق الحديث في قسم التاريخ بكلية الآداب وهو التخصّص الذي اخترته أنا أيضًا لاستكمال دراستي - ذكرت لها حديث العميد معنا وقرب انتقال كليتنا إلى موقع الجامعة الرئيسي، ضحكت وقالت: "منذ أن كنت طالبةً فيها ذكروا لنا قرب انتقالنا من موقعنا في باب المعظم إلى موقع الجامعة في الجادرية، ثم تخرّجت وأكملت

الماجستير والدكتوراه وما زلنا في موقعنا". وضحكنا، لا سيّما أنني أنهيتُ البكالوريوس ثم الماجستير والدكتوراه وتعيّنتُ فيها، ووالدي ما زالت في القسم في ذلك الوقت ولم تنتقل الكلية، بل وما زالت لم تنتقل حتّى الآن!

كانت ذكرياتي عندما كنتُ صغيراً وأزورُ كلية الآداب مع والدي الدكتوراه -رحمها الله- محفورة في الذاكرة؛ ففي نهاية سبعينات القرن الماضي كانت أروقة الكلية بسيطةً وأبنية أقسامها مختصرةً. وأذكرُ أوّل دخولنا الكلية، يوجد على يسارها ممرٌّ يؤدّي إلى (عربانة) للسندويجات والشاي، فيها شخصٌ لا أذكرُ اسمه لكنّه كان من صروح الكلية. أمّا يمينُ المدخل فيؤدّي إلى قسم التاريخ، وكان فيه كبارُ الأساتذة وركائزُ في القسم، كانوا اللبنة الأولى لتأسيس القسم.

وما زلتُ أتذكّرُ عمّي وأستاذي

الدكتور سامي سعيد الأحمّد يمازحني ويقول: "كلّكاش دعمته الطيارة ومات"، ليرى ردّة فعلي ويضحكُ ضحكةً جميلةً عندما يسمعي أقول لوالدي بأنّ العمّ سامي لا يعرفُ أنّه في وقتٍ كلّكاش لم يكن هناك طائراتٌ، ويفرحُ لفراستي، وما زال يمازحني بتعليقاته الجميلة.

وكان في الكلية كلّ من الدكتور صادق السوداني والدكتور صالح العابد والدكتور هاشم التكريتي والدكتور نافع العبّود، وكنتُ أرى العالم الكبير والمؤرخ الشهير الدكتور صالح أحمد العلي جالساً معهم أحياناً، وهو الذي تتلمذتُ على يده أثناء إشرافه على رسالة الماجستير وأطروحة الدكتوراه، وكانت إشرافه عليّ سابقةً من السوابق في القسم، لأنّه كان قد أشرف من قبلُ على والدي في الدراسات العليا، وهو ما لم يحصل سابقاً في قسم التاريخ في كلية الآداب.

ومما آسف له أنني لم ألتقِ الدكتور  
عبد العزيز الدُّوري، الذي يُعدُّ مؤسسَ  
كلية الآداب، وهو أوَّل عميد لها، ومن  
أهمِّ علمائها في التاريخ هو والدكتور  
صالح أحمد العلي.

كبرتُ وكبرتُ معي الذكرياتُ،  
وضمنَ ظروفِ آليَةِ المعدلاتِ لدخولِ  
الكلياتِ تركتُ العلميَّ وتوجَّهْتُ إلى  
الدراسةِ الأدبية، وطبعاً أصبحَ المستقبلُ  
واضحاً أمامي في اختيارِ الجامعةِ والكليةِ  
التي سألتحقُ فيها والقسمِ الذي  
سأدرس فيه.

فما زالت ذكرياتي عن هذه الأيام  
وكأنَّها بالأمسِ القريبِ، لكن عندما  
دخلتها بعد انقطاعٍ طويلٍ ولم أعد  
أذهبُ مع والدتي، لأشهدَ التطوراتِ  
الحاصلةَ فيها والتوسعةَ الكبيرةَ  
لاستقبالِ الزيادةِ الطبيعيةِ للطلابِ بعد  
كلِّ هذه السنين، فكانت قد تغيَّرت  
كثيراً؛ فمكانُ العربية أصبحَ أروقةً كثيرةً

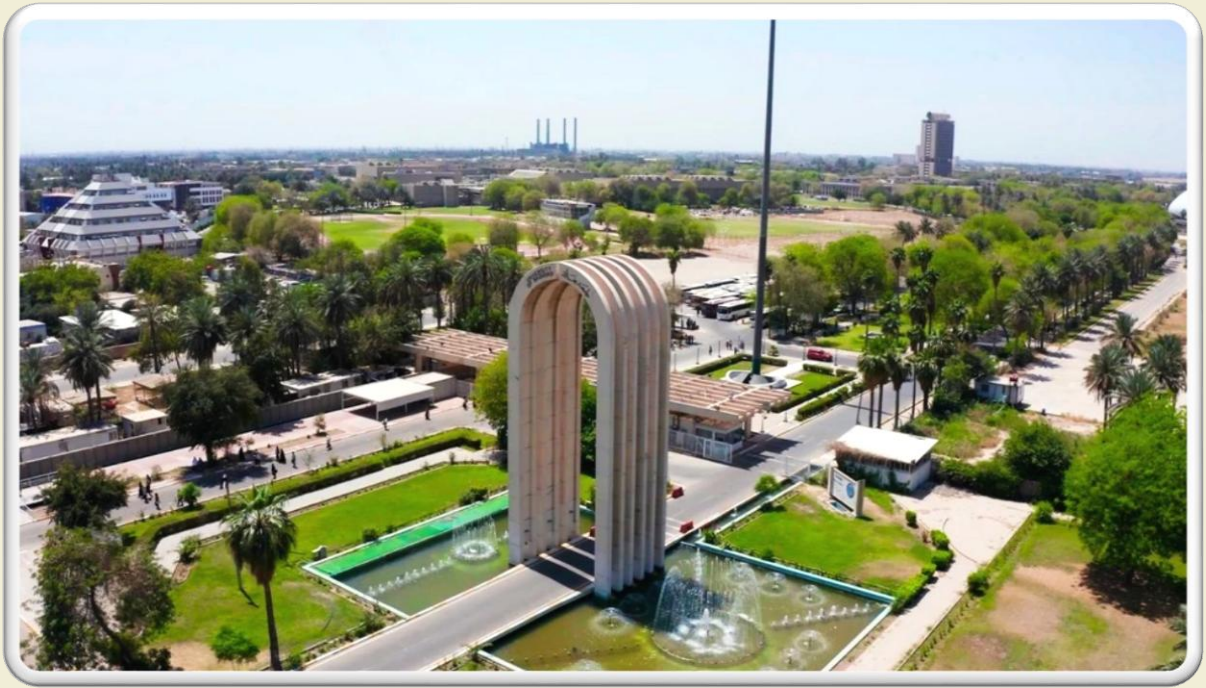
تضمُّ قاعاتِ الجغرافية للمناقشاتِ  
والمؤتمراتِ العلمية، وأقصدُ قاعةَ  
الإدريسيِّ، وتحتوي أيضاً شعبةَ  
الدراساتِ العليا وذاتية الكلية. ومكانُ  
قسمِ التاريخ الذي على يمينِ المدخلِ  
أصبحت غرضاً تابعةً للعمادة، ثم مكتبُ  
العمادة بعد منتصفِ التسعيناتِ ومكتبةُ  
الكلية. أمَّا قسمُ التاريخ فأصبحَ بعيداً  
عن مكانه القديم وله بنايةٌ خاصةٌ من  
عدَّة طوابقٍ لعدة أقسامٍ منها التاريخُ في  
طابقه الثالثِ الأخير.

وهكذا بدأت سیرتي الأكاديمية في  
القسم، ودراستي علمَ التاريخ على يدِ  
الأستاذة الكبارِ الذين كانوا أعمامي،  
وبصراحةٍ أدينُ لهم بالمعرفة التي  
اكتسبْتُها منهم، فكانوا نِعَمَ الأساتذة؛  
فالمكانة التي كانت تتمتعُ بها الكلية على  
المستوى العلميِّ والأكاديميِّ ممتازةٌ جداً،  
ما زلنا ننهلُ من ذكرياته وننتعلقُ بها.  
أمَّا الجامعةُ الأمُّ فهي عبارةٌ عن



جَنَّةٌ عَلَى نَهْرِ دَجَلَةٍ فِي مَنطِقَةِ الْجَادِرِيَّةِ،  
وَبُرْجُهَا الشَّامُخُ الْجَمِيلُ بِمَدَائِقِهَا الْغَنَاءِ  
وَحَضْرَتِهَا الصَّافِيَّةِ تَضْفِي رَاحَةً نَفْسِيَّةً  
عَلَى مَنْ يَدْخُلُهَا، وَكَانَتْ عَامِرَةً بِالزَّرَاعَةِ؛  
فَمَا زِلْتُ أَذْكَرُ وَالِدِي -رَحِمَهُ اللَّهُ-  
عِنْدَمَا يَعُودُ مِنْ مَجْلِسِ الْجَامِعَةِ عِنْدَمَا  
كَانَ يَرَأْسُهَا أَحَدُ أَرْقَى رُؤَسَائِهَا خُلُقًا  
وَهَدُوءًا الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْإِلَهِ الْخَشَّابُ،

كَانَ يَأْتِي الْوَالِدُ بِمَحَاصِيلِ زَرَاعِيَّةٍ مِنْ  
مَحْصُولِ الْجَامِعَةِ تُوزَعُ لِلْعَمَدَاءِ بِصُورَةٍ  
رَمْزِيَّةٍ، وَوَالِدِي كَانَ فِي وَقْتِهَا عَمِيدًا  
لِكَلِيَّةِ الْآدَابِ، فَكَانَتْ إِحْدَى التَّقَالِيدِ  
الْجَمِيلَةِ فِي الْجَامِعَةِ الْعَرِيقَةِ. كَانَتْ  
مَزَايَاهَا كَثِيرَةً تَجْعَلُنِي أَفْخَرُ دَائِمًا بِأَنِي  
خَرَّيْتُهَا فِي الدِّرَاسَاتِ الْأُولِيَّةِ وَالْعُلْيَا  
سِيرًا عَلَى خَطَى وَالِدِي وَوَالِدَتِي.



# دور جامعة بغداد والمستنصرية في تدريس التاريخ الأوربي

د. قاسم عبد الأمير وسيم

أستاذ الفكر الأوربي الحديث بكلية التربية - الجامعة المستنصرية

أولت المؤسسات الأكاديمية العراقية عامة، وجامعة بغداد والمستنصرية خاصة، اهتماماً مميّزاً بتدريس التاريخ الأوربي في مختلف مراحلها، إذ سار تدريس تلك المواد بخط موازٍ مع تدريس مادة تاريخ العراق منذ العصور القديمة حتى الوقت الحاضر، لذا نجد أن تدريس التاريخ الأوربي يبدأ منذ المرحلة الأولى حتى المرحلة الرابعة.

فقد كانت مواد تاريخ العالم القديم والعصور الوسطى في المرحلة الأولى تمثل

الجذر التاريخي للحضارة الأوربية. فضلاً عن ذلك كانت مادة عصر النهضة تُدرّس في المرحلة الثانية لتكون شاهداً تاريخياً لتحول أوربا من العصور المظلمة إلى عصر النهضة، لا سيما بعد حملة الكشوفات الجغرافية عام ١٤٩٢م.

بعد ذلك شهدت نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الثورة الفرنسية وأثرها على التاريخ الأوربي، لتكون مادة أوربا في القرن التاسع عشر درساً في المرحلة الثالثة.

وليس هذا فحسب، فقد انعكست التطورات التي شهدتها أوربًا نهاية القرن التاسع عشر على أحداث القرن العشرين واندلاع الحربين العالميتين الأولى والثانية، وبذلك تكون مادة العالم المعاصر درسًا في المرحلة الرابعة.

ويمكن القول: إن تاريخ أوربًا كان حاضرًا على الصعد الأكاديمية كافة، ونكتفي بذكر شاهد واحد من التاريخ الأوربي وأثره على الوطن العربي بصورة عامة، إذ كانت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨م لها أثر في النهضة العربية الحديثة.

أما على الصعيد العالمي فتُدْرَس فقط أبرز حدثين تاريخيين، وهما الحربان العالميتان الأولى والثانية، وكانت حروبًا أوربيّة بامتياز، ولذلك فإن التاريخ الأوربي يمثل تاريخ العالم، لا سيما في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

تأسيسًا على ذلك، اهتمت الجامعات العراقية، لا سيما مادة التاريخ، بتدريس مادة التاريخ الأوربي، وكان لبعض الأساتذة دور فعال وجوهري في ذلك، وعلى سبيل المثال لا الحصر نستشهد بسيرة المرحوم الأستاذ الدكتور صالح العكيلي، الذي درسنا مادة عصر النهضة في المرحلة الثانية، إذ كان مثالًا لأستاذ التاريخ الأوربي لما يمتلكه من خصال متميزة، فقد كان المغفور له يجيد اللغة الإنكليزية ومحيطًا بكل تفاصيل التاريخ الأوربي، إضافة إلى ذلك فقد استشرّف مستقبل أوربًا من خلال تاريخها، ولم يكتفِ بالأساليب الكلاسيكية في التدريس، بل عمد إلى فلسفة التاريخ الأوربي وتقديمه على شكل دروسٍ وعبرٍ يجب الأخذ بها.

وتجدر الإشارة هنا إلى المدارس التاريخية المعاصرة؛ فنُجِد المدرسة الغربية التي مثلتها الولايات المتحدة

الأمريكية وبريطانيا، ونجد المدرسة الشرقية التي مثلها الاتحاد السوفيتي، فضلاً عن ذلك فقد كانت هناك المدرسة الألمانية التي امتدت جذورها في تاريخ الفلسفة الألمانية.

ولا نبالغ إن قلنا: إن تأثير تلك المدارس التاريخية أثر على أساتذة العراق ومفكره في مجال التاريخ، ولنلمس آثار تلك المدارس واضحة على أساتذة بارزين، فقد مثل المدرسة الفرنسية بمجداة الأستاذ الدكتور فاضل حسين، والأستاذ الدكتور صادق حسن السوداني. أما المدرسة الشرقية فقد كان أبرز أعلامها الأستاذ الدكتور هاشم صالح التكريتي، والرحوم الأستاذ

الدكتور كمال مظهر أحمد. ونجد ذلك جلياً في سطور مؤلفات هؤلاء الأساتذة. ولا شك أن أفكار وآراء وتوجيهات هؤلاء الأساتذة الكبار قد انعكست على طلبتهم ومؤلفاتهم، ونجد ذلك جلياً في جامعة بغداد والجامعة المستنصرية، إذ عُدَّ الأساتذة أنفاً مرجعاً تاريخياً وعلمياً لأغلب الأساتذة، سواء كان ذلك لدورهم في تخريج عدد كبير من الطلبة أو الإشراف عليهم ومناقشتهم للكثير من الرسائل والأطاريح، لتخرج لنا مدرسة تاريخية عراقية لاقت بين الشرق والغرب، واستمدت جذورها من تاريخ العراق العظيم الذي عُدَّ مهد الحضارة والتاريخ.



# بَيْتُ الْحِكْمَةِ

## الْوَجْهَ الْمُضِيءُ لِبَغْدَادِ الرَّشِيدِ

د. عمار مرضي علاوي

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - الجامعة العراقية

الطريق لَمَن بعدها بالفتوحات  
الإسلامية، فعاشت هذه الخلافة عصر  
العلم والمؤلفات الضخمة في شتى  
الميادين، وبرز العديد من العلماء  
المُبدعين الذين سَطَّرتْ أسماؤهم  
بحروف من ذهب على مر الأجيال.

### نشأة بيت الحكمة:

ومن ثمرات الرعاية العلمية إنشاء  
بيت الحكمة العباسي الذي ترجع  
جذوره الى عصر الخليفة أبو جعفر  
المنصور، فقد عمل على ترجمة العديد  
من كتب الطب والنجوم والهندسة

كانت بغداد ولا تزال قبلة العلماء  
والمفكرين في مختلف الفنون والعلوم،  
ذلك أنها شهدت تأسيساً لمختلف المراكز  
العلمية بفضل جهود الخلفاء العباسيين  
وحرصهم على صدارتها بين مدن العالم،  
فكانت محط أنظار طلبة العلم والرحالة  
وغيرهم من رواد الفكر والحضارة لينهلوا  
من علومها واللقاء بعلمائها.

ومما لا شك فيه أن الخلافة  
العباسية كانت راعية للعلم والعلماء  
في عصر النهضة العلمية والفكرية،  
بعد أن كانت الخلافة الأموية تمهد



والآداب، فضلاً عن ظهور المؤلفات له في الحديث النبوي الشريف والتاريخ والأدب، التي قام المنصور بجمعها في خزانةٍ عُدَّت النواة الأولى لبيت الحكمة. ولَمَّا تولَّى الخليفة العباسي هارون الرشيد الخلافة كان كثير الاهتمام بعلوم الحكمة، ويرجع إليه الفضل في تأسيس هذا البيت لِمَا له من وَلَعٍ واهتمام بالعلم؛ فقام برفد البيت بالعديد من أمّات الكتب من مختلف اللغات، التي وصلت عن طريق فتوحات المسلمين في آسيا الصغرى والقسطنطينية. وأمرَ بنقلها من تلك المناطق والعمل على ترجمتها إلى العربية، فكانت هذه الخطوة عاملاً أساسياً في تأسيس خزانة بيت الحكمة لتصبح خزانات عديدة. وخصَّص لكل واحدة منها خيرة المترجمين وكذلك النساخين والمجلّدين والحفظة. وهذا يعني أنّ الخليفة هارون

الرشيد قام بهيكله بيت الحكمة، وتم رفده بالموظفين المختصين لكل حقل من حقول الدار بما يتناسب وطبيعة عمله ليتمكّن من إدارة العملية بنجاح.

#### إدارة بيت الحكمة:

أما أمانة بيت الحكمة فقد كان الطبيب المشهور أبو زكريا يحيى بن ماسويه أمينها، لما وصف بالفضل والعلم والبحث والتصنيف وكان له الفضل في مجال الطب أيام الرشيد، وكان يتولى الكتب التي أمر الرشيد بنقلها من عمورية وأنقرة، عندما غزا بلاد الروم. كذلك قام الرشيد بتعيين ابنه (الأمين) مشرفاً علمياً وفنياً على عملية الترجمة، وجعل معه عدداً من الورّاقين والنساخين وغيرهم لهذا المشروع العلمي العملاق.

وعلى الرغم من الجهود المبذولة من قِبل الرشيد في وضع اللمسات الأولى لمشروع بيت الحكمة (الصرح العلمي

الحضاري) إلا أنّ شهرة البيت وعظمته كانت في عصر ابنه (المأمون) الذي وُصف بأنه "حُرّ الفكر واسع الثقافة شغوفاً بالعلم والآداب والمعرفة". فلا عَجَب من أن يُفرد لبيت الحكمة العناية والرعاية الخاصة.

#### العناية بالترجمة:

تم إنشاء دار للترجمة والإنتاج الفكري، إذ قام بجمع كبار المترجمين وأمرهم بنقل الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية، وبما أنّ هذه الكتب تحتاج إلى غير العرب المسلمين لترجمتها فقد أوعز إلى مترجمين صابئة ونصارى بترجمة هذه الكتب، وهذه إشارة إلى روح التسامح السائد آنذاك في بيت الحكمة الذي كان يضم المسلمين وغيرهم لأنّ الغاية كانت رفد البيت بأُمّات الكتب وجعله صرحاً علمياً كبيراً ليس له نظير في الأمم الأخرى. بل تعدى الأمر أبعد من ذلك، فقد كان

المأمون حريصاً على أن تكون بغداد ومركزها الحضاري المتمثل في بيت الحكمة رائداً ومعلماً يشع الضياء في العالم الإسلامي، فعندما يريد إبرام معاهدة مع بعض ملوك الروم، فإنه كان يشترط عليه أن يرسل إليه من نفائس كتب الحكمة التي في بلاده، التي يندر وجودها عند غيرهم من الأمم.

#### رعاية العاملين في بيت الحكمة:

إنّ هذا العمل الجبار لم يأت على حساب العاملين فيه، أي أنّ العلماء والمترجمين لم يعملوا مجّاناً، بل كانت لهم رواتب سخية يتقاضونها على مرّ الشهور، وهي ثابتة لا تتغيّر بتغيّر الخلفاء أو الأمراء.

كذلك قام الخليفة المأمون بتكليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (النحوي المشهور) لتصنيف كتاب في النحو يجمع أصول النحو، وأمر بتخصيص حُجرة للفراء من حُجرات

الحكمة تتوفر فيها كافة احتياجات هذا العالم، وتُهيأ بالورّاقين، وألزمه الأمانة والمثقفين، وعندما انتهى هذا العالم من كتابه أمر المأمون بحفظ مخطوطة الكتاب في خزانة بيت الحكمة.

### هيكلية بيت الحكمة:

كان في بيت الحكمة عدد من الأقسام في كافة المجالات والاختصاصات وذلك ليتسنى للعاملين فيه من أداء أعمالهم بصورة جيدة وسلسة من غير تعقيد، فكان بيت الحكمة مقسمًا على النحو التالي:

○ قسم خاص بترجمة المؤلفات الطبية من اللغة السريانية إلى اللغة العربية أو من اليونانية إلى العربية، ويقوم أمين القسم بالإشراف على هذه العملية.

○ قسم خاص بترجمة العلوم الفلسفية والمنطق والسياسة وعلم النفس، حتى أنّ كثير من مؤلفات

أرسطو طاليس وأفلاطون قد ترجمت إلى العربية.

○ قسم خاص بترجمة المؤلفات المتعلقة برسوم السياسة والآداب من الفارسية إلى العربية.

○ قسم خاص بترجمة المؤلفات المتعلقة بالفلك والنجوم من الهندية إلى العربية، وليس أدل على ذلك من أولاد موسى بن شاعر ورعاية المأمون لهم حتى أصبحوا من العلماء المشهورين في ذلك الوقت. ونتيجة لولع المأمون بالفلك قام بتأسيس مركزًا للرصد في منطقة الشامية (الصليخ حاليًا).

○ قسم خاص بترجمة أمّات الكتب اليونانية والفارسية والهندية في علوم الفلاحة والهندسة والميكانيكا والرياضيات والموسيقى.

○ قسم خاص للمؤلفين وهم الذين انقطعوا للتدريس والبحث والتأليف

أمثال الخوارزمي وغيره.

- قسم خاص بالمجلدين والنساخين.
- قسم خاص للخدمة ومهمتهم خزن القرطاسية بكافة أشكالها وأنواعها.
- قسم خاص بخزانة كتب كبيرة تحتوي نفائس المؤلفات المخطوطة في شتى مجالات العلوم.

### مراحل العمل في بيت الحكمة:

وكان العمل في بيت الحكمة يمر بأربعة مراحل رئيسة:

فالمرحلة الأولى هي الترجمة إذ يقوم المختصون بترجمة أمات كتب كافة اللغات. المرحلة الثانية هي النسخ بأكثر من نسخة، وهذه المهنة محترمة ومحسب حسابها ولا تعطى لكل شخص حتى تتوفر فيه بعض الصفات كجودة الخط وحسن السيرة والسلوك والالتزام بالأسس التي حددت للنساخين في نسخهم.

المرحلة الثالثة هي تجليد الكتب وتكون هذه المرحلة بعد الانتهاء من

إنجاز الكتاب المترجم.

المرحلة الرابعة هي مرحلة التوزيع إذ يوضع الكتاب في المكان المخصص له بإشراف الخازن، وأما المخطوطة فتُحفظ في قسم خاص بها.

**وبعد** أن تعرّفنا تاريخ بيت الحكمة وهيكلته وآلية العمل فيه، ظهر لنا جلياً أنّ البيت كان فيه نظاماً عالمياً للعمل وشاملاً ومستوعباً لكافة الاختصاصات العلمية قلّما تجده في دور العلم الأخرى، وكذلك مدى الجهد الذي قدمه العاملون في هذه الدار بعمل متواصل من أجل إنجاز ذلك الصرح العلمي، فضلاً عن الدقة والأمانة والنزاهة والإخلاص في العمل.

لقد كان بيت الحكمة شاهد حي على مكانة بغداد ومركزها العلمي والحضاري في العصر العباسي، وقد تُرجم ذلك في نباء هذا الصرح العلمي الذي وصل صيته الى الآفاق.

# بَيْتُ الْحِكْمَةِ الْمُعَاصِرِ

د. أ.د. سامي حمود الحاج جاسم

أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة المستنصرية - كلية التربية

تمَّ النهوض بمؤسَّسة بيت الحكمة لتكون مركزًا جامعيًا للكفاءات العلمية في العراق الحديث ومعهدًا رئيسًا للبحث العلمي؛ وذلك لما أصبحت عليه الحاجة في وقتنا الحاضر أشد منها في أيِّ وقتٍ مضى، حيث أصبح العالم في سباقٍ محموم للوصول إلى أكبر قدرٍ ممكن من المعرفة الدقيقة المثمرة التي تكفل الراحة والرفاهية للإنسان وتضمن له التفوق على غيره.

وبعد أن أدركت الدولُ وخصوصًا المتقدمة أهمية البحث العلمي وعظم الدور الذي يؤديه في التقدم والتنمية،

أولته كثير من الدول الاهتمام وقدَّمت له كلَّ ما يحتاجه من متطلباتٍ سواء كانت مادية أو معنوية، حيث إنَّ البحث العلمي يُعتبر الدعامَة الأساسيّة للاقتصاد والتطور، ويُعد ركنًا أساسيًا من أركان المعرفة الإنسانية في ميادينها كافة كما يُعد أيضًا السِّمة البارزة للعصر الحديث، فأهمية البحث العلمي ترجع إلى أنَّ الأمم أدركت أنَّ عظمتها وتفوقها يرجعان إلى قدرات أبنائها العلمية والفكرية والسلوكية.

ومع أنَّ البحوث والدراسات تحتاج إلى وسائل كثيرة معقَّدة وتغطِّي أكثر من



مجال علمي وتتطلب الأموال الطائلة،  
إلا أنَّ الدول المُدركة لقيمة البحث  
العلمي تُسهِّل كلَّ العقبات وتُذلل كلَّ  
الصِّعاب؛ لأنَّها تعتبر البحوث العلمية  
دعائم أساسية لنموها وتطورها.

وتزداد أهمية البحث العلمي بازدياد  
اعتماد الدول عليه، ولا سيَّما المتقدمة  
منها، لمدى إدراكها أهميته في استمرار  
تقدمها وتطورها، وبالتالي تحقيق رفاهية  
شعبها والمُحافظة على مكانتها.

ويفيد البحث العلمي في تصحيح  
بعض المعلومات عن الكون الذي  
نعيش فيه وعن الظواهر التي نحيها  
وعن الأماكن المهمة والشخصيات  
وغيرها، ويفيد أيضًا في التغلب على  
الصعوبات التي قد نواجهها سواءً كانت  
سياسية أو بيئية أو اقتصادية أو  
اجتماعية أو غير ذلك، كما يفيد  
البحث العلمي الإنسان في تقصِّي  
الحقائق التي يستفيد منها في التغلب

على بعض مشاكله، كالأمراض والأوبئة،  
أو في معرفة الأماكن الأثرية، أو  
الشخصيات التاريخية، أو في التفسير  
النقدي للآراء والمذاهب والأفكار، وفي  
حلِّ المشاكل الاقتصادية والصحية  
والتعليمية والتربوية والسياسية وغيرها،  
وفيد في تفسير الظواهر الطبيعية  
والتنبؤ بها عن طريق الوصول إلى  
تعميمات وقوانين عامة كليَّة.

وبالتالي فقد كان النهوض بهذه  
المؤسسة العلمية والفكرية في عام  
١٤١٥هـ/١٩٩٥م بموجب قانون (بيت  
الحكمة) المُرَقَّم (١١) لعام ١٩٩٥م،  
تعبيرًا عن الفكر العربي والإسلامي  
المُتفتِّح على الظروف الجديدة في الحياة  
والبحث والتحليل، وتحقيقًا للربط  
الحي بين ماضي الأمة وحاضرها  
ومستقبلها. وبُغية الكشف عن ينابيع  
الإبداع وعناصر الخلق والبناء عبر  
استشارة كوامن الحيوية وروح البحث

العلمي المسؤول في نفوس العلماء والمُفكرين العرب والمسلمين، ومن أجل ذلك فقد استلزم الأمر تنظيم الجهد والنشاط الفكري بصيغٍ علمية منهجية ليبلغ شوطًا بعيدًا في مداه ويتخذ اتجاهًا محددًا في مساره، وذلك من خلال إنشاء مؤسّسة علمية تنهض بعبء هذه الرسالة السامية.

وإذ ينشدُ الحاضر- في هذا المجال- إلى تاريخ الأمة الزاخر وتراثها الفكري والإنساني العظيم، فلا أفضل للتعبير عن هذا الانشداد، من إحياء بيت الحكمة وبعثه من جديد، وهو الذي كان واحدًا من رموز التألّق الحضاري للأمة في حاضرتها التليدة بغداد.

ولسموّ هذه الأهداف وعظمتها كان لا بدّ من قيادةٍ مثقفة عالمة مُدركة لأبعاد المشروع العلمي والحضاري الذي يضطلع به بيت الحكمة، تمثلت في مجلس الأمناء. إلّا أنّ البُعد القومي

لمشروع بيت الحكمة يقضي أن يكون للمُفكرين العرب والمسلمين رأيًا وتفاعل في مسيرة بيت الحكمة وذلك عبر الهيئة الاستشارية له.

وبيت الحكمة لا يستعين بالغير فقط لتحقيق أهدافه الفكرية والعلمية، وإنّما يُهيئ أيضًا التربة الصالحة والجو الملائم للبحث العلمي في كثيرٍ من مناقشات وحوارات هيئاته. وإذ تكون دراسة واقع الأمة العربية والإسلامية والتحدي للتيارات الثقافية والفكرية التي تستهدف وجودها وحضارتها، هدفًا مركزيًا لبيت الحكمة، فإنّ ذلك يستوجب وجود أقسام دراسات فيه ينصب جهدها على دراسة التاريخ والتراث والفلسفة والواقع القانوني والسياسي والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية للأمة. والأقسام العلمية ليست بعدد المُنتمين إليها وإنّما بكفاءة أعضائها

ونوعية رؤسائها بحيث تكون نواة لا بدّ منها لحركة فكرية تجدد في العراق مركز انطلاقها.

### أقسام بيت الحكمة العلمية:

#### أولاً: قسم الدراسات التاريخية:

يرى كثير من المؤرخين أنّ التاريخ يمكن -بل يجب- أن يُدرس باعتباره علماً من العلوم الاجتماعية. كما يمكن أن يساعد -بطريقة جوهريّة- على زيادة المعارف العلمية الاجتماعية. وهنا نُشير إلى أنّ كلمة (التاريخ) التي نطلقها عادةً على علمٍ معيّن، أو مجالٍ من مجالات الدراسة، لا يُراد لها لون معين من التاريخ (كالتاريخ الاقتصادي والتاريخ السياسي). ولا يرجع ذلك إلى تعدد النواحي التي يتخصص فيها المؤرخون، من الناحية الزمنية أو الجغرافية أو المحلية، بل يرجع على الأصح إلى اختلاف المناهج المتبعة في الدراسات التاريخية.

ارتبط اصطلاح التاريخ في استعماله العام بمعنيين مختلفين: فهو يُستعمل عادةً للتعبير عن حصيلة النشاط الإنساني في الأزمنة السابقة. أمّا الاستعمال الأكثر شيوعاً فهو ذلك الذي يعتبر التاريخ سجلاً للأحداث لا مجرد سردٍ للأحداث ذاتها. وهذا المعنى الأخير الأكثر تقبلاً وشيوعاً يمدنا بتعريفين للتاريخ: الأول موضوعي؛ وهو على حدّ قول المؤرخ الأمريكي جيمس هارفي روبنسون James Harvey Robinson (١٨٦٣-١٩٣٦م): "كلّ ما نعرفه عن كلّ شيء فعله الإنسان أو فكّر فيه أو أحسّ به أو تمنّاه".

أمّا التعريف الثاني -وهو إلى حدّ كبير تعبير موضوعي أو نفساني- فهو أنّ التاريخ سجلٌ لكلّ ما حدث داخل نطاق الإدراك البشري.

كتب ابن خلدون في معرض حديثه عن صناعة التاريخ: "اعلم أنّه لمّا كانت

حقيقة التأريخ أنّه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال".

ولعلّ مثل هذا القول يلخص إلى حدّ بعيد التصور الخلدوني للتاريخ ومن ورائه ما كان يمكن أن تكون عليه الكتابة التاريخية في البلاد العربية الإسلامية. ولكن ما نلاحظه هو نبوغ مدرسة الحوليات ومن ورائها التاريخ الجديد - جاك لو غوف Jacques Le Goff (١٩٢٤-٢٠١٤م) لا يُقر بأنّه زعيم مدرسة تاريخية ولا بوجود مدرسة تاريخية واضحة المعالم وإنّما بوجود تجمع لمجموعة من الباحثين الذين يتقاسمون المطامح نفسها - في مجال جغرافي

وحضاري مختلف عن البيئة التي أنجبت ابن خلدون. وهو ما يدفع إلى التساؤل عن فشل الكتابة التاريخية وفق التصور الخلدوني في العالم العربي الإسلامي، وهو تصور قريب من المنهج الذي سطره رواد التاريخ الجديد في أوربا في النصف الأول من القرن العشرين.

ظهرت مدرسة الحوليات في فرنسا عام ١٩٢٩م، كردّ فعلٍ على (المدرسة المنهجية)، التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر نتيجةً لهزيمة ألمانيا في حرب السبعين مع بروسيا The Franco-Prussian War (١٨٧٠-١٨٧١)، وحاولت أن تُعيد النظر في قواعد الدراسة التاريخية الذي تبنته (المدرسة المنهجية) التي اعتمدت على الجانب النظري المتأثر بالمدرسة الألمانية، فاتجه الحوليون للتركيز على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وتغليب التجريبية في الدراسات التاريخية.

## بواكير النقد التاريخي:

إنَّ مُجْمَل الظواهر والعوامل، على اختلاف مصادر نشأتها وتباين أسبابها، قد اجتمعت منذ عصر النهضة الأوربي وحتى مطلع القرن التاسع عشر لتولّد حركةً تاريخيةً كبرى مُتزامنة معها. وكانت أهم مظاهر هذه الحركة: النشر الهائل والمتتابع للوثائق والسجّلات في مجموعاتٍ وسلاسل كبرى، من الحكومات مباشرةً أو المؤسّسات الرسمية، أو دور النشر الخاصة، أو الكنائس والجمعيات والأحزاب.

إنَّ ازدهار المكتبة التاريخية العظيم في أوربّا، الذي شجّعت عليه الحكومات القائمة آنذاك، جعل من عملية الاطلاع على الوثائق والسجّلات والموسوعات التاريخية أمرًا متيسرًا للقراء والكتّاب، ومُشجّعًا على توسيع حقل الكتابة التاريخية في شتّى الموضوعات التي تحملها الوثائق المنشورة.

يُعدّ مارك بلوك Marc Léopold Benjamin Bloch (١٨٨٦-١٩٤٤م) ولوسيان فيفر Lucien Febvre (١٨٧٨-١٩٥٦م) المؤسّسان لهذه المدرسة التي مرت عليها أجيال من المؤرّخين، ممّن أسهموا في تأصيل إطارها المنهجي والنظري.

وقد طرحت هذه المدرسة مفاهيم جديدة مثل: الحَقَب طويلة الأمد، وتاريخ الذهنيات، وتاريخ المُعدمين والمهمشين، والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي.. وهي مفاهيم لم تتناولها المدارس التاريخية الأوربية السابقة بنفس العمق الذي تناولته (مدرسة الحوليات الفرنسية)، ممّا أدى في النهاية إلى ظهور (التاريخ الجديد)، المفهوم الذي صاغه المؤرخ الفرنسي جاك لوغوف في سبعينيات القرن العشرين وطوره العديد من مؤرّخي هذه المدرسة.



إلا أنَّ التطور في المعرفة التاريخية كان إمَّا تراكمًا كمِّيًّا للمعارف والوثائق، وإمَّا جزءًا من فلسفةٍ وأخلاقٍ وسياسة. ولم تشهد مراحل هذا التطور منهجًا تاريخيًا نقديًا إلا عن طريق أعمالٍ ثلاثة يُشير إليها مؤرِّخو تطور علم التاريخ في أوربَّا بوصفها بواكير النقد التاريخي الذي مهَّد لوضع ضوابط البحث العلمي في مجال التاريخ، متمثلةً بالأعمال:

١. مقدمة هوميروس للناقد الأدبي واللغوي الألماني: ف. أ. وولف Friedrich August Wolf (١٧٥٩-١٨٢٤م)، الذي رأى بناءً على نظرة نقدية تاريخية، أنَّ "الإلياذة والأوديسة" لم يكتبها هوميروس، ولا رجل واحد آخر، ولكن تتابعت على نَظْمِها جماعةٌ من الشعراء في أوقاتٍ عدَّة من الزمن.

٢. الاقتصاد السياسي في أثينا The Public Economy of the

Athenians، لعالم اللغة الألماني أوغست بوخ A. Boeckh (١٧٨٥-١٨٦٧م)، الذي اتَّبَعَ في كتابه منهج وُلف النقدي.

٣. تاريخ روما، للمؤرِّخ الألماني نيبور B. G. Niebuhr (١٧٧٦-١٨٣١م)، الذي اتبع منهج نقد النصوص في تجديد التاريخ الروماني وإحيائه، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين المتأخرين يرون أنَّه بَوَّأ التاريخ مكانة "علم مستقل"، وهو الذي مهَّد لنشوء المدرسة التاريخية الألمانية النقدية التي تزعمها ليوبولد فون رنكه Leopold Ranke.

هذه الأعمال الرائدة التي كان لها أثرها المباشر في نشأة (فلسفة التاريخ النقدية) في ألمانيا، هذه المدرسة التي نشأت عن طريق تعاقب أعمال كلِّ من فيلهلم دلتاي Dilthey Wilhelm (١٨٣٣-١٩١١م)، وهاینرش ريكارت Rickert Heinrich (١٨٦٣-١٩٣٦م)،

وجورج سيمل Georg Simmel (١٨٥٨-١٩١٨م)، وماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠م). إذ أثمرت (الكانطية الجديدة) فكرًا تاريخيًا حداثيًا لا يكتفي بتوصيف الظاهرة أو الحدث بل يسعى إلى البحث في آليات اشتغالها الخفية. فأنشأ دلتاي موسوعةً خاصة بالعلوم التاريخية، ثم علم نفسٍ قد يستحيل إلى رياضيات ولاسيما في العالم الأخلاقي. إلا أنه اكتفى بتحليل المفاهيم الأساسية لعلوم الفكر. أمّا ريكارت فقد حرص على البحث المنطقي في مبادئ المسافة الفاصلة بين الحكاية ومستقبل الوجود.

وتمثّل فلسفة التاريخ النقدية الألمانية حدًا فارقًا بين فلسفة التاريخ التقليدية، ممثلةً في الهيغلية وبين فلسفة التاريخ النقدية الحديثة الرافضة للهيغلية، والقائمة في الأساس والمرجع على إعادة قراءة الكانطية

بمفاهيم حادثة.

فتأسّس هذا الفكر التاريخي النقدي على تحليل الصفات الخاصة بالعلوم التاريخية والنفاذ إلى أشكال الفكر ونماذجِه؛ إذ لم يعد الماضي موضوعًا قائمًا بذاته بحسب الوهم الذي ساد طويلاً، بل أمسى الماضي تابعًا للحاضر الذي هو زمن الاسترجاع والقراءة.

وفي فرنسا نشأت (مدرسة الوثائق) L'Ecole des Chartes (١٨٢١م) التي ستؤدي أثرًا رئيسًا في انطلاقة التأريخ الأوربي على قاعدة استعمال الوثائق استعمالًا نقديًا، التي سبرز عن طريقها معظم كبار المؤرّخين الفرنسيين على امتداد القرن التاسع عشر، أمثال: بنيامين جيرار B. Gerard، وأوغست مولينييه August Molinier (١٨٥١-١٩٠٤م)، وجوليات هاف J. Havet. وكان أن امتدّ تأثير هذا المنهج النقدي في استعمال الوثائق التاريخية، إلى أمريكا

وبريطانيا والبلدان الأوربية الأخرى.

وبالتالي فإنَّ قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة الذي يضم بين طياته مجموعة من الوحدات البحثية، وهي: (الدراسات التراثية وتحقيق المخطوطات؛ الدراسات الوثائقية؛ دراسة المعالم الأثرية والمدن العربية)، إنّما يهتم بـ:

١. دراسة تاريخ العراق (عبر العصور) - بصورة خاصة - والحضارة العربية الإسلامية، وتوظيف ذلك لصالح الحاضر والمستقبل من خلال وضع البحوث والدراسات الأكاديمية والمؤلفات وترجمة الكتب، هذه المهمة التي يضطلع بها باحثو القسم أو يُكلّف بها من قبل باحثين وأساتذة متخصصين من خارج البيت.

٢. الاهتمام بوضع الدراسات حول الوثائق البريطانية British Documents الموجودة في مكتبة

القسم، وترجمتها. كما يهتم القسم بتحقيق المخطوطات التي تتناول مختلف جوانب الفكر العربي والإسلامي.

٣. إقامة الندوات العلمية المتخصصة وورش العمل والحلقات النقاشية بالتعاون مع الجامعات العراقية ومراكز الدراسات، حيث يتم من خلالها تسليط الضوء على أهمّ الإشكاليات التاريخية، محاولة لجمع وجهات النظر والرؤى العلمية والفكرية حولها.

٤. العناية بالبحوث والدراسات التي تُعزز من ممارسة المواطن لحقوق الإنسان وحياته الأساسية وترسيخ قيم الديمقراطية والمجتمع المدني. بالإضافة إلى تقديم الرؤى والدراسات التي تخدم عمليات رسم السياسات واتخاذ القرارات، سواءً من خلال مجلة القسم العلمية المُحرَّكة نصف السنوية، أم المؤلفات الجماعية.

## ثانيًا: قسم دراسات الأديان:

إنَّ أولَ مَنْ صاغَ مصطلحَ “علم الأديان” هو أستاذ الدراسات اللغوية والدينيَّة المقارنة الألماني ماكس موللر Friedrich Max Müller (١٨٢٣-١٩٠٠م) منذ سنة ١٨٧٦م، حيث إنَّ الوظيفة الأساسية التي ينهض بها العلم المذكور هو تحليل شامل للوقائع الدينيَّة، فضلًا عن كونه يهتم بوصف مختلف التجارب الدينيَّة في مسارها الزمني التطوري من ناحية وفي انشدادها إلى النسيج الاجتماعي وإلى مؤسَّسات المجتمع من ناحيةٍ أخرى.

ويعني ذلك كلَّه أنَّ “علم الأديان يُقيم عند ملتقى مباحث شتَّى، من مثل التاريخ والظواهرية Phenomenology وعلم النفس وعلم الاجتماع، موظفًا مناهجها وإضافاتها ومؤكِّدًا أصالته النوعية أمامها. فإذا ما كانت مهمته تتجاوز الأحكام المُتعلِّقة بتطورات

العقل الإنساني بخصوص حيازته الحقيقية الميتافيزيقية أو اللاهوتية (الكلامية)، فإنَّه يرنو لتجاوز المُعطى الاختياري للوقائع الدينيَّة قصد بلوغ الفهم الداخلي للمقدَّس المعيش. فدوره يتجاوز مختلف النُظم الدينيَّة المعروفة إلى البنى الأساسية من طقوسٍ وأساطير وعقائد ورموز، لبلوغ تحليل المحتويات المعيشة ذاتيًا من طرف الإنسان المُتدين؛ أي ما يُشكِّل الجزء الأكثر حيويَّة في تلك البنى والنُظم الدينيَّة”.

ومن المسائل التي تدرج ضمن اهتمامات علم الأديان هي تقديم دور علم الاجتماع الوضعي في دراسة العلاقة بين المجتمع والدين، وهذا ما يظهر في كتابات أوغست كونت Auguste Comte (١٧٩٨-١٨٥٧م)، وإيميل دوركايم David Émile Durkheim (١٨٥٨-١٩١٧م)، حيث تجد فيها تعريفًا للدين من منظور علم

الاجتماع الوضعي. فالدين عند دوركايمهم مثلاً هو: “نظام من العقائد والأفعال المتعلّقة بأمور مقدسة؛ أي منفصلة عن عالم الناس ومفارقة، ولكنه في الوقت نفسه عقائد وممارسات توحد جميع الذين ينتمون إليها في جماعة أخلاقية تُسمّى كنيسة”. ومثل هذا التعريف لا يستدعي بالضرورة وجود إله في الدين كما هو الحال في البوذية، بل إنّ الإله، حسب أطروحة كونت، أحيل على البطالة القسرية، وهو ما يُفسّر تشكّل مقالة “موت الإله” في مجتمعات تسير بثبات نحو العلمنة.

وبالتالي فإنّ قسم دراسات الأديان في بيت الحكمة والذي يضم بين طياته عدّة وحدات بحثية، هي: العقيدة والفكر الإسلامي؛ الإسلام والحضارة، الإسلام والمعاصرة، إنّما يبحث في الأديان من حيث منشئها وتطورها وانتشارها وأتباعها في العقائد

والأصول التي تتركز عليه الأديان المختلفة وفي أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينهما مع المقارنة والمناقشة والرد. وتنقسم طبيعة المباحث التي يتناولها القسم من خلال دراساته وحواراته الفكرية إلى ثلاثة أقسام أو اتجاهات:

١. تاريخ الأديان.

٢. فلسفة الأديان. يُدرس في هذا المبحث العلاقات بين الأسس التي تستند إليها الأديان المختلفة، من عقيدة وعبادة وشرعية وأخلاق ومعاملات التي تهدف إليها.

٣. مقارنة الأديان. ويُدرس فيه خصائص ومميزات كلّ دينٍ ويوازن بينها وبين خصائص ومميزات الأديان الأخرى.

٤. العناية بتأليف الكتب عن دور الدين في الخطاب الحضاري والإنساني الموجّه إلى عموم البشر من خلال فهمه وتمثل شريعته من داخل نصوصه وعن طريق معطياته المتنوعة. بالإضافة إلى



رصد الدراسات التي تُؤلّف عن الأديان.  
٥. التركيز على مشروع حوار الأديان الحضاري، وإشاعة ثقافة التسامح الديني والتعايش بين الجماعات والأفراد.

### ثالثًا: قسم الدراسات القانونية:

تنبع أهمية دراسة علم القانون ومنهجية تجديده من جانبين: أحدهما نظري والآخر عملي. فعلى الجانب النظري تتضح أهمية هذه الدراسة من أهمية القانون ذاته بوصفه ظاهرة اجتماعية يوجد حيث يوجد المجتمع، بدائيًا كان أو متحضرًا، فضلًا عن كونه ظاهرة سياسية يُحدّد العلاقة بين كسلطة حاكمة والأفراد بوصفهم محكومين، كما يُحدّد العلاقة بين أجهزة الدولة الرئيسة وسلطاتها الثلاث. وهو أخيرًا يعكس طبيعة النظام الاقتصادي ويُقننها في أيّ دولة، سواء كان نظامًا رأسماليًا أم اشتراكيًا أم مختلطًا أو إسلاميًا.

لذا فإنّ دراسة علم القانون في مجتمع معين هي دراسة لحالة هذا المجتمع في ذاته من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية أيضًا، أو المفروض أن يكون كذلك، وخاصةً في ضوء ما أصاب المجتمع العراقي من تغيراتٍ في السنوات الأخيرة بفعل ثورة الاتصالات الحديثة والتكنولوجيا، فضلًا عن التغير الجذري الذي طرأ على النظام السياسي في العراق بعد عام ٢٠٠٣م، وما ترتّب على ذلك من إعادة النظر في الكثير من التشريعات، وخاصةً التشريعات الدستورية.

أمّا من الناحية العملية، فإنّ دراسة علم القانون تُفيد في التعرف إلى طبيعة الأزمات التي يتعرض لها هذا العلم، والمنهجيات التي يتبعها، وأبرز الموضوعات التي يُناقشها وأهمها، وإذا ما كانت هذه الموضوعات وتلك المناهج تتفق وواقع المجتمع وتُحقّق أهدافه

وتضمن سعادة أفرادِهِ بحمايةِ حقوقهم  
وضمن حرياتهم، أو أنّ الأمر لا يتعلّق  
بمنهج ولا نظرياتٍ علمية، ولكن  
يتعلّق بحاجاتِ السوق ومتطلبات  
العيش والارتزاق يُعنى قسم الدراسات  
القانونية في بيت الحكمة بدراسة  
الفكر القانوني الدولي وانعكاساته على  
النظام القانوني في العراق والبلاد  
العربية، والعناية بالدراسات المُتعلّقة  
بحقوق الإنسان وحرياته الأساسية،  
أسّس القسم استناداً إلى الفصل الثالث  
من قانون تأسيس بيت الحكمة رقم  
(١١) لسنة (١٩٩٥).

كما يُساهم القسم برصد ومتابعة  
التطورات السياسية والاقتصادية  
والقانونية، بغية تحقيق أهداف بيت  
الحكمة من خلال تبني البحوث  
الأكاديمية التي يعدها أساتذة جامعيين  
أكفاء وقضاة وعدد من الباحثين، والتي  
تُعالج مواضيع مهمة تهم المواطن العراقي،

والتي يتم طرحها ومناقشتها من خلال  
إقامة الندوات والمحاضرات والحلقات  
النقاشية والمؤتمرات.

#### رابعاً: قسم الدراسات الاجتماعية:

إنّ علم الاجتماع هو علم دراسة  
الإنسان والمجتمع دراسة علمية تعتمد  
على النهج العلمي وما يقتضيه هذا النهج  
من أسس وقواعد وأساليب في البحث.  
وهذا البُعد الأساسي في التعريف يُعد  
حصاراً تطورات علم الاجتماع منذ أن  
ولد على يد العلّامة العربي «ابن خلدون»  
(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) الذي  
حدده بأنّه علم العمران البشري  
Ekistics، وما يحويه هذا العمران من  
مختلف جوانب الحياة الاجتماعية  
المادية ومروراً بأوغست كونت  
Auguste Comte (١٧٩٨-١٨٥٧ م)  
الذي اشتق كلمة sociology من  
مقطعين من اللاتينية واليونانية ليُشير  
بهما إلى الدراسة العلمية للمجتمع.

وبالتالي فإنَّ عِلْمُ الاجتماع يُعدُّ أحدُ العلوم الإنسانية الذي عُرِفَ كواحدٍ من أقدم العلوم التي تهتمُّ بالإنسان والمجتمع والعلاقة بينهما، وتأثير كلِّ واحدٍ منهما على الآخر. وهو العلم الذي يتناول دراسة المجتمع الإنساني، ويبحث في علاقة الناس مع بعضهم البعض وما ينتُج عن هذه العلاقات من ظواهر اجتماعية تختلف باختلاف المجتمعات الإنسانية، وتتغير بتغير الزمان والمكان، ويستنبط بعد كلِّ هذه الملاحظات والمشاهدات قوانين عِلْم الاجتماع التي تُحدد مدى تقدم المجتمع وازدهاره أو تخلفه وتراجعهِ.

ولقسم الدراسات الاجتماعية في بيت الحكمة مجالات عملٍ ونظرٍ متعددة ضمن نطاق تخصصهم العلمي، من أبرزها دراسة مُجمل الظواهر الاجتماعية الناتجة من علاقة أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، من حيث

السلوك والتعابير والأفكار والعادات والتقاليد والأعراف المُتبعة، والقوانين والأحكام في شتَّى مناحي الحياة، دراسة العلاقات الاجتماعية الناتجة من تعايش فردين أو أكثر في بيئةٍ واحدةٍ، وتحديد الظواهر الاجتماعية التي تُسفر عن هذا التعايش والذي يؤدي بدوره إلى ظهور التجمعات السُكَّانية من الجماعات والقبائل والقرى والمدن والدول، دراسة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وهذه العلاقات تتَّسم بصفة الفعل الجماعي، مثل التعاون والصراع والدفاع عن الجماعة أو القبيلة والأعراف المُطبقة في الحرب والسلم، والأحكام المَدنية والشرائع المُتبعة، وتقاليد الزواج والأسرة، والمناصب والطبقات الاجتماعية وغيرها من الأمور التي تُطبق بصفةٍ جماعيةٍ، ودراسة شخصية الفرد وسلوكهِ وتفاعله مع مُحيطهِ، ومدى تأثيره وتأثره

بمن حوله. وغيرها من الموضوعات والظواهر الاجتماعية.

#### خامسًا: قسم الدراسات الاقتصادية:

تُعَدُّ العلوم الاجتماعية بمُجملها، هي المحرك الرئيسي لحياة الشعوب بكلِّ فروعها، وما علم الاقتصاد إلَّا واحد من هذه العلوم؛ حيث يدرس هذا العلم كلَّ الجوانب التي تهم الإنسان، بدءًا من عملية الإنتاج، إلى التوزيع، إلى استهلاك الفرد للسلع، والخدمات التي تهمه، ليدرّس بذلك هذا العلم أيضًا كلَّ ما يتعلَّق بالعرض والطلب على كلِّ السلع وجميع الخدمات التي تُقدِّم له.

وعلى الرغم من أنَّ النقاشات حول عمليات الإنتاج والتوزيع دارت منذ بدايات التاريخ إلَّا أنَّ الاقتصاد أخذ بالتبلور في صيغته الحالية كفرع علمي مستقل منذ أن قام الفيلسوف والاقتصادي الإسكتلندي آدم سميث

الشهير "ثروة الأمم" عام ١٧٧٦م.

ويُعرِّف آدم سميث -في كتابه- مصطلح الاقتصاد السياسي بأنَّه أحد فروع علم السياسة والتشريع، ويهدف إلى أمرين أساسيين:

الأول: تزويد الأفراد بكمية كافية ومستمرة من المنتجات أو العمل على جعلهم قادرين على توفير هذه المنتجات بشكلٍ متواصل.

والثاني: تزويد الدولة أو إثراء كلِّ من الأفراد والحكومات.

وفي كتابه "ثروة الأمم" يُشير آدم سميث إلى الاقتصاد بمُصطلح (الاقتصاد السياسي) إلَّا أنَّ هذا المصطلح استُبدِلَ تدريجيًّا في الاستعمال العام بمُصطلح (الاقتصاد) وذلك بعد عام ١٨٧٠م، بالإضافة إلى أنَّ أول مَنْ استعمل مصطلح الاقتصاد السياسي رجل دين فرنسي يُدعى أنطوان دي مونكريتيان Antoine de Montchrestien

(١٥٧٥-١٦٢١م)، وأول مَنْ تعامل بجدية مع علم الاقتصاد هم الفيزوقراطيون حيث آمنوا بالزراعة مصدرًا صافيًا للربح. وتأتي أهمية الدراسات الاقتصادية بأنّها تُطبّق حرفيًا في كلّ المجالات التي تهم الأفراد وتتعلّق بهم، حيث نجدها تتدخل في مجريات الحياة ككل إن كان من ناحية التعليم، أم الأسرة، أم الصحة، وأيضًا في الجريمة، وحتى السياسة، والقانون، وتتدخل أيضًا في الدين والصحة، وما إلى هنالك من أمورٍ حياتية مُعاشة، حتّى نراها أيضًا تؤثر في الحروب؛ ولذلك نجد أهميتها تنبع من كونها ذات دورٍ فعّال وحاسم في تقدم الشعوب وتطورها بشكلٍ عام، وهي التي من شأنها أن ترسم مصير الدول وآفاقها، بحيث تؤثر في التركيبة الاجتماعية لبنية البلاد، إضافةً إلى التغيرات التي تطرأ عليها وعلى سياساتها. ولعلّ من أبرز اهتمامات ومجالات

عمل قسم الدراسات الاقتصادية في بيت الحكمة، أنّه يهتم بدراسة المشكلات الاقتصادية وسياسات الإصلاح والاستثمار الأجنبي. وللقسم وحدة متخصصة في التنمية البشرية.

#### سادسًا: قسم الدراسات السياسية والإستراتيجية:

أصبحت الجامعات العالميّة تعترف بعلم السياسة بوصفه علمًا أو فرعًا من العلوم الاجتماعية والإنسانية منذ نهاية القرن التاسع عشر، وترسّخ هذا الاعتراف بإنشاء كلّ من المدرسة الحرة للعلوم السياسية في باريس عام ١٨٧٢م، ومدرسة لندن لعلم الاقتصاد والسياسة، وقد تأكّدت أهمية هذا العلم باعتماده مادةً للتدريس في الجامعات الأوربيّة بصفةٍ عامة والجامعات الأميركية بصفةٍ خاصة. وقد أدى وجود عوامل عديدة



للاهتمام بعلم السياسة، وقد اقترن ذلك الاهتمام بالمزيد من الاتجاه نحو الدراسة الاستقرائية لمختلف الظواهر السياسية كالأحزاب السياسية والرأي العام وجماعات الضغط والمصالح وغيرها خاصةً في الولايات المتحدة، حيث غلبت فيها النزعة المنهجية لدراسة الوقائع والجزئيات إلى درجةٍ أحدثت تطوراً منهجياً جديداً جعل علماء السياسة فيها يتبنون نظرياتٍ جديدة.

وقد ظلَّت النظرة السائدة إلى علم السياسة إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية على أنه فرع من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية، التي تهتم على وجهٍ ما بالحياة السياسية، وأنه ليس هناك ميدان خاص للمعرفة ينفرد به علم السياسة، انطلاقاً من أن جميع العلوم الاجتماعية والإنسانية تتناول السياسة، أي أن النظرة لعلم السياسة أو العلوم السياسية كانت تؤكِّد العلاقة بين

علم السياسة والعلوم الاجتماعية من دون أن تعترف له بموضوع خاص ينفرد به دون سائر العلوم الاجتماعية. إلا أنه عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وما نتج عن تلك الحرب من ظواهر سياسية، لم تكن موجودة من قبل وانقسام العالم إلى كتلتين وقيام كياناتٍ دولية جديدة، كل هذه العوامل أكسبت أهميةً لعلم السياسة، وفتحت الباب للبحوث السياسية والدراسات المستقلة، وأعطت لعلم السياسة أبعاداً جديدة تُبرزه عن العلوم الاجتماعية الأخرى.

وبالتالي تُعد الدراسات السياسية إحدى تخصصات العلوم الاجتماعية، التي تدرس نظرية السياسة وتطبيقاتها ووصف وتحليل النُظم السياسية التوجه، نظري وبخبي. أمّا بالنسبة لأبرز الحقول الفرعية التي تتناولها العلوم السياسية فتتضمن: النظرية السياسية والفلسفة السياسية والمدنيات وعلم السياسة

المقارن، والأنظمة القومية وتحليل سياسات بين الأمم والتطور السياسي والقانون الدولي وتاريخ الفكر السياسي والحريات العامة وحقوق الإنسان.

ولعلّ من أبرز اهتمامات ومجالات عمل قسم الدراسات السياسية والإستراتيجية في بيت الحكمة، هي:

١. إجراء الدراسات والبحوث، وعقد الندوات في مجال النزاعات الإقليمية والعلاقات الدولية والأمن، والقضايا السياسية على المستويات الوطنية والإقليمية والعالمية، وتحليل مدى تأثير هذه القضايا على أمن العراق والمنطقة.

٢. البحث في ميادين مختلفة بما يُحقق أهداف البيت مثل الديمقراطية والتعديلات الدستورية والإصلاح السياسي، والتعددية السياسية والحزبية والحراك السياسي والسلام والتنمية والبيئة.

٣. دراسة المجتمع العراقي من

مختلف الجوانب السياسية، وتقييم مدى توافقها مع المعايير الدولية ذات العلاقة، وتقديم البدائل السياسية لأصحاب القرار السياسي، من خلال التعاقد مع مؤسّسات الدولة وهيئاتها المختلفة حول دراساتٍ معينة يقدمها القسم لأصحاب القرارات.

٤. اقتراح تنظيم الفعاليات من مؤتمرات وورش عمل وندوات وزيارات ذات الصلة بالمجالات السياسية، والعمل على الإشراف على المحتوى التخصصي لهذه الفعاليات.

٥. إعداد الكتب الإستراتيجية في المجالات السياسية التي تتصل بالقضايا العراقية والعربية.

٦. المساهمة في نشر الوعي لدى الرأي العام العراقي بالقضايا السياسية والهامة في العالم بوجه عام، وفي العالم العربي والعراق بوجه خاص، بهدف تنوير الرأي العام بتلك القضايا.

٧. المساهمة في إعداد مجلّة دراسات سياسية وإستراتيجية الدورية الصادرة عن القسم، وفي إعداد التقرير السنوي عن إنجازاته وذلك من خلال إعداد المقالات والمواد المطلوبة من البرنامج للمجلّة.

٨. نشر التقارير والكتب، وتوفير إصدارات وأبحاث وأنشطة ومعلومات موضوعية في المجالات ذات العلاقة بالشأن السياسي والمواضيع الإقليمية.

#### سابعاً: قسم الدراسات الفلسفية:

تشتغل الفلسفة بحياة الإنسان برمتها، فهي فعل فكري يُلازم جميع قضايا وجوانب الحياة الفردية والاجتماعية والإنسانية، فعلاً منهجه التأمل، تجتمع فيه الدراسة الشاملة والتحليل المنطقي العميق والنقد الدقيق، ومن جوانب اهتمام الفلسفة التربوية. وإذا كان "الإنسان لا يمكن أن يصير إنساناً إلاّ بالتربية، إنّه ما تصنع منه

التربية"، على حدّ قول الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤م). ولا يمكن أن يحيا إنسانيته في أقصى مداها إلاّ بممارسة التفلسف.

وبالتالي تقوم الفلسفة بدور كبير في حياة الإنسان على عدّة مستويات.. حيث تقوم في مراحل التعليم الثانوي والجامعي بتنمية جملة من المهارات والقدرات لدى المتعلّم، من خلال تعزيز السلوك العقلاني المنظّم في الحياة الفكرية والنفسية والدراسية والاجتماعية، كما تسمح بامتلاك الثقافة العلمية والفلسفية والقدرة على التعبير الدقيق، واليقظة الفكرية والصرامة المنطقية، والمراقبة الذاتية خلال التفكير والتعبير، والحوار الفلسفي. وتنمية القدرة على النقد وإصدار الأحكام واتخاذ المواقف..

كما تزود الفلسفة المجتمع بأصول ومبادئ وغايات النظام الاجتماعي الذي

يحكمه ويحكم الحياة الاجتماعية فيه؛ كما تزود المجتمع بأصول ومبادئ وغايات النظام التربوي أي فلسفة التربية في المجتمع، حيث تستمد المنظومة التربوية التي تتكون من الأسرة والمدرسة والمجتمع مادتها ومناهجها وغاياتها ومبادئها وأهدافها من فلسفة المجتمع وفلسفة حياته عامة..

كذلك فإنَّ الفلسفة تساعد على التعرف على التراث الفلسفي الإنساني والتجاوب معه، والتوعية بمبادئ حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية وتمثلها والدفاع عنها، والتعرف على الصراع الثقافي والإيديولوجي السائد في العالم والتعاطي معه بإيجابية.. وبهذا فهي تمثل قِيَم التسامح الفكري والديني والحضاري عامةً واعتماد أسلوب الحوار في التعامل مع الآخر اجتماعيًا وإنسانيًا.

ومن خلال ما تقدم، يُعنى قسم

الدراسات الفلسفية في بيت الحكمة بعلم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) من خلال دراسة الواقع والوجود من حيث طبيعتهما الأساسية، بغية التوصل إلى ماهية الأشياء وحقيقتها، كما يتناول بالدراسة مبادئ وطرائق المحاكمة العقلية (المنطق)، من خلال استكشاف كفايات التمييز بين المحاكمة القويمة والمحاكمة السقيمة باعتماد البرهان أو الاستدلال، وتحديد طبيعة المعرفة وأساسها ومجالها، من خلال استكشاف الطرائق المختلفة المؤدية إلى المعرفة وجوهر الحقيقة والعلاقات بين المعرفة والإيمان، كذلك الاهتمام بدراسة القِيَم ذات العلاقة بسيرة الإنسان وشخصيته، لِمَا كان وما يزال موضوع الإنسان أحد المحاور الرئيسة في الدراسات الفلسفية، فضلًا عن عدّة مجالات معرفية أخرى يهتم بها هذا القسم العلمي، كفلسفة الجمال الباحثة في الإبداع وكذا في

المبادئ التي يقوم عليها الفن والجمال، وفلسفة الدين المهمة بدراسة وتحليل طبيعة المعرفة الدينيّة وما تنطوي عليه المعتقدات، ونوع الأدلة والبراهين التي تستند إليها تلك المعرفة في محاولة لتحليل التجارب الإيمانية، والبحث عن منابعها وتجلياتها وأحوالها، وفلسفة العلم المعنية بفهم وتفسير ظاهرة العلم فهماً يعمقها، فتبحث في التنظيم الأمثل لمناهجها، ومعرفة خصائصه ومقوماته، ومحاولة حلّ مشكلاته التي تخرج عن دوائر اختصاص العلماء، فضلاً عن موضوعاتٍ أخرى تدخل ضمن اهتمام قسم الدراسات الفلسفية من قبيل: فلسفة القانون، فلسفة التاريخ، فلسفة التربية، وغيرها..

أمّا عن أبرز أهداف ومشاريع هذا القسم العلمي المعرفي، فيتم العمل على:

١. إعداد المشاريع الفلسفية وما يدخل في اختصاصاته من علوم.

٢. تبويب المراحل والمذاهب والاتجاهات الفلسفية الكبرى.
٣. العناية بفكر الأمة الفلسفي وحضارتها وتراثها وتأكيد أصالة الفكر الإسلامي.
٤. العناية والاهتمام بالدراسات والبحوث التي تؤكّد على الفكر الفلسفي العربي المعاصر، والمشروع الحضاري والآفاق المستقبلية.
٥. استثمار الطاقات الفكرية والبحثية في الحقل الفلسفي الوطنية والعربية والإنسانية...

#### ثامناً: قسم الدراسات اللغوية والترجمية:

إنّ المقصود بالدراسات اللغوية أو بالتفكير اللغوي: النظر في أيّ جانبٍ من جوانب اللغة وبأيّ صورةٍ من الصور، وهذه النظرة عامة؛ إذ توسع من مدلول الدراسات اللغوية ليشمل كلّ صورةٍ من صور التفكير فيها، وبعض العلماء يقصر التفكير اللغوي على عدّة



جوانب بعينها على رأسها الجانب الصوتي، ثمّ الجانب الصرفي، ثمّ الجانب النحوي، ثمّ الجانب الدلالي، ثمّ يتبع هذه الجوانب بالنظر في موضوعات لغوية أخرى متعلّقة باللغة، كالحديث عن نشأتها ونموها وتطورها، ونرى بعضاً آخر من العلماء يُخرج من الدراسات اللغوية ما يتصل بالجوانب الأدبية أو الجمالية للغة، ونرى آخرين يُخرجون من الدراسات اللغوية وجهات النظر اللغوية المتصلة بالجوانب النفسية، والاجتماعية، والعقلية، وبخاصةٍ عندما يكون هدف هذه الجوانب خدمة ظاهرة أخرى غير اللغة. على أيّة حال، سواءً ضاق مفهوم الدراسات اللغوية أو اتسع، فإنّ تلك الدراسات لم تنشأ من فراغ، وإنّما هي ثمرة جهود طويلة على مرّ التاريخ.

وبالتالي فإنّ وظيفة علم اللغة دراسة اللغة ذاتها؛ بالكشف عن

خواصها ومميزاتها، وتسجيل هذه الخواص والمميزات كما هي في صورة قواعد ونُظُم عامة.

ويُعَدّ المؤسّس الأول لعلم الدراسات اللغوية بمفهومها الحديث هو فردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧-١٩١٣م) عالم اللغويات السويسري الذي يُعدّ الأب والمؤسّس لمدرسة البنيوية في اللسانيات في القرن العشرين.

أمّا بالنسبة للدراسات الترجّمية، فتُعَدّ أحد الفروع الأكاديمية متداخلة الاختصاصات، والتي تتناول الدراسة المنهجية لنظرية الترجمة، ووصف الترجمة، وتطبيقها، بالإضافة إلى الترجمة الشفوية والتوطين، وباعتبار أنّ دراسات الترجمة ذات فروع متداخلة الاختصاصات، فإنّها تستمد الكثير من مختلف مجالات الدراسات التي تدعم الترجمة، كان العالم الأمريكي جيمس إس هولمز James Stratton

## مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار:

أسَّس المركز في بيت الحكمة استنادًا إلى كتاب مكتب رئيس الوزراء العراقي المُرَقَّم: (م ر ن ٦١٧٦/١٨/٤٤/٨) في (٢٠١٠/٩/٨م)، هذا المركز الذي يسعى -وفق أجندة عمل ديناميكية- إلى تناول القضايا ذات الأولوية لدفع مسيرة الإصلاح المؤثرة على مسار التنمية في الأجلين القصير والمتوسط. وذلك من خلال رصد الواقع وتحليل الوضع الراهن لبحث التغيرات التي ظهرت في شتى المجالات، وتحديد المشكلات الرئيسية وتحليلها، وصولاً إلى صياغة مقترحات فعّالة لعلاج تلك القضايا.

ويتبنّى المركز العديد من سياسات وآليات العمل للارتقاء بدرجة كفاءة وفاعلية جهوده البحثية المختلفة. حيث يحرص المركز على تحقيق التوافق مع الاحتياجات الفعلية لمجتمع

Holmes (١٩٢٤-١٩٨٦م)، المُقيم في مدينة أمستردام هو من استحدث مصطلح (دراسات الترجمة) في بحثه المعنون: "تسمية دراسات الترجمة وطبيعتها"، والذي يُعدّ البيان التأسيسي لهذا الفرع، وفي اللغة الإنكليزية يستخدم الكتّاب مصطلح علم الترجمة في بعض الأحيان للإشارة إلى دراسات الترجمة.

وبالتالي فإنّ قسم الدراسات اللغوية والترجمة في بيت الحكمة إنّما يُعنى بالإسهام في نقل المعرفة الإنسانية بمختلف اختصاصاتها وتوجهاتها من وإلى اللغة العربية. كذلك ومن خلال نشاطات القسم العلمية المتنوعة -عقد الندوات وورش العمل والإصدارات بمختلف أنواعها- يتم العمل على التعريف بدراسات الترجمة في معظم جوانبها، التعريف بأبعادها المختلفة، طبيعتها العلمية والإبيستمولوجية.

المُستفيدين، وذلك من خلال مراجعة برامج عمل الحكومة وتوجهاتها، ومشاركة المجتمع المدني في صياغة أجندة عمل المركز، ودراسة تجارب المراكز المماثلة، بالإضافة إلى التوافق مع المُستجَدات على الساحتين المحلية والدولية.

كذلك يحرص المركز على تعظيم قيمة إصداراته من خلال تعزيز استخدام منهجيات كلٍّ من التحليل الكمي والكيفي، ومشاركة المُستفيد النهائي، فضلاً عن التعاون مع المراكز البحثية الأخرى. كما يعمل المركز على التطوير المستمر لمنهجيات عمله سعياً نحو الارتقاء بمستوى جودة إصداراته شكلاً ومضموناً.

بالإمكان اختزال الأهداف الإستراتيجية لمركز دعم واتخاذ القرار في البوتقة الفكرية لمجلس الوزراء العراقي، في مجالات دعم القرار في قضايا التنمية

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية:

- تنمية العلاقات مع الوزارات والهيئات الحكومية المختلفة، للعمل كفريق عمل واحد بدلاً من المنافسة.
- إتاحة البيانات والمعلومات في إطار كامل من الشفافية، مع التركيز على الإتاحة الإلكترونية.

- فتح قنوات للاتصال الجماهيري لقياس اتجاهات المجتمع نحو القضايا الوطنية والقومية والدولية.

كذلك بالإمكان تلخيص وسائل وآليات عمل مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار بالنقاط الآتية:

- دراسة القضايا التنموية (المزمنة / العاجلة / الإستراتيجية) المطروحة للنهوض بالاقتصاد والمجتمع العراقي.

- طرح تصورات ورؤى للسياسات العامة وإستراتيجيات الإصلاح في المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

- متابعة الأداء التنموي للحكومة

وأجهزتها المختلفة.

• تقييم مردود البرامج والسياسات المختلفة على المواطن العراقي.

• إثراء الموضوعات المرفوعة من أجهزة الدولة بالرأي المبني على الحقائق والمعلومات.

• رصد وتحليل الموضوعات ذات الصلة بحياة المواطنين من خلال المعلومات الواردة من الأجهزة المختلفة التي تُعبر عن كافة القطاعات.

• دراسة الموضوعات ذات الأثر التنموي في ضوء أولويات صانع القرار.

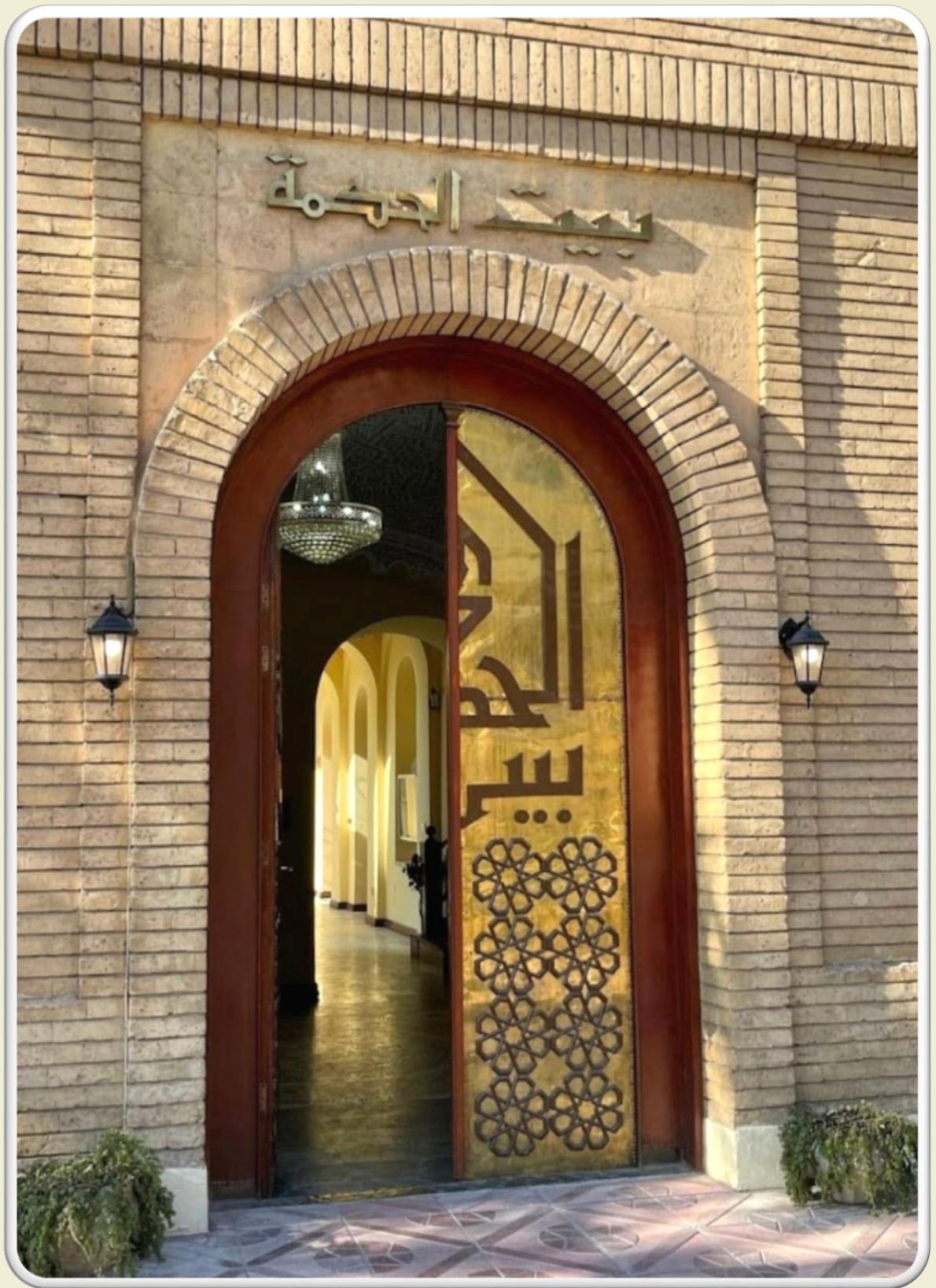
• مدُّ شبكة الرصد الميداني وتعميقها، لزيادة فاعلية أنشطة متابعة الأحداث والمتغيرات المؤثرة على مسيرة التنمية.

وفي الختام، يبقى بيت الحكمة

عنواناً لكرامة العلم ومقامه، ومأوى للطالب الجامعي الباحث عن العمق لا الاكتفاء هو مدرسة صامته تُعلّم من دون ضجيج، وتربيّ العقل على السؤال، والصبر، والمراجعة ولمريدي المعرفة مساحة أمانٍ فكري، يتجاوز فيها التراث مع أفق الحداثة في حوارٍ رصين يقوم على الود والتبادل المعرفي ومن هذا الوعي والواجب الوطني والمسؤولية العلمية تنبع النية الجادة لتطوير بيت الحكمة، ليغدو أكثر حيويةً وتأثيراً، تطويراً يوسّع أبوابه للباحثين، ويُحدّث أدواته، دون أن يمسّ جوهر رسالته، ليظل بيت الحكمة منارةً لا تنطفئ، تهدي طلاب العلم، وتحتضن كل ساعٍ إلى المعرفة.









The image features a highly decorative border in a traditional Islamic style. The border is composed of multiple layers of intricate patterns. The outermost layer is a repeating geometric star pattern in gold and blue. Inside this is a band of stylized floral and foliate motifs, also in gold and blue. The central area of the border is a deep blue field with gold floral designs. The corners and midpoints of the border are adorned with large, complex medallions (shamsas) in gold and blue. The entire border is set against a light cream background. The text is centered within this frame.

القِسْمُ الثَّالِثُ:  
عَالَمُ الْكُتُبِ



# التراث الشعبي كنبه المحبون

كتاب "بغداد في العشرينات" نموذجاً

د. هيثم عبد السلام محمد

عضو المجمع العلمي العراقي

عبود الشالجي (ت: ١٩٩٦م)؛ كل هؤلاء وغيرهم الكثير دافعهم محبتهم لتراث بغداد العريقة وليس من ضمن اختصاصهم العلمي.

وعلى الرغم من ذلك أجادوا فيما كتبوا وأبدعوا. ونحن لا نُنكر أن هناك من كتب في التراث الشعبي لم يرتق إلى المستوى المطلوب.

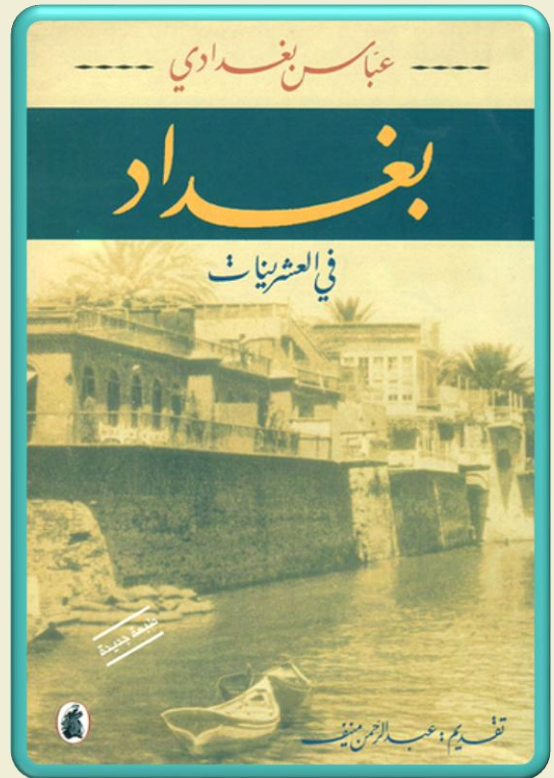
ومن أروع من كتب عن بغداد في العصر الحاضر بأسلوب شيق وجذاب وتناولها بشيء من التفصيل الأستاذ عباس البغدادي في كتابه (بغداد في العشرينات). والأستاذ عباس ليس له كتاب آخر، وهو بهذا الكتاب خلد

ما زال الاهتمام بالتراث الشعبي لا يحظى بالاعتراف الرسمي من قبل المؤسسات الحكومية؛ فهو ضائع بين المعارف فلا يُعرف له أب أو أم، وكل من يكتب فيه دافعه المحبة له أو الحنين إلى تلك الذكريات الباقية في الذاكرة، فينهض أصحابها بالبحث والتدوين عما تجود به قرائحهم وما تسعفهم به معارفهم.

وبنظرة سريعة تجد -مثلاً- أن من كتب عن الأمثال البغدادية الشيخ جلال الحنفي (ت: ٢٠٠٦م)، والعميد عبد الرحمن التكريتي (ت: ١٩٨٧م)، وفي الكنايات البغدادية كتب المحامي



نفسه بين الكتابِ الكبارِ، وكتابه يُعدُّ مرجعاً في أخبارِ بغدادَ، وقد كتبه من غيرِ رجوعٍ إلى المصادرِ -لعدمِ وجودِها- وإنما يعتمدُ على خزينِ ذاكرتهِ ومُشاهدتهِ لتلكِ الحقبةِ.



فهو يقول -رحمه الله تعالى-: «وحينَ جاوزتُ السبعينَ من العمرِ ألحَّ عليَّ أصدقاءُ كثيرونَ طالبينَ أن أكتبَ ذكرياتي عن أحوالِ بغدادَ وحوادثِها في العشريناتِ والثلاثيناتِ خوفاً من نسيانِها». وكان الهدفُ من ذلك: «لكي تعرفَ هي -زوجتهُ اللبنانية- والأولادُ

والأحفادُ بغدادَ القديمةَ وأحوالها الاجتماعية»، ثم يضيفُ: «كي لا ينسى الناسُ بغدادَ في تلكِ المرحلة».

ورغمَ أنه تركَ لنا تحفةً تراثيةً لم يستطع الآخرونَ أن يحتدوا حدوه وينسجوا على منواله أحد، فهو يعترفُ أنَّ عمله لا بدَّ أن شابَه القصورُ، يقولُ: «والآنَ مع كلِّ كلمةٍ أكتبها يغشاني الندمُ؛ لأنِّي لم أسجلها قبلَ عشرينَ سنةً يومَ كانتِ الذاكرةُ أنشطَ وأكثرَ استجابةً.. والآنَ، وأنا أدلفُ إلى الخامسةِ والثمانينَ من العمرِ أسجلُ ما لم يُسجَل». ويقولُ معذراً عن الخطأ: «وإذا كنتُ مخطئاً في بعضِ الحوادثِ والصورِ، فإنَّ لي من شيخوختي عذراً في ذلك». فهذا الكتابُ يُعدُّ تحفةً تراثيةً وأعطى صورةً واضحةً عن بغدادَ، وإذا كانت (ألف ليلة وليلة) تمثِّلُ صورةً صادقةً عن بغدادَ في الماضي، فإنَّ هذا الكتابَ يمثلُ صورةً حقيقيةً عن بغدادَ في العصرِ المتأخِرِ.

وممَّا يُؤسَفُ له هو كثرةُ السطو على

هذا الكتاب في وسائل التواصل الاجتماعي ومن أنصاف الصحفيين في الجرائد. ولا أعرف لماذا لا يُذكر الكتاب وصاحبه، وماذا يضير الناقلين عنه لو فعلوا ذلك؟!

وتعلّق الناس بالتراث الشعبي أمرًا لا يحتاج إلى دليل، فكثرة الاهتمام واضحة للعيان، وأتصوّر أنه سيكون في قابل الأيام أكثر؛ لأنه لا توجد قضية تحظى بالقبول ومن دون خصومة بين أفراد المجتمع مثل الحديث عن التراث الشعبي للبلاد، فتجد كتب التراث منشورة في كل المحافظات من دون نكير أو خوف منها، مع رغبة عارمة في تدوين كل شاردة وواردة عن التراث وتتبعها.

وعلى الرغم من الشأن الكبير لدى نفوس الناس وحبّهم وتعلّقهم بالتراث، إلا أنه إلى حدّ الآن لا تجد له قسمًا

علميًا مختصًا في الجامعات العراقية، بل كما ذكرت متروكةً للمحبين والمهتمين. في حين أنّ جامعات العالم تُعنى بالدراسة والتخصّص حتى في الموضوعات التي نحسبها غير مجدية.

إنّ تخصيص أقسام علمية لدراسة التراث الشعبي ممّا يساعد على الحفاظ على التراث الشعبي العراقي من الضياع، ومن خلاله يمكن معرفة مزاج الفرد العراقي ومحاولة إظهاره والتعريف به لدى شعوب العالم التي ما زالت عاشقة ومخلوبة به، كما يلجّم من يحاول سرقة أو تشويهه.

وكلّنا أمل أن تلتفت إليه المؤسسات العلمية والإعلامية الحكومية، وأن لا تكون بينهما قطيعة، وأن نلمس منها الاهتمام والدعم المادي من أجل الحفاظ على تراث بغداد من الضياع أو النسيان.





# مَوْلَانَا خَالِدُ الْبَغْدَادِيِّ

## أَوَّلُ إِصْدَارَاتِ مَوْرُوثِ الْعِرَاقِ الْعِلْمِيِّ

بِسُلْطَانِ صَلَاحٍ  
مَدِيرِ التَّحْرِيرِ

قريب، لم يشغله شاغل عن العناية  
بتراث علماء العراق، فأخذ يتواصل مع  
مختلف الأقطار في سبيل الحصول ولو  
على قصاصة تحمل اسم عالم عراقي،  
فبيذل ما عنده من جهد وينفق ما بين  
يديه من مال للحصول عليها.

والمَكْتُوبُ عنه هو: مولانا خالد  
البغدادى النقشبندى المجددي، عالم  
سالك فاضل لم يضطرب معتقده -على  
وصف الكبار-، وظلّ سالكاً مستقيماً،  
ويتصل نسبه بنسب صديقي وسمير  
روحي عُمَر السَّنَوِي الخالدي.  
فيكفي لكلّ هذه الأسباب أن تثور

في خطوة متطوّرة من خطوات  
مشروع (موروث العراق العلمي)  
أصدرَ باكورة إصداراته المطبوعة  
ورقيّاً: كتاب (مولانا خالد، وخلفاء  
مولانا خالد) للمؤرخ العراقي الكبير  
عباس العزاوي رحمه الله.

وعند بداية الكلام عن هذا كتاب،  
تستبد بي العواطف أيّما استبداد؛ فكاتبه  
مؤرّخ جليل ومصنّف نبيل، أكثر من  
الكتابة عن وطني، حتى قيل له: كفاك  
فقد كفيت ووفيت في تاريخ بلدك.  
والمُعْتَنِي بالكتاب هو: الأستاذ  
عبد القادر صبحي الجبوري، صديقٌ

لواعجي حباً ووداً لكل متعلقات الكتاب.

### أصل الكتاب:

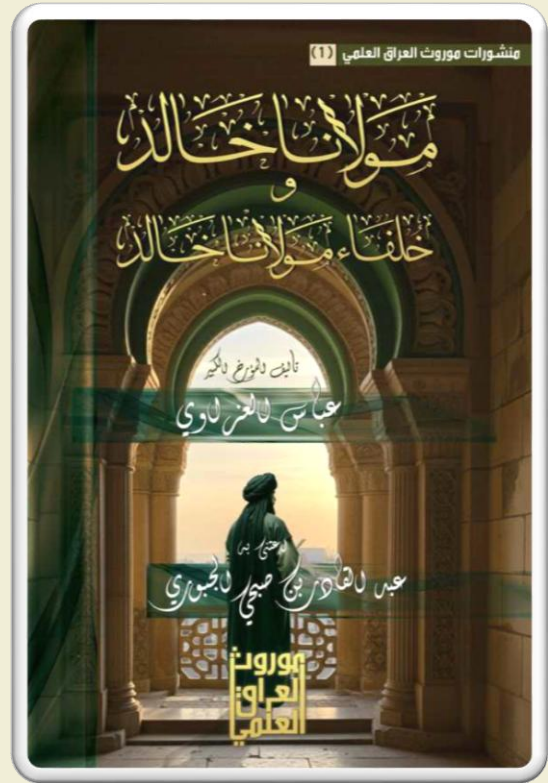
نُشرت مقالة «مولانا خالد» أوّل مرة في العدد الأوّل من المجلد الأوّل من مجلة المجمع العلمي الكردي، سنة ١٩٧٣م. ثم أعيد نشرها بعد وفاة المؤرخ علي يد ابنه فاضل. غير أنّ البحث يكشف أنّ هذه المقالة كانت قد ظهرت قبل ذلك متفرقة في مجلة الرسالة الإسلامية بأعداد سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

أما مقالة «خلفاء مولانا خالد» فقد نُشرت في العدد الثاني من المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي الكردي، سنة ١٩٧٤م، وتولى نشرها أيضاً فاضل، ابن المؤرخ، بعد رحيل والده.

### أهمية الكتاب ومنهج العزاوي:

يُستمد فضل الكتاب من شيئين:

**أولهما:** مؤلفه، فهو مؤرّخ ونسابة ومحامٍ وأديب، وجد تاريخ بلده متفرّقاً فجمع شتاته وأقامه بشكلٍ أنيق، فأظهر لنا



موسوعته تاريخ العراق بين احتلالين. ثم إنه صنف الكثير من المصنفات المتفرقة في جزئيات تاريخ العراق، فانتشر الأخذ بها بين الخاص والعام، وشهد لنفاستها أهل الرأي والنظر، فيقول عنه خليله المؤرخ جواد علي:

"وهو لا يعاشر الآن إلا صديقًا واحدًا لازمه منذ عرف الحياة، وهذا الصديق هو (الكتب والعلم)، ونادرًا ما تراه وهو بغير كتاب. والكتاب المحبوب إليه (كتاب التاريخ)، وأحب كتب التاريخ إليه على ما أعتقد هي كتب التاريخ النادرة، ولا سيما الكتب التي تبحث عن الفترة المظلمة السوداء (فترة العراق بين احتلالين)، وهي فترة مجهولة موحشة، تبتدئ بسقوط بغداد على أيدي الغزاة المغول، وتنتهي باحتلال الإنكليز لبغداد عام ١٩١٧م للميلاد. وإذا ما حدثك العزاوي عن هذه الفترة وتبسّط معك في الموضوع

وسرد لك حوادث الدويلات التركية وأسماء الأمراء الذين حكموا العراق في هذه المدة الطويلة من مغول وأتراك وإيرانيين فممالك، فأنا على يقين من أنك ستخرج وتقول: ما هذه الطلاسمة والتعاويذ! ولا بد لك من الاستعانة بقاموس أو مفتاح يحل لك رموز هذه الشفرة المعقدة التي لا يعرفها إلا القليل من أصحاب هذا العلم" [مجلة الرسالة، العدد ٦٥١].

**وثانيهما:** أهمية كتابة تاريخ الشخصيات التي طوى ذكرها في سجل النسيان، أمثال مولانا خالد وطلابه. ولم يأت الكتاب على هيئة التأريخ لمعصوم، بل أتى حاملاً تعريفًا شاملاً ونقدًا واضحًا وإشارات حصرية تدل على عقلية دقيقة.

فبعد الكلام عن سيرته وشيوخه وأخذه العلم والطريقة، وضع الحياة الفكرية التي عايشها الشيخ خالد

النشقبندي في زمنه، فكانت آراؤه محل  
أخذ ورد، ولا غرابة في هذا؛ فهذا سبيل  
العلماء مُنذ نقد أرسطو للفيثاغوريين.  
أخذَ عبّاس العزّاي ينقل ما قيل  
في الشيخ خالد مدحاً وما أُخذَ عليه من  
أُمور، وأغلظ في مواضع، وألان في  
مواضع، وانتقد مسألة الرابطة، التي  
هي ركن متين من أركان الطريقة  
النشقبندية. وختم بكتبٍ تكلمت

عن مناقبه ومآل مكتبته التي تقع اليوم  
في الخزانة الظاهرية بدمشق.  
ثم ذكر العزّاي خلفاء مولانا  
خالد بأسلوبٍ موجز لبيان امتداد  
طريقته المجدّدية.  
ثم ألحق به الأستاذ عبدُ القادر  
الجبوري أسانيدَ الشيخ خالد، ومستدرّكاً  
على العزّاي ما فاتهُ ذكره من طلابه،  
فسبحان من له عظمة الكمال.



# الجهود الرقمية المعاصرة في حفظ التراث

مَشْرُوعُ "مَوْرُوثِ الْعِرَاقِ الْعِلْمِيِّ" نُمُودَجًا

د. عبد القادر صبحي الجبوري

صاحب مشروع موروث العراق العلمي

## المقدمة:

التراث هو الهوية الثقافية للأمة وركيزة أساسية تعزز من انتماء الفرد لأمتيه؛ ولهذا اهتمَّ الناس بمختلف دياناتهم وقومياتهم بتوثيق تراثهم، وبهذا أصبح التراث متوارثاً من جيل إلى جيل، إلا أنَّ هذا الاهتمام لم يكن كافياً لنقل التراث إلينا كاملاً، بل تعرّضت الأمة عموماً وبغداد خصوصاً إلى نكبات وويلات فُقدَ على إثرها جزء كبير من تراثها (وأخصّ بذكر التراث هنا الكتب والمكتبات؛ لكون مصطلح التراث يشمل التراث المادي

كالمخطوطات، والتراث غير المادي كالعادات والتقاليد).

فأذكرُ على سبيل المثال لا الحصر: غزو المغول سنة ٦٥٦ للهجرة، وغزوات تيمورلنك سنة ٧٩٥ و ٨٠٣ هـ، وإهمال الترك والعثمانيين -خصوصاً- لبغداد والولايات العراقية الأخرى، واحتلال الصليبيين للعراق سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م؛ فكانَ هذا الفقدان وهذه الخسارة لا تُعوّضان، ولا يمكنُ نسيانُ أثرهما.

## أبرز رجال حفظ التراث:

لكنّا بفضل الله تعالى نجدُ في كلّ قرنٍ من القرون رجالاً شمّروا عن



سواعدِ الجد، وعملوا على حفظِ التراثِ ونقله إلينا تارةً بالجمع وتارةً بالفهرسة وتارةً بالتحقيق، وأخَصُّ منهم بالذكرِ -إذ لا يسعُ المَقَامُ ذكرهم جميعًا-:

١. د. سالم الألوسي (ت ١٤٣٦هـ -

٢٠١٤م): الذي كان له الدورُ البارزُ في تأسيسِ المركزِ الوطنيِّ للوثائق، وبالتالي حفظَ لنا الملايينَ من الوثائقِ الخطيةِ والمطبوعةِ (والتي خسرنا جزءًا كبيرًا منها في أحداثِ الاحتلالِ سنةَ ٢٠٠٣م)، ناهيك عن عمله في التحقيقِ والتأليفِ.

٢. أسامة ناصر النقشبندی: الذي كان

له الدورُ البارزُ في الحفاظِ على التراث، وفي جمعِ المخطوطاتِ من العوائلِ والأسرِ عن طريقِ الشراء، فأسَّسَ دارًا مستقلةً للمخطوطاتِ سُمِّيَتْ (دارِ صدامِ للمخطوطات) وجمعَ فيها مخطوطاتِ المكتبةِ والمُتَحَفِ والمخطوطاتِ التي

اشتراها. أيضًا كان له الدورُ الأكبرُ في الحفاظِ على هذه المخطوطاتِ البالغِ عددها أكثرَ من ٤٧ ألفَ مخطوطةٍ إِبَّانَ أحداثِ سقوطِ بغداد (٢٠٠٣م)؛ حيث طلبَ من رئاسةِ الجمهوريةِ قبيلَ السقوطِ إفراغَ مخزنٍ أو مستودعٍ لحمايةِ هذه المخطوطاتِ من مخاطرِ الحربِ والسرقةِ فاستجابت له الرئاسةُ، وبهذا حفظَ لنا تراثَ بلدٍ كاملٍ، وما فُتِحَ هذا المخزنُ أمامَ قواتِ الاحتلالِ إلا بعدَ حضورِ الإعلامِ الدوليِّ لأنَّ هذه القواتِ كانت تنوي سرقتها جهارًا وأمامَ الملأ.

٣. كوركيس عوَّاد (ت ١٤١٢هـ -

١٩٩٢م): شيخُ المَهرسينِ في عصره، والمحققُ الثَّبتُ، ورائدُ العملِ الببليوجرافيِّ في العراق؛ كان له دورٌ عظيمٌ في أعمالِ الفهرسةِ والببليوجرافيا في العراق؛ فمن أهمِّ

كتبه (معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين) في ثلاثة مجلدات، و(جمهرة المراجع البغدادية) جمع فيه أكثر من أربعة آلاف عنوانٍ كُتبَ عن بغداد باللغة العربية وغير العربية، ما عدا عشرات الكتب والمقالات التي كتبها والتحقيقات التي قام بها. وكان مختصاً بعلم المكتبات؛ لذا تولى إدارة مكتبة المتحف الوطني فأدى إلى تنامي المكتبة أضعاف ما كانت عليه من مطبوعات ومخطوطات، وكان له الدور الأكبر في تأسيس مكتبة جامعة المستنصرية جمع فيها أكثر من ٩٠ ألف كتاب، وكان له اطلاع واسع بأحدث الأساليب المستخدمة في أرشفة المكتبات العالمية.

وهكذا كان من الضروري رقمنة هذا التراث وأرشفته وفق أحدث

الأنظمة والطرق؛ فمع مرور الوقت تطوّرت أساليب التدوين والأرشفة وأصبح للتكنولوجيا دور مهم وأساسي في حفظ التراث إذ لا يمكن الاستغناء عنه، ونظرًا لما فقدناه من هذا التراث العظيم كان من الضروري العمل على حفظ وخدمة هذا التراث عبر رقمته وأرشفته والسعي المتواصل لإدراك ما فاتنا.

#### مفهوم رقمنة التراث:

قد يفهم البعض بأن رقمنة التراث وأرشفته تعني فقط تصوير الكتب -لا سيما الحديثة منها- ونشرها بصيغة (PDF) وإتاحتها للناس، ولكن هذا الفهم خاطئ ناتج عن قلة الوعي بالتكنولوجيا وأساليب الرقمنة الحديثة؛ فرقمنة التراث وأرشفته أوسع بكثير من حصرها بنشر ملفات (PDF)، فهي باختصار تعني التوثيق الإلكتروني للمادة التراثية والحفاظ عليها إلكترونياً

وإيصالها للأجيال القادمة، ويشدُّ أهميتها في المناطق أو البلدان التي تكثر فيها الحروب والصراعات والتي غالبًا ما تكون الكتب من أبرز ضحاياها.

إنَّ رقمنة التراث تعني تحويل المواد التراثية الأصلية كالكتب المطبوعة والمخطوطة والوثائق إلى صيغ رقمية وأرشفتها وفق نظام بياني حديث ومتكامل يمكن من خلالها الاستفادة منها في تطبيقات الذكاء الاصطناعي باستخدام خوارزميات خاصة وغيرها.

### أنواع الرقمنة:

رقمنة الكتب تنقسم إلى نوعين:

- الأول: التصوير الرقمي، والذي يعني حفظ الكتب والمخطوطات بشكل صور، وهذا هو الغالب في تراثنا العربي والإسلامي.
- الثاني: التعرف الضوئي إلى النصوص (OCR)، والذي يحوّل الصور إلى نصوص قابلة للبحث

والتحريّر، والذي عن طريقه يمكن استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي في خدمة التراث.

### أهمية رقمنة التراث:

إنَّ أرشفة التراث ورقمته لهما دور مهم في توثيق التراث، وتزداد أهمية دورهما في ظل التطور الرقمي الحاصل الذي أحدث تحولاً جذرياً في آليات أرشفة التراث العربي. وتتعدّد أهمية الرقمنة والأرشفة ولعلّ من أبرزها:

١. الحفاظ على النسخ الأصلية للمخطوطات والمطبوعات والوثائق: فالحفاظ على النسخ الأصلية يكون من عدّة أوجه؛ منها: الحفاظ عليها من التلف الفيزيائي الناتج من كثرة الاستخدام واللمس أو سوء الحفظ، وأيضاً الحفاظ عليها في الحروب وكوارث السرقة والنهب والحرق... إلخ. وذلك بعمل نسخة رقمية لها، وصحيح إنَّ فقدان النسخ الأصلية

خسارةً لا تُعوّض إن حصل شيء، لكنّ رقمنتها سوف تجعلنا نخرج بأقلّ الخسائر وتحفظ لنا في الوقت نفسه تراثنا وموروثنا العلمي؛ فعلى سبيل المثال: مكتبتا الأوقاف العامة ببغداد والموصل واللتان كانتا تحويان أنفس النسخ الخطية والمطبوعة في العالم، فقدناهما بسبب الحروب؛ فمكتبة الأوقاف ببغداد فقدت معظمها في حرب ٢٠٠٣م، ومكتبة الأوقاف بالموصل في أحداث سيطرة تنظيم داعش الإرهابي بعد ٢٠١٤م، فلو قامت المؤسسات حينها برقمنتها وأرشفتها إلكترونياً لما فقدنا تلك الخزائن الخطية لعلماء وأسر علمية امتدت قرونًا.

٢. إيصال التراث إلى الأجيال القادمة: الكتب عمومًا معرضة للتلف أو للفقدان مهما كانت المسببات لها ما لم تكن هنالك جهودٌ تحافظ

عليها؛ لذلك فإنّ أفضل وسيلة وأسهلها لإيصالها إلى الأجيال القادمة هو رقمنتها وأرشفتها.

٣. تسهيل الوصول إلى التراث وإتاحته للجميع: الغالب على المطبوعات العراقية -مع أهميتها- ندرة أو قلة وجودها في البلدان الأخرى، ناهيك عن المخطوطات والوثائق، وإخراج هذه المطبوعات من دائرة الاحتكار والتضييق الذي يمارسه البعض؛ فالعلم والمعرفة في ديننا الإسلامي الحنيف ليس حكرًا لأحدٍ أو لفئة معينة بل هي للجميع. فالباحثون وطلاب العلم من مختلف البلدان العربية والإسلامية يعانون في الحصول على المصادر والمراجع العراقية أو المطبوعات العراقية، ممّا يجبر الطالب أو الباحث على البحث عن البديل عنه، وبهذا قلّ الاعتماد على المصادر العراقية وقلّ

المشتركون للمطبوعات العراقية في خارج البلاد؛ فالرقمنة في هذه الحالة أصبحت ضرورية وتسهّل الكثير من الصعاب على الآخرين.

٤. زيادة الوعي العام: وذلك عن طريق رقمنة الكتب ونشرها في تطبيقات التواصل الاجتماعي بعدة أساليب؛ منها: التعريف بهذه الكتب وبيان أهميتها ونشر اقتباسات منها وقصّة تأليفها... إلخ، ممّا يعزّز المحتوى العلمي الهادف والإيجابي في هذه التطبيقات.

٥. تعزيز البحث العلمي: لا يخلو تراثنا العربي والإسلامي بشكل عام من حلقات منقطعة أو غير مدروسة ومصنّفات مفقودة؛ فبالتالي تكون رقمنة هذه الكتب وأرشفتها تساهم بشكل كبير في حلّ هذه المشكلات، وذلك عن طريق إنشاء قاعدة بيانات ضخمة مرنة أو مجموعة

قواعد بيانات مرتبطة ببعضها، ومن ثمّ العمل على دراستها وتحليلها ممّا يساهم في تبسيط هذه المشكلات وربطها ببعضها، ومن خلال هذا الأمر نقدر على تسخير تطبيقات الذكاء الاصطناعي في خدمة التراث، أو يمكن أيضًا من خلال الأرشفة إيجاد الموضوعات التي لم تُدرس من قبل أو تحتاج إلى عناية علمية أكثر، ممّا يساعد طلبة الدراسات العليا في اختيار عناوين لرسائلهم وأطاريحهم الجامعية.

#### أمثلة ومقترحات:

يمكن عمل دراسات عن الحركة العلمية في العراق في الفترة المظلمة، وبالذات ما بعد غزو تيمورلنك من خلال تتبع قيود النسخ والتملّك في المخطوطات، وأيضًا تتبع المعلومات المذكورة عن تلك الفترة من ثنايا الكتب المطبوعة.



كما يمكن أيضاً جمع تراجم العلماء من الكتب المرقمنة وترتيبها حسب الصيغة المطلوبة؛ كترتيبها بحسب (شيوخه، تلاميذه ومؤلفاته... إلخ). وهذا غير ممكن إلا عبر الرقمنة وقاعدة بيانات ضخمة، وما عدا ذلك سيأخذ وقتاً طويلاً لإنجاز مشاريع كهذه.

#### التحديات والعوائق:

لا يخفى على أحد بأن أي مشروع -وبالذات المشاريع العلمية- له تحديات وعوائق تعرقل سير عمله؛ فمن أبرز التحديات لجهود الرقمنة والأرشفة:

١. قلة الدعم المادي: أو عدم وجوده أصلاً؛ فالسيولة المادية لها دور كبير في تسهيل كثير من العقبات التي تعرقل أي عمل أو مشروع ومنها الرقمنة والأرشفة، فمن أبسط ما يحتاج إليه الواحد في هكذا مشاريع: جهاز حاسوب.

○ أجهزة تصوير رقمية (الماسحات الضوئية) كجهاز (ElariScan A2) وأجهزة شركة (CZUR) التي أستخدمها شخصياً، وغيرها.

○ هاردات لحزن الملفات المصورة عبر تلك الأجهزة.

○ شراء كتب لغرض التصوير الرقمي.

٢. قلة الوعي: الغالب على المجتمع

بسبب الظروف القاهرة هو عدم

معرفة قيمة هذا التراث العظيم،

فتجد الكثيرين يقللون من شأنها

لعدم علمهم به، وقد تجد بعض

الورثة لبعض الشخصيات العلمية

يبيعون مكتباتهم بأبخس الأثمان

لنأيس لا يستحقونها بدلاً من الحفاظ

عليها. وقلة الوعي هذه قد تسببت

بفقدان الكثير من هذا التراث.

٣. عدم وجود تعاون مشترك بين

المهتمين والعاملين في هذا المجال:

إنَّ انعدام هذا التعاون يسبب تأخر

الإنجاز وزيادة العرقلة والعكس صحيح؛ فالعمل الجماعي سيسهل الصعاب ويزيد الهمة والإنتاج، وحديث رسول الله ﷺ خير دليل على ذلك؛ قال: «يُد الله مع الجماعة». ولا ننسى من مساوئ انعدام التعاون أنه قد يتكرر جهد كل شخص في موضوع واحد أو تصوير كتاب معين مما يؤدي إلى هدر الجهد وتأخير إضافي في إنجاز العمل.

٤. عدم وجود دعم رسمي من المؤسسات والمنظمات: غياب الدعم الرسمي لا يعني فقط تلكؤ وبطء المشاريع الفردية، بل يفتح الباب لضياح الموروث العلمي للبلاد، بل ويعرض هذه الجهود للتوقف والعزوف بما يلقاه الباحث من عراقيل وغيرها؛ فالباحث الحر مهمش -مع الأسف- لا يقدر على الحصول على كتاب مهم أو

مخطوطة إلا بموافقات رسمية وانتماء إلى مؤسسة.

### أبرز الجهود الرقمية لحفظ التراث:

في ظلّ التحولات الرقمية المتسارعة والتطورات العلمية وتقدم أدوات الرقمنة والأرشفة، بات حفظ التراث بشتى أنواعه وأشكاله أمراً ضرورياً؛ لذا ظهرت جهود مؤسساتية وفردية لإنقاذ هذا التراث. وأحياناً نجد الجهود الفردية قامت بما عجزت عنه بعض المؤسسات، وفي الوقت نفسه كشفت لنا ضعف الذاكرة الرقمية العراقية، فهذه الجهود الفردية مهما كثرت لا يمكن أن تكون بديلاً عن مشروع وطني أو إطار عمل جامع للجهود والمشاريع الفردية.

#### • من أبرز الجهود المؤسساتية:

١. قامت دار الكتب والوثائق الوطنية ببغداد بإكمال إنشاء المكتبة الرقمية والتي افتتحت قبل شهر، ونأمل أن يكون هذا الجهد مثمراً

وعوناً للطلبة والباحثين.

٢. قامت مكتبة المجمع العلمي العراقي وعلى رأسها مديرتها الموقرة الدكتورة نادية غضبان بتصوير وأرشفة جميع مخطوطات مكتبة المجمع العلمي العراقي، والعمل جارٍ على رقمنة وأرشفة جميع محتويات المكتبة.

٣. قام المركز الثقافي البغدادي وعلى رأسه مدير المركز الأستاذ طالب عيسى المحترم بجمع مكتبات عشرات الشخصيات البغدادية؛ فتجمع في المركز أكثر من مئة ألف كتاب وتم رقمنة قرابة عشرة آلاف كتاب، ناهيك عن النشاطات الأخرى التي يقوم بها هو والمركز الثقافي.

• أما أبرز الجهود الفردية التي وقفت عليها:

١. الأستاذ المهندس سرمد السامرائي المحترم: يعود تاريخ بدء عمله في

تصوير الكتب ونشرها إلى نهاية سنة ٢٠٢١م. وقد قام بتصوير عشرات الكتب ونشر المئات مما ندرَ وقُلَّ وجوده في الإنترنت، ويتميز عمله بالعمومية؛ فهو ينشر المطبوعات العراقية وغيرها.

٢. الأرشيف العراقي للمطبوعات: وهو مبادرة جماعية مستقلة يقودها مجموعة من الشباب والشابات أهل الهمم عددهم قرابة ١٥ شخصاً ومديرهم الكاتب محمد يعرب مدلول، ويعود تاريخ بدء عملهم إلى سنة ٢٠٢١م. أما جهودهم فقد قاموا بتوثيق عشرات المجلات بأعدادها الكاملة، وخصوصاً فترة السبعينات والثمانينات، وتميزت هذه الفترة بطفرة نوعية في الإنتاج العلمي؛ فمن أهم المجلات التي وثقوها: (ألف باء) و(العالم) و(آفاق عربية) والصحف الحزبية والثقافية الأخرى،

ويتميز عملهم بالتوثيق الأكاديمي في رقمنتهم وأرشفتهم. ولهم نشاطات أخرى، منها: المشاركة في الندوات، وغيرها.

### مشروع موزوث العراق العلمي

هو مشروع علمي معرفي توثيقي مستقل يُعنى بإحياء التراث العلمي والفكري في العراق من خلال جمع وتحقيق ونشر الأعمال النادرة والمخطوطات والمطبوعات والمجلات، وتوثيق سير العلماء والشخصيات والرسائل الجامعية، مع توظيف الوسائل الرقمية الحديثة في الأرشفة والعرض والتحليل، بالإضافة إلى توثيق تاريخ المكتبات والمدارس والمؤسسات العلمية في العراق قديمها وحديثها...

يهدف المشروع إلى حفظ الذاكرة العلمية العراقية من التشتت والضياع عبر رصد نتاج العلماء العراقيين وتتبع

آثارهم في مكتبات العالم، مع توثيق سيرهم وإبراز مدارسهم واتجاهاتهم الفكرية والعلمية، مع العمل بتقديم هذا الموروث بلغة علمية رصينة تجمع بين الأصالة والحداثة. ونسعى في هذا المشروع إلى بناء ذاكرة علمية مستدامة تربط الأجيال بإرثها الحضاري والعلمي وتفتح آفاق البحث والتأمل في النتاج العراقي الرصين. وهذا المشروع ليس مجرد محاولة لتوثيق الماضي، بل دعوة واعية لإحياء كنوز علمية غُيّبت عن الذاكرة العامة وإعادة تقديمها للأجيال بلغة معاصرة تحفظ هيبتها وتفتح أبوابها للعالم.

وجاء العمل بهذا المشروع من إيماننا بأن قراءة تراث العراقيين في مؤلفاتهم ومخطوطاتهم وأثرهم في الحياة العلمية والثقافية هي ضرورة معرفية ومهمة تاريخية ورؤية مستقبلية في آن واحد.

ابتدأتُ العملَ في هذا المشروع سنة ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م، وذلك بعد رؤيتي قلة المخطوطات العراقية في تطبيقات التواصل الاجتماعي؛ فأخذتُ بالعزم جاهداً وباحثاً وسائلاً عن المخطوطات العراقية حتى توفّر عندي عددٌ لا بأسَ به، فأخذتُ بمطالعتها ونشرها واحداً تلو الآخر. وكان أولُ مخطوطةٍ نشرتها (المختار من مديح رسول الله ﷺ) للإمام الشهيد يحيى الصّرصريّ الحنبليّ (المقتول على يد المغول سنة ٦٥٦هـ) بتاريخ ٧ شعبان ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١/٣/٢١م. وأيضاً لاحظتُ في الوقت نفسه قلة المطبوعات العراقية على الساحة العلمية، فأخذتُ باحثاً عنها وعن أسباب قليتها، فرأيتُ الأمرَ متعلّقاً بقلتها على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وندرتها فيه، في حين المطبوعاتُ العراقيةُ كثيرةٌ ومتنوعةٌ وربما أفضلُ من غيرها من ناحية

المضمون؛ فبدأتُ باحثاً عن المطبوعات العراقية في زوايا المكتبات الرقمية والمواقع الإلكترونية المختلفة، فتجمّع عندي الكثيرُ من المطبوعات النادرة، وهكذا توالى العملُ إلى أن استقرّت الجهودُ على النقاط التالية:

**١- الجمعُ والتوثيقُ:** عبرَ جمع أكبر قدرٍ ممكنٍ من مؤلفاتٍ وكتاباتٍ أعلام العراق في مختلف ميادين العلم والمعرفة سواءً أكانت مخطوطاتٍ أو مطبوعاتٍ أو مقالاتٍ أو رسائلٍ جامعيةً، ونشرَ نماذجٍ من آثارهم العلمية خطّاً ومضموناً، وتوثيق سير هؤلاء العلماء من مصادرٍ معتمدة. وبعدَ عمليةِ الجمعِ نقومُ بالتوثيق العلمي المنهجيّ على مرحلتين:

- مرحلةُ التصنيف: ويتمُّ تصنيفُ الموادِ التراثية بحسب:

١. نوعِ المادةِ التراثية: (المخطوطات، المطبوعات، المجلات، الوثائق،



الرسائل الجامعية والصور... إلخ).  
٢. المجال العلمي: (علوم الشريعة الإسلامية، علوم اللغة، التاريخ، التراجم، الفهارس... إلخ).  
٣. دور النشر: (وزارة الأوقاف، دار الرشيد، مطبعة سلمان الأعظمي، مطبعة دار السلام، مطبعة المعارف ودار الشؤون الثقافية... إلخ).

- مرحلة الحفظ الرقمي: ويتم فيه حفظ بيانات المواد بحسب ترتيب خاص وتسلسل معين في قاعدة بيانات المشروع.

٢- الرقمنة والأرشفة: عادة ما يبدأ العمل بالرقمنة والأرشفة بعد البحث العميق عن المطبوعات العراقية في الشبكة العنكبوتية (لا سيما تطبيقات التواصل الاجتماعي)؛ فإذا وُجد المطلوب تم إيداعه في الأرشيف وتصنيفه كما سبق ذكره. وإذا لم أجد

المطلوب فعن طريق شراء الكتب التي يتم اختيار معظمها بعناية بحسب (مادته العلمية) أو (أهمية الكتاب) وبالنظر أيضًا إلى إمكانية المادية المحدودة جدًا؛ فعليه يتم شراء عدد قليل من العناوين المطلوبة.

وبعد شراء الكتب يتم تصويره عبر جهاز (Shine Ultra Pro) وهو من أجهزة شركة (CZUR) الصينية المختصة بالأجهزة التصويرية الرقمية تأسست سنة ٢٠١٣م وتعد رائدة في هذا المجال، بل وتعتبر أول شركة أنتجت أجهزة تصوير رقمية مدعومة بالذكاء الاصطناعي، وهذه الأجهزة مدعومة بخوارزميات وبرمجيات خاصة تجعلها متفوقة على غيرها، وأجهزة هذه الشركة منتشرة عالميًا في أكثر من ١٦٠ دولة.

وأما الجهاز الذي أعمل عليه: (Shine Ultra Pro)، فهو جهاز محمول ذكي وسهل الاستخدام يتميز

بتقنياتٍ عديدةٍ، منها: التسوية التلقائية للمنحنيات ودقة عالية في التصوير، وفيه ميزة التعرف الضوئي للنصوص (OCR) قوية وبـ ١٨٠ لغة، منها العربية، ويدعم الكثير من صيغ الملفات منها: (PDF, JPG, TIFF, EXCEL, WORD) وغيرها، ومعها برنامج خاص يمكن من خلاله التعديل والترتيب والرقمنة، ومدعومة بالذكاء الاصطناعي. ومن ثم معالجة الصفحات المرقمنة عبر ضبط أبعادها وتنقية الصفحات من أي كتابة يدوية أو تأشيريات وغيرها.

ويأتي بعدها مرحلة الأرشفة والتصنيف، وهذه المرحلة تختلف قليلاً عن السابق لكونه يتم من خلاله أرشفة وتصنيف الكتب التي تم تصويرها من قبل (مشروع موروث العراق العلمي)؛ فيتم من خلاله حفظ الكتاب بصيغ إلكترونية مختلفة

(PDF و MAGE و TEXT)

وكتابة معلومات الكتاب في قاعدة بيانات خاصة. وبهذا يكون الكتاب جاهزاً للنشر، وعادة ما تستغرق هذه العملية أياماً وربما أسابيع بحسب حالة الكتاب وعدد أجزائه وعدد صفحاته.

### ٣- البحث والكشف: عبر البحث

عمّا خفي من المؤلفات والمقالات في رفوف المكتبات وزوايا الرفوف والكشف عن المفقود منها ومحاولة للوصول لما صعب المنال منها، ولله الحمد وفقنا إلى الكثير والكثير من المخطوطات العراقية.

### ٤- الإتاحة والنشر: عبر منصات

رقمية مفتوحة تتيح للباحثين والمهتمين وطلاب العلم الوصول المباشر إلى المادة الموثقة والرقمنة ونشرها ليعم فائدتها بين الجميع، وخصوصاً من كان خارج العراق لصعوبة توفر النسخ الورقية لكثير من المطبوعات العراقية وخصوصاً المجالات.

## ٥- التحقيق والدراسة: سيكون

هذا الجهد من أهم ركائز المشروع، وجارِ العمل على كثير من الأمور خلف الشاشات من تحقيق للمخطوطات ودراسات منهجية وغيرها، ونسأل الله التيسير لإتمام أعمال هذا القسم.

## ٦- التحفيز والتواصل: عبر تحريك

الساکن في الذاكرة الثقافية العراقية، وفتح باب التعاون مع الباحثين والمؤسسات المهمة، وعبر محاولة جادة وفعالة للتعريف بهذا الموروث العظيم.

## ٧- إصدار الكتب والبحوث: نسعى

في هذا المجال إلى إحداث طفرة نوعية في عالم الكتب من خلال الإصدارات الإلكترونية ونوعية الإصدار؛ فهذا الجهد امتداد تطبيقي لبقية الجهود ونتيح فيه المجال للباحثين والمهتمين بالموروث العراقي العلمي لنشر أعمالهم ضمن إطار علمي موثوق.

## ٨ - نشاطات أخرى: ثم نشاطات

أخرى أقوم بها في فترات مختلفة لعل من أهمها:

• تم التبرع بجهازين (Shine

Ultra Pro) من شركة

(CZUR)، أحدهما لدار الكتب

والوثائق ببغداد والآخر لمنظمة

التراث والأرشيف؛ وقد تبرع

بالأموال رجل فاضل من المملكة

العربية السعودية ونهى عن ذكر

اسمه تواضعاً منه، جزاه الله خيراً

وجعله في ميزان حسناته.

• تم حفظ ومعالجة صور أكثر من

٥٠ عالماً وشخصية عراقية عبر

الذكاء الاصطناعي والعدد في

ازدياد مستمر ولله الحمد.

• تمت زيارة عدد من المكتبات

والمؤسسات والاستفادة منها،

ك(المجمع العلمي العراقي،

والمكتبة القادرية، والمركز

الثقافي البغدادي، ودار الكتب

والوثائق الوطنية... إلخ).

- مساعدة كثير من طلبة الدراسات العليا في رسائلهم وأطاريحهم الجامعية من استشارات وحل الصعاب وتذليل العقبات وتوفير

المصادر وغيره.

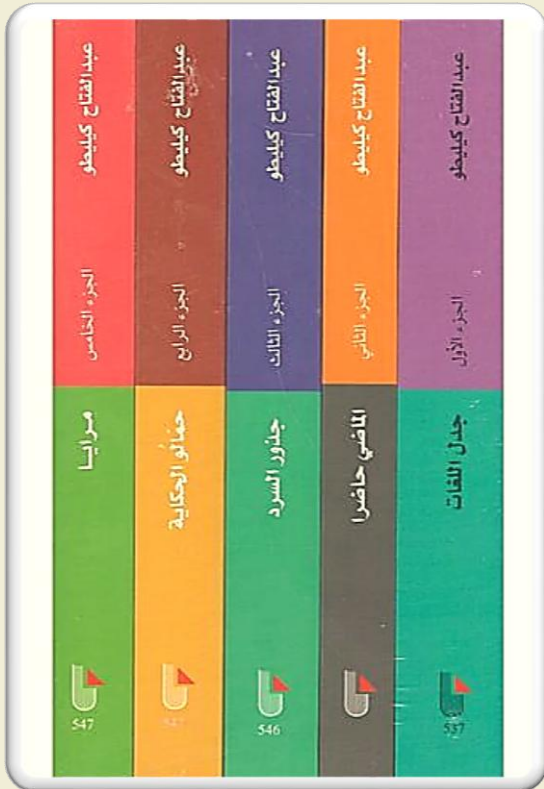
وفي الختام أرجو من الإخوة الكرام والأخوات الكريمات ذكر مقترحاتهم وآرائهم فيما يخص المشروع عبر الإيميل: [heritageofiraq@gmail.com](mailto:heritageofiraq@gmail.com)



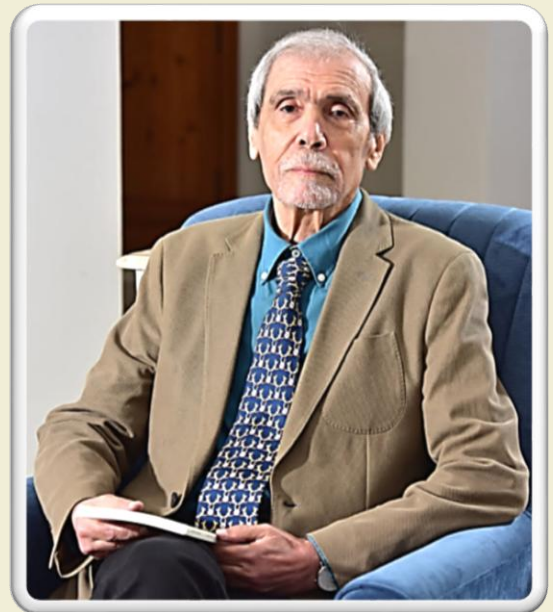
# مِنْ وَحْيِ اللَّيَالِي الْأَلْفِ عُودَةُ السَّنْدِبَادِ

علاء الدين أحمد شهاب  
كاتب وناقد عراقي

في كتابه الذي يحمل عنوان  
(الماضي حاضراً) يحزر المفكر المغربي  
فصلاً بعنوان (عودة السندباد)،  
ويسلط عليه أضواءه النقدية الكاشفة.



كلّنا يعرف حكاية السندباد والأهوال  
التي واجهته في رحلاته العجيبة المثيرة،  
إلا أنّ (عبد الفتاح كيليطو) يعرف ما لا  
نعرفه عن هذا الفتى المغامر -على ما  
يبدو-، أو هو -على وجه الدقة- يقرأ  
الحكاية من زاوية مغايرة.





لسنا هنا بصدد اكتشاف رحلات  
السندباد من جديد، ولا بِنِيَّة قطع  
تذكرة سفر لاكتشاف عوالمه الغرائبية  
العجيبة، وإِنَّمَا نحن بصدد الكشف عن  
انعكاسات تلك الرحلة وتداعياتها على  
واقعنا العربي وعلى الفرد والمُجتمع  
على حدٍّ سواء.

جاء في المجلد الثالث من "ألف  
ليلة وليلة"، أَنَّ السندباد البحري قد  
خاض سبع رحلات طويلة، وفي كل  
رحلة عاش مغامرات فانتازية عجيبة  
تعد من نواذر الأدب الخالد. يجبرنا  
كيليطو على إعادة قراءة النصوص بعين  
فاحصة متجرّدة، وها أنا ذا أعاود  
القراءة للفتى المغامر كبيراً بعد أن  
حفظتُ حكايته صغيراً، وانطبعت  
مغامراته في الذاكرة كما ينطبع الوشم  
على خارطة الأجساد.

يقرر السندباد التوبة من الأسفار  
بعد كل رحلة شاقة، ثُمَّ يحنث بوعده

وينكث بتوبته، ولكن هل السفر  
ذنبٌ يحتم عليه التوبة؟ السفر قطعة  
من العذاب، كما جاء في الأثر، وهو  
الموت بعينه في حكايات السندباد  
العجيبة، فلم ينقض الفتى عهده كلما  
طابت له الإقامة بين أهله؟ إنَّها الروح  
المتمرّدة على التكاسل والدعة. الروح  
الجسورة التي تتوثّب لركوب الأهوال  
واكتشاف العوالم وخوض المغامرات.

ولكن لعبد الفتاح كيليطو رأي  
آخر يقول فيه: "إنّ الذي تاب منه  
السندباد إنّما هو فتنة العالم الغريب  
والنزعة إلى الذوبان فيه، فالهلاك الذي  
يتهدّده في البحر هو الاستسلام إلى  
إغراء الآخر والتنكّر للمنبع والأصل.  
التوبة هي الأوبة إلى بغداد. السندباد  
بمثابة حوار، أو جدل بين الانغلاق  
والانفتاح، تماماً كالثقافة العربية  
المعاصرة التي تتميز بالالتحام بين  
عناصر مألوفة وأخرى غريبة. احتضان

البرّ للبحر... إلى أن يقول: "كلنا اليوم في العالم العربي سندباد!"

ويؤرقني سؤال: هل عاد عصر السندباد؟ ولماذا لا يكثرث سندباد اليوم بتوبته، أو بأوبته إن صح التعبير؟ لماذا يصرّ على ارتكاب (معصية الأسفار) وركوب الأمواج والبحار؟ ولكن ما للتوبة قد اتخذت شكلاً آخر؟ ما لها قد صارت بُعداً عن الأوطان وإصراراً على عدم الرجوع البتّة؟!

آلاف السنادبة قد غادروا بغداد ولا إشارة في الأفق تدل على عودتهم، أو توبتهم! سندباد اليوم صار يتطلع إلى ركوب الجو والبحر فراراً من واقع أليم مُرّ.

لبغداد نكهة السحر وطعم الحنين. حنين العودة إلى أحضانها ولذة الانغماس في مجالسها، ولدجلة عذوبة يعرفها كل من ذاق طعمها. ولنلحظ جيّداً أنّ كلّ مصاعب

السندباد كانت عقب مغادرته بلده، وتجنّش عناء الارتحال، أمّا العودة فهي آمنة طيّعة، فما بال الأمور انقلبت اليوم رأساً على عقب؟!

ما بال الراحلين يلتمسون الأمان في أحضان الغربة ويتوجسون خيفة من العودة؟ ما أبعد الأمس عن اليوم! ثمة تباين كبير بين سندباد اليوم وسندباد الأمس، فالأول رهين اليأس والقنوط، ولا أمل يلوح في الأفق، على عكس الثاني الذي ظلّ يرافقه الأمل كظله، ويلازمه التطلّع إلى اكتشاف العوالم بعين المغامر الجريء، فكأنّه أراد أن يضفر ثقافات الشعوب في جديلة واحدة!

يبدو أنّ جراءة السندباد القديم وحلم الالتحام بثقافات القوم هو كلّ ما نحتاج إليه اليوم لإعادة المُوازنة بين السندباديين.

تُذكرني حكاية السندباد بمقال

قرأته قديماً (لعبد السلام بنعبد  
العالی) بعنوان: (الحل والترحال) يقول  
فيه: "فالمُقابلة بين الحِلِّ والتَّرحال  
تكاد تعادل المُقابلة بين الفكر  
الوثوقيّ المُتجمّد، والفكر النقديّ  
المُفتّح. فإذا كان ما يطبع الفكر  
الوثوقي ألفتة واستقراره وثباته، فإنّ ما

يميّز الفكر النقدي هو يُتّمه وحركته  
وتّرحاله وغُربته".

باختصار فإنّ حكاية السندباد  
تذكّرني بالصراع الأزلي بين مدرستي  
السرد والنقد، فإنّ كان السرد توبة  
العودة والإياب، فإنّ النقد هو عين  
الإبحار والغياب.





The image features a highly decorative border in a traditional Islamic style. The border is composed of multiple layers of intricate patterns. The outermost layer is a repeating geometric star pattern in gold and blue. Inside this is a band of stylized floral and foliate motifs, also in gold and blue. The central area of the border is a wide, light blue field with a subtle, larger-scale floral pattern. The entire border is framed by a thin gold line. The central text is written in a large, elegant, and highly stylized Arabic calligraphic script. The text is arranged in two lines, with the first line being shorter than the second. The calligraphy is in a dark blue or black ink, with some gold highlights on the strokes. The overall composition is balanced and visually rich, typical of a book's title page or a decorative manuscript cover.

القِسْمُ الرَّابِعُ :  
النُّصُوصُ الْأَدَبِيَّةُ





# اللَّيْلَةُ الْمُنْسِيَّةُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ

د. عارف الساعدي

شاعر وأكاديمي عراقي، ورئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق  
والمستشار الثقافي لرئيس مجلس الوزراء، والمدير العام لدار الشؤون الثقافية العامة

فَتَحْتُ الْبَابَ فَانْكَبَ النَّهَارُ  
وَقَالَ إِذَا الدِّيارُ دَنَتْ وَرَفَّتْ  
وَقَدْ هَمَسْتُ بِأُذُنِي شَهْرَزَادُ  
فَلَمْ تَبْرُدْ، وَلَمْ يَهْدَأْ لَظَاهَا  
كَأَنَّ اللَّيْلَةَ الْأَلْفَ اسْتَمَرَّتْ  
هَنَّاكَ رَأَيْتُ بَشَارَ ابْنِ بُرْدٍ  
وَحَمَادَ بْنَ عَجْرَدٍ كَانَ يَرُوي  
وَقَدْ أَبْصَرْتُ كَفَّ أَبِي نَوَاسٍ  
رَمَوْا لِلَّيْلِ حَكْمَتَهُمْ وَحَطَّوْا  
وَزَرِيابُ يَذُوبُ هَوًى شَجِيًّا  
وَحَمَلَنِي التَّحِيَّةَ شَهْرِيَّارُ  
فَسَلَّمَ إِنَّهَا نِعَمَ الدِّيارُ  
وَقَالَتْ لِلْحَكَايَاتِ انْتَظَارُ  
وَهَا هِيَ تُسْتَعَادُ وَتُسْتَعَارُ  
وَدُرْنَا وَالْقَطَارُ هُوَ الْقَطَارُ  
يَسِيرُ وَخَلْفَهُ يَعدُو الصَّغَارُ  
شَتَائِمُهُ لِيَحْفَظَهَا الْكِبَارُ  
بَكَفَّ ابْنَ الْوَلِيدِ وَحِينَ سَارُوا  
عَمَائِمُهُمْ عَلَى الْمَعْنَى وَطَارُوا  
وَيَسْمَعُهُ الرِّشِيدُ فَيُسْتَشَارُ

ويطلبُ منه أغنيَةً، وينسى  
سلوا ابنَ الجهم كيف أُسيلَ لطفًا  
وما هذا التبغدد؟ قال: سحرٌ  
عيونُ مهى على الدنيا تُدارُ  
وشُطَّارًا بليل الكرخ مرُّوا  
وورَّاقون قد ملَّؤوا الزوايا  
هناك رأيتُ صوفيَّين مرُّوا  
ونحويَّين قد سحبا سيوفًا  
بما في الغيم من لغةٍ وحزنٍ  
وياما قلتُ يا ابنَ زريق مهلاً  
وبغدادُ الصبيَّةُ وهي حلمٌ  
تطرَّزها الحكاياتُ العذارى

فيصرخ: يا مُجير، فلا يُجارُ  
لسانُك والمَلابسُ والحجارُ  
وما جسر الرصافة؟ قيل: نارُ  
وفوق الجسر أفئدةٌ تحارُ  
أعاروا الأريحية واستعاروا  
وعيارين تقترحُ القفارُ  
على العتبات فانشدهوا وخاروا  
لفعلٍ قد تعدَّى فاستجاروا  
وما في الشعر من رجلٍ يغارُ  
لنا في كلِّ زاويةٍ ذمارُ  
بمعصم كلِّ فاتنةٍ سوارُ  
وتحفظ سرَّها السورُ القصارُ



# الإعتراف الأخير للسند باد

بهم عامر الرقبة  
شاعر عراقي

من أي بحر في القصيدة أبحرُ  
ولأي أرض أستحثُّ مراكبي  
أستعذبُ الأسفارَ مشغوفًا بها  
أجري كأني واقفٌ ولربما  
أنهايةُ التاريخ هذي أم تُرى  
فوضى أحسُّ بداخلي.. مَنْ ذا رأى  
عابوا عليَّ الحزنَ لكنَّ ما دروا  
من «ألف ليلة» جئتُ يحملني  
أنا سندبادُ وشمسُ هذا الشرق في  
لو حاول الأغرابُ نفضَ عبااتي  
أفينقمون على أساي وفي فمي  
والموجُ أني سرتُ عاتٍ يهدُرُ؟!  
والريخُ من حولي عقيمٌ صرصرُ؟!  
ووراءها أجري وكم أتعثرُ!  
وقفَ الزمانُ كأنه يتفكَّرُ  
وجهي بمرآة الزمان مُكسَّرُ؟!  
رجلاً بداخله الفؤادُ مُبعثرُ؟!  
أنّي عراقيٌّ وحزني دفتُرُ  
وقصائدي تحي بساطُ أخضرُ  
جلدي وفي شفتي تغيبُ وتظهرُ  
لتدحرجتُ قُبَّ وسالتُ أنهرُ  
شجرُ الفجيعة كلَّ يومٍ يكبرُ؟

كسر اللصوص جرّاهم فتواثبوا  
شَقَّتْ سيوفُ الغدرِ ثوبَ عفافها  
وا ضَيْعَةَ التاريخ! كيف تناثرتُ  
ضيعتُ في بغداد أسراب المَهَا  
ماذا جرى؟ حتّى الشوارعُ أصبحت  
حتى بحارُ العُربِ مَجَّتْ ماءها  
غادرتُ أجزاء الحكاية كلّها  
تمشي الحروفُ النازفاتُ على فمي  
لكنها في لحظةٍ مجنونةٍ تجتو  
بغدادُ قد يبستُ بحاري دونها  
عاث اللصوصُ الأربعون بطهرها  
أَمِنَ الليالي شهرزادُ تبراّت؟  
ماذا أقولُ؟ وربّما من خوفه  
لو كان في التاريخ عِرْقُ نابضُ

مِنْ «كهْرمانَة» كُلِّ لَصٍّ يثأرُ  
وبلحمها في العمقِ غاصَ الخِنْجرُ!  
في غفلةٍ مَنْ قارئه الأسطرُ؟!  
وظفقتُ عنهنّ القرى أَسْتَخْبِرُ  
حَيْرى ومن أسمائها تتنكّرُ!  
هل يا تُرى الخِلجانُ أيضاً تشعُرُ؟!  
ما عاد يُغريني العقيقُ الأحمرُ  
وتكاد من جسر الحقيقةِ تُعْبِرُ  
وفوق رصيفِ خوفي تُنَحِرُ  
والقلبُ بعد فراقها متصحّرُ  
ووراءهم كسرى يحضُّ وقيصراً!  
أَمْ يا تُرى أبطالُهنّ تغيّروا؟!  
بعضُ الكلامِ ببعضه يتستّرُ  
لبكّت على هذا الزمانِ الأغصُرُ!



# بَعْدَازُ الْمَوَاسِمِ

عمر السنوي

رئيس التحرير

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَعُودُ التَّبَسُّمُ  
سَلَامٌ عَلَى بَعْدَادَ تَنْدَى ظِلَالُهَا  
عَرُوسٌ تَهَادَتْ فِي ثِيَابٍ مِنَ السَّنَا  
بَنَاهَا "أَبُو جَعْفَرٍ" فَشَادَ مَعَالِمًا  
فَلَا الشَّرْقُ دَانَاهَا وَلَا الْغَرْبُ مِثْلُهَا  
بِهَا لِابْنِ عَبَّاسٍ فَخَارٌ وَمَنْصَبٌ  
وَحَازَ "الرَّشِيدُ" الْمَجْدَ فِيهَا نَضَارَةٌ  
وَفِيهَا "ابْنُ حَنْبَلٍ" الْمُشَمَّرُ فِي الثُّقَى  
وَشَيْخُ بَنِي التَّوْحِيدِ فِيهَا "جُنَيْدُهُمْ"  
و"إِسْحَاقُ"<sup>(١)</sup> فِيهَا، وَالْمَثَانِي كَأَنَّمَا  
وَفِيهَا "أَبُو تَمَّامٍ" صَاغَ جَدِيدَهُ  
وَرَقَّتْ لَدَى "الْبُحْثَرِيِّ" سِحْرُ قَصِيدَةٍ

وَسِحْرُ مَغَانِيهَا بِمِسْكِ تَنْسَمُ؟  
وَتَهْتَرُ إِجْلَالًا لَهَا وَتُسَلِّمُ  
وَفَوْقَ ضِفَافِ النَّهْرِ تِيهَا تَرَنَّمُ  
يُقَصِّرُ عَنْ إِدْرَاكِهَا مَنْ قَالَ أَعْلَمُ  
وَلَا الدَّارُ إِذْ تَزْهَوُ وَلَا الرَّبْعُ يُعْلَمُ  
وَسَيْفُ يَوْمِ الرَّوْعِ لَا يَتَلَعَثُ  
وَفِيهَا "أَبُو نُوَاسٍ" بِاللَّحْنِ يَنْظُمُ  
إِمَامٌ بِنُورِ الْحَقِّ لِلنَّاسِ يَرْسُمُ  
مَنَارٌ بِآفَاقِ الْهَدَايَةِ يُفْهِمُ  
تُنْعَمُ مِنْ وَحْيِ الْجَمَالِ وَتُلْهِمُ  
حَكِيمًا بِآدَابِ الْفَصَاحَةِ يَحْكُمُ  
كَمَا رَقَّ مَوْجٌ فِي الضَّفَافِ مُلْتَمُّ

(١) إسحاق بن إبراهيم الموصلي (المعروف بابن النديم)، العالم، الفقيه، المحدث، الموسيقي الشهير.



تَوَارَتْ أَبْنَاءُ الْمَعَالِي عُلُومَهُمْ  
تَوَارَتْ أَبْنَاءُ الْأَصَالَةِ فَضْلَهُمْ  
فَمَا غَابَ نَجْمٌ فِي سَمَاءِ بَيَانِهَا  
فَهَذَا "الشَّهَابُ أَبُو الثَّنَاءِ" إِمَامُهَا  
و"شُكْرِي أَبُو الْمَعَالِي"<sup>(١)</sup> تَسَامَى بَيَانُهُ  
وَمِنْ نَبْعِهِ "مَعْرُوفُهَا"<sup>(٢)</sup> صَاغَ شِعْرَهُ  
و"بَهْجَةُ"<sup>(٣)</sup> أَثْوَابِ الْبَيَانِ وَأَهْلِهِ  
مَا ذُنُ "لِلْخُلَفَاءِ"<sup>(٤)</sup> تَعْلُو مَهَابَةً  
و"مُسْتَنْصِرِيَّاتُ" الْعُلُومِ كَأَنَّهَا  
إِذَا نَسَمَاتُ الْكَرْخِ مَسَّتْ جَوَانِحًا  
هَوَاءً كَأَنْفَاسِ الْحَبِيبِ لَطَافَةً  
وَأَهْلُ هُمْ السَّادَاتُ فِي كُلِّ مُحْفَلٍ  
أُسُودُ شَرَى فِي الْحَرْبِ تَنْبُو نِصَالُهُمْ  
هِيَ الدَّارُ "بَغْدَادُ" الَّتِي طَارَ ذِكْرُهَا  
فِيَا طَالَمَا أَهْدَتْ لـ "كِسْرَى" حِكَايَةً

كَمَا يَرِثُ السَّيْفَ الصَّقِيلَ الْمُصَمَّمُ  
وْخَيْرَ خِلَالٍ لِلْبَرِيَّةِ تُقَسَّمُ  
إِلَّا وَبَدْرٌ فِي الْمَجَرَّةِ يَنْجُمُ  
و"رُوحُ الْمَعَانِي" كَالسَّحَابِ يُدَيِّمُ  
فَآحِيَا لِسَانَ الْعُرْبِ إِذْ كَادَ يُعْجَمُ  
نِضَالًا، لَهُ الدَّهْرُ الْعَنِيدُ يُسَلِّمُ  
تَلِيدٌ بـ "آثَارِ" الْأَوَائِلِ مُغْرَمُ  
يُكَبَّرُ فِيهَا لِلإِلَهِ وَيُعْظَمُ  
كَوَاكِبُ فِي جِيدِ الْمَجَرَّةِ تُرْسَمُ  
جَلَّتْ هَمَّ مُحْزُونٍ وَلِلصَّدْرِ بَلَسَمُ  
وَمَاءٌ كَمِثْلِ الشَّهْدِ بَلْ هُوَ أَطْعَمُ  
كَرَامٌ إِذَا ضَاقَ الْمَسِيرُ وَأَعْتَمُوا  
وَفِي السَّلْمِ غَيْثٌ لِلْغَرِيبِ وَمَغْنَمُ  
بـ "أَلْفِ لَيَالٍ"، وَالسَّنْدِبَادُ يُزْمِرُ  
وَبـ "ابْنِ حَنِيفٍ"<sup>(٥)</sup> فِي الْمَغَانِي تُتَمِّتُ

(١) علامة العراق محمود شكري الآلوسي.

(٢) الشاعر المفكر معروف الرصافي.

(٣) الأستاذ العلامة محمد بهجة الأثري.

(٤) جامع الخلفاء، أقدم مساجد بغداد التي ما زالت قائمة، بناه المكتفي العباسي في القرن الثالث الهجري.

(٥) العباس بن الأحنف، أشهر شعراء الغزل، ومن ذوي الحظوة عند هارون الرشيد.

سَلامٌ عَلَى "بَغْدَادَ" مَا انْثَالَ جَدُولُ  
سَقَتْهَا صُرُوفُ الدَّهْرِ كَأَسَا مَرِيرَةً  
فَكَمْ غَاصِبٍ وَاقٍ وَجَيْشٍ عَرَمَرَمَ  
رَمَاهَا الرَّدَى بِالسَّهْمِ فِي كُلِّ مَقْتَلٍ  
تُنَفِّضُ عَنْهَا ذِلَّةَ الْقَيْدِ عِزَّةً  
صَبُورٌ عَلَى الْبَلْوَى شَدِيدٌ مِرَاسُهَا  
فَلَا يَغْذُلُ الْعُدَّالُ صَبًّا بِحُبِّهَا  
بَقِيَتْ مَنَارًا لِلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا  
خُذِي مِنْ جَلَالِ الْقَوْلِ نَظْمًا مُعْظَمًا

وَمَا اهْتَزَّ فَيْنَانُ الرَّوَابِي يُهَمُّهُمْ  
وَذَاقَتْ عَذَابًا فَوْقَ مَا يُتَوَهَّمُ  
أَرَادَ رَدَاهَا، وَهِيَ لَا تَتَهَدَّمُ  
فَقَامَتْ كَصَقْرِ فِي السَّمَاءِ يُحَوِّمُ  
وَتَبْنِي رُكَّامَ الدَّارِ إِذْ تَتَرَمَّمُ  
إِذَا مَا غَدَا النَّسِيَانُ لِلْجُرْحِ يَكْلِمُ  
فَبَغْدَادُ نَبْضُ الْقَلْبِ بَلْ هِيَ أَعْظَمُ  
وَدَامَ لَكَ السَّعْدُ الَّذِي لَا يُثَلَّمُ  
فَمِثْلُكَ مَنْ يَقْضِي عَلَيْهِ وَيَحْكُمُ



# أَيَّا بَغْدَادُ

محمد عدنان آل ناصر

شاعر عراقي

أيا بغدادُ يا رئةَ السَّلامِ  
رعاكَ اللهُ مِنْ غدرِ الأعداءِ  
أفانينِ الأيَّاءِ قد تدلَّتْ  
ففرشُف من رحيقِ الوردِ كأسًا  
فماذا قد جرى حتَّى تَنَدَّى  
وما للظالمِ العاتي أتاناً  
لينسف ما تجلَّى من سلامٍ  
ويسكب كلَّ أنواعِ الرزايا  
فيبري رحمه ليغوص فينا  
فأضحى الموتُ ثالثةً الأثافي  
فصار النزفُ ثالثَ رافدينَا  
فيا ربَّاهُ جُدْ وامنْ علينا  
وموطنَ كلِّ عُشَّاقِ الحَمَامِ  
ومِنْ أَحقادِ أولادِ الحرامِ  
تناغمها البلابلُ في زحامِ  
ونذكر كلَّ ألوانِ الهيامِ  
دُمُ الفقراءِ مِنْكَ على الدوامِ  
ويحملُ حقه تحت الحزامِ  
ويقتل ما تبقى من وئامِ  
على بلدِ الكرائمِ والكرامِ  
ويغرز رعبه بين الأنامِ  
وصار الحتفُ يقذف بالسهامِ  
وأَمسى الصبحُ مثل اللَّيلِ دامِ  
برابطةِ المَحَبَّةِ والوئامِ

# نَسِيتَ بَعْدًا؟!

(قصة وقصيدة)

محمد سلام عبد الرزاق عبد الواحد

كاتب عراقي

في أواخر سبعينات القرن الماضي، كان الوالد يأخذنا كلّ عطلة نهاية أسبوع إلى ضفاف دجلة. لم تكن هناك عدة صيد حديثة، ولا سنارات فاخرة، إنما مجرد خيط... وسنارة... وقطعة خبز.

كان يجلس بهدوء، ويعلمني كيف أربط الخيط، وكيف أثبت الطعم، وكأنّه لا يعلمني الصيد، بل يعلمني الصبر.

ننتظر حتى يقترب الغروب. تبدأ الأشجار المتدلّية تلامس وجه الماء، ويتحوّل دجلة إلى مرآة للقمر.

وكان الوالد يتغزل بالأشجار، ويصف القمر وهو يترقق على سطح النهر، كأنه يكتب قصيدة صامتة.

ثم مرّت السنوات.. وانتقلنا بعيدًا.. بعيدًا جدًا.

وحين زارني في أريزونا، دخل البيت، وقبل أن يُسلم طويلاً، نظر إلى البحيرة الصغيرة الملاصقة للحديقة الخلفية وسأل: "هذي بيها سمج؟". قلت له مبتسمًا: "طبعًا". فقال فوراً: "آني أريد أصيد".

أحضرتُ له عدة صيد حديثة، ابتسم وقال بحزم طفولي: "لا.. هذي ما تفيد. أريد خيط سوتلي وشمع.. حتى أشمّع الخيط".

ضحكتُ، وركضت فوراً إلى السوق.

عاد دجلة.. لكن هذه المرة في صحراء أريزونا..

أصبح الصيد عادة يومية طوال فترة بقاءه، نجلس عند الغروب، ننتظر القمر، ونسترجع أيام دجلة.

في أحد تلك الأيام، والخيط في الماء، والقمر يتهياً للظهور، رنّ الهاتف، كان المتصل من مصر، عرّف نفسه: من وزارة الثقافة المصرية، قال له: "مبروك أستاذ عبد الرزاق، اختارتك مصر واحداً من العظماء السبعة الذين سيُكرّمون هذا العام. ستكون أول المكرّمين في مهرجان يقام يوم ٢٥ كانون الأول ٢٠١١".

ظنّها الوالدُ مزحةً، طلب دعوة رسمية عبر البريد الإلكتروني.. وصلت الدعوة، رأيت السعادة في عينيه، ليس لأنه سيُكرّم، بل لأنه لم يُنس. كان بعيداً عن الساحة العربية آنذاك، والتكريم أعاد له شيئاً من الضوء.

بدأ يكتب قصيدته لمصر، وحين قرأ مطلعها لي، كان صوته مليئاً بالزهو:

رَتَّلَ قَصِيدَكَ كَالْآيَاتِ تَرْتِيلاً

وَاجْعَلَ حُرُوفَكَ مِنْ ضَوْءٍ قَنَادِيلاً

وَقَبَّلِ الْأَرْضَ كُلَّ الْأَرْضِ تَقْبِيلاً

فَأَنْتَ تَسْتَقْبِلُ الْأَهْرَامَ وَالنَّيْلَ

كان يقرأ بفخر، كأنّه يعانق التاريخ.



فجأة.. قاطعته أمي -رحمها الله-، وقالت بهدوءٍ فيه عتب: "نسيت بغداد؟!".

تجمّد لحظةً، ثم قال بصوتٍ تغيّر فجأة:

نَسِيتَ بَغْدَادَ؟ قَالَتْ لِي، فَجَقَلَنِي

سُؤَالَ زَوْجَتِي الْمَذْبُوحِ تَجْفِيلاً

نَسِيتُ بَغْدَادَ؟ وَيُلَمِّي وَيُولِ أُمِّي

لَوْ لَيْلَةً بَتُّ عَنْ بَغْدَادِ مَشْغُولاً

عادت بغداد إلى القصيدة، بل صارت القصيدة كلها بغداد. كتب ثمانين بيتاً، قصيدةً عظيمة، لمدح مصر، وبكاء بغداد.

في اليوم التالي، اتصلت الوزارة من جديد. قالوا له: "نريد منك قصيدة غزل جديدة، لنضعها في كتيب المهرجان".

امتعض.. وقال لهم: "أنتم تخاطبون رجلاً تجاوز الثمانين. بلده مذبح من الوريد إلى الوريد. أولاده مبعثرون في ثلاث قارات.. وتريدون منه أن يكتب غزلاً؟! أشكركم على الدعوة... وأعتذر".  
أغلق الهاتف.

لكنهم عادوا، قالوا له: "حين قرأنا مطلع قصيدتك عن مصر، دموعنا غسلت وجوهنا من فرط الزهو، وحين قرأنا ما كتبت عن بغداد، بكينا". واعتذروا له عن طلبهم السابق.

لكن الأحداث في مصر كانت تتصاعد، وجاءت الثورة، وألغى المهرجان.

لم يُكرّم. لكن بقيت القصيدة:

## هذي ذرى مصر

رَتَّلْ قَصِيدَكَ كَالآيَاتِ تَرْتِيلاً  
 وَقَبِّلِ الْأَرْضَ كُلَّ الْأَرْضِ تَقْبِيلاً  
 هَذِي ذُرَى مِصْرَ كِي تَدْنُو لِهَيْبَتِهَا  
 وَلَا تُؤَوِّلْ لِمِصْرٍ أَيْ مُعْجِزَةً  
 وَمِنْ حَقَائِقِ مِصْرٍ أَنْ يَتَرَبَّيْهَا  
 أَيَّامَ كُلِّ الدُّنَا عَمَّ الظَّلَامُ بِهَا  
 أُولَى الشُّمُوسِ أَضَاءَتْ مِصْرُ مَشْرِقِهَا  
 أُمَّ الْحَضَارَاتِ هَلْ غَيْبٌ فَنَسَّأَلُهُ  
 لِلْيَوْمِ مُعْجِزَةُ الْأَهْرَامِ زَائِرُهَا  
 يُلْقِي أَبُو الْهَوْلِ هَوَلاً فِي مَفَاوِزِهَا  
 تُضِيفُ عُمْراً لِعُمْرِ الدَّهْرِ هَيْبَتُهُ  
 وَهَا مَتَاحِفُ كُلِّ الْأَرْضِ تَمْلُؤُهَا  
 وَكَنْزُهَا كَنْزُهَا الْأَبْهَى عُروْبَتُهَا  
 وَدَارُهَا الدَّارُ مَا دَارَ الزَّمَانُ بِنَا  
 هِيَ الدَّرِيئَةُ وَهِيَ الْأُمُّ مَا نَكَفَتْ  
 وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ أَرْضَ الْعُرْبِ أَجْمَعَهَا  
 لَصَعَّدَتْ مِصْرُ لِلْجَوَازِ قَبْضَتَهَا  
 هِيَ الذَّخِيرَةُ تَبْقَى دَائِماً أَمْلاً  
 وَاجْعَلْ حُرُوفَكَ مِنْ ضَوْءٍ قَنَادِيلاً  
 فَأَنْتَ تَسْتَقْبِلُ الْأَهْرَامَ وَالنِّيْلَا  
 أَنْشِدْ لَوْ اسْتَطَعْتَ قُرْآنًا وَإِنْجِيلاً  
 إِنَّ الْحَقَائِقَ لَا يَقْبَلْنَ تَأْوِيلاً  
 آيَاتُ بَدْءِ السَّنَا نُزِّلْنَ تَنْزِيلاً  
 وَكُلُّ أَسْمَائِهَا كَانَتْ مَجَاهِيلاً  
 حَتَّى غَدَا ضَوْوُهَا لِلْأَرْضِ إِكْلِيلاً  
 أُمُّ وَاقِعٍ ظَلَّ فِيهِ الْكَوْنُ مَشْغُولَا  
 إِذَا رَنَا رَدَّ عَنْهَا الطَّرْفُ مَذْهُولَا  
 خَمْسِينَ قُرْناً قَضَى عَنْهُنَّ مَسْئُولَا  
 كَأَنَّهُ يُوسِعُ الْأَيَّامَ تَحْلِيلاً  
 آيَاتُ مِصْرٍ كُنُوزًا أَوْ تَمَازِيلاً  
 يَظَلُّ فِي أَحْلَاكِ السَّاعَاتِ مَأْمُولَا  
 يَبْقَى بِنَخْوَةٍ مِصْرِيَّينَ مَأْهُولَا  
 وَالْكِبْرِيَاءُ الْمُرْجَى وَالْيَدُ الطُّولَى  
 جَفَّتْ وَصَبْرُ الدَّوَالِي فَوْقَهَا عِيلاً  
 وَسَيَلَتْ شَعَفَاتِ الْغَيْمِ تَسِيلاً  
 جِيلٌ يُبَشِّرُ بِاسْتِقْبَالِهِ جِيلاً

يا أُمَّ شَوْقِي وَشَوْقِي لَا مَثِيلَ لَهُ  
 فِي كُلِّ بَحْرٍ لَهُ مَوْجٌ وَأَشْرَعَةٌ  
 لِلَّهِ لِلْمُصْطَفَى حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ  
 حَتَّى الْأَطْفَالُ صَاغُوا مِنْ قَصَائِدِهِ  
 مَا زَالَ مِنْ دَمْعِهِ الْجَارِي عَلَى بَرْدِي  
 يَصِيحُ بِالْعُرْبِ كُلِّ الْعُرْبِ هَلْ بَقِيَتْ  
 هَذِي قَصَائِدُهُ الْكُبْرَى تُعَلِّمُنَا  
 عَبْدُ الرَّوْهَابِ حَبَاهَا عَبَقَرِيَّتَهُ  
 وَشَعْبُ مِصْرَ سَقَاهَا أُرْيَحِيَّتَهُ  
 حَتَّى إِذَا الْفَجْرُ أَدْنَى شَمْسَهُ رَمَشَتْ  
 أُمُّ الْعَمَالِقِ قُولِي لِلزَّمانِ كَفَى  
 لَسْنَا صِغَارًا لِتُهْدِينَا دُمِّي وَحَلِي  
 فَنَحْنُ قَافِلَةٌ الْأَهْرَامِ تَعْرِفُهَا  
 حَاشَاكِ مِصْرُ بَلَغَتْ النَّجْمَ رَاهِيَهُ  
 نَسِيتَ بَغْدَادَ؟ قَالَتْ لِي فَجَعَلَنِي  
 نَسِيتُ بَغْدَادَ؟ وَيُلَمِّي وَيُولِي أَبِي  
 إِنِّي أَشَاغِلُ رُوحِي عَنْ مَذَابِجِهَا  
 نَسِيتُ بَغْدَادَ؟ أُنْسِي كَيْفَ إِنَّ لَهَا  
 تَبَرَّعَمَتْ فِي دَمِي حَتَّى غَدَتْ وَرَمًا

فِي حَوْمَةِ الشَّعْرِ لَا كِبْرًا وَلَا طَوْلًا  
 تَخْصُهُ هُوَ يُجْرِيهَا مَرَّاسِيلاً  
 لِلنَّيْلِ زَجَّلَهَا مِنَ الْحَبِّ تَزْجِيلاً  
 قَلَائِدًا لَيْسُوهَا أَوْ جَلَّاجِيلاً  
 سَيْفٌ يَضُجُّ مَعَ الْأَمْوَاجِ مَسْلُولًا  
 تِلْكَ الشَّهَامَةُ أَمْ صَارَتْ أَقَاوِيلًا  
 كَيْفَ الْمَجَرَّاتُ يَشْكُنُ تَشْكِيلاً  
 وَأُمُّ كُثُومٍ صَاغَتْهَا هَلَاهِيلاً  
 فَلَيْلَتْ فَتَمَادَى اللَّيْلُ تَلِيلاً  
 جُفُونُهَا ثُمَّ عَادَ الْجَفْنُ مَسْبُولًا  
 جَاوَزَتْ حَدَّكَ تَعْلِيلاً وَتَمْهِيلاً  
 وَلَا سُكَارَى لِتَسْقِينَا مَوَاوِيلًا  
 سِتُونَ قَرْنًا وَمَا بَدَّلْنَ تَبْدِيلًا  
 أَيَّامَ كُلِّ الْوَرَى كَانُوا تَنَابِيلًا  
 سُؤَالَ زَوْجَتِي الْمَذْبُوحِ تَجْفِيلاً  
 لَوْ لَيْلَةً بَتُّ عَنْ بَغْدَادَ مَشْغُولًا  
 كَيْ لَا أَصِيرَ مَعَ الْإِدْمَانِ مَخْبُولًا  
 عَدَّ الْمَسَامَاتِ فِي جِلْدِي تَفَاصِيلًا  
 دَمَامِلًا مِلءَ رُوحِي أَوْ ثَالِيًا

هَجَرَتْ بَغْدَادَ؟ حاشا مُنْذُ أَنْ ذُبِحَتْ  
فَحَيْثُمَا صِرْتُ أَمْضِي يُبْصِرُونَ مَعِي  
يُقَالُ (رَزَاقُ) مَا تَنْفَكُّ أَدْمُعُهُ  
أَهْلِي وَجِيرَانُ أَهْلِي كُلُّهُمْ ذُبُحُوا  
وَقُطِّعَتْ جُثَثُ الْأَطْفَالِ وَاقْتُلِعَتْ  
مِلءَ الْمَشَافِي بِأَمْرِيكَ مُحَاجِرُهُمْ  
تِجَارَةً جُثَثُ الْأَطْفَالِ فِي وَطَنِي  
أَمَّا بِيوتُ بَنِي أُمِّي فَصِرَتْ تَرَى  
يَذَابِحُونَ وَأَمْرِيكَ وَزُمَرَتْهَا  
فِي كُلِّ يَوْمٍ مَعَ الْأَخْبَارِ صِرَتْ تَرَى  
فَإِنْ تَمَعَنْتَ فِي الْأَطْفَالِ فِي وَطَنِي  
اللَّهُ يَا وَطَنَ الْإِنْسَانِ يَا وَطَنِي  
وَالْحَاكِمُونَ أَقَالَ اللَّهُ عَثَرَتَهُمْ  
بِأَنَّ حُرِّيَّةَ الْإِنْسَانِ فِي وَطَنِي  
لِذَا نُعَاقِبُهُمْ حُبًّا وَمَغْفِرَةً  
لَكِنَّا وَحْيَاةِ النَّيْلِ يَا وَطَنِي  
نَبْقَى الْكِبَارَ الْعِرَاقِيِّينَ أَنْفُسُنَا  
نَرَاهُ يَذْنُو فَنَذْنُو ثُمَّ نَسِيقُهُ  
حَتَّى إِذَا نَالْنَا غَاصَتْ أَظْفَارُنَا

صُنْدُوقُ قَلْبِي عَلَيْهَا ظَلَّ مَقْفُولًا  
نَهْرًا مِنَ الدَّمْعِ فِي عَيْنِي مَحْمُولًا  
تَجْرِي فَمَاذَا يُرِيدُ النَّاسُ تَعْلِيلًا  
وَقَتْلَ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ تَقْتِيلًا  
أَحْشَاؤُهُمْ عَلَنَّا حُمْلَنَ تَحْمِيلًا  
بِيعَتْ وَشَعْفَاتُهُمْ صَارَتْ مَنَادِيلًا  
أَضَحَتْ وَحُلِّلَ خَطْفُ الطِّفْلِ تَحْلِيلًا  
فِي كُلِّ بَيْتَيْنِ هَابِيلًا وَقَابِيلًا  
تَأْتِي بِقَاتِلِهِمْ فِي الصُّبْحِ مَقْتُولًا  
كُلَّ الْعِرَاقِ عَلَى السَّاحَاتِ مَجْدُولًا  
تَرَى عَجَائِزَ فِي أَعْوَامِهَا الْأُولَى  
يَا كُلَّ حُلْمٍ حَمُورَابِي الَّذِي اغْتِيلًا  
يَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ تَزْمِيرًا وَتَطْبِيلًا  
هَاجَتْ فَتَحْتَاجُ تَرْوِيضًا وَتَأْهِيلًا  
وَقَدْ نُعَاتِبُهُمْ قَتْلًا وَتَرْحِيلًا  
وَحَقَّ دِجْلَةٌ مَهْمَا مَأْوَاهَا غِيلًا  
تُقِيمُ لِلْمَوْتِ مِنْ زَهْوٍ عَرَازِيلًا  
فَنَلْتَقِي فَيَضْجُ الْمَوْتُ مَذْحُولًا  
فِي لَحْمِهِ وَيَظَلُّ الْمَوْتُ مَشْلُولًا

فَلَيْسَ الْآنَ أَمْرِيكَ أَخُو ثِقَةٍ  
يا أُخْتَ سَوْمَرَ بَلْ يا أُخْتَ بَابِلَ بَلْ  
لا أَدَّعِي أَنِّي أَحْتَاجُ تَذَكُّرَةً  
وَفِيكُمَا فِيكُمَا أَعْلَى مَدَارِجِهِ  
مَعًا سَمَتْ بِكُمَا الدُّنْيَا مَعًا كَفَرْتُ  
لَكِنَّهُ زَمَنُ الطُّوفَانِ يا وَطَنِي  
وَالْغَيْرَةِ الْحَقْدِ وَالْأَطْمَاعِ تَسْجُرُهَا  
الْيَوْمَ تَسْبِقُ أَمْرِيكَ جَحَافِلُهَا  
يا مِصْرُ لَوْ بَاهَلْتِكِ الْأَرْضُ أَجْمَعُهَا  
عَلَيْكَ مِصْرُ سَلَامُ اللَّهِ مَا طَلَعَتْ  
وَمَا سَرَى اللَّيْلُ فِي وَادِيكَ مِكَحَلَةً

عَنْ جَلْدِهَا جَفَّ أُمَ مَا زَالَ مَبْزُولًا  
يا أُخْتَ بَغْدَادَ تَعْظِيمًا وَتَبْجِيلًا  
فَمِنْكُمَا فُصِّلَ التَّارِيخُ تَفْصِيلًا  
شِيدَتْ وَأَعْظُمَ مَأْثُورَاتِهِ قِيلًا  
كُفَّارُهَا بِكُمَا حَقْدًا وَتَضْلِيلًا  
وَاللَّعِبِ بِالْدَمِ تَحْرِيمًا وَتَحْلِيلًا  
تَقُودُهَا أُمَّةٌ قَدْ أَصْبَحَتْ غُولًا  
وَأُمْسِ أَبْرَهَةَ اسْتَعْدَى بِهَا الْفِيلَا  
فَلْتَقْتَرِحْ هَرَمًا أَوْ تَجْتَرِحْ نِيلَا  
شَمْسُ وَأَسْرَجَ فِيكَ الضَّوْءُ قِنْدِيلَا  
آيَاتُهَا كَحَلَّتْ عَيْنَيْكَ تَكْحِيلَا

وما زلتُ كلما قرأت: (نَسِيتَ بَغْدَادَ قَالَتْ لِي...) أفهم شيئًا واحدًا: يمكن  
للشاعر أن يمدح العالم كله، لكن قلبه يبقى مربوطًا بخيطٍ مشمّعٍ على ضفاف دجلة.

